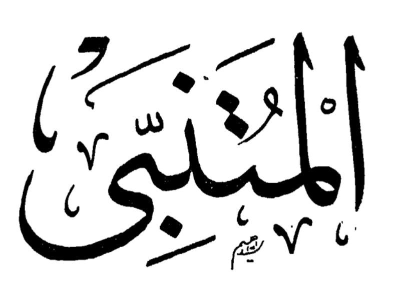
محمود محمد شاكر

المتنبي

السِّفْرُ الأوَّل

محمود محمد شاكر



السِّفْرُ الأوّل

مطبعة المدنى
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

فهرس السفر الأول

* * *

كتاب « المتنبّى »

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ لك الحمدُ كُلُّه ، ولكَ المُلْكُ كُلُّه ، وبيدِك الخيرُ كُلُّه ، وإليكَ يرجعُ الأمرُ كُلّه ، اللهمّ صلِّ على محمَّدٍ خاتَمِ أنبيائك ورُسلك ، وعلى أبويه إبراهيم وإسمعيل ، وعلى سائر النّبيِّين .

وبعدُ ، فهذا كتاب « المتنبِّي » الذى كنت كتبته فى سنة ١٩٣٦ ، وخرج يومئذ فى عددٍ كامل من مجلة « المقتطف » ، أنشره اليوم على هيئته التى كان عليها يومَ صدر ، وجمعت إليه ما كنت كتبته فى صحيفة « البلاغ فى سنة ١٩٣٧ » فى قضية المتنبى بعنوان : « بينى وبين طه » ، وضممتُ إليه ثلاثَ تراجم المتنبى كتبها ابن العديم ، وابن عساكر ، والمقريزيُّ ، من كتبٍ لم تزل مخطوطة لم تنشر . وكتبتُ له مقدمةً فيها «قصة هذا الكتاب» كما كانتْ ، بارئاً إلى الله من كُلِّ حولٍ وقوةٍ ، شاكراً له سبحانه، شكر مقصِّر لا يفى شكرهُ بأنعمهِ وأياديه عنده. وأنَّى يبلُغ شُكرى له سبحانه ،

وقد لطفَ بي فَرَدَّ عليَّ بَصري بعد إظلامٍ ، ولولا لطفه سبحانه لبقي هذا الكتابُ في المطبعة ناقصاً لغير تمامٍ ؟ فالحمد لله وحده .

أما الرَّجل الذي أجْرَى الله على يديه لُطْفَهُ بِي ، واستنقذني بمروءته من العَمَى ، وحاطني حتى عُدْتُ بصيراً ، فإنِّي لا أملكُ له جزاءً إلا الإقرارَ بفضله ، وإلاَّ الدعاءَ له كلما أصبحت وأمسيتُ . صديقٌ لا تنامُ صداقتُه عن أصحابِهِ ، ورجُلٌ لا تَغفُل مرُوءتُهُ عن غير أصحابه . ثم هو بعدُ غنيٌّ عن اللَّقب بمكارم أخلاقه ، وفوق كُلِّ لقبٍ بسماحةِ شِيمَه : « نايف بن عبد العزيز آل سعود » ، لم يزل منذ عرفته قديماً ، يزدادُ جوهرُه على تقادُم الأيَّام سناً وسناءً . صرّحتُ بذكر اسمه مطيعاً لما يُرْضيني ، عاصياً لما يرضيه .

الأحد ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٣٩٧
٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧
القاهرة : مصر الجديدة
٣ شارع الشيخ حسين المرصفي

محمود محمد شاكر

إنَّمَا أنفُسُ الأَنِيسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاغْتِيَالاَ
مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَىْءٍ غِلاَبًا
وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الْغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالاَ

قصَّةَ هذا الكتاب

لمحة من فساد حياتنا الأدبية

« المتنبّي » ، كتابٌ كتبتُهُ منذ اثنتين وأربعين سنة ، ونُشر في عدد مستقلّ من مجلة « المقتطف » (يناير سنة ١٩٣٦) . ثم كانت أحداثٌ ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بأحداثٍ كانت قبلها بسنوات طوال ، كان لها أثرٌ بالغُ القسوة والسُّوء فى نفسى ، فلم أملِكْ يومئذٍ أن أكبح جماحها ، فانطويتُ على مابى انطواءً شديدًا أدَّى إلى تغيير منهج حياتى كلِّه . ويومئذٍ رفضتُ رفضًا قاطعًا ، بينى وبين نفسى ، أن أؤلِّفَ كتابًا ، وانصرفتُ

إلى كتابة المقالاتِ وبعض الشعر ، وأصررتُ أيضًا على أن لا أعيد نشر هذا الكتاب « المتنبي » مرةً أخرى ، وأعرضت إعراضًا تامًّا عمّا كنتُ وعدت به في هوامش الكتاب،[1] من تأليف أربعة كتب مختلفة من « المتنبي » . وقُضِيَ الأمرُ ، ودخلت منذ ذلك الوقت في عُزْلةٍ غريبة جدًّا ، أشرتُ إليها مرارًا فيما أكتب ولم أفسِّرها ، وتمدّدت صُوَر هذه العُزْلة على مرّ الأيام ، وأصبحت هي طابعَ حياتي إلى هذا اليوم .

فلما استجبتُ أخيرًا لإلحاح جمهرة أصحابي على إعادة طبع كتاب « المتنبّي» ، كما كتبتُه يومئذٍ ، وعلى طبع المقالات التي كتبتها سنة ١٩٣٧ في جريدة « البلاغ » في نقد الفصولِ الأُولى من كتاب « مع المتنبي » لأستاذنا الدكتور طه حسين ، بعنوان : « بيني وبين طه » = رأيتُه أمرًا لامَنْدَى عنه أن أقصَّ طرفًا من تاريخ حياتِي يومئذٍ ، لكي أفسر السبب الذي من أجله تركتُ تأليف الكتب ، والذي من أجله أبيتُ إعادة طبع كتاب « المتنبي » على مرّ أربعين سنة ، والذي من أجله كعبتُ ما كتبتُ في نقد كتاب الدكتور طه .

والحديث عن النفس أُحملُ أكرهُهُ ، ولكنه يكون أحيانًا ضرورةً لاغنى عنها . فالجيل الذي يستقبلُ اليوم هذا الكتاب ، لم يشهد تلك الأيام الغابرة ، ولايعلم عنها علمًا يُغني أو يفيدُ ، بل لعله يعلم عن هذا الغابر أشياء

---

(١) انظر السفر الأول من هذه الطبعة ، الهوامش في ص : ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ ، وما ذكره أخي الأستاذ فؤاد صروف في تقدمة الكتاب ص : ٦ .

قليلة ، على غير الوجه الصحيح ، الذى كانت عليه ، وإنما اكتسبها الجيل الحاضر من الثرثرة التى تنشر أحياناً فى بعض الصحف والمجلات . وقد التزمتُ فى هذا الحديث أن أقصَّ ما لا مناصَ منه ، على الوجه الذى كانَ ، بلا إخفاء للحقائق التى وقفت عليها يومئذٍ ، لأنها هى التى أثّرتْ فيما أكتب ، وهى التى كوّنت رأيى فى الجيل الذى عاصرته ، وفى آثار هذا الجيل فى الأجيال التى جاءت معه أو بعده ، متأثِّرةً به أو وارثة له .

* * *

بين الثالثة عشرة من عمرى والسابعة عشرة ، كنت مُولَعاً أشدَّ الوَلوع بالرياضيّات ، فدخلت القسم العلمىّ فى « المدرسة الخديوية الثانوية » بالقاهرة ولكنى مع ذلك كنتُ شَغُوفاً بالشعر ، منهوماً بالأدب كَلِفاً بالتاريخ . فلما أُنشئت الجامعة المصرية لأول إنشائها ، لم يستطع وَلَعى بالرّياضيات أن يقوم لشغفى بالأدب والتاريخ ، فتحوّلت مخالفاً سيرةَ زملائى فى القسم العلمى ، والتحقت بكليّة الآدابِ ، فكان هذا التحوّل هو أيضاً بدء تحوّل حياتى تحولاً تامًّا . هجرتُ الرياضيّاتِ هجرًا مُصْمَتًا ، وأقبلتُ على الشعر والأدب والتاريخ بقلبى كُلِّه . ويوم دخلت كلية الآداب ، كنت قد فرَغتُ منذ قليلٍ من قراءة كتابين جليلين على شيخى ، وشيخ الدكتور طه حسين أيضاً ، وهو سيد بن على المرصفىّ ، رحمه الله . أوّل الكتابين : كتابُ « رغبة الآمل » ، وهو شرح الشيخ على كتاب « الكامل » لأبى العباس المبرِّد — وثانيهما : كتابُ « أسرار الحماسة » ، وهو شرح الشيخ أيضاً على كتاب « الحماسة » لأبى تمام الطائى الشاعر . وفى زمان هذه القراءة كانَ أثر الشيخ

علىّ أثراً شديداً ، فقد أثار اهتمامى وصرفَ قلبى كله إلى الشعر الجاهلىّ وبعضِ الشعر الأموىّ ، وأخذنى ما يأخذُ الشبابَ فى رَيْعان طلبِ المعرفة . . فارت بى هذه النَّشوة الجديدة بالشعر الجاهلى ، فجعلتْ تثبِّط همّتى عن الشعر العباسىّ بعض التثبيط . وكان ممّا ثُبِّطت عنه همّتى أشدَّ التثبيط ديوانُ أبى الطيب المتنبى ، مع أنه كان أوّل ديوان من الشّعر قرأته كلَّه وحفظتُه كلَّه ، وفُتِنتُ به كُلِّه ، فأغفلتُه من يومئذٍ كُلَّه . لم يكن هذا التثبيطُ استخفافاً بالشعر العباسى وما بعده ، بل لأن إيغالى فى الحفاوة بالشعر الجاهلىّ وقراءته وتتبُّعه فى دواوين شعرائه ، وفى كتب الأدب ، كان قد أوقفنى على شىء مهمّ جدًّا ، شغلنى واستولَى على نفسى ، حتى صار من دَيْدنى يومئذٍ أن أحدِّث عنه أكثر من لقيتُ من الأساتذة الكبار الذين عرفتهم وخالطتُهم ، وكنتُ آوِى إليهم مستطلِعاً ومستشيرًا وملتمسًا للإرشاد . فكنتُ أظفَرُ أحياناً بالتشجيع ، وأحياناً أخرى بالاستغرابِ وببعض الإعراض عما أقول .

كنتُ قبل ذلك أعرفُ « المعلقات العشر الجاهلية » وأحفظُها ، كما هو شأنُ أكثر من انصرف بهمته إلى الأدب . وهذه المعلَّقات ، كما هو معروف ، لعشرة شعراء مختلفين أوّلهم امرؤ القيس . ولكن حفظى إيّاها ، ومعرفتى بها وبتاريخها وبتاريخ أصحابها ، وبمعانيها وبمعانى غريب ألفاظها ، لم يزد قطُّ على أن يكون زيادةً فى ثروة معرفتى بالعربية ، وبشعرائها ، وبشعرها قديمه وحديثه . أمّا حين أخذنى النَّهَمُ بالشعر الجاهلىّ ، وبدأت أقرأ ما بقى لدينا من دواوين شعر الجاهلية شاعرًا شاعراً ، ثم أشعارَ مئات من أهل

الجاهلية ممن لا دواوين لهم ، أو كانت لهم دواوين ولم تقع لى بعدُ دواوينُهم =
فعندئذٍ اختلف علىّ الأمر ، ولم يعُدْ مجرّد ثروة أستزيدها فى المعرفة بالعربيّة
وبالشعر . بدأتُ أجدُ فى هذا الشعر الجاهلىّ شيئًا مباينًا مُبَاينةً سافرةً
لما فى الشعر العباسىّ كُلِّه ، بل أكبرُ من ذلك : أنّى افتقدت هذا الشىء
أيضًا فى أكثر ما قرأت من الشعر الأموىّ ، الذى لا يفصِلُ بينه وبين الجاهلية
إلاّ المئة الأولى من التاريخ الهجرىّ ، وهو زمنٌ قليلٌ لا يُعتَدُّ به . ثم لم
يكن الأمرُ راجعًا إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتُها عندى أو أُلْفَتُها ،
ولا إلى تغايُرٍ فى أوزان الشعر وقوافيه ، ولا إلى اختلافٍ فى المعانى
والأغراض أيضًا ، فكلٌّ ذلك بلاشكٍّ قريبٌ من قريب . ثم هو بلا ريبٍ ،
غيرُ راجع إلى الحدَاثة والقِدَم ، كما تُوهِم لجاجةُ عَصْرنا فى شأن « القديم »
و « الحديث » = لأنّ الذى بينى وبين الجاهلية خمسة عشر قرنًا تقريبًا ،
والذى بينى وبين الشعر الأموىّ والعباسى جميعًا ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا .
والبعدُ بينى وبين جملة هذا الشعر ، فى الثلاثة عشر قرنًا والخمسة عشر قرنًا ،
بعدٌ واحدٌ أو شبيهٌ بالواحد ، فكلٌّ هذا عندى قديم مُعرِق فى القِدَم .
وكان غيرَ معقول عندى أن يكون هذا الفرقُ الساطعُ الذى وجدتُه فى نفسى
بين الشعر الجاهلى والشعر الأموى ، مردودًا إلى فِطرتى اللغوية أو إلى قريحتى ،
لأننا فى زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقةٍ فى العربية فاشية فى مجتمعنا اللغوىّ ، بل
كل واحد منا يكتسبُ طرفًا مّا من هذه السليقة بالتعلّم والقراءة وطول الدُّربة
والشقاء فى المعاناة ، معاناةِ كلِّ فردٍ منّا على حِياله وفى خلوته .
إذنْ ، فأنا لا أستطيع أن أجد هذا الفرق يلوحُ جَهْرةً فى نفسى =

وأنا يومئذ على رأس السابعة عشرة من عمري، وعلى حداثة عهدي بطلب الأدب = إلا إذا كان الشعر الجاهليّ نفسه يتلفّع على هذا الفرق المتوهّج كامناً في ثناياه، وإن كنت لا أستطيعُ عجزاً أن أضع يدي عليه وأقول: ههنا يكمنُ الفرق! وكانَ أكبرُ ما مَهّد لظهور هذا الفرق، فيما أرجّح، هو أني بدأتُ أقرأ دواوين شعراء الجاهلية شاعراً شاعراً، كلما فرغتُ من ديوان شاعرٍ بدأتُ صحبة شاعرٍ آخر = وكُلّما وجدت لشاعرٍ جاهليّ علاقة ما بشاعرٍ جاهليّ آخر، صحبتُ ديوانه بعده أو معه، أو بحثتُ عما بقي من شعره في دواوين الأدب، إذا لم يكن من أصحاب الدواوين. فلما أوغلتُ في القراءة وأكثرتُ، ملتزماً بهذا النظام الذي هداني إليه وَلُوعي بالرياضيّات فيما أظنّ = وجدتُ في الشعر الجاهليّ شيئاً لم أكن أجده من قبلُ وأنا أقرأ الشعر الجاهليّ متفرِّقاً لشعراء مختلفين، أو وأنا أحفظُ لعشرة شعراء مختلفين هذه «المعلقات العشر الجاهلية»، وأدارسُها وأتتبع معاني ألفاظها، مع اختلاف معانيها وأغراضها.

وجدت يومئذ في الشعر الجاهلي ترجيعاً خفيّاً غامضاً، كأنه حفيفُ نسيمٍ تسمعُ حِسّه وهو يتخلّل أعوادَ نباتٍ عَمِيمٍ متكاثف = أو رنين صوتٍ شجيّ ينتهي إليك من بعيدٍ في سكون ليلٍ داجٍ، وأنت محفوفٌ بفضاء متباعد الأطرافِ. وكان هذا الترجيع الذي آنستُه مشتركاً بين شعراء الجاهلية الذين قرأتُ شعرهم، ثم يمتازُ شاعرٌ من شاعرٍ بجَرْسٍ ونغمة وشمائل تتهادى فيها ألفاظُه، ثم يختلف شعر كلّ شاعر منهم في قصيدةٍ قصيدةٍ من شعره، وبدندنةٍ تعلو وتخفُتُ تبعاً لحركة وجدانه مع كلّ غرضٍ من أغراضه في هذه

الشعر . ولا تظنَّنَّ أنى أزعمُ أن الشعر الأمويَّ والشعر العباسى كليهما خالٍ خلوًّا تامًّا من مثل هذه الظاهرة ، كلاَّ ، ولكنّى بالمقارنة وجدتُ ترجيعَ الشعر الجاهلىّ ورنينه ودندنته ، مباينةً كُلَّها مباينة ظاهرة لما أجده فى أكثر الشعر الأموى والشعر العباسى من الترجيع والرنين والدندنة . وهذا ليس مردودًا بلا ريب إلى ألفاظ اللغة من حيث هى ألفاظ ، ولا إلى أوزان الشعر من حيث هى أوزان . وكان بلوغى ، يومئذٍ ، إلى إدراك هذه الفروق أو تبيّنها تبيُّناً يُتيح لى التعبيرعنها ، أمراً متعذّراً ، فما هو إلا التذوُّق المحض والإحساس المجرّد . وبهذا التذوُّق المتتابع الذى ألفتُه ، صارَ لكُلِّ شعرٍ عندى مذاقٌ وطعْمٌ وشَذًا ورائحة ، وصارَ مذاق الشعر الجاهلىّ وطعْمُه وشَذاه ورائحته بيّنًا عندى ، بل صار تميُّزُ بعضٍ من بعضٍ دالاًّ على أصحابه .

بمثل هذا الحديث كنتُ أفاوض الشيوخ الكبارَ ممَّن عرفتهم ولقيتُهم ، وكان هذا الحديثُ هِجِّيرَاى (أى دأبى وعادتى من فرط النشوة) ، فكان يُعْرِضُ عنّى من أعرضَ ، ويربُتُ على خُيَلاء شبابى من ربَّتَ بيدٍ لطيفة حانية . كان من هؤلاء شيخٌ ساكنُ الهيبَة ، رقيقُ الحاشية ، ساحرُ الابتسامة ، رفيقُ اليَدِ واللسان ، حُلْوُ المنطق ، خفيضُ الصوتِ ، ذكىُّ العينين ، هو أستاذنا أحمد تيمور باشا رحمه الله ، فاستمع إلى نَشْوَتى بالشعر الجاهلىّ إستماعَ مَن طَبَّ لمن حَبَّ ، كما يقال فى المثل .

حدّثته مرارًا ، ثم جاء يومٌ فالتقينا ، على عادتنا يومئذٍ (سنة ١٩٢٥) ،

فى المكتبة السلفية عند أستاذنا محبّ الدين الخطيب ، فلم يكد يجلسُ حتى مدّ يده إلىّ بعددٍ من مجلة إنجليزية ، (عدد يوليه ١٩٢٥ من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية) ، وقال لى وهو يبتسم : اقرأ هذه ! فإذا فيها مقالة للأعجمىّ المستشرق مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ، بعنوان : « نشأة الشعر العربىّ » . كنت خبيرًا بهذا الأعجمى التكوين ، التكوينِ البدنىّ والعقلىّ ، منذ قرأتُ كتابه عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخذتُ المجلة وانصرفتُ ، وقرأت المقالة ، وزاد الأعجمى سُقوطًا على سقوطه . كان كُلُّ ما أراد أن يقوله : إنه يشك فى صحة الشعر الجاهلى ، لا ، بل إن هذا الشعر الجاهلىّ الذى نعرفه ، إنما هو فى الحقيقة شعر إسلامىٌّ وضعه الرواةُ المسلمون فى الإسلام ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية ، وسُخْفًا فى خلال ذلك كثيراً . ولأنّى عرفتُ حقيقة الاستشراق ، لم ألق بالاً إلى هذا الذى قرأتُ ، وعندى الذى عندى من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامىّ .

ثم بعد أيام لقيت أحمد تيمور باشا ، وأعدت إليه المجلة ، فسألنى : ماذا رأيتَ ؟ قلتُ : رأيتُ أعجميًا باردًا شديد البرودة ، لا يستحى كعادته ! فابتسم وتلألأت عيناهُ ، فقلت له : أنا بلا شكٍ أعرفُ من الإنجليزية فوق ما يعرفُه هذا الأعجمُ من العربية أضعافًا مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفَه منها إلى أن يبلغَ أرذلَ العُمُر ، وأستطيع أن أتلعّب بنشأة الشعر الإنجليزى منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعُّباً هو أفضل فى العقل من كُلّ

ما يدخُلُ فى طاقته أن يكتبه عن الشعر العربى ، ولكن ليسَ عندى من وقاحة التهجُّم وصفاقة الوَجْه ، ما يسوِّل لى أن أخطَّ حرفاً واحداً عن نشأة الشعر الإنجليزى . ولكن صروف الدهر التى ترفَع قوماً وتخفضُ آخرين ، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا ، ما يُبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلَّموا فى شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم ، وأن يجدوا أيضاً من يختارهم أعضاء فى بعض مجامع اللغة العربية !! وأغضى أحمد تيمور وهو يبتسم .

* * *

ومرّت الأيّام ، وغاصَ كلامُ هذا الأعجمِيّ فى لُجَج النسيانِ ، لأنّ هذا الأعجم وأشباهه يدرسون آدابنا وشعرنا وتاريخنا كأنّه نقشٌ على مقبرةٍ عادية قديمة ،[1] مكتوبٌ بلغة ماتت وماتَ أهلُها وطَمَرَها تُرَابُ القرون !! والأسبابُ الداعية لهم إلى ركوب هذا المنهج كثيرةٌ ، أهونُها شأناً الأهواء والضغائن المتوارثة ، ولكن أوغَلَها أثراً أن توجُّههم إلى هذا المسلك ، مسلك الاستشراق ، هو أنّ جمهرتهم غيرُ قادرة أصلاً على تذوُّق الآداب تذوُّقاً يجعلها حيةً فى نفوسهم قبل أن يكتبوا ، وهُمْ أيضاً مسلوبو القدرة على أن يبلغوا فى لسانهم الذى ارتضعوهُ مع لِبَان أمهاتهم مبلغاً من التذوُّق ، يُعينهم على التعبير عنه تعبيراً يتيحُ لأحدهم أن يكون له شأنٌ يذْكَرُ فى آداب لسانه .

---

(١) « عادية » منسوبةٌ إلى « عاد » قوم هود عليه السلام ، الذين أبادهم الله وطمس آثارهم .

ولهذا العجز آثروا أن يكون لهمْ ذِكْرٌ بالكتابة في شأن لغاتٍ أخرى يجهلُها أقوامُهم ، وهذا الجهلُ يستُر عوراتِهم عند من يقرأ ما يكتبون من بني جلدتهم . ولأني خَبَرتُ ذلك فيما يكتبون ، وفيما يقولونه بألسنتهم ، لم يكن لمثل هذه الآراء في الشعر الجاهليّ وغيره وَقْعٌ في نفسي يثيرني ، اللهمّ إلاّ ما يُثير تقزُّزي ، فما أسرعَ ما أُسقط ما أقرأ من كلامهم جملةً واحدةً في يَمّ النسيانِ .

كان ما كان ، ودخلنا الجامعة ، وبدأ الدكتور طه يلقي محاضراته التي عُرِفت بكتاب « في الشعر الجاهليّ » . ومحاضرة بعدمحاضرةٍ ، ومع كُلٍّ واحدةٍ يرتَدُّ إليَّ رَجْعٌ من هذا الكلام الأعجميُّ الذي غاصَ في يَمّ النسيان ! وثارَتْ نَفْسي ، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقوله الدكتور طه = وعندي الذي عندي من هذا الإحساس المتوهِّج بمذاق الشعر الجاهليّ ، كما وصفته آنفاً ، والذي استخرجْتُه بالتذوّق ، وبالمقارنة بينه وبين الشعر الأمويّ والعباسي . وأخذني ما أخذني من الغيظ ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ ، ولكني بَقِيتُ زمناً لا أستطيع أن أتكلَّم .

تتابعت المحاضرات ، والغيظُ يفورُ بي ، والأدب الذي أدّبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكني ، فكان أحدُنا يهابُ أن يكلم الأستاذ ، والهيبة مُعْجِزَةٌ ، وضاقت عليّ المذاهب ، ولكن لم تَخْلُ أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجدُ في نفسي ، في خفوت وتردُّد . وعرفت فيمن عرفت من زملائنا شاباً قليل الكلام ، هادىء الطباع ، جَمّ التواضع ، وعلى أنه من

أترابنا ، فقد جاء من الثانوية عارفاً بلغات كثيرة ، وكانَ واسع الاطّلاع ، كثير القراءة ، حَسَن الاستماع ، جيِّد الفهم ، ولكنه كان طالباً فى قسم الفلسفة ، لافى قسم اللغة العربية . كان يحضُر معنا محاضرات الدكتور ، وكان صَغْوُه وميلُه وهوَاهُ مع الدكتور طه ، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود محمد الخضيرى . نشأت بينى وبينه مودّة ، فصرت أحدِّثه بما عندى ، فكان يدافع بلينٍ ورفقٍ وفهمٍ ، ولكنّ حِدّتى وتوهُّجى وقسوتى كانت تجعلُه أحياناً يستمع ويصمتُ فلا يتكلّم . كنّا نقرأ معاً ، وفى خلال ذلك كنت أقرأ له من دواوين شعراء الجاهلية ، وأكشف له عما أجد فيها ، وعن الفروق التى تميّز هذا الشعر الجاهلىّ من الشعر الأموىّ والعباسىّ . وجاء يوم ففاجأنى الخضيرىّ بأنه يحبُّ أن يصارحنى بشىء . وعلى عادته من الهدوء والأناة فى الحديث ، ومن توضيح رأيه مقسّماً مفصّلاً ، قال لى : إنّه أصبح يوافقنى على أربعة أشياء :

الأوّل : أن اتّكاء الدكتور طه على « ديكارت » فى محاضراته ، اتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف ، وبما كتبه فى كتابه « مقال عن المنهج » = وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج فى محاضراته ، ليس من منهج ديكارت فى شىء .[1]

الثانى : أنّ كُلّ ما قاله الدكتور فى محاضراته ، كما كنت أقول له

(١) كان من أثر هذه الأحاديث بيننا ، أن بدأ الخضيرى من يومئذ فى ترجمة كتاب ديكارت « مقال عن المنهج » ، ونشره بعد ذلك سنة ١٩٣٠ (المطبعة السلفية) .

يومئذ ، ليس إلاّ سَطْوًا مجرّدًا على مقالة مرجليوث ، بعد حذف الحجج السخيفة والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية ، التي كانت تتخلل كلامَ ذاك الأعجميّ = وأن مايقوله الدكتور لا يزيدُ على أن يكون « حاشيةً » وتعليقاً على هذه المقالة .[1]

الثالث : أنّه ، على حداثة عهده بالشعرِ وقلّة معرفته به ، قد كادَ يتبيّن أن رأيي فى الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلامِ ، أصبح واضحاً له بعض الوضوح = وأنّه يكادُ يحسُّ بما أحسُّ به وأنا أقرأ له الشعر وأفاوضه فيه .

الرابع : أنه أصبح مقتنعاً معى أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلى ، قبل قراءة نصوصه قراءةً متذوِّقَةً مستوعبةً ، لَغْوٌ باطلٌ = وأن دراستَه كما تُدْرسُ نقوش الأمم البائدة واللغات الميتة ، إنّما هو عبثٌ محضٌ .

واتّفَقَ أن جاء حديثه هذا فى يومٍ من أيّامى العصيبة . فالدكتور طه أستاذى ، وله علىّ حقُّ الهيبة ، هذا أدبُنا . وللدكتور طه علىّ يدٌ لا أنساها ، كان مدير الجامعة يومئذ ، « أحمد لطفى السيد » ، يرى أن لاحقّ لحامل « بكالوريا » القسم العلمىّ فى الالتحاق بالكليات الأدبية ، ملتزماً فى ذلك بظاهر الألفاظ ! ! فاستطاع الدكتور طه أن يحطّم هذا العائق بشهادته لى ،

---

(١) كان من أثرها أيضاً : أن لخص الخضيرى مقالة مرجليوث ، ونشرها فى مجلة « الزهراء » التى يصدرها صاحب المطبعة السلفية ، فى عدد ذى الحجة سنة ١٣٤٦ (إبريل ١٩٢٨) .

وبإصراره أيضاً . فدخلتُ يومئذ بفضله كلية الآداب، قسم اللغة العربية ،
وحفظُ الجميلِ أدبٌ لاينبغى التهاون فيه . وأيضاً ، فقد كنتُ فى السابعة
عشرة من عمرى ، والدكتور طه فى السابعة والثلاثين ، فهو بمنزلة أخى
الأكبر ، وتوقير السنّ أدب ارتضعناهُ مع لِبان الطفولة . كانت هذه
الآدابُ تفعل بى فعلَ هَوَى المتنبىٍّ بالمتنّبى حيث يقول :

رَمَى ، واتّقَى رَمْيِى ، ومِنْ دُونِ ما اتَّقَى

هَوًى كاسِرٌ كَفِّى ، وقَوْسِى ، وأَسْهُمِى

فلذلك ظللتُ أتجرَّع الغيظ بَحْتاً ، وأنا أصغى إلى الدكتور طه فى
محاضراته ، ولكنى لا أستطيعُ أن أتكلّمَ . لا أستطيعُ أن أناظره كِفاحًا ،
وجهًا لوجهٍ ، وكُلُّ ما أقولُه ، فإنّما أقوله فى غَيْبَتِه لا فى مَشْهَده . تتابعت
المحاضرات ، وكُلّ يومٍ يزدادُ وضوحُ هذا السَّطْو العُرْيان على مقالة
مرجليوث ، ويزدادُ فى نفسى وضوح الفرق بين طريقتى فى الإحساس بالشعر
الجاهلىّ ، وبين هذه الطريقة التى يسلكها الدكتور طه فى تزييف هذا الشعر .
وكان هذا « السطو » خاصّةً مِمّا يهزُّ قواعد الآداب التى نشأتُ عليها هزًّا
عنيفاً . بدأت الهيبة مع الأيّام تسقُط شيئاً فشيئاً ، وكدتُ أُلْقِى حفظَ الجميل
ورائى غير مُبالٍ ، ولم يبق لتوقير السنِّ عندى معنًى ، فجاء حديث الخضيرىّ ،
من حيث لا يريدُ أو يتوقّع ، لينسفَ فى نفسى كُلّ ما التزمتُ به من هذه
الآداب . وعجبَ الخضيرىّ يومئذ ، لأنى استمعت لحديثه ، ولم أَلْقَهُ
لا بالبشاشة ولا بالحفاوة التى يتوقّعها ، وبقيت ساكتاً ، وانصرفت معه
إلى حديثٍ غيرِه .

وفى اليوم التالى جاءت اللحظة الفاصلةُ فى حياتى . فبعد المحاضرة ، طلبتُ من الدكتور طه أن يأذنَ لى فى الحديث ، فأذنَ لى مبتهجًا ، أو هكذا ظننتُ . وبدأتُ حديثى عن هذا الأسلوب الذى سمّاهُ « منهجًا » ، وعن تطبيقه لهذا «المنهج» فى محاضراته ، وعن هذا «الشكّ» الذى اصطنعه ، ماهو ، وكيف هو ؟ وبدأتُ أدلّل على أن الذى يقوله عن « المنهج » وعن « الشك » غامضٌ ، وأنه مخالفٌ لما يقوله ديكارت ، وأنّ تطبيقَ منهجه هذا قائمٌ على التسليم تسليماً لم يداخله الشّك ، بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفةٌ بالشكّ !(١) وفوجىء طلبة قسم اللغة العربية ، وفوجىء الخضيرىُّ خاصةً . ولمّا كِدتُ أفرُغُ من كلامى ، انتهرنى الدكتور طه وأسكتنى ، وقام وقمنا لنخرج . وانصرف عنّى كُلُّ زملائى الذين استنكروا غِضَابًا ، ما واجهتُ به الدكتور طه ، ولم يبق معى إلا محمود محمد الخضيرى ، (من قسم الفلسفة كما قلت) . وبعد قليلٍ أرسلَ الدكتور طه ينادينى ، فدخلتُ عليه ، وجعل يعاتبنى ، يقسُو حيناً ويرفُقُ أحياناً ، وأنا صامتٌ لا أستطيعُ أن أردَّ . لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التى نسمعها كلها مسلوخةٌ من مقالة مرجليوث ، لأنها مكاشفةٌ جارحةٌ من صغير إلى كبير ، ولكنى كنتُ على يقينٍ من أنه يعلم أنّى أعلمُ ، من خلالِ ما أسمع من حديثه ، ومن صَوْته ، ومن كلماته ، ومن حركاته أيضاً ! ! وكتمانُ هذه الحقيقة فى نفسى كان يزيدنى عجزًا عن الردّ ، وعن الاعتذار إليه أيضاً ، وهو

---

(١) انظر ما كتبته سنة ١٩٦٥ فى كتابى « أباطيل وأسمار » ، عن « المنهج » ، وعن الصراع بينى وبين الدكتور طه ، ص : ٢٣ — ٢٥ .

ما كانَ يرمى إليه . ولم أزلْ صامتاً مُطْرِقاً حتى وجدت فى نفسى كأنى أبكى من ذُلّ العجز ، فقمتُ فجأةً ، وخرجتُ غيرَ مودِّع ولا مُبالٍ بشىء .
وقُضِى الأمرُ ! ويَبِس الثَّرى بينى وبين الدكتور طه إلى غير رَجْعة !

ومن يومئذ لم أكُفَّ عن مناقشة الدكتور فى المحاضرات أحياناً بغير هَيْبة ، ولم يكفَّ هو عن استدعائى بعد المحاضرات ، فيأخذنى يميناً وشمالاً فى المحاورة ، وأنا ملتزمٌ فى كُلّ ذلك بالإعراض عن ذكر سَطْوِه على مقالة مرجليوث ، صارفاً همّى كُلَّه إلى موضوع « المنهج » و « الشكِّ » ، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلىّ والأموىّ والعباسىّ قراءةً متذوِّقة مستوعبة ، ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلىّ والإسلامى = قبلَ الحديث عن صحة نِسْبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، أو التماس الشُّبَه لتقرير أنه باطل النسبة ، وأنه موضوع فى الإسلامِ ، من خلال رواياتٍ فى الكتب هى فى ذاتها محتاجةٌ إلى النَّظر والتفسير . ولكنّى من يومئذ أيضاً لم أكفَّ عن إذاعة هذه الحقيقة التى أكتُمها فى حديثى مع الدكتور طه ، وهى أنّه سطَا سَطْوًا كريهاً على مقالة المستشرق الأعجمىّ ، فكان ، بلاشك ، يبلغُه ما أذيعه بين زملائى . وكَثُر كلامى عن الدكتور طه نفسه ، وعن القَدْر الذى يعرفُه من الشعر الجاهلىّ ، وعن أسلوبه الدالّ على ما أقول . واشتدّ الأمر ، حتّى تدخَّل فى ذلك ، وفى مناقشتى ، بعضُ الأساتذة ، كالأستاذ نلِّينو ، والأستاذ جُويدى من المستشرقين ،[1] وكنت أصارحهما بالسطو ، وكانا يعرفان ، ولكنهما

---

(١) سيأتى ذكرهما بعد قليل .

يداوران . وطالَ الصراعُ غير المتكافىء بينى وبين الدكتور طه زَماناً ، إلى أن جاء اليوم الذى عزمتُ فيه على أن أفارق مصر كُلَّها، لا الجامعة وحدها، غير مبالٍ بإتمام دراستى الجامعية ، طالباً للعزلة حتى أستبين لنفسى وجه الحقّ فى « قضية الشعر الجاهلىّ » ، بعد أن صارت عندى قضية متشعِّبةً كُلَّ التشعُّب . (١)

* * *

هذا مطلعُ قصَّتى مع « قضية الشعر الجاهلى » ، ومع الدكتور طه خاصة، على وجه الإيجاز . عزمتُ يومئذ على مفارقة مصر ، ثم الجامعة ومعى ذُلُّ العجز عن مواجهة الدكتور طه برأيى فى تفاصيل هذا «السطو» جهارًا نهارًا، بلا قِناعٍ ، وبالذى أجدُه فى نفسى من البَشَاعة ، بشَاعةِ ادِّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنّه مما اهتدى إليه ، واستحقّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناةٍ فى البحث وشقاء فى الدَّرس ! ومع أن كُلَّ من كتب بعد ذلك فى نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، قد واجه الدكتور بهذا « السطو » مواجهة مكشوفة علانيةً ، إلاّ أنّ عجزى أنا عن مواجهته بلسانى ، غير متهيِّب ولا متأدِّب ، كان يهدم نَفْسى هدماً ، وينسف آدابى نسفاً ، ويترك فى ضميرى غُصَّة تأبَى أن تزُول . كانَ شيئاً بَشِعاً لا أطيقُه ، ثم زاد الأمرُ عندى بشاعةً فَظِعْتُ بها ، حين نشر كتابه « فى الأدب الجاهلىّ » سنة

---

(١) انظر كتابى « مداخل إعجاز القرآن » ، وكتابى « قضية الشعر الجاهلى ، فى كتاب ابن سلام الجمحى » ، ففيهما بيان عن هذا التشعب .

١٩٢٧ ، وهو نفس كتاب « فى الشعر الجاهلى » : « حُذِف منذ فصْلٌ » وأضيفَ إليه فُصُولٌ ، وغُيِّر عنوانه بعض التغيير » ! ! كما وصفه الدكتور فى مقدمته . كان أبشعَ ما فى هذا الكتاب ، الفصلُ الأوّل الذى زادهُ بعنوان : « الكتاب الأول = الأدب وتاريخُهُ » ، لأنه جاء تسويقًا لهذا « السطو » ، وزيادةً فى الادّعاء بأنه قد امتلك ماسطا عليه امتلاكًا لاريبة فيه ! ! واستعلاءً أيضًا = ودلالةً صريحةً على أنه لايُبالى أقلَّ مبالاةٍ بكُلِّ ماسمعه من أنه « سطا » على مقالة مرجليوث ، بين أسوار الجامعة = ولا بجميع الكتب التى ألفت وطبعت فى نقد كتابه ، والتى كشفت هذا « السطو » بالدليل والبرهان ، مع أن الأمر لايحتاج إلى برهان أو دليل ! وجميعُها كتبٌ يقرؤها الناس ! كيف يكون هذا ؟ وبأىٌّ جراءة يستطيع الدكتور طه أن يلقى الناسَ ! أىُّ احتقار هذا للناسِ ! وأىٌّ استهزاء بهم وبعقولهم هو أبشع من هذا ! لا أدرى .

ثم كان معى ماهو أفحش من هذا أيضًا . كنتُ يومئذ غِرًّا فى الثامنة عشرةَ من عمرى أو أشفَّ ، وكان من أساتذتنا مستشرقان أتى بهما الدكتور طه من إيطالية ، أولهما « الأستاذ نَلِّينو » ، وهو شيخٌ مهيب الطَّلعة ، كثُّ اللحية ، واسع العلم ، فصيح اللسان بالعربية ، ثم « الأستاذ جُويدى الصغير » ، وكان شابًا وسيمًا متوقدًا ، لعلَّ مكانة أبيه الشيخ المستشرق الكبير جويدى ، هى التى رشّحته للأستاذية فى مصر ! ! فقد دخلا بينى وبين الدكتور طه ، أو على الأصحِّ : بينى وبين ما أقولهُ فى غَيْبة الدكتور طه .

كانَ أمرهما معى عجباً من العجب ! فهما يعلمان علماً يقيناً لاشكَّ فيه أن مُحَصَّل مايقوله الدكتور طه ، إنما هو « سطوٌ » عُرْيان على ما كتبه مرجليوث ، ولكنهما كانا معى شديدى المراوغة : لايملكان مصارحتى بأنّ هذا ليس « سَطوًا » ، ويمتنعان أن يقولا صراحةً أنه « سَطْوٌ » ! وكُلُّ ما كنت أظفرُ به منهما هو مطالبتى بتعظيم الدكتور طه وتوقيره بحق الأستاذية ، ثم استدراجى إلى رتيه الألفاظ الغامضة : « البحث العلمى والأدبى » و « عالمية الثقافة » وما شابه هذين من ألفاظ التغرير . فكنتُ أمتنع عن التسليم لهما بما يقولان عن « البحث العلمىّ والأدبىّ وعالمية الثقافة » ، حتى يطالبا الدكتور طه بالإقرار ، وبأن يُقِرّا هما أيضاً ، بأن مايقوله مسلوخٌ كُلُّه مما قاله مرجليوث ، أو هو على الأقل متابعة لمرجليوث فى رأيه الذى كتبه ونشره وقرأناه جميعاً . فلمّا لم يفعلاَ ، ولم يفعل الدكتور طه أيضاً ، زاد الأمر بشاعةً فى نفسى ، وسقطت هيبة الأستاذية وهيبةُ الجامعة أيضاً سُقوطًا منكرًا ، وأطبقَ علىَّ الارتيابُ والشكُّ فى هذه الأمور كُلِّها حتى ضاقَ صدرى ، ولم أملك إلاَّ أن أمنَحَهُم جميعاً ظهرى غير متلَفِّتٍ ، وغير مُبالٍ أيضاً بما أنا مُقْدِمٌ عليه من مفارقة بلادى وأهلى ، ومن هَجْر الدراسة الجامعية أيضاً غير باكٍ ولا آسفٍ . وانطلقتُ ، ومعى صاحبان يؤرِّقان ليلى ويُلْهبان نهارى : بشاعة « السطو » ، وبشاعة التستُّر عليه من عارفٍ خبير ، لا يكتفى بالتستُّر ، بل يطالبُ بالتغاضى عنه ، وبتوقير الساطى وتعظيمه بحقِّ الأستاذية لاغيرَ ! !

* * *

ومرّت الأيّام والليالى والسنون ما بين سنة ١٩٢٨، وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى »، وهمّى مصروفٌ أكثرهُ إلى « قضية الشعر الجاهلىّ »، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى، لا ممارضةً لأحدٍ من الناس. ومشت بى هذه القضية فى رحْلة طويلة شاقّة، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وَعْرةٍ شائكةٍ، وكُلّما أوغلتُ انكشفت عنى غِشَاوةٌ من العَمَى، وأحْسَسْتُ أنى أنا والجيلُ الذى أنا منه، وهو جيل المدارس المصرية، قد تمّ تفريغُنا تفريغًا يَكادُ يكون كاملاً من مَاضينا كُلِّه، من علومه وآدابه وفُنُونه. وتَمّ أيضًا هَتْك العلائق بيننا وبينه، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكًا، مِزَقًا متفرِّقة مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة. ولأنه غير ممكن أن يظلّ الفارغُ فارغًا أبدًا، فقد تَمّ مَلْء هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون، لا تَمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ، وإنّنا لَنستقبلُه استقبالَ الظّامىء المحترق قطراتٍ من الماء النّمير المثلّج.

فى خلال هذه الأعوام، تبيّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى. وهو قصّة طويلةٌ قد تعرّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ،[1] ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار. صار بيِّنًا عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً: عالمُ القوّة والغنى، وعالمُ الضعفِ والفقر = أو عالم الغُزاةِ الناهبين، وعالم المستضعفين المنهوبين. كانَ عالم الغزاةِ الممثّل فى الحضارة الأوربية، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا،

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار ».

فهو صَيْدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسيٌّ محضٌ، لاغايةَ لهُ إلاّ إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعًا تامًّا لحاجات العالم « المتحضر » التى لاتنفد ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسى المحض المتشعِّب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كلّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرةً على كُلِّ شىء ، وعلى التعليم خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمِّر الذى لانزالُ نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامُه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوُّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسِّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوُّل إلى غاية يرادُ لنا أن نبلُغَها على تمادى الأيام . وكان الغُزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكار يردّدونها ترديد الببّغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهُوَّ ببعض مَظَاهر الحياة الأوربية ، مقرونًا بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكاشفوا أمّتهم بأنّ ما أعجبوا

هو سرّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سرّ ضعفنا وانهيارنا .
وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه .
ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لايكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ماهو أكبر وأوسعُ انتشارًا . فكان الرأىُ أن تنشأ أجيالٌ متعاقبةٌ من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، مع هَتْك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام «دنلوب» تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددُ من تضمّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادوا ! بل زادَ بشاعةً وعمقًا فى سائر أنحاء العالم العربىّ والإسلاميّ بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطِّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعْرِقٍ فى القِدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفِّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصِلِ .

فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة

التى تخرج مفرّغةً أو شبهَ مفرّغة إلى « البعثات » ، وهذا التحوّل الاجتماعيّ والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل فى النفوس من ثقافة ماضية حيّة حياة ما ، وباقية على تماسكها وتكاملها = فى ظل هذا كُلّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ فى جوهره ، هو ملء الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهى تحدثُ فى النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أىُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربىّ فى تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمداده بمادّته ، هو «السطو» على مؤلفات المسرح الأوربىّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجرّدٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمّا الكتّاب الجادُّون ، فكان أكثرهمُ يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربىّ فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مّا ، وإن كان أكثره خطفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقصّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرقّع بأفكارٍ مسلوبة مختطفة ، ثم توزّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو

والانتهاب والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرًّا بقوّةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة فى الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا غُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغريةٍ تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهى قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! والنظر فى حقيقة هذه القضية يفضى إلى شيئين ظاهرين: ميلٍ ظاهرٍ إلى رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرافض ملمًّا إلماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبُه متميزًا فى نفسه تميُّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديدًا نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميِّزُهُ أن الله قد يسرّ له الاطلاع على آداب وفنونٍ وأفكارٍ تعب أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هـذه خُطُوط من صُورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى ذلك العهدِ ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاعٍ له .

ولـكن هذه الصورة لاتتمّ وحدها . فى خلال التحوّل الاجتماعى الثقافىّ المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ مختنقٌ ، لم يفرّغ هذا التفريغ ، ولـكن ضُرِبَ عليه حصارٌ مفزعٌ وبيلٌ مُهينٌ . هـذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتماسك ، ولـكنه كان يزدادُ على مَرِّ الأيَّامِ تخلخُلاً وتفككاً وحيرةً وانطواء . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين

المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما. كان أكبر همّ هذا الجانب، في هذا اليمّ المتلاطم من حوله، هو محاولة المحافظة على الماضي محافظةً مّا، ولكنّ قبضته كانت تسترخي شيئاً فشيئاً تحت الحصار، وتحت القذائف المدمِّرة التي يُرْمَى بها، والتي تزلزلُ نفوس أبنائه من قواعدها. وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفْتَح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التي أدّت إلى تفريغ «تلاميذ المدارس» من ماضيها، وإلى تهتُّك علائق ثقافته وعلومه، وإلى ربطه بالحركة الأدبيّة الغازية المتصاعدة تحت ألوية «الجديد» و«التجـديد» و«ثقافة العصر»، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كانَ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هـذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة، والذي يُهمُّني منها هنا هو ما يتعلّق بأمر «السطو» لا غيرَ. كانَ الذي يحولُ بينهم وبين بلوغ هذا الغرضِ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم، لم يكن لهُم لسانٌ غير العربية، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان، فعمدوا، في مصر خاصةً، إلى إجافة بابٍ يتيحُ لهم أن يطّلعُوا = أو يُصدمُوا على الأقلّ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأيٍ في آداب العربية وعلومها وفنُونِها وتاريخها ودينها أيضاً !! وكان هذا موفُورًا في مؤلفات «المستشرقين» عامّةً، لأنّه هو كلّ علمهم في «الاستشراق» المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير، أي بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلّه.[1] فكان لا بُدّ، إذن، من

(١) استوفيت بيان بعض هذا في كتابي (أباطيل وأسمار).

تنشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون فى مصر والشام وغيرها ، ولكن جاء إلى مصر رجلٌ وافدٌ ، مع رجال آخرين كُثُرٍ ، لا يربطُهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسانُ العربىُّ وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر !! أنشأ هذا الرجل مجلةً ، ثم بدأ يكتب مقالاتٍ ، وينشر كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلّة معرفته بها معرفةً تتيح له الكتابة ، ولكنه جاء معبّراً عن اتجاه « الاستشراق » لاغيرَ .

ذلك هو « جُرجى زيدان » ، الذى أنشأ مجلة « الهلال » وألّف كتباً وقصصًا كثيرة منها : « تاريخ التمدُّن الإسلامى » ، و« تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فكانت كُلُّها « سطوًا » مجرّدًا على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثًا فى ثنايا كُلِّ ما كتب . وكذلك تيسّر لكل من لا يعرفُ غير العربية لسانًا ، أن يجدَ ، على مدّ يده ، شيئًا « جديدًا » يقالُ عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضًا . ولكنْ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامًّا مؤثّرًا تأثيرًا نافذًا فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أن الرجل كان وافدًا مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فى مصر (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشُّبْهةُ فيه تُوجِب الحذَر منه ، فأضعف الحذَرُ منه ، أثرَ ما يكتب فى أكثر قرائه من هذا الجمهور ، وإن كان له فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرّغين من ماضيهم أثر بليغٌ . ومع ذلك ، فإن الهدفَ من تآليفه لم يذهب

هَدَراً ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسَّر السبيلَ للساطين من بعده ، وجعل « السطو » المباشرَ أمرًا مألوفًا لاغبار عليه ، بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره فى الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » فى دراسة آداب أمة ما وفى دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدّد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو لَصِيقٌ دَخِيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ فهو لا يعلم منه إلا أقلَّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ فى لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوّقِ آدابها تذوّقاً شاملاً = والتذوّق وحدة عُقْدة العُقَد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلَّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضلاً عمّا يكنُّه فى سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة فى تشويه صورتها تشويهاً متعمَّدًا لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أمْ أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنًى ، إلاَّ أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة فى فى أنفس أهلها = ثم لا يأتى التجديد إلاَّ من متمكِّن النشأةِ فى ثقافته ، متمكّن فى لسانه ولغته ، متذوّقٍ لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مترفّس

تاريخُه فى تاريخها وفى عقائدها، فى زمانِ قوّتها وضعفها، ومع المتحدّر إليه من خَيرها وشرّها ، مُحِسًّا بذلك كُلّه إحساسًا خاليًا من الشوائب = ثم لايكون « التجديدُ » تجديداً إلاّ من حِوَارٍ ذكىّ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقّدة التى تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جَديدةٍ نافذة ، حين يلوحُ للمجدِّد طريقٌ آخرُ يمكنُ سلوكُه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من ناحية ، ليصِلَه من ناحية أخرَى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقْدةً من طرفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسة .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ فى داخل ثقافة متكاملة ، يتولاّها الذين يتحركون فى داخلها كاملةً حركةً دائبةً ،عِمَادُها الخِبرَة والتذوُّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القَطْع والوَصْل ، وعند التهجُّم على الحلّ والرَّبْط . فإذا فُقِد هذا كُلُّه، كان القطع والحلُّ سلاحًا قاتلاً مدمّرًا للأمة ولثقافتها ، وينتهى الأمر بأجيالها إلى الحَيْرةِ والتفكُّك والضَّياع ، إذ يورِّثُ كُلُّ جيل منها جِيلاً بعده، مايكون به أشدَّ منه حَيْرَةً وتفككاً وضياعاً .

هذه هى العاقبة التى تفرضُ نفسها فرضًا .

فما ظنُّك إذن بالعاقبة، إذا كان القطع والحلُّ مُرادًا لذاته ، وكان مُرَادًا أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ فى داخل التكامل والتماسُك الذى يجعل لهذه الثقافة معنًى وحياةً وحركةً ؟ = وماظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدِّدة » إلاّ ترديدًا لصياغة غريبة ،

صاغها غريبٌ عن الثقافة، منتسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ، وهو مع ذلك ناقص الأداة، لاخبرةَ له بتشابكها وعُقدها، ثم هو فى نفسه لا يضمر لها إلاّ التدمير والاستهانة، لغرضٍ راسخ فى قرارة النفس؟ = ثم ما ظنُّك أيضاً بالعاقبة، إذا صار «التجديد» عند أصحاب الثقافة أنفسهم، لا يزيدُ على أن يكون «سَطْوًا» مجرَّدًا على هذه الصيغ الغريبة، ثم إقحامُها إقحامًا على ثقافتهم، لا لحاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبُّر، بل بالهوى وحبِّ الظهور من مُفَرَّغٍ، أو من شبيهٍ بالمفرَّغ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة؟ ما أبشع العواقبَ عندئذٍ، وأبشعها التَّدهْوُرُ المستمرُّ!

وكذلك كان مقدَّرًا لجيلنا نحنُ، جيل المدارس المفرَّغ، أن يتلقّى صدمة التدهوُر الأولى، لأنه نشأ فى دُوّامة دائرةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسىّ. جئنا فى أعقاب حرب الاستعمار الكبرى، وهى التى يسميها أصحابها «الحرب العالمية الأولى». خرج منها «الحلفاء» منصورين، وبدأوا من فَوْرهم فى تقسيم عالمنا وتبديده، وأخذ كلُّ مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع فى يده من الغنائم. وبالدهاء والمكر والسطوة، جعل يدفَع هذا التحوّل دفعاً شديداً، لكى يتمّ له أن يُخْضِع عالمنا «المتخلّف» لحاجات عالمه «المتحضّر»!! وجئنا أيضاً، فى مصر، مع الرجّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩، والتى انتهت بعدَ قليل بفجيعة مزّقت الأمة تمزيقاً مفزعاً، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضِّرة!! وتبدّدت

نفوسُنا وتفتّتت ، تحت ضغط هـذا التحوّل السريع المُتمادِى المُرِيب المروِّع .

وفى ظلٍّ هذا كُلِّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم[1] = وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنَّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علاقتهم بثقافة أمتهم غيرَ ممزّقةٍ كُلَّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرّغ ، فقد تمزقت علاقتنا بها كُلَّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذةُ ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطِلاً أو كالباطل . فهو لا يتم منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غيرَ مفهومٍ البتة ، فهو يمرُّ عليه مرورًا سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تتضمّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفىِّ للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذى يُشيبُ الصغير ويُفنِى الكبير ، هو الذى سيتولىَّ الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلَّمُون اليومَ على أيديهم .

* * *

(1) انظر ما سلف ص : ٢٩ ، ٣٠ .

والقصةُ تطولُ ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قصِّها على وَجْهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيِّدَ ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفي أن أقول : إن جيلنا ، جيلَ المدارس المفرّغ ، كان في خلال ذلك قد كبرَ ، وانفلقَ عن فريقين : فريقٍ قانعٍ بما تجود به عليه أقلامُ الأساتذة الكبار من « تلخيص » و « تجديدٍ » ، فهو لا يزالُ إليهم متطلّعاً ، وبهم متعلّقاً ، ثم لا يزيدُ = وفريقٍ يسَّر الله له السبيلَ إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطّلع على أصول ما كانوا يلخّصُونه ، وما كانوا « يجدّدون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصحّ . وأحسّ أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضيءٌ حيٌّ ، مكثفٌ ، عميقُ الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كابٍ لونُه خامدةٌ حياتُه ، متخلخلٌ ، قريبُ المتناوَل . ومع هذا الذى أحسّ به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوّق هؤلاء الأساتذة الملخّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسيرٌ هينٌ . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانتْ علائقَ لم تمزق كلّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعْطوا تلخيصهم نفحةً من سرّ أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدرَ منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكّنهم من الاختيار ، ثم من نَفْيِ ما هو غثٌّ أو ساقطٌ ، ومن إخفاء « السطو » إخفاءً فيه ذَرْوٌ من المعرفة . أمّا هُمْ ، فقد فُرِّغُوا تفريغاً يكاد يكون تامًّا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسُّون فى أنفُسهم ما يشبه العجزَ ، إذا ما قارنوا بين

أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة . وهذا هو الموقف المصيبُ الذى كان فيه جيلُنا يومئذٍ ، ثم استمرَّت عليه الأجيال بعدَنا ، وهى تشعُرُ شعوراً واضحًا بتفوُّق هذا الجيل من الأساتذة الكبار «المخصّين» و«المجدّدين» ، مع أنّ الأمرَ ، كما قلتُ ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البيِّن أو الخفيِّ ، على أعمالِ ناسٍ آخرين يكتبون فى لُغَاتِهم بألسنتهم ، ويعبِّرون عن أنفُسِهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحنُ ! ومع ذلك فإن جيلَنا والأجيالَ التى تتابعت بعده ، لم تُرِدْ أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفُسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئا آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السُّنَّة التى سَنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهمُ شىء يقولونه ، حين يَرِثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلّة « التجديد » و «عالمية الثقافة» و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، وتكاتموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمرُ بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرِى » !!

* * *

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صوَّرتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصوّرتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلومٌ أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « فى الشعر الجاهلىّ » ، زعمَ أن له منهجاً يدرسُ به تُراث العرب كُلَّه ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشكّ » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف: « يقلب العلم القديم رأسًا على عقبٍ . وأخشى إن لم يَمْحُ أكثره أن يمحوَ منه شيئًا كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٣] . ثم انطلق فى كتابه هذا مستخفًّا بكُلّ شىء ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج اللازمة لهذه المذهب الذى يذهبُه المجدّدون عظيمة جليلة الخطر . . . وحسبُك أنّهم يشكّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهيًا إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أخرى أبعدَ منه مدّى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أوما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » [فى الشعر الجاهلى : ٦] .

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحضِ بأقوال السلف . وأمّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكانَ شيئاً لا يكادُ يُوصف ، لأنه كان استخفاف جاهلٍ واستهزاء خاوٍ ، يردّدُ مايقوله الدكتور ، لا يعصمهُ ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيامِ ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبِرَ الصِّغارُ الذين تأثّروا بما قاله

فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمتهم السنُّ ، وفَطَمتهم معرفةٌ جديدة حازوها ، وتنكَّروا ، أو كادوا ، للثّدْى الذى كان يُرْضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحميّة وطلبُ الصَّدارة فى ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النَّهج الذى مَهَّدوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌ مجرَّدٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرة الأساتذة فى معالجة « القديم » حتَّى يُخَيِّل للناس أنه إحياء للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفضَ القديم » والإعراضَ عنه والانتقاصَ له والاستخفافَ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاء لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولَّى هو كِبْرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : فى الشعر الجاهلى ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما نُسَمّيه شعراً جاهليًّا ، ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى مُنْتَحَلة مُخْتَلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولَهم وأهواءهم أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ فى أنّ ما بقى من الشعر

الجاهليّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلّ على شيء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] . [١]

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، [٢] وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقّون علينا حين تكلّفوننا قراءةَ شعركم القديم هذا ، وتلحّون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوّقه ؛ لأنكمُ تنكرون الزمن إنكاراً وتُلْغُونه إلغاء ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها .. » ، إلى آخر ماصوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحِيطون به من جيلنا الذى بلغ الفِطَام واستقلّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدّث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ماهو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن ألخص ماقاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

---

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطئون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ — ١٧) .

« والذين يظنُّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصًا يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شرًّا غير قليل . . . فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمودٍ
« وجهلٍ ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

« هذا الشابّ ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
« الأجنبية . . . يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخًا متنفِّشًا ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدّثُ إليك كأنه ينطق بوَحْى أبُولُّون . فيعلن إليك
« فى حَزْم وجَزْم أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
« قد أظلهم عصر « التجديد » ، وأنّ الأدب القـديم يجبُ
« أن يُتْرَكَ للشيوخ الذين يتشـدّقون بالألفـاظ ، ويملأُون
« أفواههم بالقاف والظاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمساك بالقـديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمامٍ هو التطوُّر ، وهو الحياةُ وهو الرقُّ . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنـكر
« القديم ولا تنفِرُمنه ولا تنصرف عنه ، وإنّما تحبِّبُه وترغِّبُ
« فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ . . .

« هذا الشابُّ ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، أو

« من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوراً
« عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس . فهو يتحدَّث ،
« وهو يعلِّمُ ، وهو يكتُبُ ، وهو فى هذا كُلِّه ينفُثُ السُّمّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسَخُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلُح منه للبقاء .

« وأكادُ أتّخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى
« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنّما اتخذوا
« منها صُوَراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردةِ ،
« لا أكثر ولا أقلّ !!

« والذين تَلْفِتُهم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهم ، وتدفَعُهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياةَ لمصر
« إلاّ إذا عُنِيَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلاميّ ،
« وبالأدب العربىّ قديمه وحديثه ، عِنَايتَها بما يمسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنُّوا لمن بعدهم السُّنَن في الحياة الأدبية وفي مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّة جدًّا لتاريخ الحياة الثقافية التي امتدّت بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هي تكشف عن جُذُور التدمير المفزع الذي يشمل اليوم المُجْتَمع العربيَّ كُلَّه حيث تُنْطَق العربيّة ، [1] لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويُوجب عليهم إسلامُهم أن يضعُوا العربية في المقامِ الأوّلِ ، لأن إسلامَهم لا يكون إسلاماً إلاّ بالقرآن ، وهو الذي نزل عليهم بلسان عربيّ مبين ، وإلاّ بسنّة الرسول الأميّ العربيّ ، صلى الله عليه وسلم ، وهي أيضًا بلسان عربيّ مبين .

وليس من همّي هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضّح مَدَى صِدْقها حيث صدق توقُّع الدكتور في تكاثر عَدَد مَنْ وَصَفَهُم من « المثقفين » في شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين في زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكنْ الذي يجب عليَّ أن أقوله أن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هي وجهٌ آخر لشهادتي التي كتبتُها هُنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلْتها أنا من موقعي بين أفراد جيلي الذي أنتمي إليه ، وهو جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل

---

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزع الذي يشترك في جريمته مثقفون كثيرون ، في الأدب ، وفي العلم ، وفي التاريخ ، وفي الفلسفة ، وفي الاجتماع ، وفي السياسة ، وفي الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتليفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

الذى تلقّى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ فى دُوّامة من التحوّل الاجتماعى والثقافىّ والسياسىّ ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ٣٦] .

* * *

المتنبي

وأنا حين قرأتُ هذه الشهادةَ يومئذ (٣٠ يناير ١٩٣٥) ، توهّمتُ بحُسْن الظنّ أن الدكتور طه سوف يبدأ عهداً جديداً فى تفكيره وفيما سيكتبه للناس ، وأنه سيفارقُ السنّة التى سنّها هو والأساتذةُ الكبارُ ، وإن كان قد رابنى ما ختم به شهادته ، لأن هذه الخاتمة توشك أن تكون دفاعاً عن نفسه وتمجيداً للسيرة التى سارها هو فى « التجديد » = التجديد كما يراه هو ، لا التجديد كما يراهُ الجيلُ الذين وصفهم بأنهم « ضحايا الحضارة الحديثة ، أو ضحايا جهل الحضارة الحديثة » . وليس هذا بمستبعد ، لأن الدكتور طه يومئذ (سنة ١٩٣٥) ، كان فى قمّة مجده الذى أحرزه بالضجة التى ثارت حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وهو يروح ويغدو على ذُراها يملؤه الزّهو ، وتستخفّه الُخيَلاء ، ويَميدُ به العُجْب . ثم جاءت بعد ذلك مقالاته فى جريدة الجهاد متتابعة من (٦ فبراير ١٩٣٥) إلى (٢٢ مايو سنة ١٩٣٥)، وهى عن جماعة من شعراء الجاهلية ، فكان يخلط فيها بين ما يدلّ دلالة صريحة على رجوعه عن رأيه فى الشعر الجاهلى ، وبين الالتزام بالإشارة فى خلال ذلك إلى شكّه القديم الذى جعلهُ مذهباً فى دراسة هذا الشعر ، ولذلك كثر فيها التناقض !! . ولستُ هنا بصدَد الحديث عن هذه المقالات الأربعة عشر التى

كتبها ، ولكنى أقول إنى وجدت يومئذ أن الدكتور طه قد دلّ فيها على أنه يحاولُ أنْ يسلُكَ طريق « تذوُّقِ الشعر » ، الذى أشرت إليه آنفاً ، ولكنّه تذوُّق بلا منهجٍ ، وبلا هَدَفٍ ، وعلى غير أصل .

فى هذا الوقت نَفْسه أو قبله بقليل (سنة ١٩٣٥) ، كان أخى الأستاذ فؤاد صرُّوف ، قد عَهِد إلىَّ أن نُصدر عددًا من « المقتطف » إحياء لذكرى أبى الطيب المتنبّى ، فى مرور ألف سنة على وفاته ، وأن أكتب أنا فيه كلمة مسهبة بعض الإسهاب ، ما بين عشرين إلى ثلاثين من صفحات المقتطف .[1] تلقَّيتُ هذا التكليف متحمِّسًا له ، ولكن لم أكدْ أتناول ديوان المتنبّى ، بعد هَجْره هجراً طويلاً ، كما قلت آنفاً [ص : ١٢] ، حتى وقعت فى الحيرة ! كنت فى السادسة والعشرين ، وكنتُ قد قضيتُ ما بين سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٥ ، غارقاً فى « قضيّة الشعر الجاهلى » ، وفيما قذفتنى إليه من تيهٍ متشعِّب المسالك والمناهج = لا ، بل فى تِيهٍ أعتَى منه ، يَخطِفُ نفسى خطْفاً ويبعثرها شَعَاعًا ، فى برقٍ متتابع يتركنى ممزَّقاً بين النُّور والظُّلْمة ، بين الضلالة والهدى . وذلك أنّ أصحاب هذا « الشعر الجاهلىّ » ، هم الّذين نُزِّل عليهم القرآن العظيم ، وهم الذين طولبوا بأنّ يتبيَّنوا ، عند سماعه يُتلى عليهم ، أنه آيةُ هذا النبى ، صلى الله عليه وسلم ، الدالَّةُ على صدقِ نُبُوّته ، وإن خالفت المعهودَ عند البشر من آيات الأنبياء والمرسلين . ولا سبيلَ إلى ذلك ، إلاّ بأن يشهَدَ الشاهدُ منهم أنه كلام الله المفارق لكلام عباده من البشر على اختلاف

---

(١) انظر مقدمة الأستاذ فؤاد صروف ص : ٦

ألسنتهم = أىْ أنَّه كلامٌ عربىٌّ خارجٌ عن طوق البشر جميعاً ، وخارجٌ قبل كُلِّ شىء عن طوق هـذا النّبى الذى يتلوهُ عليهم ، فكذلك يصير آيةً كسائر آيات الأنبياء من قبله ، كإحياء الميِّت ، وقلب العصا حيةً . فكيف ، إذنْ ، تسنّى لأصحاب هذا الشعر الجاهلى أن يحكموا لهذا القرآن بأنه آيةٌ دالّةٌ على صدق التَّاليهِ عليهم ؟

وطلب الجواب عن هذا السؤال ، هو الذى قادنى إلى أن أنغمس فى قراءة تُرَاث هذه الأمّة ، من تفسير لهذا القرآن ، ومن علوم كثيرة تتعلَّقُ به وبلغته ، من النحو والصرف والبلاغة والأصول والفقه ، والحديث النبوى وما يتصل به من علم رجاله ورواته ، ثم علم التاريخ ، تاريخ الأمة ، وتاريخ رجالها ، وما وقع من الاختلاف بينهم فى ذلك كُلّه . هذا سوى الشعر والأدب على تنوعه . وفى خلال ذلك لم يكن لى مطلبٌ سِوى مطلب واحد ! أن أجدَ بَرْدَ اليقين فى نفسى ، فى شأن « الشعر الجاهلىّ » ، وفى شأن ما نُسمّيه « إعجاز القرآن » . لم يكن يدور بخَلَدى أن أكون عالماً فى كُلّ هذه العلوم أو فى بعضها ! ولا دار بخلدى قطُّ ، فى خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، أن أؤلِّف كتاباً ، أو أن أكتب بحثاً فى شىء مما أقرأ ، أو فى بعض ما اهتديت إليه وأنا أقرأ ، [1] لا همَّ لى ، ولا شىءَ يزعجنى ، سِوى طلب اليقين وإبطالِ الشكِّ ، والخروج من الحيرة . فلذلك ، ومع طول الممارسة لهذه الفنون والعلوم المختلفة المتباينة ، بدأت أجِدُنى شيئاً فشيئاً مصروفاً عن تحصيل ما فى هـذه

---

(١) إلا بحثا واحداً فيما أظن ، جعله الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ، مقدمة الجزء الأول من شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، بعنوان : «مقدمة فى نشأة اللغة العربية ، وعلم النحو ، والطبقات الأولى من النحاة » ، ونشرته المطبعة المصرية فى سنة ١٣٥٢ هـ ، سنة ١٩٣٣ م .

العلوم من المعارف ، إلى سيرة أُخرى فى القراءة ، سيرةٍ غريبةٍ ، ولكنّها كانت ألصَقَ بطبيعتى وأعمق نفاذًا فى نفسى .

كانت سيرتى فى كُلُّ هذا الذى أقرؤه ، هى سيرتى التى آخترتها آنفًا فى شأن «الشعر الجاهلىّ» ، وهى تَذَوُّق الكلام[1] : تذوّق الألفاظ والجُمَل ، وتذوّق دِلالتها على معانى أصحابها ، وكيف يصوغُ كُلُّ صاحب فكرٍ فكرَهُ فى كلمات ؟ وكيف يخطىء وكيف يصيب ؟ وكيف يستقيم على المعنى طلبًا للحقّ ، وكيف يلتوى طلبًا للمغالطة أو الزَّهْوِ أو الظهور على الخصم ؟

ومعنى ذلك ، على وجه الاختصار ، أنى كنت أتذوّق البيان الإنسانىّ الصادر عن أصحابه فيما يريدُ أن يقوله كُلٌّ منهم ، على اختلافهم فى المنازع والمشارب التى تتكوّن منها آداب البشر وعلومُهم . وبيانُ الإنسان عن نفسه ، لو تأمّلته ، شىءٌ مذهلٌ !! فكانت لذّتى فى الوقوفِ على مايَرُوعنى من هذا البيان ، تفوق لذّتى فى الإبانة عن نفسى أنا أيضًا كما أبانوا ، أو فى الإبانة عمّا أجدُه فى نفسى وأنا أقرأ بيان هؤلاء الكاتبين الأمناء فى بيانهم عما فى أنفسهم . ولذلك لم يدُرْ بخلدى أن أكتب ، على مرِّ هذه الأيّام الطوال ، إلاّ قليلاً جدًّا من الكلام المنثور ، وبعضَ الشعر . فلمّا وجدت نفسى مكلّفًا بالكتابة عن المتنبّى ، أوقعنى هذا التكليف فى الحَيْرةِ ، لأنّى سوف أقرأ لأَكتبَ ، لاَ لأتلذَّذَ بما أقرأ . ويا بُعْدَ ما بين المذهبين !

ومع ذلك ، فقد جاء هذا التكليف على ساعةٍ موافقة لاستثارتى ، لأنه يردّنى إلى أوّل ديوان كنت حفظتُه كلّه ، وفُتِنتُ به قديمًا كُلَّه ، ثم أغفلتُه

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٥ ، ٢٣

كلّه، ثم ثبّطني عنه كلّه بدء حفاوتي بالشعر الجاهليّ، [انظر ما سلف ص: ١٢]
فرأيتُني الآن ملزماً أن أقرأه قراءةً جديدة، متذوّقاً لبيان هجرته هجراً
طويلاً. فلم أُكذِّبْ، وأخذت ديوان أبي الطيِّب، بشرح الواحدي من
القُدَماء (— ٤٦٨ هـ)، ثم بشرح الشيخ ناصيف اليازجيّ من
المُحْدَثين (ـ ١٢٨٧ هـ/١٨٧١ م). ولم أكد أتجاوز نصف الديوان في هذه
القراءة، حتى استوقفني أن النصف الثاني منه، مؤرّخة قصائده كلها أو
أكثرها باليوم والشهر والسنة التي قِيلت فيها هذه القصائد، من شهر جمادى
الأولى سنة ٣٣٧، إلى أول شعبان سنة ٣٥٤، وقد قتل المتنبّي بعد ذلك بقليل
في أواخر شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ. أمّا النصف الأوّل فهو غُفْل كُلُّه من
التاريخ، إلا حيث يُذْكر أنه قاله في صباهُ، أو قالَه في المكتب، وأشباه
ذلك، وهو قليل جدًّا، لا يكاد يتجاوز بضع مقطوعات منه، مع أنه يشتمل
على شعره الذي قاله منذ سنة ٣١٤، إلى سنة ٣٣٦ تقريباً.

ولما كنتُ أعلمُ، مما قرأتُه حديثاً في مقدمة أستاذنا عبد العزيز الميمني
الراجكوتي لما جمعه من «زيادات ديوان شِعر المتنبّي»، [1] وما قرأتُه قديماً
في تراجم متفرِّقة للمتنبِّي ولمن صحبه أو رآه من العلماء الذين رَوَوا عنه شعره
كُلَّه أو أكثره = أنّ المتنبِّي قرأ على الناس شعره مرّاتٍ في بلاد مختلفة،
وأنّه رتَّب ديوانه بنفسه، وأنه أملى على من قرأوا عليه مقدمات قصائده

(١) نشرته المكتبة السلفية في سنة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م.

بتواريخها ، وأن نسخاً كثيرة من الديوان ، قد صُحِّحت أو قرِئت على أصول مقروءة على أبى الطيب نفسه ، وأنها تكادُ تتفق جميعاً على الترتيب الموجود فى شرح الواحديّ خاصةً = لما كنتُ أعلم ذلك تيقنْتُ أن أبا الطيب كان شديد الإحساس بالتاريخ حين جمع شعره ورتبه . وتبيَّنَ ذلك تبيُّناً واضحاً فى النصف الثانى منه ، وهو المؤرَّخة قصائده كُلُّها باليوم والشهر والسنة . وإذا كانَ حين جمع شعره ورتَّبه شديدَ الإحساس بالتاريخ ، من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٥٤ ، إذاً ، فهو فى القسم الأوّل أيضاً من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، خليقٌ أن يكون شديد الإحساس بالتاريخ ، إلا أنَّ عَهدَه بهذا الشعر كان قد تقادم ، فنسِىَ الأيَّام والشهور والسنوات على وجه التحديد ، فرتَّبَ هذا القسم الأوّل على ما بقى فى نفسه من الإحساس الخابى بهذه التواريخ القديمة .

ولكن لا يُستبعدُ أن يكون أبو الطيب قدَّم شعراً على شعر ، وتاريخاً على تاريخ ، بيد أنِّى أعتقد أن هذا التقديم والتأخير لا يكاد يتجاوز سنة أو بعض سنة على الأرجح . ومع ذلك ، ففى بعض هذا الترتيب خَلَلٌ آخر ، وهو أن المتنبى ، كما استظهرت ذلك ، كان رُبَّما مدح رجلاً فى سنة ، ثم بعد سنوات مدحه مرةً أخرى ، فكان يلحق الشعر الثانى بالشِّعر الأول القديم التاريخ ، فيقدِّمه بلا مبالاة . وهذا أيضاً شبيه بما فعله فى القسم الثانى من سنة ٣٣٧ـ ٣٥٤ ، حين ألحق به شعراً قيل فى سنة ٣٢١ .

وعلى كل حال ، فلا بُدَّ أن نكون على ذُكْرٍ دائم بهذا ، وبأن المتنبي نفسَه حين جمع شعره وقرأه على الناس ، أسقط كثيراً من شعر صباه ، أو من الشعر الذى تضمَّنهُ القسم الأول الذى لم يؤرَّخ من ديوانه . وعلى ذلك فهذا القسم الأول محتاج إلى الاجتهاد فى ترتيبه على السنوات ، استظهاراً من الشعر نفسه ، ومن تراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر .

والإحساسُ بالتاريخ ظاهرةٌ فريدة ، مُعْرِقةُ القدم فى تاريخ عرب الجاهلية ، وقد ترك أثره البيّن فى حياتهم ، ثم فى لغتهم ، ثم فى شعرهم . فلما جاء الإسلامُ زاد هذا الإحساس نفاذاً ووضوحاً ، لحاجتهم إليه فى تاريخ تنزيل القرآن منجَّماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وما يترتَّب على ذلك من معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث ، وما ارتبط بذلك من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلّم سنة بعد سنةٍ بعد الهجرة . فلما جاء عَهْد التدوين ، اتَّسع هذا الإحساس ، وصارَ واضحاً ظاهراً فى الكتب المخطوطة ، ثم فى أسانيد هذه الكتب . وكان أشدَّ وضوحاً عند علماء التفسير والحديث وعلم الجرح والتعديل . ولا أشُكّ فى أن المتنبي قد أدرك هذا ، لأنه كان مستفيضاً على زمانه ، فكان ديوانُه الذى جمعه بنفسه وقرأه على الناس ، أوَّلَ ديوانٍ من الشعر جاءنا ، فيما أعلم ، وفيه أثر هذه الظاهرة واضحاً كُلَّ الوضوح ، شهراً بشهر وسنة بعد سنة فى القسم الثانى من ديوانه .

وقد كنتُ ، وأنا أتذوّق شعر الجاهلية وبعضَ الشعر الأمويّ ، أُحاولُ

محاولة صَعْبَةً فى الاهتداء إلى ترتيب قصائد الشعراء على مُدَد من الزمن الذى عاشوه وقالوا فيه شعرهم ، كامرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى ، وحاولته أيضاً فى شعر عمر بن أبى ربيعة وشعر ذى الرمَّة . ومع أنِّى لم أظفر، أو لم أحقّق كُل بغيتى ، إلاّ أننى انتفعت بذلك انتفاعاً لا بأس به فى تذوُّق الشعر . فلما استوقفنى القسم الثانى من شعر أبى الطيب ، ومضيتُ فى تذوُّقه مرتَّباً على التاريخ ، كان نَفْع هذا الترتيب التاريخىّ عظيماً ، فقد كشف لى حركة وِجْدان أبى الطيب فى شعره ، فى زمن طويل يمتد من سنة ٣٣٧ إلى وفاته فى سنة ٣٥٤ . فلذلك عُدتُ أقرأ الديوان كُلَّه قراءةً ثانية ، محاولاً أن أعرف حركة وجدانه فى الشعر الذى قاله منذ صباهُ فى سنة ٣١٤ تقريبًا إلى سنة ٣٣٦ = ومحاولاً بتذوّقى أن أرتِّب قصائد هذا القسم ترتيباً تاريخيًا ما استطعت . وقد فعلتُ ، وتبيّن لى أن أبا الطيب كان بلا شكّ ملتزماً بالترتيب التاريخى فى هذا القسم ، إلا فى قليلٍ من الشعر ، كما قلتُ آنفاً .

فرغتُ من هذه القراءة الثانية ، ومن ترتيب قصائد القسم الأوّل كما بدا لى عندئذ ، واجتمع لدىَّ قدرٌ لا بأسَ به من الملاحظاتِ عن أبى الطَّيب الشاعر ، وعن حركة وِجدانه فى شعره على اختلاف الأحوال والبلدان والناسِ الذين لقيهم ، والرجالِ الذين مَدَحَهم . وبدا لى أن أقنع بهذا ، وأن أبدأ فى الكتابة عن شعر المتنّبى ، لا عن حياته .

ولكنّ قَلَقى القديم لم يفارقنى وأنا أستجمع نفسى للكتابة . لم أستطع أن أتخلَّص من الإحساس الملحّ بالنقص فى عملى هذا . فوجدتُهُ أمراً

لامفرَّ منه ، أن أفعل ما لم يكن فى نيّتى أن أفعله يومئذٍ . جمعتُ كُلَّ ما أمكنَ أن يقع فى يدِى من تراجم أبى الطيب التى كتبها الأوّلون ، وما أتيح لى أن أعلمَهُ مما كتبه المُحْدثون عن أبى الطيب . ونحّيْتُ الديوان جانباً وشرعتُ أقرأ تراجمه القصارَ والطوالَ ، وأردُّ الأخبار التى فيها إلى أصُولها التى نُقِلَتْ عنها ، فكان لزاماً علىَّ أن أرتِّبَ هذه التراجم ترتيباً تاريخيًّا حتّى لا أضِلَّ عن مَوَاضع التغيير والتبديل التى لحقتْ هذه الأخبار ، فى نقل كُلِّ مؤلّف عمن سَبَقه . وكان عملاً شاقًّا طويلاً ، متعدِّد الجوانب ، متّسِع الرقعة ، لكنه كان عظيمَ الفائدة . قيّدت كُلَّ ماعنَّ لى وأنا أقرأ هذه التراجم والكُتُبَ : كنت أصطدمُ دائماً فيها بما يَهُزُّنى وما يحيِّرنى ، من الاختلاف الواضح بين صورة أبى الطيِّب التى تصوِّرها هذه التراجم والكتب ، وبين صورته التى يصوِّرها لى تذوُّقُ شعرِه مجرَّداً من تأثير هذه الأخبار التى رُوِيتْ عنه .

وظهر لى يومئذٍ ظهوراً واضحاً فرقُ ما بَيْنَ تذوُّق شعر الشاعر تذوُّقاً يعتمد على الشعر نَفْسه أوّلاً ، ثم على ما يكونُ فى نفس المتذوِّق من إدراكٍ مُجْملٍ لعصر الشاعر والعصور التى قبله ، وللرِّجال الذين عاش بينهم وخالطهم ، وللأحداث التى تمرُّ به أو بالناس ويكون لها أثر فى شعره وفى حركة وجدانه = وبين بحث الدارس المتأنى الذى يجمع أخبار الشاعر وتراجمه وآراء الناس فيه وفى شعره ، ويقارنُ ، ويستنبطُ ، ويأخذُ خبرًا ويردُّ آخر ، ويكشف عن مواضع الخلل فى الأخبار إن اختلت ، وعن استقامتها إن استقامتْ ، ويستغرق فى التفاصيل الدقيقةِ التى تدلُّ عليها أخباره وأخبار زمانه وأخبار

أهل عصره الذين لقيهم أو لم يَلقَهُم . فرأيتُ يومئذ أنهما طريقان مختلفان ، وعملان متباينان ، ولكن لاغِنَى بأحدهما عن الآخر . وتبيَّن لى أيضًا ، بما قرأتُه للمحدثين خاصةً ، أن طريق الأخبار وبحثها والاعتماد عليها أو على بعضها ، ربَّما ضلَّل الكاتب ، فجعله يَرَى فى بعض شعر الشاعر معنًى ، هو بعيد كُلَّ البُعْد عن المعانى التى يَدُلُّ عليها تذوُّق شعره جملةً واحدةً = وأنه أيضاً ، يُشَوِّهُ صورة الشاعر التى يصوِّرها تذوُّق شعره تصويراً أصدقَ وأوضحَ وأعمقَ .

فلما وقَرَ هذا فى نفسى وفرَغتُ من تمحيصه وتقليبه حتَّى وجدتُهُ صادقاً كُلَّ الصدقِ ، ظننتُ ، والظنُّ يَكْذِبُ صاحبَهُ ، أنِّى قد بلغتُ مبلغاً يَفْتَحُ لى أبواب الكتابة عن أبى الطيِّب ، بلا عائقٍ ، وأنى إذا أخذتُ القلَمَ والورقَ وجلستُ إلى مكتبى ، فقد فرغت ، فى طرفة عين ، مما كلفنى به أخى الأستاذ فؤاد صرُّوف . وكذلك سوَّلتْ لى نفسى !! لم أكدْ أفعلُ حتى طَارَ من رأسِى كُلُّ ما قرأتُه من شعر أبى الطيب أو من تراجمه ، ومن الكُتُب أو المقالات التى كتبت عنه ، وإذا أنا عاجزٌ كُلَّ العجْزعن أن أستجمع فكرى ، وعن أن أعْرِفَ طريقى . وشيئاً فشيئاً أدركتُ حقيقة نفسى ، وأنى حين قضيت ما بين سنة ١٩٢٦ ، إلى سنة ١٩٣٥ فى القراءة ، كما وصفت ذلك آنفاً ، لم يكنْ يدورُ بخلدى قطُّ أن أكتب بحثاً مطوَّلاً ، أو أن أؤلِّفَ كتاباً . وكذلك رأيتنى قد كرهت الأمر كله ، فوضعتُ القلم ، ونحَّيت الوَرَق ، وفارقتُ مكتبى ، وذهبتُ إلى أخى فؤادٍ أبثُّه عُجَرى وبُجَرى ، كما يقال فى

المثل ، أى ما تركته من ورائى ، وما أنا مقبل عليه من أمامى ، والذى أمامى هو العجزُ لا غيرَ . وسدّد الله خُطَى فؤادٍ وأكرمَه ، فإنّه أخذنى أخْذَ رَفيقٍ شفيق ، وجعل يُحاوِرُنى ويُدَاورنى ، ويقبضُنى ويَبْسُطنى ، حتى فارقته على عزيمة غير التى أتيتُه بها ، وكانت التى أتيتُه بها هو أن يُعفينى من الكتابة .

واسترحتُ أيَّاماً ، ثم فكَّرت فى الأمر تفكيرًا جديدًا ، يرجعُ فضلُه كُلُّه إلى فؤاد صروف . وعدتُ أقرأ الديوان وحده مرَّة ثالثة حتى فَرَغتُ منه ، ورأيتُ أشياءَ جديدة ، لم أكن ألقيتُ لها بالاً فى القراءتين الأُوليين ، وظننتُ أنى قادرٌ ، وأن الطريق قد استقام وبانت لى معالمُه . وفى هذه المرة أيضًا أعدتُ ترتيب قصائد القسم الأوّل من الديوان ، ترتيباً يختلف بعض الاختلاف عن ترتيبى الأوّل ، على هَدْيِ ما استفدتُه من قراءة تراجم أبى الطيب فى الكتب المختلفة ، وعلى هَدْى ما بَدَا لى من الرأى فى هذه القراءة الثالثة فى شعره .

وأجْمَعْتُ أمرى على الكتابة . وما كدتُ ، حتى اختلط علىّ الأمرُ مرةً أخرى ، وحِرْتُ حيرةً طويلة كادت تُودى بعزيمتى ، حتى جاوز الحزامُ الطُّبْيَين ، كما يقالُ فى المثل ، [1] وسوَّلت لى نفسى أن أدع الكتابة بمرّةٍ . وبعد لأْيٍ ماارتجعت أنفاسى المبهورة ، وعُذْتُ بالسكينة ، وأصررتُ على أن أفعل ، لا حُبًّا فى كتابة ما وقفتُ عليه من الآراء ، بل حياءً من فؤاد صرُوف لا غير .

---

(١) « الطبى » بضم فسكون ، حلمة الثدى من ذوات الخف والحافر وغيرها ، فإذا انتهى الحزام إلى الثديين ، فقد بلغ أقصى غاياته ، فكيف إذا جاوزه ؟

ظللتُ أيامًا أميِّل الرأى بين أساليب الكتابة ، أيّها أختارُ وأيّها أدعُ . لم يكُنْ لى أسلوب خاصٌ ، أو طريقٌ ألفتُه وعهدتُه ، فإنى كما قلتُ ، لم أفكِّر قطُّ فى تأليف كتاب أو كتابة بحث مطوّل . ورأيت المؤلفين قبلى فى تراجم الشعراء وغيرهم يكتبون على نهج الدراسة والبحث ، فيذكرون الرجل ومولده ونسبه وأسرته، وعصره وأخباره ، وشخصيته، وآراءه ، إلى آخر هذه السلسلة المعهودة فى كتب المحدثين من الكتاب = أو عن حياة الرجل جملة ، ثم تفصيل خصائص شعره ، مثلاً ، وبيان أصول المعانى التى امتاز بها فى شعره مفصَّلَةً مجموعةً من جملة قصائده كُلِّها — وطرُقٌ أخرى مختلفة ، ألفتُ قراءتها ، دون أن أتخذ لنفسى رأيًا فى تفضيل بعضها على بعض . وخفتُ أنْ يأكُلَ مَرُّ الزمن عزيمتى مرّةً أخرى ، وأنا واقفٌ أميِّل وأوازنُ بين هذه الأساليب ، فعزمت على البدء فى الكتابة والفراغ منها . إنها عشرون صفحة أو ثلاثون من المقتطف ، فلأكتبها كما يتَّفِقُ لى ، وسَيْلُ المعانى والآراء التى وقفتُ عليها فى شعر أبى الطيب ، كفيلٌ وحده بشقِّ الطريق ! وبدأتُ .

كتبتُ ما يزيدُ على ثلاثين صفحة على ماخيَّلَتْ ، أى على غَرَرٍ وبلايقينٍ من طريقى ، وقرأتُها أنا وأخى فؤادٌ ، فكاد يأخذها للنشر لأول وهلة . ولكنّى استأنيتُه حتى أعيد النظر فيها مرةً أخرى ، لأنى كنتُ أدّخر فى نفسى أشياءَ بدت لى فى شعر الرجل ، لم أثبتها فى هذه الورقات هيبة وخوفًا من الزلَلِ ، ومن استنكار الناس لما إن أنا كتبتُها مجرّدَةً بلا دليلٍ إلاّ

دليل التذوّق . فأخذتُ الأوراق فقرأتها في خلوتي مرةً وأخرى ، فكرهتها أشدَّ الكراهة ، ومزّقتُها من فَوْرِي . ولما أنبأت فؤادًا بما فعلتُ ، تجهَّم وجْهُهُ وتبيّنتُ في تجهُّمه أنه يقول لي : إني خذلتُه خِذْلانًا جارحًا . وبكى قلبي بكاءً ، فقد أحرجْته إحراجًا غليظاً ، لأنه كانَ قد أعلنَ في المقتطف عن قرب ظهور العدد الخاص بأبي الطيب ، فلم أفارقه حتى وعدته بأني عمّا قليلٍ مُنْجِزٌ ميعادِي غيرَ مُخْلِفٍ ظنَّه . وبدأتُ مرةً أخرى على عجلٍ ، وضمَّنت الأوراق التي كتبتها بعض ما كنت ادخرتُه وطويتُه في المرة السالفة ، وذلك بعد قراءةٍ رابعة للديوان ، ولمواضع متفرقةٍ من تراجم أبي الطيب في الكتب ، وفرغتُ ، وعرضتُ على فؤادٍ ما كتبتُ ، وكادَ يأخذُه كما فعل أوّل مرّة ، ولكني عدت فاستمهلته أياماً ، وبعد أخذ وردّ ، أعطاني الأوراق على مضضٍ .

ودخل علينا رجُلٌ عظيم القَدْر ، كنت أحبُّه ويحبُّني . كان يومئذ شيخًا فوق الستين ، كما يقول هو ، وكنت أتوهَّمه فوق السبعين . كان ذكيَّ العينين ، باسم الثغر ، وربّما غشَّتْ على بَسْمته كآبةٌ دفينةٌ لاتبوحُ إلاّ بهذه الغشاوة على بَسَماتِه . كان فتِيَّ النَّفْس يشغَلُه دائمًا مايشغَلُه من مَعَارك النقد التي أثارها حول كتابه « معجم الحيوان » ، لايملُّ ذكرَ ماوقع بينه وبين الدكتور محمد بك شرف الطبيب ، صاحب المعجم الطبي ، وأنستاس الكرمليّ القسّ ، وغيرهما ، ويسرُدُ حججه في تفنيد أقوالهم كأنه يتلوها عن ظهر قلب ، وهو الدكتور الطبيب الفريق أمين باشا فهد المعلوف ، من رجالات أسرة المعلوف اللبنانية . وجلسنا طويلاً ، ثم خرجنا معًا ، وكان مسكنه بمصر الجديدة

حيث أسكُن . وتجاذبنا الحديث ، فغلبتُه أنا عليه ، وحدثته عمّا أكتبه عن المتنبي ، وعن حيرتى فيما أكتب ، وعن الجُرح الذى أحدثته فى قلب فؤادٍ بتردُّدى مرةً بعد مرةٍ فى تسليم ما كتبتُه إليه لينشره ، وَبفى للقراء بالميعاد الذى حدّده لعدد المقتطف الخاص بأبى الطيب . وفى خلال الحديث ، ذكرت له رأياً لم أكتبه فى هذه الورقات ، وهو أمر كنت أستشفُّه من تذوّق شعر أبى الطيب ، حتى بلغ بى حدَّ اليقين القاطع ، وهو أن المتنبّى كان يحبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، وفاجأنى الرجل مفاجأة غريبة جدًّا ، فقد أخذَ برأسى وقبَّلنى ، ثم أخذ بيدى ، وأبَى أن يُفلِتها على طول الطريق ، حتى أذهبَ معه إلى بيته ، وكنَّا قد بلغنا مصر الجديدة .

كان يقيم فى شُقَّة بسيطة لطيفة ، واستقبلتنا قَهْرَمانةُ بيته التى تقوم على تدبيره : سيدةٌ لطيفةٌ رقيقةٌ ، أصغر منه سنًّا ، وهى أخته التى ترعاهُ ويرعاها ، وتركنى معها ، وذهب وأتى وفى يده نسخة من ديوان أبى الطيب (بشرح اليازجىّ) ، وفتح الكتابَ ، وإذا على هوامش الجزء الثانى منه فوائد جليلةٌ علقّها على هوامشه ، أكثرها من كتاب « زبدة الحلَب ، من تاريخ حلَب » ، لابن العديم ، [وكان لم يطبع بعدُ] ، ثم قلَّب الصفحات حتى انتهى إلى قصيدة أبى الطيب فى كافور الإخشيدى (فى ربيع الآخر سنة ٣٤٧) والتى أولها :

فِرَاقٌ ، ومن فارقتُ غيرُ مُذَمَّمِ وأَمٌّ ، ومن يَمَّمتُ خيرُ مُيَمَّمِ

وقرأ البيت الأوّل ، ثم قال لى : هذا دليلى على أنّ أبا الطيب كان يحبُّ

« خولة » أخت سيف الدولة ، فأنا أسبقُ منك فى الوقوف على هذه الحقيقة . ثم قال لى وهو ماضٍ فى قراءة الأبيات الثلاثة الأولى : خُذْ ، يامحمود ، هذا هو الدليل القاطع ! اسمع : [1]

رحلتُ ، فكَمْ باكٍ بأجفان شادِنٍ عليَّ ، وكم باكٍ بأجفانِ ضَيْغَمِ
وما رَبَّةُ القُرْطِ المَليح مَكَانُهُ بأجْزَعَ من ربِّ الحُسَام المُصَمِّمِ
فلو كانَ مَابِي مِنْ حبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ ، ولكن من حبيب مُعَمَّمِ
رَمى ، واتَّقَى رَمْيِي ، ومن دُونِ مَااتَّقى هَوًى كاسِرٌ كَفِّي ، وقوْسِي ، وأسْهُمِي

واستفاض هذا الرجلُ الكريم فى حديثه عن أبى الطيب وخولة ، وهو يهتزُّ اهتزازَ الأريحيّة ، معيدًا إنشاد الأبيات مرة بعدمرّة . ثم أغلق الديوان وقال لى : خُذْهُ ، وانتفع بما فيه من الهوامش المملقة ، وامض على بركة الله ! جزاهُ الله خيرًا ، فليس بيدى أنا جزاؤُه ، إلاّ هذا الذكْرَ ، وهو لا شىء فى جانب ما استفدتُه من تعليقاته ، وما أحدث فى نفسى التغيير بعد ذلك فى كتابة ما كتبتُ عن أبى الطيِّب . وأىُّ شىء أعظَمُ أثرًا فى النَّفْس ، منْ أن تَجِدَ فجأةً رأياً يؤيِّدك فى رأىٍ كنت تخافُ إبداءه والبَوْحَ به ، وإن اختلف طريقُهما فى الاستدلال والاستنباط !!

واستقرتْ نَفْسِي استقراراً كاذبًا ، فحدثتُ أمين باشا عن الشعر

---

(١) سترى الحديث عن هذه القصيدة فى ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ من هذا السفر الأول ، فراجعه .

الجاهليّ ، وعن طريقى فى تذوّقه ، وعَرَض ذكرُ امرىء القيس ، فقام من فوره عجلاً ، وجاءنى بكتاب قديم (أُنسيتُ اسمه واسم مؤلفه) ، على الصفحة اليسرى منه نصُّ الكتاب باليونانية ، وعلى اليمنى التى تقابلها ترجمةُ ما فيها بالإنجليزية ، وأخرجَ لى الموضعَ الذى جاء فيه ذكر امرئ القيس وذكر ذهابه إلى قيصر ، وأن هذا يؤيِّد الرواية العربية فى كتبنا . فقلت له : يا سيّدى الدكتور ، إنى بما فى يدى من الكتب العربية أشدُّ ثقةً ، حتى لا أحتاج إلى مثل هذا الدليل الذى أثبته هذا اليونانىّ ! فأصرَّ على أن يعطينى الكتاب لأقرأهُ ثم أردّه إليه . وقد فعلتُ ، وخرجتُ منه بأنَّ الذى عندنا من الرواية العربية ، لا يحتاج فى توثيقه إلى مثل هذا النصّ ، ولكن .... ، ثم رددت إليه عاريته فيما بعد ، جزاه الله ، خيرًا ، فقد كان مُحِبًّا للعَرَب والعربية ، ومحبًّا لعشيرته وللسانِ أسلافه ، لم يغيِّر حُبَّه شىء مما يغيِّر الناس . أما نُسْخَتُه من ديوان أبى الطيّب ، فهى لم تزلْ باقية عندى إلى اليوم ، وعليها تعليقاته ، وزدت أنا عليها تعليقات بخَطّى ، مما قرأته فيما بعد .

* * *

عُدْت إلى بيتى بعد هذا اللقاء الذى فجَّرته المفاجأة ، وبين جنبىّ نفسٌ تموجُ كمَوْج البَحر تلاطمتْ أثباجُه . كنا فى العشر الأوائل من شهر رمضان سنة ١٣٥٤ (أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٥) ، وجَهَدتنى الحِزّاتُ المتتابعةُ التى أخذتنى أخذًا عنيفًا لم تُفْلِتْنى أيّامًا متعاقبة ، والذى لقيتُه

منها = معَ جَهْد الصَّوْم ، وقلق النَّوم ، وقلة الرَّاحة ، وغوائل الحيرة = كانَ غرَامًا وعذاباً ، والعجبُ أن عزيمتي على الكتابة كانت تزدادُ قوَّةً وشراسةً ومضاء ، وأنا أُردِّدُ فى خَلْوتى بصَوت مرتفعٍ مرةً بعد مرة قَوْل سعد بن ناشبٍ المازنىّ يصف نفسَهُ ، وهى نفس «أخِى غَمَرَاتٍ» لايبالى بما هو مقدمٌ عليه :

إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عزيمةُ هَمِّهِ ، ولم يأتِ ما يأتِى من الأَمْرِ هائبَا

إذاهَمَّ ألقَى بين عينيه عَزْمَهُ ، ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبَا

ومرَّ نحو أسبوعٍ وأنا لا أجد إلى هُدُوء نَفْسِى مَنْفَذًا ، وأخذتُ ديوان أبى الطيِّب مرةخامسة ، أقرؤه لا أتوقَّفُ ولا أملُّ ولا أهدأ ، وأنا فى خلال ذلك أراجعُ كُلَّ مافى تراجم أبى الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرها ، تبعاً للخواطر التى تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفى فجر الثانى عشر من شهر رمضان صلَّيتُ ، فلماجئت آوِى إلى فراشى ، طار النومُ من عينىَّ ، ومع طيرانه تبدّد القتامُ الذى كان يلفّنى ، وذهب التَّعَبُ وما لقيتُ من النَّصَب ، وتجلَّى لى طريقٌ بانَ لى كأنى سلكتُه من قبل مرّاتٍ فأنا به خبير ، وأخذتُ الأوراق التى كنتُ كتبتُها واستمهلْتُ فؤاداً فى مراجعتها ، فمزَّقتُها وأنا على عجلةٍ من أمرى ، ونبذتُها فى صندوق القمامة ، وأعددت أوراقِى ، وجَلست على مكتبى ، وأخذْت قلمى ، وسميتُ بذكر الله ، وكتبتُ فى جانب من الصحيفة الأبياتَ الثلاثةَ التى تراها فى أوّل هذا السفر [ص ١٣] ، والتى أوّلُها :

أَنَا ٱبنُ مَنْ بَعْضُه يَفُوقُ أَبَا الباحثِ ، والنَّجْلُ بعضُ مَنْ نَجلَهْ

ومضيتُ أكتب ، كأنّى أسطِّر ما يُملَى علىَّ .... لا حيرةَ ، ولا بَحْثَ عن أسلوب وطريق ، ولا تردُّدَ ، ولا هيبةَ لشىء ، ولا تَحرُّجَ من غَرَابةِ ما أقولُ وما أكتب . وفرغتُ من الفَصْل الأوَّل الذى تراهُ هنا [ص : ١٣ - ٣٦] ، وأصبح صباح الثالث عشر من شهر رمضان ، وأخذتُ أُهْبَتى ، وفارقتُ بيتِى ، وقطعتُ الطريقَ إلى دَار « المقتطف » ، ودخلتُ على فؤادٍ ، فلقينى كالمتجهِّم ، فسلّمت ولم أُكَلِّمه إلا قليلاً . فنظر فى هذه الأوراق القلائل التى لا تزيدُ على عشر ورقاتٍ !! ثم رفع إلىّ بَصَرَهُ وازدادَ تجهُّمه ، وقال : ما هذا ؟ فقلت : ادْفع بها إلى المَطْبعة ! فازداد تجهُّمه ، ولكنَّه رجُل حليمٌ جمُّ الأناةِ ، فسكت ، وبدأ يقرأ ما كتبتُ ، وظللتُ أراقبُه وهو مستغرقٌ ، وجَهامته تنقشع شيئاً فشيئاً ، ولم يكد يفرغُ حتى أشرقَ مُحَيَّاه إشراقاً ، وتهلّلتْ أساريرهُ ، واستنار الذى كان بينى وبينَه مُظلماً ، وأخذنى فشدَّ على يدِى . ثم التفتَ وطلب مجىء عم «عبدالرزّاق» رئيس المطبعة ، وجُمعت الصفحة الأُولى ، واخترنا لها صورتها التى هى عليها ، كما تراها فى أوّل فصلٍ . وبقيت فى دار المقتطف إلى قبيل المغرب ، أصحِّح ما يُجْمع من الصفحات ، ودارت المطبعة ، وهكذا دواليك يوماً بعد يوم ، حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان . تمَّ كُلُّ شىء ، وظهر عدد المقتطف فى السادس من شوال سنة ١٣٥٤ ، (أول يناير سنة ١٩٣٦) ، ولم يكنْ من نَصيبى أن أمسك بيدِى أوّل نسخةٍ منه ، لأن أبا الطيّب أراد أن يكافئنى ،

فعجَّل مكافأتى على أثر الفراغ من الكتاب بالحُمَّى التى ركبته فى أواخر أيامه بمصر ، فكانت تغشاه إذا أقبل الليل ، وتنصرف عنه إذا أقبل النهار بعرقٍ ، وتركنى أقول لها يومًا بعد يوم كما قال هو لحمّاه :

أبنتَ الدهر عندى كُلُّ بِنتٍ ، فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزِّحام !!

* * *

حين تبدّد القتامُ الذى كانَ يلفُّنى ، تجلَّتْ لعينىَّ صُورةٌ واضحة كُلَّ الوضوح ، كأنى أخذتُ كتاباً مسطورًا ، فقرأتُه كُلَّه بنظرة واحدةٍ قبل أن يرتدَّ إلى طَرْفى . وهذه ليست مُبَالغةً ، ولكنها حقيقة مجرّدة ، ألِفتُها بعد ذلك وعرفتُها مرّاتٍ ، وأظنُّ أنّ كثيراً من الكُتَّابِ غيرى قد ألِفَها مرّاتٍ كما ألفتُها . وقبلَ كُلِّ شىء ، فاعلم أنى إنما أقُصُّ هنا قصَّة هذا الكتاب كما كانت ، وأسجِّل تجربتى الأولى فى تأليف كتاب ، ملتزمًا بالصدقِ ، متجنِّبًا للمبالغة رغبةً فى حُسْنِ التصوير .

حين قرأتُ ديوان أبى الطيب مَرّات ، وحين قرأت تراجمه التى بين يدىّ ، وما تجمَّع عندى من أخباره وأخبار عصره وأخبار من لقيهم أو مدحهم من الناس = كانت خُلاصةُ ما انتهيتُ إليه أمران :

الأول : أنِّى إذا قرأت تراجمه وأخباره وما كُتِب عنه ، رأيتُ رجُلا عاش حياة غامضةً مضطربة متناقضةً لا استواء فيها ، يعسر فهمُها على وجهٍ صحيحٍ .

والثانى : ثم إنّى إذا قرأتُ شعرهُ جملةً واحدة ، متذوّقًا لـكَىْ أرى صُورةَ حياته التى يدلُّ عليها شعره ، رأيت صورةً أخرى لرجل آخرَ ، حَرَكةُ وجدانه فيها واضحةٌ كُلَّ الوضوح ، ولـكن صورة حياته هو غامضةٌ كُلَّ الغموض .

ولذلك ، فقد كنتُ ملفوفًا فى قَتَامٍ مغبَرٍّ ، لا أسيرُ خُطوةً حتى أدخُل فى قتامٍ أشدَّ غُبْرةً . فلما تبدّد عنّى فجأةً هذا القتام ، كان عَمودُ الصُّورَة واضحًا كُلَّ الوضوح . إلاَّ أنَّ عمودَ هذه الصورة لم تَرْسُمْه تراجم المتنبّى وأخبارُه الـكثيرة ، بل رَسَمها وحدَّدها تذوُّقُ شعره ، واستنباطُ معانيه ، ودلالته على شخصيَّة أبى الطيب ، فـكانت هى المهيمنةَ على أخباره الـكثيرة ، تزيِّف منها ما تزيِّفُ ، وتصحِّحَ منها ما يصحّ ، وتجلُوها جِلاءً جديداً يجعلها قادرة على أن تجعل حياتَه واضحةً جليَّة مستويةً . وبذلك صار ما صحَّ من هذه الأخبار بعدئذٍ ، قادرًا هو أيضًا على أن يجعل حركة وِجْدانه فى شعره أشدَّ ظهورًا ، ويجْعَل صورةَ حياتِه التى يدلُّ عليها تذوُّق شعره أدنى إلى الوضوح وأبعدَ من الغموض ، وأقدَرَ على الالتحام بصورة الحياة التى يدلُّ عليها ماصحَّ من هذه الأخبار . فـكذلك كان هذا الـكتاب الذى بين يديك ، هو الصُّورةَ الحيّةَ لأبى الطيب ، كما رأيتُها وعاشرتها ، وشَقِيت أنا بها ، وشقيتْ هى بى أيضًا ، فيما أظنُّ !

* * *

عمود صورة المتنبى

وإذا كانَ ذلك كذلك ، فينبغى إذنْ أن أبيِّن « عمود الصورة » الذى بُنِى عليه هذا الكتاب ، كيف جاء وكيف تمّ . فهذا هو « عمود الصورة » التى يتخلَّق من حوله تخطيطُها ومعارفها وقَسِمَاتها ، والذى تكمُن فيه شخصيّةُ أبى الطيب منذ مولده بالكوفة ، ثم تنمو سنةً بعد سنةٍ على مرِّ الأيّام والأحداثِ ، فتُفْصِح هى عنه ويفصح هو عنها ، بعد أن صار شاعراً تراهُ يغدُو بها ويروحُ حتى يفارق الحياة .

١ — غلامٌ « عَلَوِىٌّ » النسب ، يولدُ بالكوفة سنة ٣٠٣ ، ويقيم بها حتى يصير فتًى ، إلى أواخر سنة ٣٢٠ . [انظر من ص ١٣ — ٧٦]

٢ — خرج إلى الشام ، وفى باديتها أظهر أنه « علوىٌّ النسب » ، فقبض عليه وسُجِن ، وأقام بالسجن فى أواخر سنة ٣٢١ ، إلى سنة ٣٢٣ . وهذا معناه : إبطال « النبوّة » التى زعموها فى الأخبار .
[انظر من ص ٧٧ — ١١٦]

٣ — خروجه من من السجن ورحلته بعد ذلك فى الشام منذ سنة ٣٢٣ ، وعودته إلى الكوفة سنة ٣٢٥ ، ورجوعه إلى الشام مرةً أخرى فى سنة ٣٢٦ ، حتى سنة ٣٣٦ . [1] [انظر من ص ١١٧ — ١٨٠]

---

(١) لم نكن نعرف يومئذ أن أبا الطيب رحل من الشام إلى مصر فى سنة ٣٣٥ ، فهذا خبر جديد جدا ، أوقفنا عليه ابن العديم ، والمقريزى كما فى السفر الثانى فى تراجمه ٢ : ٢٤٩ رقم : ٤ ، ٢٩٥ ، رقم : ٦٦ / ٣٥٠ ، رقم : ١٧ .

٤ — أول لقائه بأبى العشائر الحمدانى ، ثم لقاءه سيف الدولة ، من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ . [انظر من ص ١٨١ ـ ٢٢٣]

٥ — حبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم فراقه سيف الدولة إلى مصر من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٤ ، وكانت فيها وفاته .

[انظر من ص [٢٢٥ ـ ٢٥٠]

٦ — مجيئُه إلى مصر ، وبقاؤه عند كافور الإخشيدى ، ثم فراره من مصر ، ورجعتُه إلى الكوفة ، ثم إلى فارس عند ابن العميد وعضد الدولة ، ثم مقتله = من جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، وخروجه من مصر يوم عرَفة (٩ من ذى الحجة) سنة ٣٥٠ ، ثم دخوله الكوفة سنة ٣٥١ ، ثم سائر رحلته إلى يوم مقتله بالعراق عائدًا من فارس فى ٢٧ من شهر رمضان سنة ٣٥٤ .

[انظر من ص ٢٥١ ـ ٢٨٩] .

٧ — شخصيَّة أبى الطّيب : منذ كان بالكوفة طفلاً ، ثم صبيًّا ، ثم فتًى يعرفُ طرفًا من أنه علوىُّ النَّسب ، ولكنه مرغمٌ على كتمان هذا النسب . ثم ثورةُ نفسه واضطرامها فى هذه المدة ، ثم يفارق الكوفة إلى الشَّام ، فينفِّس عن ثورته بإظهار علويته ، فيقبض عليه العلويون ويحبسونه ، فييأسَ من أمرِ علويته ، فتنقلب هذه الثورة إلى ثورةٍ عربىٍّ ثائرٍ لعربيته على حكم الأعاجم الذين يسيطرون على دولة الخلافة كُلِّها ، فيظل بقية حياته إلى أن يموت ، تحرِّكه هذه الثورة لعربيته ، فأفصحت هذه الثورة

عن نفسها ، وأفصحَ هو عَنْها فى أبيَاتٍ كثيرةٍ من شعره ، وأفصحتْ هى عن نَفْسها بأساليب مختلفةً : فى تركه مدح كثيرٍ من رجالات زمانه ، ممَّن التف حولهم غيرهُ من الشعراء ، كالخلفاء فى زمانه [انظر هذا ص : ٩٨] = أو فى حركة وِجدانه التى يحدِّدها تذوّقُ شعره على مَدَى أربعين سنة ، من سنة ٣١٤ ، إلى مقتله سنة ٣٥٤ : تخبو حيناً إذا لم يكن له فى الذى يمدحه رَجاء يرضى هذه الثورة العربية الكامنة فى نفسه ، وتتألّق حيناً آخر تألُّقاً ظاهرًا حين يكون له فى ممدوحه رَجاء يحرِّك هذه الثورة أو يُدْنى من بلوغ آماله فيها . هذا جانبٌ من شخصيّة أبى الطيب الذى أظهره تذوق الشِّعر وبعض الأخبار .

٨ — أمّا الجانب الآخر من هذه الشخصية ، وهى العواطف التى لا يخلو منها بشر ، كحبِّ الأب والأمّ والجدّة ، وحبِّ الزوجة ، وحبِّ الوَلَد والعيال ، وحُبِّ امرأة بعينها يغلبُ حبّ هؤلاء جميعاً وينفردُ بسلطانه على النَّفس = فقد استعلن حب الوالدين فى حبِّه لجدته كما استظهرته بتذوّق الشعر وبعض الأخبار فى مواضع متفرقة من الكتاب = واستعلن حب الزوجة والولد والعيال ، كما تذوّقته من شعره [انظر ص : ٢٠٨ ، ٢٠٩] = واستعلن حب المرأة فى حديثى عن « خولة » أخت سيف الدولة ، كما تذوّقته فى مواضع متفرقة من شعره ، وإن لم يكن فى أيدينا عنه خبرٌ البتة .

* * *

الفقرة الأولى والثانية

أما الفِقْرة الأولى من «عمود الصورة»، والتى تتضمّنُ القول بأن أبا الطيب «علوىٌّ» النسب، والفقرة الثانية التى تتضمّن القول بإبطال دعوى «النبوّة» وأن «المتنبّى» لقبٌ لاغير، [1] فهما متداخلتان. والقول بأن «المتنبى» علوىُّ النسب، قولٌ لم يسبقنى إليه أحدٌ من القدماء ولا المحدثين، ولا جاء به خبرٌ يدلُّ عليه، أو يعينُ على افتراض هذا الفرض من قريب أو بعيد. فكيف جاء إذن، وكيف صارَ جزءًا من «عمود الصورة»، لا، بل هو الصورة كُلُّها، فإذا فُقِد بطلت فِقَار «عمود الصورة» جميعاً بُطلانا كاملاً؟

فى خلال تذوُّق شعرَ أبى الطيب، فى القراءة والأولى والثانية والثالثة، استرعَى انتباهى أمرٌ غريبٌ جدًّا، لم أجدْ له تفسيرًا قطُّ فى أخبار أبى الطيب. وأبو الطيِّب كُوفِىٌّ، والكوفة يومئذ دارٌ من ديار العلويين يكثرون بها، فلم يكن غريباً ولا عجيباً أن تكون القصيدة الأولى فى الديوان (وعدد أبياتها: ٤٣ بيتاً) = هى الأولى، لأن قبلها مقطوعتان، أولها ثلاثة أبيات، والأُخرى بيتان. وقد نصَّ الديوان على أنها مما قال فى صباهُ = قالها يمدحُ بها رجلاً «علويًّا» هو «محمد بن عبيد الله العلوىُّ»، قالها فيما استظهرت سنة ٣١٨: قبل خروجه من الكوفة، [انظر هذا س: ٢٧ تعليق:

(١) انظر السفر الثانى فى ترجمته لابن العديم، ورقم: ٩، س: ٢٥٢، ٢٥٣، حيث روى خبراً عن المتنبى نفسه، فى سبب تلقيبه بالمتنبى، وهو خبر جديد لم يقع فى أيدى الناس من قبل.

١ ، ٢] ، وبتذوُّقها رأيتُ أنّه من لِدَات أبي الطيب ، وأنه كان يحبُّه ويجلُّه ويحفظُ له ما أسدَى إليه من معروف أو صنيعةٍ . لم يشغلني ذلك كثيراً ، فلما انتهيْتُ في تذوّق إلى ما قاله في سنة ٣٣٦ ، حين قَدِمَ على ابن طغج بالرملة ، فقال له : إني لفظتُ الناس لما بلغتُك ، لَفْظَ المسافرِ حُثالةَ زادِه ، إذا نَزَل أرضًا كثيرة الخير موفورته :

وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلاً وتُربةً بها « عَلوىٌّ » جدّه غير هاشمِ

أي أنه دعىٌّ من الأدعياء لا علويّ ، فاستوقفني ذمُّ هذا « العلوىّ » ذمًّا صادرًا من نفسٍ جريحةٍ ، ثم لم أكد أمضى في قراءة المقطوعات بعد هذه القصيدة ، حتى رأيت شراح ديوانه يذكرون أن ابن طُغجٍ ظَلَّ يحاور أبا الطيب ويداوره ويرجوه مرة بعدَ مرةٍ أن يقول قصيدة يمدح بها صاحبه : «أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوىّ » ، فبعد لأْيٍ ما استجابَ له أبو الطيب ، وقال يمدح هذا « العلوىّ » ، ولكنه يذكُرُ في هذا المدح ذمًّا قبيحًا ذمَّ به ذاك « العلوىّ » ويفسِّر سببَ ذمِّه ، فيقول قبل أن يدخل في المدح :

أَتَانِي وعيدُ الأدْعِياء وأنهم أعدُّوا لى السُّودان في كفر عاقبِ
ولو صدقوا في جَدِّهم لَحَذِرْتُهم فهل فيَّ وحدِى قولهُم غير كاذبِ ؟

فليس إذن ، « علويًّا » واحدًا ، بل « علويّون » ، أرصدوا له فتيانًا شدادًا سُودًا ليقتلوه عند مروره بكفر عاقب ، في طريقه إلى ابن طُغْج ، ثم أبيات أخرى كثيرة [انظر هذا ص : ٢٨ — ٣٣] ، فوجدتُ ههنا شيئًا مناقضًا للذى وَقَرَ في نفسى منذ أوّل الديوان . ثم انطلقتُ حتى فرغتُ

من تذوق الديوان ، ولم أر للعلويين بعد ذلك ذكرًا صريحًا فى شعره .

فلما عزمت على جمع أخبار أبى الطيب وقراءتها كما قلت آنفاً ، [ص : ٥٤، ٥٥] ، وأخذتُ رسالة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، [انظر ما سلف ص : ٥٠ ، تعليق ١] ، وهى « زيادات ديوان شعر المتنبى » دلّنى على ترجمة لأبى الطيب فى خزانة الأدب للبغدادى [١ : ٣٨٢ وما بعدها] ، فاستوقفنى قول الأصفهانىّ الذى قال فى ترجمة أبى الطيب : « إن مولد المتنبى كان بالكوفة ، فى مَحِلّة تعرف بكِنْدة ... واختلف إلى كُتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلّم دروس العلويّة لغة وشعرًا وإعراباً »[1] ، فأيقظ هذا الخبر ما كان خافياً فى نفسى من أمر الملاحظتين السابقتين وتناقضهما . ووجدته أمرًا ملحًّا أن أطْلُب فى تراجم أبى الطيب ، وفيما قدَّم به لبعض قصائده ، ما يكونُ من ذكرٍ للعلويين ، أو للكوفةِ . وفى هذا الطلب وجدتُ بعض الروايات التى تحدّثنا عن أبى الطيب ، وعن نشأته ، وعن أبيه « عِيدَان السَّقّاء » ، وعن « نبوّته » يُرْوى عن رجال من العلويين والهاشميين . ووجدت أيضًا أنّ الذى قبض عليه وسجنه علوىٌّ أو هاشمىّ ، وأشياء أخرى متنوِّعة . فساورتنى الرِّيَب ، والتمست تفسيرًا لهذا كلِّه . ثم وجدتُ فوق ذلك أن بعضَ الذى يروى هذه الأخبار عن العلويين ، كان علوىَّ الهوى أيضاً ، ومضيتُ أستقصى وأُفَلِّى ، وأتذوق الأخبار ، وأتذوّق الشعر مرةً بعد مرةٍ ، لعلِّى أجد شيئاً يهدينى إلى علاقة هذا الكوفىّ الشاعر ، بالعلويين الذين كانت ديارهم هى الكوفة مسقط رأسه ، وفيها منشؤه إلى أن جاوز السابعة عشرة .

---

(١) انظر تصحيح نص هذا الخبر فيما يلى من كتابنا ١ : ٤١ ، تعليق : ١ .

وبعد تردُّدٍ طويل وحيرةٍ، بين دلالة تذوّق الأخبار، ودلالة تذوُّقِ الشعر، لم أجد مناصًا من أن أفرضَ فرضًا يزولُ به هذا الغموض الذى يكتنف حياة هذا الشاعر، ويرفع اللثامَ عن مكنون شعره الذى دلَّنى عليه التذوق. وأخذتُ هذا الفرض، وعرضتُ عليه شعر أبى الطيّب كُلَّه متذوّقًا متأنّياً، فَلاَن لى عصيُّه واستقام مُعْوَجُّه، وأسفر كلُّ ما كان عليه نقابٌ وحجابٌ، وتحرَّك كلُّ ماتذوَّقته من شعره، وتحرَّكت معه أخباره. فعندئذ بلغتُ حدَّ القطع بأن أبا الطيب «علوىّ» النسب فرضًا يشبه الحقيقة إلا الفضلُ فى ذلك كُلِّه لخبر الأصفهانى الذى ذكر فيه «أولاد أشراف الكوفة». وقد قامَ «عمود الصورة» كلها، كما رأيت، على هذا الذى ادّعيتُه، وليسَ فى يدى شىء غير لفظ الأصفهانىّ، ثم دلالات شعر أبى الطيب. وكذلك أعملتُ هذا الفرضَ الجرىء الذى لاسابقَ لَهُ عند أحدٍ ممن كتب عن أبى الطيب، وجعلتُه محورَ حياته كُلِّها إلى أن قُتِل، فكنتُ أوّل من شكَّ فى نسب أبى الطيب الذى رواه الرّوَاة، ولكنّى لم أقف عند الشكِّ المجرّد، كما ذهب إليه من قلّدنى،[1] بل أبنتُ عن علّة الشكّ، لأُثبت مكانَهُ حقيقة أخرى، دلّنى عليها شعرُه ومواقفه فى حياته كُلِّها، مما كان له ارتباطٌ وثيق بعلّة الشكّ.

وظهر كتابى بعد ذلك، واستنكر علىّ كثيرٌ من الناس ماقلتُ، حتى أستاذى الرافعىّ، فإنه تردّد فى قبوله، ولكنّه لم يستطع أن يجدَ حُجَّةً تردُّ قولى، كما أخبرنى بذلك، بعد أن كتب كلمته عنه فى الر . . انظر السفر

(١) هو الدكتور طه حسين، كما ترى فى السفر الثانى.

الثانى : ٢٤٤] ، وقال لى : إنّى لم أستطع أن أذكر « علوية » أبى الطيّب صراحةً ، وقنعتُ بأن أقول إن روح أبى الطيب كانت تلازم الكاتب : « تدلّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ... وتبصِّرُه أشياء كانت خافيةً وكان الصدق فيها ، ليردّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب » ، وقال : أليس هذا كافياً ؟ هذه موافقةٌ على رأيك ، وفيها توثيقٌ متلفِّعٌ بالحذَر ! وليت الرافعىّ لم يحذَرْ !

فقد مضت الأعوام من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٨ ، وقد نسيت المتنبّى وأهملتُ كُلّ ما كتبته عنه ، وذات يومٍ دخَل علىّ يتهلّل وجْهُهُ ، وتنيرُ أساريرُه ، صديقى وتلميذى ، وأستاذى فيما بعد ، الأستاذ أحمد راتب النفاخ ، وهو اليوم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومدَّ إلىّ يده بورقات مكتوبة بخطّه (١٢ ورقة) ، نقلها عن ظهر نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى » ، لأبى سعد محمد بن أحمد العَميدىّ (توفى سنة ٤٣٣هـ) ، ونقلها ناسخ النسخة من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) وقال فى أولها : « هـذه نبذةٌ من أخبار أبى الطيب المتنبّى رحمه الله تعالى ، مما أورده ابن عساكر فى ترجمته » ، ومجرّد وجود ترجمة المتنبى منقولة عن تاريخ دمشق لابن عساكر ، كنزٌ لا يقدّر ، لأن تراجم الأحمدين (أى من يسمّى أحمد) ، مفقودة من جميع مخطوطات تاريخ دمشق ، وقد نشرتُها فى السفر الثانى من كتابى هذا [السفر الثانى : ٣١١ — ٣٣٨] .

أما المفاجأة التي ملأت نفس أخي بشراً ، وأنارت أساريرَهُ بشاشةً ، والتي هزّتني فأيقظَتْ مامات بالإهمالِ من أمر المتنبي ، فهو ما نقله ابن عساكر عن أبي الحسن الرَّبَعِيّ صاحب أبي الطيب فقال :

« الذي أعرفُه من نسب المتنبّي أنه : أحمد بن الحسين بن « مرة بن عبد الجبار الجُعْفِيّ ، وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث وثلثمئة ، وأرضعته امرأة علويةٌ من آل عبيد الله »

[السفر الثاني : ٣١٣ ، ٣١٤ ، رقم : ٣]

وكانت مفاجأة مذهلة ! ومضت أعوام بعد ذلك ، وفي سنة ١٩٦٢ ، فيما أذكر ، تلقيت أيضاً من أخي الكريم أحمد أوراقاً مصورة من كتاب ابن العديم (٥٥٨ ـ ٦٦٠ هـ) « بغية الطلب » من نسخة بخط ابن العديم نفسه ، محفوظة بمكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية ، وهي من الجزء الأول ، وفيها ترجمة أبي الطيب (من الورقة ٢٥ إلى الورقة ٥٢ ، إلا الورقة رقم ٤٤ ، فهي بياض بالأصل ، أي اثنتان وخمسون صفحة) ، وهي أطول ما عندنا من تراجم أبي الطيب ، وقد نشرتها في السفر الثاني من ص : ٢٤٧ إلى ٣٠٩ :

فكانت لي في هذه الورقات مفاجأة أخرى ، بل مفاجآت أخرى كثيرة ، لأنها تتضمّن ، قبل كُلّ شيء ، توثيق ما جاء في ترجمة ابن عساكر المسطورة على ظهر كتابٍ ، توثيقاً يرفعُ كُل ريبة ! قال ابن العديم :

« أخبرني صديقنا أبو الدُّر ياقوت بن عبد الله الرومي ، مولى

« الحموىّ البغدادى قال : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبى
« بخط أبى الحسن علىّ بن عيسى الربعىّ ، قال فى أوّله :
« الذى أعرفه عن أبى الطيّب أنه : أحمد بن الحسين بن
« مُرّة بن عبد الجبار الجُعْفِىّ ، وكان يكتم نَسبه ، وسألته عن
« سبب طَيّه فقال . . . وهذا الذى صحّ عندى من نسبه ،
« قال : واجتزتُ أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله
« السّلامىّ الشاعر ، على الجسر ببغداد ، وعليه من جُملة
« السُّؤّال رجلٌ مكفوفٌ. فقال لى السّلامى: هذا المكفوف
« أخو المتنبّى ا[1] فدنوتُ منه فسألته عن ذلك فصدّقه ،
« وانتسب هذا النسب وقال : « ومن هنا انقطع نسبُنا » .
« وكان مولده بالكوفة سنة ثلاثٍ وثلاثمئة ، وأرضعته
« امرأة « علوية » من آل عبيد الله » . [السفر الثانى :
٢٥١ ، ٢٥٢ ، واختصرت موضع النقط]

وإذَنْ فالفرض الذى افترضتُه ، والذى استثارهُ خبرٌ لا يعينُ ظاهرُ لفظِه ، إذا انفرد ، على مثل هذا الفرض ولا يوجِّه إليه ، وهو قول الأصفهانى : « واختلف [يعنى أبا الطيب] إلى كُتّابٍ فيه أولادُ أشراف الكوفة » ، لم يكنْ جُزافًا محضًا ، كما قال لى يومئذ مواجهًا ، أحد الأساتذة الذى

(١) أخو المتنبى لم يذكره أحد من مترجمى المتنبى ، لا قديماً ولا حديثاً بلا شك ، فهذه مفاجأة أخرى .

كتب بعدى كتاباً عن المتنبى صدر بعد كتابى بأشهر ، وعارضنى فى كتابه متجاهلاً لما كتبتُ ، فلم يذكرنى إلا مرَّةً واحدةً فقال عنى : « كاتب المقتطف » .[1] لم يكنْ جُزَافاً ، بل كان دليلاً على أنّ منهجى الذى انتهجته منذ قضيّة الشعر الجاهلىّ ، فى قراءة الشعر وتذوّقه ، وجَعْلِه مهيمناً على الأخبار ، كما قلت آنفاً = كان منهجًا مستقيماً ، لا فى دراسة الشعر فحسب ، بل فى نقد الأخبار أيضًا ، وإدراك دلالتها على فساد نيّة رُواتها أو سلامة هذه النية ، كما تراه مفصَّلاً فى كتابى هذا !

أمّا هذا النصُّ المفاجىء ، فهو صريحُ الدلالة على عُمق علائق أبى الطيب بالعلويين منذ كان رضيعاً بين حرائر نسائهم اللواتى أرضعنه ، أو أرضعته إحداهنّ ، إلى أن نشأ وتعلم فى كتّاب فيه أولادُ العلويين الأشراف ، إلى أن صار فتًى فى الخامسة عشرة ، يمدحُ علويًّا ، من آل عبيد الله أيضاً ، كما رأيت . هذا النصُّ هو الذى نصَر فرضى نصراً مؤزّراً ، وألحقه بالحقيقة المقررة ، كما توقع الأستاذ فؤاد صروف فى مقدمته .

وإذنْ ، فالمتنبّى ، الذى وُلِد بالكوفة ، دار العلويين ، واختلفَ إلى كُتّابٍ فيه أولاد أشرافها العلويين = إلاّ يكن « علويّ » النسب من أنفسهم صَلِيبةً ، فهو « عَلَوِيٌّ » ، رَضاعاً ، أى هو أخوهم من الرضاع ، والرَّضاع لُحْمةٌ كلحمةِ النسب ، ولذلك حرّم الله به مايحرِّم النسبُ . وكذلك يكونُ

---

(١) هو الأستاذ عبد الوهاب عزام ، صاحب كتاب : « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » .

بعد ذلك عجبًا من العجب : أن يكون أوَّلُ شعره ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره منبئاً عن حُبٍّ ظاهر لِتِرْبه « محمد بن عبيد الله العلوىّ » وللعلويين جميعاً ، فهو :

خيرُ قريش أبًا وأمجدُها ، أكثرُها نائلاً وأجْوَدُها
تاجُ لؤىِّ بن غالبٍ ، وبه سما لَهُ فرعُه ومَحْتِدُها
قد أجمعتْ هذه الخليقةُ لى ، أنَّك ، ياآبن النبىِّ ، أوحَدُها
وأنكَ ، بالأمسِ كنتَ محتلِماً ! ، شيخُ معدٍّ وأنتَ أمردُها[1]

= ثم تدلُّنا الأخبارُ بعد ذلك عن تَمَنُّعه وتحرُّجه من مدح علوىٍّ آخر فى سنة ٣٣٦ !! لا ، بل فى إصراره على أن يعرِّض ببعض العلويين الذين أرادوا قتْله بكفرعاقب ، ويسمِّيهم «الأدعياء » ، ثم يرمى بهذا كُلِّه فى وجه العلوىّ الذى اضطرَّه ابن طغج إلى مدحه ، كما أسلفت . لا ، ليس هذا فحسبُ ، فإن المتنبى يومئذ لم يبلُغ من الشهرة مبلغاً (سنة ٣٣٦) ، ومع ذلك فإن هـذا الشريف العلوىّ يتلقَّاه بعد تَمَنُّعه ، فيقوم له عن مجلسه أمام الناس ، ويُجلِسُه ويجلسُ هو بين يديه يسمع هذا الشعرَ ، حتى عجب الناسُ مما فعل من فعلٍ

(١) هو اختيار من أبيات القصيدة جملته متتابعاً . وقوله « وأنك » مخففة النون من « أنك » المشددة . وضبطت أنا « شيخ » بالضم ، على خلاف ماهومضبوط فى جميع دواوينه ، على أنه خبر « أن » كأنه قال : وأنك شيخ معد وأنت أمردها ، وبالأمس كنت محتلماً != على التعجب المعترض بين « أن » وخبرها . وانظر ما قالوه فى إعراب « شيخ » على أنه خبر « كنت » ، وأن « محتلماً » حال من كنت ، ومابقى ذلك من التوجيه فى شروح الديوان .

غير معهودٍ، ثم يجزلُ له العطاءَ، ويقولُ أحد شهود هذا المجلس: «ما رأيتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب»! هذا كُلُّه عجبٌ يستخرجُ دهشة المتأمل.

= لا، بل إن ابن العديم نفسَهُ، أيَّدَنى فى نقد الخبر رقم: ٩٧ [السفر الثانى: ٢٩٥، ٢٩٦]، فقال: «وسنذكر فى ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر، حكايةً عن الخالديين، (قلت: كانا صاحبين للمتنبي، وهو مع سيف الدولة)، تدل على أن المتنبي كان مخالفاً للشيعة»، فهذا تأييدٌ أكبرُ لما استظهرته من عداوته لهم.

= لا، بل إنه يروى أيضاً فى الخبر رقم: ٥٠ [السفر الثانى: ٢٨٢، ٢٨٣] حديثاً جَرَى بين المتنبي، وبين بعض أشراف الكوفة»، رواه الإمام أبو الحسن على بن محمد الفصيحىّ (٠٠٠ - ٥١٦ هـ) فقال: «قدم بعض الأشراف من الكوفة، فدخل إلى مجلسٍ فيه المتنبي، فنهض الناس كلُّهم سوى المتنبي، فجعل كُلُّ واحدٍ من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدّد هناك، فقال المتنبي: ياشريف، كيف خَلَّفْتَ الأسعارَ بالكوفة؟ فقال: كُلَّ راويةٍ برطلين خُبْزٍ! فأخجله، وقصد الشريف أنْ يعرِّض بأنَّ أباه كان سقّاء».

فهو، كما ترى، لم يقم للشريف الكوفىّ وقد قام أهل المجلس، على غير ما يوجبهُ أدب المجالس، وهذا دليلٌ على ازدراءٍ طافحٍ، وشنآنٍ مضطرمٍ

فى أغوار النفس . ولو سكت المتنبى فلم يسـألْهُ كما سأله سائر أهل المجلس ، لكان تركُ القيام كافياً فى إظهارِ مافى نَفْسه لهذا الشريف الكوفىّ ، وفى إيذائه علانيةً ، ولـكنه أرادَ أن يشفى غليل ازدرائه وشَنَآنه ، بالهُزْء به والسخرية مواجهة وكِفاحاً ، فابتدر مع ذلك أيضاً يسأله كما سأله أهل المجلس ، وتَرَكَ السؤال عن أخبار مسقط رأسِه التى تجدّدت منذ فارقها قديماً ، وسأله عن أسواقِ الـكوفة وأسعار البيع والشراء فيها ، استهزاءً به ، وإنزالاً له من منزلة « الأشراف العلويين » إلى منزلة سماسرة الأسواق وتجارها !! وكان فى هذا الخبر أيضاً الدليلُ البيِّنُ على أن مصدَرَ القول بأن أبا المتنبى كانَ « سقاء » يبيع الماء بالـكوفة ، هُمْ هؤلاء العلويون أيضاً ، كما بيَّنتُ ذلك فى كتابى هذا [١ :ــ ١٤ ــ ٢٦] ، وذلك بيِّنٌ فى جواب الشريف العلوىّ الذى أجابَهُ به .

وهذه كُلُّها أدلةٌ متظاهرةٌ جاءت من وراء الغَيب ، لكى تدلّنى على أن منهجى فى « التذوّق » يفضى إلى كشف الحُجُب عما طَمَره غُبَار السِّنين ، وما يستُرهُ تكذُّبُ الرواةِ ذوى الأهواء = وأنِّى كنتُ ، بتوفيق الله ، مُصِيبًا فى فَرْضِى « علويةَ » أبى الطيّب ، مستهدياً بهذا التذوّق = وأنِّى حين أعملتُ هذا الفرضَ وحكّمْتُه فى نقد أخبار نبوّته [هذا السفر ص: ٧٧ــ٩٢] ، وانتهيت إلى رفض « النبوّة » رفضاً باتًّا بلا مَثْنَوِيّة (أى بلا استثناء) ، كنتُ موفقًا بحول الله وقوته ، ولم أكنْ جائراً عن الحقِّ ، حين عددتُها مما افتُعِل افتعالاً ، وأُقحِمَ فى خلال الأخبار التى ذُكِر فيها أنه إدَّعى « العلوية »

إقحامًا خبيثًا ، لستر الحقيقة التى تضمنتها هذه الأخبارُ ، وذلك كالخبر الذى يقولُ إن المتنبى : « ادعى أنّه علوىّ ، ثم ادّعى النبوّة ، ثم عاد يدّعِى أنه علوىٌّ » ،[1] وسياقُه يدلُّ على أنه أدخلُ فى باب « المُحالِ الكَذِب » ، من المثل الذى ضربه سيبويه حيث قال : « وأمّا المحالُ الكذبُ فأن تقول : سوف أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ » [انظر نقده فى هذا السفر ١ : ٨٥ - ٨٧].

ولما صارَ الأمرُ بيّنًا يومئذ عندى ، أتممتُ القول فى الفقرة الثانية من « عمود الصورة » [هذا ص : ٩٢ - ١١٦] ، وهو سياقٌ مهمٌّ جدًّا ، لأنّى ضمّنتُه أظهر عُنْصر فى شخصية أبى الطيب ، كما وصفتها فى الفقرة السابعة [انظر ماسلف ص : ٦٧ ، ٦٨] ، حين تحوّلَ من « علوىٍّ مطالبٍ بنسبه » إلى « عربىٍّ ثائر لأمّته » .

وأختم قولى هنا بشىء لايسوءنى ، ولكنى أعيبُه على كثير ممن يكتب عن المتنبى ، حين يذكر أمر « العلوية » فيما يكتب ، كأنها مسألة مقرَّرة متّفقٌ عليها فى الذى تلقّيناهُ عن رواة أخبار المتنبى من القدماء ! فإذا بدا لأحدهم أن يذكر مرجعًا ، لم يذكر إلاّ مرجعًا نقل عنّى هذا الرأى واستخدمه فيما يكتب !! وأنا لا أبالى بهذا الإغفال ، لأنّ الإغفال لايقدحُ فى عملى ،

---

(١) ناقش الأستاذ عبد الوهاب عزام فى كتابه عن المتنبى أخبار هذه النبوة ، فصار يتابعنى خطوة خطوة ، دون أن يشير إلى كتابى ! ولم يستنكف ، حين ناقش هذا الخبر ، أن يأخذ عنى لفظ « الإقحام » حيث قال : « فدعوى النبوة فيه مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية ، وكأنها مقحمة فى الرواية » ، وعلى أنها عبارة سيئة ، فهى فعل سيء أيضاً ! ! وانظر هذا السفر ص : ٨٧ ، س : ٧ ، ثم ص : ٩٢ ، س : ٦.

وإنما يقدحُ فيهم هم أنفسهم ! ولكن ، هكذا زمانُنا وأهله ، كما وصفته ، ووصفتُهم فى أوائل هذه القصة .

* * *

(٣ ، ٤ ، ٧) الفقرة الثالثة والرابعة والسابعة

كانت « علوية » أبى الطيّب فرضًا فرضتُه ، واستدللتُ عليه بأدلّةٍ بيّنتُها فى كتابى ، ثم أصبحت الآن ، بحمد الله ، أشبه بالحقيقة كما رأيتَ آنفاً . وكان التناقُضُ ظاهراً بين شخصيته التى يُكوِّنها تذوّقُ شعره ، وبين شخصيته التى يَدلُّ عليها تذوّق أخباره ، فصار الفرض الذى فرضته قادراً على إزالة هذا التناقض ، وعلى كشف بعض الغُموضِ الذى يحيط ببعض شعره وببعض أخباره . وكان من أخباره التى حيَّرتنى أن أبا الطيب كان « يكتُمُ نَسَبه ويَطويه عن الناس » ، وكانت هذه حقيقةً يدلُّ عليها تذوُّق شعره دلالةً بيِّنة ، بل أكثرُ من ذلك : أن الشعر والأخبار جميعًا يدلّان على أنه كان يُسأَلُ عن نسبه . أما شعره ، فيجيب سائلَه بالازدراء والازورار والتعالى والثقة ، وأن فخره بنفسه لا بجدوده ، وإن كانوا هم فخرَ العرب جميعاً ، وأشباه ذلك فى مواضع متفرقة من شعره صغيرًا وكبيرًا . وأما أخباره ، فالسائلون عن نسبه يزعم كُلٌّ منهم أنه أجابه بجواب عن علّة كتمان نسبه ، وهى أجوبة متباينة غير مقنعة ، كما تراها فى أخباره ، ولكنها تحمل أيضاً معنى الذلّ

والاستخذاء والحيرة ، وهو تناقض مُريب . هذا على أن « كتمان النسب » هو فى ذاته أمرٌ محيِّرٌ ، فإنى لم أجدْ له مثيلاً أو شبيهاً فى تراجم الشعراء ، ولا فى تراجم الرجال ، لا فى عصره ، ولا فيما قبل عصره . وإذا كان الكتمان مما يجوزُ أن يفعلَهُ الرجل مرّةً أو مراتٍ ، وهو يجوب البوادى ويطويها ، فإنه غير جائزٍ ولا مفهومٍ أن يفعله رجُلٌ وُلِدَ بمدينة كالكوفة ، ونشأ بها ، وبقى فيها حتى بلغ السابعة عشرة من عمره ، فأهلها يعرفون من هو = فإذا ما نزل مدينة أخرى كالمدن التى أقام بها فى الشام أو فى العراق أو فى مصر ، كتمَ هذا النسب ، ولعل آلافًا من أهلها ينتسبون إلى نفس القبيلة التى ينتسبُ إليها ، ولكنّهم لا يكتمونَ أنسابهم كما يكتم هو نسبه ، ولا يتخوّف أحدُهم ثأرًا ولا طائلةً من أحدٍ ، فأىُّ شىء يلجىء إلى الكتمان ؟ .

كان هذا « الكتمان » غريبة من الغرائب ، ولم يصبح جائزًا أو مفهومًا إلاَّ مع الفرض الذى فرضتُه . فكذلك صار كتمانُ أبى الطيب نسبته « العلوية » ، وصارت أسبابه وعلله ، جزءًا لا يتجزّأ من شخصية أبى الطيب ، لأن النسب « العلوىّ » ليس عارضًا يزول بزوال أسبابه ، بل هو لاحقٌ لمن وُلِد « علويًّا » ، وهو قائم أبدًا فى نفس صاحبه لا يزايله ، سواء عادى « العلويين » وكرههم ، أو صادقهم وأحبّهم . فإذا كان صاحبُه مرغمًا على إخفائه وكتمانه ، ولكنه مُصِرٌّ إصراراً على محاولةِ إظهاره ، كما فعل أبو الطيب ، ثم طوّقته أغلالٌ تؤُودُهُ ، فلا شكّ عندئذ فى ظهور أثر هذه المعاناة فى حياته وفى شعره خاصةً .

وعلى ذلك ، فقد صار لزاماً عليَّ أن أعود فأرتِّب شعره كُلَّه منذ سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، وهو القسم الأول من الديوان ، ترتيباً جديداً يجعلُ حركةَ وِجْدانه فى شعره متَّسِقةً مفهومة ، على اختلاف أحواله ورحلاته فى مدة تزيدُ على عشرين سنةً من حياته . فلمّا فعلتُ ذلك تبيّن لى ، فى إعادة قراءة الديوان ، أنّ أكثر الغوامض المبهمة فى ديوانه قد تبدَّدت وزالتْ ، وتجلَّت لى شخصية أبى الطيب واضحةً ، وصارت حركةُ وِجْدانه فى شعره ظاهرة متسقةً فى تردّدها بينَ الثَّورة والُخمود حيناً ، وبين الأَمل واليأس حيناً آخر ، تبعاً للأَحداثِ التى مَرَّ بها فى خلال عشرين سنة ، وهى أحداَاثٌ لا نكاد نجد فى تراجمه خبرًا يدلُّ عليها ، وإنّما يستنبطُها تذوُّق شعره لا غيرَ . وعندئذٍ تبيَّن لى سياقُ هذا « الكتمان » الذى لا أجدُ له شبيهاً أو مثيلاً فى عصره ، فإنّ أبا الطيب وُلِدَ بالكوفة فى ديار العلويين ، وبقى بها حتى كَبِرَ ، وفى سنة ٣١٧ تقريباً مَدَح علويًّا مدحاً يدلُّ على شدة التعلُّقِ والحبّ وحفظ جميلِ أياديه عليه ، [انظر ما سلف قريباً ص : ٧٦ ، ٧٧] . ثم علم بعد زَمانٍ من جدّته أمر « علويَّته » ، فقلق وأَنِفَ أن يبقَى أمرُها مكتوماً ، ولكنَّهُ لم يستطعْ إلاّ أن يفارق الكوفة إلى الشام فى أواخر سنة ٣٢٠ ، وحاول أن يظهر أمر « علويَّته » ، فجمع جموعاً من المقاتلة تَنْصُره على إظهار نسبته العلوية ، فأُخِذ وسُجِنَ .

وهو حين دخل السجنَ فى سنة ٣٢١ ، إنما دخله « علويًّا » مطالباً بإظهار نسبته إلى « العلويين » ، وكان الذين أدخلوه السجن وقيّدوه وآذَوْه

وساموه الخسف جماعةٌ من «العلويين» . والذى لقيه من السِّجن وفى السِّجن على أيديهم، كانت قسوته وشراستُه كافيةً فى تذكيره بقوَّةِ هؤلاء «العلويين»:
فلما أُطْلق سراحه وخرج فى سنة ٣٢٣، خرج من السجن «علويًّا» كارهًا للعلويين مُزْوَرًّا عنهم، أو كما يقول ابنُ العديم: خرج «مخالفاً للشيعة»، وأضمر هذه الكراهة وانطوى عليها .

ولكنّ جدته استدعتْهُ بعد ذلك إلى الكوفة، فترك الشام، سنة ٣٢٥ تقريباً، وبقى بالكوفة زمناً، ولكنه أُكره على الخروج منها، فعاد إلى الشام فى سنة ٣٢٦، ثائراً يائسًا، يملأ شعرهُ تهديدًا ووعيدًا، ولكنه لا يملكُ إلا «الكتمان»، وما هو إلا التلويحُ دون التصريح، فلم يأتِ فى شعره الذى قاله منذ سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٣٥ لا للكوفة ولا للعلويين ذِكرٌ، ولا لمطالبته بإظهار نسبه بيانٌ .

ثم إذا بنا نفاجأ فى سنة ٣٣٥، بشعر فيه تهديدٌ ووعيدٌ ومطالبة ظاهرة، وذلك حيث خالف سنّة الشعراء، فافتتح مديح على بن سيّار بن مكرم التميمىّ، بمديح نفسه أوّلاً، فى قصيدته التى أولها:

أقلُّ فَعَالِى، بَلْهَ أكثرَهُ، مَجْدُ ... وذا الجِدُّ فيه، نلتُ أو لم أنَلْ، جَدُّ
سأطلبُ «حقِّى» بالقنا ومشايخٍ ... كأنَّهُمُ من طُولِ ما التثموا مُرْدُ[1]

---

(١) راجع القصيدة فى ديوانه، فهى كثيرة الدلالات على ما نقول .

وهذا منعىً وعملٌ وتهديد ووعيدٌ ، وأنه سوف يطلب حقه بالسيف .
ثم نفاجأ مرة أخرى بذكر « العلويين » فى سنة ٣٣٦ ، بعد مضىّ ثلاث عشرة سنة ، منذ خرج من السجن سنة ٣٢٣ ، وأنّ العلويين كانوا قد أعدّوا له السّودان بكفرِ عاقب ليقتلوه ، وهو فى طريقه إلى ابن طغجٍ ، [انظر ماسلف قريباً ص : ٧٠] . ولا نكادُ نعلم لذلك سبباً البتة فى أخباره ، لِمَ فعلوا ذلك؟ بيدَ أن قصيدته التى قالها فى رثاء جدّته ، تكشف النّقاب عن هذه الحادثة وتدلُّ عليها وتفسّرها .

وذلك أن جدّته أرسلت إليه قبل ذلك بسنة تقريباً ، سنة ٣٣٥ ، تستجفيه وتشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها (من عشر سنوات ، سنة ٣٢٥) ، فتوجه إلى العراق ، فمنعه « العلويون » من دخول الكوفة ، فأرسل لها كتاباً يسألها المسير إليه ، حيث مُنِع وحُبِس عن دخول الكوفة ، فقبّلت الكتاب وفرحت فرحًا غامراً ، فلما أرادت أن تفعل ، أبلغها العلويون أنه قد ماتَ ، فحُمَّتْ وماتت غمًّا . وملأ أبو الطيب مرثيته لجدته بمعانٍ كثيرة ، يُفَسِّرها ويكشف غموضها الفرضُ الذى كنت افترضته ، والذى صار الآن أشبه بالحقيقة كما قلت .

وتمرُّ الأحداثُ بعد ذلك ، والنسب المكتُوم يحرِّكُ وجدانَ أبى الطيب ، وتتحوّل شخصيته تحوُّلاً ظاهرًا غريباً بعد ذلك ، كما سأفسّره ، ويبقى منعه من دخول الكوفة ، الذى أدّى إلى وفاة جدته ، كامناً يحرِّك وجدانَهُ ، حتى إذا كانت سنة ٣٥١ ، أى بعد ست عشرة سنة ، حين خرج من مصر ،

وقطع الفيافى والفلوات حتى بلغ الكوفة ، فدخلها ظافراً مُرَاغِماً للعلويين الذين سَامُوه الخسف من قديم ، فلم يكد يدخلها حتى قال :

فلمّا أَنَخْنَا رَكَزْنا الرِّما حَ بينَ مكارِمِنا والعُلَى
وبِتْنا نُقَبِّل أسيافنا ، ونمسَحُها من دماء العِدَى
لِتَعْلَمَ مصرُ ، ومَنْ بالعراق ، ومَنْ بالعواصِم ، أنّى الفتَى
وأنّى وَفَيْتُ ، وأنّى أبَيْتُ ، وأنِّى عَتَوْتُ على مَن عَتا
ومَا كُلُّ من قال قولاً وَفَى ، ولا كُلُّ من سِيمَ خسْفاً أبَى

وهذا بيِّنٌ جدًّا ، كما ترى . ولكن .... ولكن لم يكنْ « كتمان العلويّة » هو وحده سرَّ الفقرة الثالثة من عمود صورة أبى الطيب ، بَلْ كان له قرينٌ آخرُ لا يقلُّ عنه قُوّةً وتحريكاً لوجدانه فى شعره كُلِّه ، بل لعلَّه كان أقوى منه وأعمق أثراً فى حياته .

فالمتنبِّى ، قد وُلد بالكوفة سنة ٣٠٣ وبقى بها إلى أن جاوز السابعة عشرة من عمره سنة ٣٢٠ تقريباً ، وقال الشعر صغيراً ، من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٠ . ومع ذلك ، فالذى أثبته فى ديوانه من شعرٍ قاله فى مدة مُقامه بالكوفة صبياً لا يزيد على ٩٤ بيتاً : سبع مقطوعات عدد أبياتها ٣١ بيتاً ، وقصيدةٌ تفكَّه بإثباتها فى شعره متندِّرًا برجل كوفىٍّ يدّعى الفلسفة وأبياتها ٢٠ بيتاً ، وقصيدتُه التى مدح بها العلوىَّ الكوفىَّ ، وهى ٤٣ بيتاً . وهذه القصيدة والمقطوعات السبعُ ، تدلُّ جميعاً على همّة متميِّزة فى إتقان الشعر

منذ هذا الزمن المبكّر ، وتدلُّ أيضًا على همةٍ عاليةٍ موفورة الجدّ ، وعلى ثقةٍ شامخةٍ بالنفس ، وعلى طموحٍ بعيدٍ لايتردّد . ومع ذلك ، فهذا الشاعر المتقن العالى الهمة الطموح والواثق بقدرته ، لم يحرّكه ما حرك مئات من أقرانه الشعراء وغير الشعراء ، إلى فراق الكوفة الصغيرة الفقيرة ، تطلُّعاً إلى المجد والشهرة والصيت فى بغداد عاصمةِ العواصِم ، ومقرِّ الخلافة ، ومجتمعِ أصحاب السُّلطان والثروةِ والجاه .

لاَ ، بل قد دخل بغداد ، حدثنا هو بذلك فى خبرٍ رُوِى عنه ، ذكرته فى هذا السِّفْر (١ : ٦٨ ـ ٧٠) ، وحدثنا به ابن جنّى أيضاً فقال : أخبرنى بعضُ أصحابنا قال : جِىء بالمتنبي = يعنى شاعرنا = إلى أبى بكر محمد بن الحسن بن دريدٍ ، فقيل : إنّه شاعرٌ . فقال : أنشدنا ، يافتَى ، شيئاً من شعرك . فأنشده المتنبِّى :

مِتُّ إن لم تَأْخُذوا بِدَمِى ، يا لَقَحْطَـانِى ويَعْرُبِيَهْ

قال : فمسح ابن دريد يَدَه على رأسه وقال : لا ، بل نأخذ بدمك.(١)

وابن دريدٍ كان ببغداد سنة ٣٢١ ، وكان دخول المتنبى بغداد ، كما استظهرتُه فى كتابى ، سنة ٣١٩ ، أو ٣٢٠ . [انظر هذا السفر ص : ٧٤] .

---

(١) هذا الخبر نقلته من مجموع أوراق لابن جنى ، محفوظ بالأسكوريال تحت رقم : ٧٧٨ باسم « كتاب مجموع فى علم البلاغة » . وهذا البيت ليس فى ديوانه ، ولا فى زوائد الراجكوتى ، وهو من شعر صباه الذى أسقطه المتنبى من ديوانه أو نسيه .

ومع أنه دخل بغداد وهو شاعرٌ طموحٌ يريدُ أن يتألق ، فإن عظمتَها وفتنتها لم تأخذ بلُبِّه ، ولم يفكِّر ساعةً في المقام بها يزاحمُ شعراءها الكبارَ الذين حازوا مجدهُم ببغداد ، وفارقها إلى الشام ، لا « علويًّا » يطالبُ بإظهار نسبه فحسبُ ، بل فتًى « عربيًّا ثائرًا » منكرًا للذى رآهُ فى بغداد من استيلاء الأعاجم على سلطان الخليفة العربىّ وتَخَوُّنِهم له حتى تركوه بلا سلطان ، وكأنه بعدئذ جعل إظهار علويته وَسِيلةً يتذرَّعُ بها لجمع الجموع ، ويشاركُ فى هذا الصِّراع على السلطان ، فلعلَّه يصيبُ نجاحاً . وهو ، لعروبته وعلويته ، أخلقُ من هؤلاء بالسلطان .

وأنت إذا قرأت القصيدة الثانية عشرة فى ديوانه ، بعد التسع التى ذكرناها آنفاً [ص : ٨٦] ، تراها دالَّةً على هذه المعانى ، وقالها قبل أنْ يقبضَ عليه ويسجن ، فهو يذكر فيها رِحْلته من الكوفة إلى بغداد إلى الشام ، وإقامته بأرض نخلة « كمقام المسيح بين اليهود » ، ويذكر إعداد نفسه للقتال ، وأنّ فَضْله الذى يفضِّله على الناس لا يقنع « بعيش معجَّل التنكيد » ، ويحدِّث نفسه بالعزّ والغَلبة ، ويحدِّث عن شرفها المُغْنِيهِ عن الفخر بالجدود ، وهم فخر الناس جميعاً ، ويقول :

عِشْ عَزِيزاً ، أو مُتْ وأنت كريمٌ   بين طَعْنِ القنا وخَفْقِ البُنُودِ

فاطلُبِ العِزَّ فى لَظًى ، ودَعِ الذُّلَّ   وَلو كانَ فى جِنَانِ الخُلُودِ

إلى أن يقول :

إنْ أكنْ مُعْجَبًا ، فَعُجْبُ عجيبٍ   لم يَجِدْ فوقَ نَفْسِه من مَزِيدِ

ثم لا يزال الأمرُ به حتى يدخل السِّجن ، ويعلم علمَ يقينٍ أن أمرَ إظهارِ علويّته مرة أخرى ، دونه متالفُ وسدودٌ ، فلا يزال يتردّدُ بين الرجاء واليأسِ من ظهور علويته منذ خرجَ من سجنه ، ولكنّه لم ييأسْ من أن يجد فى أصحابِ السطوة والشوكة عربيًا يَشْفِى ما فى نفسه من الغيظ على الأعاجم الذين استفحل سلطانهم على الخلافة ، وخاصة منذ رأى الفتى العربىّ الثائر الذى أوقع بعمرو بن حابس من بنى أسد ، وببنى ضَبَّة وبنى رياحٍ من تميم ، والذى أثارَ إعجابَه ، فقال فيه قصيدة لم ينشدها بين يديه ، وإنما بقيت محفوظة عنده ، حتى أثبتها فى القسم الثانى من ديوانه . كان ذلك فى سنة ٣٢١ قبل سجنه ، وكان الفتى هو سيف الدولة فى أوّل نشأته ، فقال له :

وتعذّرُ الأحرارِ صَيَّر ظَهْرَها ، إلا إليكَ ، علىّ ظَهْرَ حرامِ
(أنت الغَريبةُ) فى زمانٍ أهلُه وُلِدَتْ مكارمُهمُ لغيرِ تَمامِ

وتمضى الأيّام منذ خرجَ من السِّجن ، « والعلوية » و « العربية » معاً تحرّكان وجدانه اشتعالاً وخُمودًا ، فلا تكاد تخطىء فى شىء منها حديثاً عن نفسه ، وعن بَغْضائه للأعاجم ، وعن حُبِّه للعرب . فما يلقى من أحدٍ إلاّ وهو يفتِّش فيه عن هذا المأمولِ الذى يثيرُ وجدانه ، ثم يبلغُ أقصى توهُّجه فى سنة ٣٢٦ ، حين يجدهُ فى العربىّ « بدر بن عمار بن إسمعيل الأسدىّ » والى طبريّة ، فيحملُ شعرهُ فى بدر ، نفس ثورة الوجدان التى تلقاها عند لقائه سيف الدولة العدوىّ العربىّ سنة ٣٣٦ ، بعد أن حنَّكتْهُ التجارب .

وكانت سَوْرَةُ نفسه في العهدين ، سورة رجلٍ سياسيٍّ عربيٍّ يرقُبُ ما يحيطُ به ، ويطرحُ على الرجل العربيِّ الذي يؤمِّله ، ويؤمّل بلوغَ أمله في سطوته وشوكته = كُلَّ ما في نفسِه من أهدافٍ تحدِّدها له عُروبته واعتزازه بها . إلاّ أن الفرق بين العهدين واضحٌ جدًّا ، لأنّ شعره في سيف الدولة ، لم يكن قاصرًا على هذا وحده ، بل كان يتجاوز حدود هذا الإحساس الكامن فيه ، إلى الإحساس بالملحمة القديمة التي بدأت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين النصرانية الرومية والإسلام ، والتي ظلَّت تتصاعد على ثغور الشام شيئًا فشيئًا ، حتى كان زمن سيف الدولة ، فظهرت ظهوراً بيِّناً ، خلَّد المتنبي ملحمته العظيمة في شعره الذي قاله في عشر سنوات ، (من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦) عند سيف الدولة .[(١)]

ومعنى ذلك أنّ أبا الطيب ، قبل أن يلقى سيف الدولة في سنة ٣٣٦ ، كانت همومُه تتنازعه ، بين « علويته » التي يكتُمها مُرْغَمًا ، والتي كانت تؤهِّله ، لو أطاقَ ، أنْ يدفَع عن دولة العرب سلطان الأعاجم = وبين آماله في أن يجد عربيًّا ذا سُلطانٍ وشوكةٍ وطموحٍ ، يحقِّق له ولأمته ما لا يطيقُهُ هُو من القضاء على سلطان الأعاجم .

فلما لقي سيف الدولة ، ونزل من نفسه المنزلة التي نعرفها ، وأقامَ معه عشر سنوات من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ ، اندمجَ الأمران فصارا همًّا

---

(١) حروب سيف الدولة في ثغور الشام ، هي طلائع « الحروب الصليبية » التي بلغت مداها في أول حملة صليبية سنة ٤٨٩ ، أي بعد قرن ونصف تقريباً .

واحدًا وأملاً واحداً ، وأصبح أبو الطيِّب شخصية « سياسية » ذات آمالٍ كبيرة تحركه ، وقد بيّنت ذلك فى الفصل الثانى عشر من كتابى ، [هذا السفر ص : ١٨٧ ـ ٢٢٣] ، ومواضع أخرى كثيرة من الكتاب من أوله إلى آخره ، تدلُّ على هذا أو تتّصل به .

* * *

(٥ ، ٨) الفقرة الخامسة والثامنة

وأما هاتان الفقرتان من « عمود الصورة » ، وهُمَا تتضمنان البيان عما يحرِّكُه من عواطف الحبِّ التى لا يخلو من جميعها بشر ، فإنّى وقفتُ على جميعها بتذوّق شعره لا غير ، ومراقبة حركة وجدانه تبعًا لحركتها حِدَّةً أو فتورًا . أما الأخبارُ عن ذلك ، فليس فى أيدينا شئٌ يؤيِّدُها ، أو يَهدى إليها .

ومن أوّل ذلك ، ما استخرجته استخراجاً من أن أبا الطيب كان يحبّ خولةَ أخت سيف الدولة ، وقد ذكرتُ بعض حُجَّتى فيه فى الباب الثالث عشر [هذا السفر : ٢٢٥ — ٢٠٠] ، منذ كان أبو الطيب فى جوار سيف الدولة ، ثم بقاء هذا الحبِّ عاملاً ظاهرًا فى شعره بعد فراقه فى سنة ٣٤٦ ، ثم ما بعد ذلك مُدَّةَ إقامته عند كافورٍ ، ثم فراقه كافوراً إلى العراق ، ثُم إلى فارس ، إلى أن قتل .

وهذا الذى استنبطته بالتذوّق ، كان كثيراً جدًّا ، ولكنى اختصرته اختصارًا فى كتابى ، ومع ذلك فإنّه قد يسّر لى أنْ أقرأ شعر أبى الطيب كُلَّه منذ نشأته قراءةً تكشف عمّا كانت تكنُّه نفسُه من هذه العواطف الإنسانية ، فى مطالع قصائده منذ شبابه ، وفى ثنايا حكمته التى يضمّنها شعره ، ولا يبدو لأوّل وهلة أنّها من أثر هذه العواطف التى تحرك وجدانه . وقد لخّص الرافعى ، رحمه الله ، رأيه فيما كتبت فى كلمته فى الرسالة حيث يقول : « والأدلة التى جاء بها المؤلّف ، تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفى . ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً فى خبر جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتد إليه غيرهُ ، فهذا حسبك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبه فوزًا يُعَدّ » .

[السفر الثانى : ٢٤٥ ، ٢٤٦] .

ومضت سنوات طوالٌ منذ صدر كتابى عن أبى الطيب ، وكاد هذا الفرض المستنبط أن يفوزَ بما يؤيده من الأخبار المرويَّة ، كما فاز فرض « العلوية » بما يؤيده كما عرفت قبل . فقد دَخَل علينا فى المجلس ليلاً صديقى الكريم الدكتور محمد سامى الدهان ، وذلك قبل مرضه الذى لم يُفلِتْه حتى قَضى نحبه فى يوليو سنة ١٩٧١ ، وكان عائداً من إحدى سفراته فى البلاد التى تحوى المخطوطات العربية التى وقعت فى أسرِ الأعاجم ، ولم يكد يجلس حتى قال : بُشْرى ! بُشْرى عظيمة ! وبدأ يتحدّث عن سَفْرته ، وأنه كانَ قد نَوي العودة إلى دمشق = ، ولكنّ شيئاً جديداً قد ثَنَى عزمَه وأرغمه على أن يقطع هذه النية ويعرِّجَ على مصر . وذلك أنه قد ظفر بنصٍّ يؤيِّدنى كُلَّ التأييد فى مسألة حبٍّ أبى الطيب خَوْلةَ أخت سيف الدولة ، وأنه

سوف يعود إلى دمشق ، فيرسلَ النصَّ كُـله مصوَّرًا . وتشعَّب الحديث بين أهل المجلس وطالَ ، وحانَ وقت انفضاضه ، وودّعتُه دونَ أن أعرفَ منه شيئًا يُفيدنى اليوم . وعند وَداعه كرّر أنه سيرسلُ النص مصوَّرًا ، ورحلَ إلى دمشق فى اليوم التالى . ومضت الأيام ، ومرضَ ، وجاء بعد ذلك نعيُّه ، وفقد أهل العلم رجُلاً كبيرًا من العلماء ، وفقدته أنا معهم ضعفين من الفَقْد ، وقدّرَ الله أن يبقى هـذا الاستنباط فرضًا مبنيًّا على تذوّق الشعر ، حتى يكشف اللثامَ عن سرِّه خبرٌ من الأخبار ، وندعُه حتى يكون ، وهو كائنٌ إن شاء الله .

أمّا عاطفة الُحبّ التى تتمثل فى عواطف الناس على اختلافهم فطرةً فُطِروا عليها ، فإنّ أظهرها ظهورًا حُبُّه لجدته التى كفلتْه يتيماً ونشَّأته وسدّدت خُطاهُ ، وكشفت له عن سرِّ مولده « علويًّا » ، يوم أطاقَ أن يحمل السرَّ . وكان من عمق هذا الحبِّ فى نفسه : أن تركَ آثارَهُ مكظومة فى ألفاظ شعره ، يتبيَّنها المتذوّق من وراء هذه الحجب . فلمّا ماتت ورثاها بقصيدته الميمية ، مَهّد لى تذوُّقها أن أعرفَ مقدار الصِّدق فى عواطف أبى الطيب ، وأن أقف على أسلوبه فى الكشف الملثَّم عن هذه العواطف ،[1] وعندئذ تمكنتُ من استخراج الدلالة من شعره على زواجه [الباب السابع ص: ١٢٠ ، ومابعدها] ، وعلى تاريخ ولادة ولده « محسَّد » سنة ٣٢٦ [ص : ١٢٠] ،

(١) انظر الباب الثانى ص : ٣٧ ، والرابع : ٥٥ ، والباب العاشر ص : ١٦٤ ، ومواضع أخرى متفرقة .

ثم ما كان من مرض زوجته وموتها في سنة ٣٣٧ [س : ٢٠٨ — ٢١٢] ، وأشياء أخرى كثيرة تراها مفرقة في الكتاب .

* * *

(٦) الفقرة السادسة

كان أبو الطيب قد أتمّ الثالثة والأربعين من عُمُره ، حين عزم على فراق سيف الدولة = لم يفارقه مختارًا لفراقه ، فإن سيف الدولة كان مثالاً حيًّا لكُلِّ ما كانَ مكتوماً في نفسه من الآمال والأحلام ؛ وفي السنوات العشر التي لازمهُ فيها كان يزدادُ له محبّةً وتوقيراً ، وأفضَى كُلٌّ واحد منهما لأخيه بأسراره وغاياته في الحياة السياسية التي قامت على « دولة الخَدَم » من الأعاجم . ولم يكن مُقامُه المالَ ، كما يقول ذلك من يقوله ، وقد دلّتنا سيرته كُلُّها على أنه إذا لقيَ العربيَّ الرجُلَ الذي يتوهَّم فيه آماله وأحلامه ، لم يبالِ بالمال أو (طلب المعاش) ، بل ببلوغ الآمال أو (طلب المعالى) ، كما بينتُ ذلك في مواضع من كتابي [هذا السفر : ١٩١ — ١٩٢] ، بيد أن « الوشاة » و « الحسّاد » ، قد أكثروا السعاية في حقّه ، حتى ظنَّ ظنًّا بلغ اليقينَ أن قلب سيف الدولة قد تغيّر عليه ، وكان هو بطبيعته شديد التوجُّس ، وكان حبُّ « خولةَ » قد بلغ به شَفَا الهاوِيةِ بسعاية الساعين والكائدين ، وبلغ منه هواها ذِرْوَةً شامخة محلّقةً يضيقُ بها صدرُه كأنّما يصَّعّدُ في السماء .

[هذا السفر : ٢٥٢ ومابعدها] ، فاتخذ الليل مركباً وطار إلى دمشق ، وكأنه يقول لنفسه ، ماقاله بعد ذلك بسنواتٍ :

ضَرَبْتُ بها التِّيهَ ضَرْبَ القِمَارِ : إمّا لهٰذا ، ومّا لِذَا

إمّا راحةُ النِّسيان ، وإمّا راحة الهلاك ! أصيبَ الرجل فى هَوَى قلبه ، وفى آماله السياسية ، وفى الرَّجُلِ الذى لايجدُ له شبيهاً أنّى تلفّتت خِبْرتُه بالرجالِ والأعمالِ ، وداخله اليأس ، وتمنَّى الهلاك ، ومات اللهيبُ فى نَفْسِه ، ورمتْهُ البوادى والفلوات إلى أرض مصر ، وإلى كافورٍ ، فلم يملك إلاّ أن يستقبلهُ بما فى نفسه ، فابتدأ قوله حين لقيه :

كَفَى بكَ داءً أن تَرَى الموتَ شافياً وحَسْبُ المنايَا أنْ يَكُنَّ أمانيَا
تَمَنَّيْتَهـا لمَّـا تمنَّيتَ أن تَرَى صديقاً فأعْيَى ، أو عدوًّا مُدَاجِيَا

ومنذ ذلك اليوم وآمالُ أبو الطيب كُلُّهـا تتقلّصُ ، وكُلّ يوم يَمْضِى بقطعةٍ من نفسه ومن آماله تقع فى حوزة الأَمسِ الذى لاهو يَرُدُّ ولا هو يُسْتَرَدُّ . ذهبَ أبو الطيِّب الأول ، وجاء أبو الطيِّب الثانى ، فكان يرَى ذلك رأيَ العينِ وهو يكظِم فى نفسه كَظْمًا يذيبُ القلوب ، « فأينَ الشبابُ ، وأيْنَ الزَّمانُ ! » . وبقى على ذلك فى مصر حبيسًا فى قبضة كافور من جمادى الأولى سنة ٣٤٦ إلى أواخر سنة ٣٥٠ . وفى هـذه المدّة صار شعر أبى الطيِّب نمطاً آخر غير النَّمط الذى كان أوّلاً مع بدر بن عمارٍ الأسدى ، ثم تَمَّ تمامُهُ مع سيف الدولة . ولـكنّه كان قد صار شاعرًا محنّكاً ممقّد

المهارة فى صياغةِ معانيه وألفاظِه ، يحتاجُ تذوّقها إلى خبرةٍ بأساليب صياغته كُلِّها ، منذ بدأ الشعر فتًى جادًّا قليلَ الإغضاء عن التجويد ، ثم شابًّا كَتُومًا يُزلزِلُه مايكتمه ، ثم مكتهلاً يتفجَّر الشعر منه مَغْموسًا فى صِبْغ الحوادث التى تمرُّ به ، فلا هى تحُولُ ألوانُها ، ولا هو ينساها أو يغفُل عن آثارها فى نفسه .

والآنَ سقط وحيدًا فى تِيه الغُرْبة ، عاد غريبًا كما بدأ ، ولكن شَتّان !!! فهو يقول فى غربة الصِّبَى البعيد ، واثقًا مُدِلاً متحدِّيًا :

أنَا فى أُمّةٍ ، تَدَارَكَهَا اللهُ ، (غريبٌ) كصالحٍ فى ثَمُودِ

وهو اليومَ فى غُرْبَة الكِبَر ، أواخرَ عهده بمصر وكافورها ، يقول متحيِّرًا ضائعًا مستسلمًا :

بِمَ التعلُّلُ ؟ لا أهلٌ ، ولاوَطَنُ ولا نَديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سَكَنُ
أُريدُ من زَمَنِى ذا أنْ يُبَلِّغنِى ماليسَ يبلُغُهُ فى نفسِه الزّمنُ

وإذا كان ، وهو فى صباهُ قادرًا على أن يخرجُ من بَغْداد ممتلئَ النفسِ قوةً وتحدِّيًا ، حين سمع وسمع الناسُ أحدَ المماليك قادة الأعاجم ، قد وضع التاج على رأسه مكلّلاً بالدُّرِّ والياقوت ، وجلس على سرير من فضةٍ حواليه الذهب مرصّعًا بالجوهر ، ويقول للناس متكبِّراً متجبِّرًا : « أنا أرُدّ (دولةَ العجم) وأُبطِل (دولة العرب) » ،[1] وإذا كان يومئذ قادرًا على أن يرد على كلمته

---

(١) هو « بجكم التركى » ، قال ذلك فى حوالى سنة ٣٢١ أيام كان المتنبى ببغداد . انظر كتاب الأوراق للصولى ، فى أخبار الراضى : ٦٢ .

هذه فى شعره ثائراً مهدِّداً متوعِّداً هازئاً :

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ منّى مَضْرِبِهِ — ويَنْجَلِى خَبَرِى عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ

بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مازالَ مُنْتَظِرى — حتّى أدَلْتُ لهُ من (دَوْلَةِ الخَدَمِ)

... فالآنَ ، مريدًا أو غير مُريد ، يجد نفسه لسانًا ناطقًا فى « دولة الخَدَم » ، ويتورَّطُ فى المحنة تورُّطًا مؤيسًا ، فى طريق طويل من أوّل مقدمه على كافورٍ سنة ٣٤٦ ، إلى أن ينتهى عند عضد الدولة الدَّيْلمى فى سنة ٣٥٤ ، ويختم شعر هذه السنوات المذلّة ، باليأس والضَّياع بهذه النَّفْثة ، [وهى آخر ما قاله أبو الطيب] :

إذا استشفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بدَاءٍ — فأقتلُ ما أعَلَّكَ ما شَفَاكَا

وأنَّى شِئْتِ ، ياطُرُقِى ، فكُونِى ، — أذَاةً ، أو نَجَاةً ، أوْ هَلاَكَا

كان داؤُه فراقُ (دولة العرب) تحت ظلِّ سيف الدولة ، فطلبَ البُرْءَ والشفاء فى (دولة الخدَم) ، فإذا هو داء لا شفاء ، وكان أقتل الداءين ! وألقى يومئذٍ السَّلَمَ ، مُذعناً ضارعاً منقادًا لما تأتى به المقاديرُ .

لذلك ، فقد كان شعرهُ فى هذه السنوات التِّسع الأخيرة من عُمُره مختلفاً كل الاختلاف من جميع شِعْره ، مباينًا له فى الصِّياغة ، حافلاً بمهاراتٍ لا يطيقُها إلا قلّة من الشُّعراء الكبارِ ، ثم لاتتأتّى لهُم إلاّ حينَ يقعون فى المحنة المحرِقة ، بين وجُوب الكتمان وضرورة الإفصاح = بين ما يُبْطنونه فى أغوار أنفسهم ، وما يظهرونه فيما يجرى على ألسنتهم . وشعرُ هذه السنوات

التسع ، لم يقرأه أحدٌ بعناية كافية ، وكلُّ ماخرج به قارئو شعر المتنبّي هو هذه القضيّة الرثّةُ السخيفة : أن المتنبي مدح كافوراً ثم هجاهُ ! وأشباه ذلك من القضايا المُستَبْرَدةِ الهالكة ، يتعالَمُ بالحديث فيها دفاعاً عنه أو قدحاً فيه منْ يتعالمُ . وشعر أبي الطيِّب في هذه السنوات ، كانَ خُلاَصة تجاربه في حياته ، وجِمَاع معرفته بالرِّجالِ والأُمَم ، وثمرةً ناضجةً قد استمدَّتْ إتاءها ونُضْجَها ومَذَاقَهَا من حياته كُلِّها ، منذ كان صبيًّا إلى أن بلغَ مابلغَ ، حيث وقعَ التناقضُ بين آماله التي عاش بها وفيها أكثر من ثلاثين سنة (٣١٤ ـ ٣٤٦ هـ) ، وبين الواقع الذي يصبحُ فيه ويُمسِي ، وهو في قَبضة (دولة الخدم) ، أنّى ذهب .

كانت ألفاظ شعره هذا تحمِلُ كُلَّ مايتكتّمه من الكراهة والازدراء والاستنكافِ ممّا هو فيه ، وإن كان ظاهرها يخدعُ سامعه عن حقيقة مايكتمه . وقد استوقف هذا الشعرُ ، في حياة أبي الطيب نفسه ، بعضَ سامعيه أو قارئيه ، كابن جني وغيره . فان ابن جني كان يقرأ على المتنبي شعره في كافور ، فربما وقف على البيت من المدح قد انطوى على معنًى من الهجاء ، فيضحك ابن جني ، ويضحكُ المتنبّي لأنّه كان يقصدُ به الهجاء . والمتنبي قد أغنانا عن هذا بقوله في كافور ولقّبه « الكركدنّ » ، [وهو حيوان عظيم الجثة ، قصير القوائم ، غليظُ الجلد أسودُه ، له قَرْن واحدٌ ، وهو الخرتيت ، وحيد القرن ، شبه الأسودَ كافوراً به] .

وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الكرْكَدَنَّ بين القَرِيض وبين الرُّقَى
وما كانَ ذلكَ مدْحًا لَهُ ، ولكنّه كان هَجْوَ الوَرَى

وقد بلغ أحد المتأخِّرين الغاية فى ذلك ، وهو عبد الرحمن بن حسام زاده الرُّومىّ (أى التركىّ) (١٠٠٣ — ١٠٨١هـ) ، فقد ألف كتاباً سماه : « رسالةٌ فى قلب كافوريّات المتنّبى ، من المديح إلى الهجاء » ، ونشره الدكتور محمد يوسف نجم . ومؤلف الكتاب تركىٌّ أجاد العربية وخالط أهلها طويلاً ، وقد كان حيث نزل فى حلب والقدس ودمشق والقسطنطينية مَألفًا للأدباء ،وله ألفَ يوسف البديعى كتابيه : «ذكرى حبيب» و«الصبح المنبى ، عن حيثية المتنّبى » . وقد استقصى المؤلف مدائح كافور قصيدة قصيدة، فبين ما يضمرُه المتنّبى من الذم لكافور ، وإن كان ظاهر اللفظ يوهم المدحَ. وهو كتابٌ غريبٌ فريدٌ ، أجاد المؤلف فيه مع سوء عبارته ، وأصابَ الصوابَ من وَجْهٍ ، وأخطأ من وجْهٍ آخر . وقد أشرت إلى المعنى الذى قصده المؤلف فى كتابى ، [هذا السفر : ٢٤٢ ، ٢٥٦ — ٢٦١] .

ولكن القضيّة ليست محصورة فى ألفاظٍ قصدها أبو الطيب قصدًا ، وجعلها رموزًا لها ظاهر مكشوف ، وباطنٌ مضمر ، بل القضيّة فى صياغة شعره فى حقبتين متباينتين : تركت كُلُّ حقبة منهما أثرها الواضح على صياغته وألفاظه بلا قصدٍ متعمَّدٍ ، يستطيع المتذوِّق أن يميّزه تمييزًا واضحًا، لأنّ كُلاًّ منهما خرج من نفسٍ واحدةٍ جميعةٍ ، مصبوغًا بصِبْغةِ الحقبة التى انغمست فيها انغماسًا إلى الأعماق . كان شعرًا يفصِحُ كُلُّه عن نفسٍ متطلّقةٍ متهلّلة واثقة ، تستخفُّها الآمال والآلام والأحزانُ ، ماضيةً إلى فضاء فسيح تبسُطهُ البهجة المنيرةُ من شمس مُشرِقة = فإذا به يَفصِحُ عن نفسٍ متقبِّضةٍ كئيبة يائسة ، تؤُودُها الآمال والآلام والأحزان، دالفةً إلى أفقٍ ضيِّق يقبضه

الكمدُ المظلمُ من شمس غاربة . ومن لم يُعْط هذه القضيّة حقها من الأناةِ والتأمُّل عند تذوُّق شعر أبى الطيب فى هذه السنوات التسع الأخيرة من حياته ، لم يظفر بطائل ، ووقع فى غثاثة الدراسات التى لا تفرِّق بين تذوّق الشعر ، وبين التلمُّظ بالكلام ومضغه ، تعالُمًا بحتًا !! و« المتشبِّع بما لا يملكُ كلابِسِ ثَوْبَىْ زُورٍ » ، كما جاء فى الحديث .

وفى كتابى هذا لم أستطع أن أوفِّى هذه القضيَّة حقَّها كتابةً ، لأنى قطعتُ هذه السنوات التسع فى نحو ثمان وثلاثين صفحة من الكتاب ،[1] فإنىّ كنت فى عجلة من أمرى حتى أفرغ من الكتاب فى ميقاتٍ محدّدٍ ، كما قلت آنفاً ، وكنتُ قد نويتُ أن أعودَ فأكتب عن المتنبِّى كتاباً كبيراً آخر ، على هذا السياقِ الذى التزمته فى كتابى هذا ، ولم أفِ بما عقدت عليه نِيَّتِى ! إلاّ أنّ الذى كنتُ قد استفدتُهُ من تذوُّق شعره فى هذه السنواتِ التسع ، كان هو فى الحقيقة أقوى مُعينٍ لى على تصفية تذوُّق لشعره الذى قاله قبل ذلك ، وعلى التعبير عن التذوّق تعبيرًا سَهلاً متساوِيًا يفضى إلى انسياب حركة تخطيط صورة المتنبّى ومعارفها و قَسِمَاتها ، وهى تتخلَّق حَولَ « عمودِ الصورة » . فمن أجل ذلك ، لم تكن هذه الفقرة السادسة ظاهرة كُلَّ الظهور فى الذى كتبته ، وإن كانت آثارها فى الكتاب ، وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة ، دالةً على الأصل بعض الدلالة .

هذه هى الفِقَر الثمان التى استوتْ لى منها شخصيّة أبى الطيب ، عن

---

(١) من الباب الرابع عشر الى السابع عشر من ص : ٢٥٠ الى ص : ٢٨٩ ، آخر الكتاب .

منهج محدّدٍ في تذوّق الشعر ، كلُّ فقرةٍ منها لا تقوم وحدها معزولةً عن الأخريات ، بل كانت كلُّ فقرة منها متأثرة بأخواتها ومؤثّرةً في سائرها تأثيرًا بالغَ التعقيد ، فقرّبتُ الأمرَ ويسّرتُه بالحديث عن كلِّ فقرةٍ على حِدَة ، ليكون قارئ كتابِي بعد ذلك متخفّفًا من كل مؤونةٍ تعوقه أو تثقل عليه .

* * *

الغَمَراتُ ، ثم ينجلينَ !

حين خرج عدد المقتطف [يناير سنة ١٩٣٦] ، متضمِّنًا كتابي عن « المتنبّي » ، كنت مطيّةً لحُمَّى عنيفةٍ هوجاء ، فلما أقلعت عني وبدأتُ أفيقُ من بُرَحائها ، كان أوّل ما قرأته عن كتابي هو كلمة الرافعيّ رحمة الله عليه ، منشورة في مجلة « الرسالة » [السفر الثاني : ٢٤٣ ـ ٢٤٦] . هزّتني هذه الكلمة هزًّا شديدًا عند أوّل قراءةٍ ، ففرغتُ منها وأنا لا أدري على الحقيقة ماذا قال الرافعي . كنت في مَيْد الإفاقةِ من الحمّى ، [الميد : دوارٌ يميد بالرأسِ مصحوبٌ بالحيرة ، كالذي يجده السكران أو راكب البحر من الاضطراب] ، فجاء معه فرحٌ غامرٌ فادَ هو بي أيضاً حتى أعماني عن معانيها . كنتُ في السابعة والعشرين من عمري ، وكنت كاتباً مغمورًا في الكتّاب ، لا أتوهّمُ أنّ أحدًا من القراء يعرفني أو يبالي بأن يعرفني ، ولم يكن مما يخطرُ ببالي يومئذٍ أن أكون معروفًا ، وإذا بي أفاجأُ بَغْتَةً بثناء أستاذٍ بعيد الصِّيت في العربِ والعربية ، وفي مجلة بعيدة الصِّيتِ في كُلّ بُقْعةٍ تعرف العربية . فعلت بي هذه المفاجأة فعلَ الخمر بشاربٍ لم

يذُقْها قطُّ . وبقيتُ أيامًا فى نشوة مُذْهِلَة ، وكنت أعيش يومئذٍ وَحدى ، فلم أجدْ من أحدِّثُه عن نشوتى ! فلما تملصتُ من عقابيل الحمّى بارئًا بحمد الله ، وذهبَ المَيْدُ وسكنت النشوة ، راجعتُ قراءة كلمة الرافعيّ مرّاتٍ ، فكنت أتوقّف فى كُلِّ مرةٍ عند قول الرافعي فى « المتنبي » :

« كان الرجُل مَطْوِيًّا على سِرٍّ أُلقِيَ الغموضُ فيه من أوّل تاريخه ، « (يعنى علوية المتنبي) ، وهو سرُّ نفسه ، وسرُّ شعره ، وسرُّ قوته . وبهذا « السرّ كان المتنبي كالملك المغصوب ، الذى يرى التاجَ والسيفَ ينتظران « رأسَهُ جميعاً ، فهو يتّقى السيفَ بالحذر والتلفُّفِ والغموض ، ويطلُب التاجَ « بالكتمان والحيلةِ والأمَل » .

« ومن هذا السرِّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثهُ يتحدَّرُ فى نَسَقٍ « عجيبٍ ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونموٌّ وشبابٌ . وعرض بين ذلك « شعر المتنبي عرضاً خُيِّل إليَّ أن هذا الشعرَ قد قيلَ مرةً أخرى من فم « شاعرِه ، على حوادث نفسه وأحوالها » .

وسببُ توقفى ، هو أنّى يومَ فرغتُ من الكتاب ومن تصحيحه عند الطبع وقُضِيَ الأمرُ ، تقاذفنى طُوالَ الليل رعبٌ شديد من مخافة ما يقولُه الناس فيه إذا هم قرأوهُ ، وأمسيتُ على غير بيّنة من أمري : فهذا أوّلُ كتابٍ كتبتُه مجترئاً على التأليف ، وأقدمت إقدامًا على كتابته على غير مثالٍ سابقٍ مما عهده الناس فى كتابة التراجم ، وقد اجترأتُ أيضًا على الإتيان فيه بمالم يسبقنى إليه أحدٌ ! وفارَ بى الرُّعبُ والشكُّ فيما اجترحتُ فَوَرانًا أذهب من قلبي كُلَّ يقينٍ فيما كتبتُ ، وكُلَّ ثقةٍ بما بذلت من جُهْدٍ

وتثبُّتٍ ، واغتال الرُّعب سلطانى على عقلى ، وسرَى سَمُّ الشكِّ فى قلبى طولَ ليلتى . . . وركبتنى الحُمَّى ، فلما أفقت منها أفقتُ وأنا فى قبضة رُعْب حىٍّ وشكٍّ مميتٍ ، ثم جاءتْ كلمات الرافعىّ تِرْياقاً ، كلَّما أعدتُ قراءتها دبَّت كلماتُها إلى صميم هذا الرُّعْب دبيباً حتى قتلته ، وجعلت تَسْرِى حيث سَرَى سَمُّ الشَّكِّ حتى أذهبَته من قلبى فأحيتْهُ . وعندئذٍ عرفتُ شيئاً فشيئاً حقيقة طريقى الذى سرتُ فيه حين كتبتُ الكتاب ، وكأنه طريقٌ لم أسلكْهُ من قبلُ قطُّ ! وكذلك ثبت عندى أن منهجى فى « التذوّق » الذى ألفتُه منذ أن دارست الشعر الجاهلىّ قديماً ، منهجٌ سَليمٌ كُلَّ السلامة ، لأنى حقَّقتُ به الوصولَ إلى « سرّ » كان مطويًّا فى شعر أبى الطيِّب وفى تاريخه ، واستطعتُ به أيضًا أن أكتب بحثًا « يتحدّر فى نسقٍ عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونموٌّ وشباب » ، كما يقول الرافعىّ ، أى أن « عَمُود صورة المتنبّى » الذى بنيتُ أكثره على هذا « التذوّق » ، كان صالحاً لجعل شعر المتنبى ناطقاً نُطْقاً مبيناً عن شخصيته منذ وُلد إلى أنْ مات . وكان هذا حَسْبى ، بحمد الله .

وقد حدثت بعد ذلك بقليل حادثةٌ أُخرى غريبة ، زادتنى ثِقَةً بنفسى وبمنهجى . كنت ألقى الأستاذ العقاد رحمة الله ، مرارًا فى « المترو » ، عند نزولى إلى القاهرة أو عند عودتى . فقد كنَّا جميعاً نسكن مصر الجديدة . وكنتُ له مُحِبًّا لطول قراءتى ما يكتب ، فكنتُ أسلِّم عليه فيردُّ السلامَ على عادته من الأدب المحتشم ، ولكنى كنت أرى ظلالاً من الجفوةِ فى أسارير وَجْهه ، وينقبضُ عنى حدِّيثهُ إذا حدثته ، ولا ريبَ فى أن ذلك كان لما

يعرفه من علاقتي بالرافعيّ ، وقد كان بينهما ما كان . وكنت غيرَ راضٍ في نفسي بالذي كان قد جرى بينهما ، وأرى أن كليهما كان ظالمًا لأخيه ظُلمًا مبرِّحًا . وإذا كانت المودّة بيني وبين الرافعي قد أُتاحت لي أن أحدّثه في هذا الظلم مرارًا ، فإنّ جفوة العقاد لم تترُك لي مَسَاغًا حتى أُحدِّثه بمثل ما حدّثت به الرافعيّ ، بيد أني كنت مُصِرًّا على أن أبلغَ ما أريدُ مع العقاد . فلمّا ظهر كتابي هذا في المقتطف ، سَوّلت لي نفسي أن أهديَهُ نسخة من المقتطف ، مع عِلمي أنّه يرسلُ إليه بالبريد في كُلِّ شهرٍ ، ومع أنّي كنتُ قد عقدت العزمَ على أن لا أهديَ كتابي إلى أحدٍ من الأساتذة الكبار . فاستأذنته بالهاتف أن أزورَهُ في بيته ، فأذنَ لي ، وكانت كلمة الرافعيّ في «الرسالة» قد نشرت في ١٣ يناير ١٩٣٦ ، بعد أيام من صدور عدد المقتطف ، وكانت زيارتي للعقاد بعد ذلك بقليل . ولم أجدْ بين لقائه في « المترو » ولقائه في بيته كبيرَ فَرْقٍ . فلما جلستُ واطمأننتُ ، أخرجتُ عدد المقتطف ، هديةً مني إليه ، فأخذه ووضعه إلى جانبه ، ولم يكلِّمني بكلمة واحدةٍ في شأنه ، وكنت أتوقع أن يكون قد قرأ العدد الذي وَصَله بالبريد . فكان صمتُه جارحًا لي أيَّ جَرْحٍ . فخرجتُ من عنده غَضْبانَ أسِفًا .

وبعدَ أيّامٍ قلائلَ ، كنتُ عائدًا إلى بيتي ، فلما ركبتُ « المترو » ، فوجئتُ بالأستاذ العقّاد ينُاديني ويدعوني إلى مجلسٍ كان خاليًا أمامَ مجلسه ، ووجدت في وجهه البشاشة مكانَ الجفوة ، وفي حديثه التطلُّق مكانَ الانقباض ، والعقّادُ متحدِّثٌ قليل الأشباهِ إذا تبسّط وقال ما قال غير محتشمٍ . وقطعنا المسافة من أوّل محطة المترو إلى أن بلغنا المحطة التي عندها بيته في أول مصر الجديدة ، وهو في حديثٍ لا ينقطع ، مِلْؤُه النّوادرُ والفكاهات التي يحبّها

ويحسنُ سَرْدَها . ثم نزل ، ولم يذكر كتابى بحرفٍ واحدٍ ، ولكنى أيقنتُ أنه قرأ الكتابَ ، وأن هذه الجفاوة أو البشاشة التى لم آلفْها ، كانت أثرًا من آثار قراءته كتابى . فلمّا صرتُ وحيدًا حتى بلغتُ بيتى ، كانت نشوتى بتغيُّر العقّاد ، تفوق نشوتى بما كتبه الرافعىّ ، وكانتْ يدًا للعقاد عندى ، إذْ زادتنى ، يومئذ ثقةً بنفسى واطمئنانًا إلى ما كتبتُ . وعلى الأيّام ، لم أرَ تلك الجفوة مرّةً أخرى . وتوثّقت الصداقة بينى وبينه ، ومع ذلك لم أسمع منه مرةً كلمةً واحدة واحدة عن كتابى إلى أن مات رحمة الله عليه ! ولكنها كانتْ صَنِيعةً لا أنساها .

وبعد قليلٍ بدأت الرسائلُ تأتى باسمى على إدارة المقتطف وعلى بيتى ، وفيها مافيها ، وقرأت يومئذٍ ثناءً كثيرًا من رجالٍ لا أعرفهم ، كشاعرنا الكبير الأستاذ أحمد محرّم وآخرين ، فذهب عنى كُلُّ خوفٍ ومهابة ، وفى خلال ذلك أيضًا كتب أستاذٌ كبيرٌ كان قد علمنى فى التعليم الابتدائى ، ثم الثانوىّ ، هو الأستاذ محمد هاشم عطية رحمه الله ، فنقدنى وسَخِر منى ، فرددتُ عليه فى صحيفة الأهرام ردًّا عنيفًا ، ونقدنى أيضًا الأستاذ على عبد الرازق فى جريدة «السياسة الأسبوعية» ، فكِلْتُ له كيلاً كما كال فى نفس الجريدة . وتتابعت الأيّام ورأيتُ اسمى مذكورًا بعد خُمُولِ ذِكْرٍ ، والفضلُ فى الذى بلغتُه مردودٌ كُلُّه إلى أخى وصديقى الذى لا أنساهُ الأستاذُ فؤاد صرّوف ، أطال الله بقاءه .

* * *

كتابان في علم « السَّطْو »!!

الكتاب الأوّل

ثم جاءت بعد ذلك أمورٌ مستنكرةٌ بَشِمْتُ بها وضِقْتُ بها ذَرْعًا ، لأنها رَدَّتني إلى حَوْمة الفَسَاد الذى اعتزَلْتُ من أجله الجامعةَ والحياةَ الأدبيّة كلها ، لكي أصَحِّح طَريقى ما استطعتُ إلى الغاية التى أتمنَّى أن أبلُغها. وأهمُّ ذلك حادثتان : أُولاهما ، جاءتنى رسالةٌ من العراقِ بعد ظهور كتابى بثمانية أشهر (سبتمبر ١٩٣٦) ، من رجل لم أكن أعرفُه من قبلُ . كان تاجر كتبٍ ناشىء، لم يبلغ ما بلغ من الشهرة فيما بعد ، وهو الكتبيّ المشهور « قاسم الرجب » ، رحمه الله ، دلّتنى رسالته على أنه قرأ كتابى حرفًا حرفًا ، فإنه ضمَّنه مقابلة بين ما فى كتابى صفحة صفحة ، وبين ما جاء فى صفحات كتاب آخَر طبع فى العراق سنة ١٩٣٦ ، أرسلَهُ إلىَّ بالبريد ، كما قال . ووصل الكتاب بعد أيام ، وهو كتاب « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » ، وكاتبه هو الأستاذ عبد الوهاب عزَّام ، وفى آخره أنه فرغ من تأليفه « لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ ، عاشر تمُّوز (يوليه) سنة ١٩٣٦ » ، أى بعد كتابى بسبعة أشهر ، وختم مقدِّمته القصيرة بهذه العبارة :

« ومهما يكن فقد بذلتُ الجهدَ ، وأودعت الكتابَ من تفصيل سيرة الشاعر ، والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه ، ما يطوِّع له أن أقدِّمه للقراء ، راجيًا أن يجدوهُ أهلاً لذكرى أبى الطيب ، ويَرَوْهُ أوسع وأعمقَ وأجدى ما كُتِبَ عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا ، عام الاحتفال

بمضيّ ألف سنة على وفاته ، والله وليُّ الهدى والتيسير » .

وكنتُ أعرف عزّاماً ، رحمه الله ، ويعرفني ، لقد كنت طالباً بالجامعة ، وكان أستاذاً بها . كان غايةً في دَماثة الخُلق ، ليّنَ الجانب ، رقيق الحاشية ، سَمْحًا سَهْلاً طويل الأناةِ ، متواضعًا عند اللقاء ، خَفيض الصّوت ، فإذا حدّثته أجابَك والحياء يكادُ يقطَعُه عن الإجابة . وكان حافظاً للشعر ، يُسْمِعك منه ما تشاء إذا نَفَّس عنه حياؤه . وكنت لذلك أحبُّه وأُجِلُّه لواسع معرفته . فلما قرأت ما ختم به مقدمة كتابه ، رابنى منه ما قال ، لأنه أمر غير معهودٍ فيه أن يتبجّح بذكر نفسه أو أعماله . وقد نشر فى سنة ١٩٣٢ ، ترجمة الشاهنامه ، وبذلَ فيها جهدًا كبيرًا ، فكان خيرَ ما نشر ، ومع ذلك لم يُثنِ على نفسه ، بل كان جَمَّ التواضع هاضماً لنفسه ، فكيفَ قال هذا عن كتابه إنه « أوسع ، وأعمق ، وأجدَى ما كتِب عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا » !! غريبة !! ولكى تعلم أنها غريبة الغرائب ، فاعلم أنه حين أعاد طبع كتابه هذا فى مصر سنة ١٩٥٤ ، أثبت مقدمة الطبعة الأولى ، ثم ختم مقدمة الطبعة الثانية بما يلى :

« وأصدقُ القارىء أنى أردتُ أن أحذف من مقدمة الطبعة الأولى دعوى أنّ هذا الكتاب أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر . واتفق أن جاء إلى كراجى (بلدة بالهند) وأنا أعد الكتاب للطبعة الثانية ، صديقنا العلامة الشيخ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى ، وهو من أوسع الناس معرفة بالشاعر ، وكان يحفظ ديوانه كُلَّه ، فأخذ الكتاب وقرأه ، ثم نهانى عن حذف الجملة

التى همّتْ بحذفها وقال : دَعْوَى صدْقٍ ، فلماذا تمحوها » ! ! غريبة أخرى هندية الميلاد ! ! وستعلم السّبب فى إرادة حذفها ، ثم فى الشّهادة التى أتى بها مُخْرجَةً له من إرادته ، فاستسلم للنهى وأثبتَها راضياً عنها كُلَّ الرضى ، ولا غَرْوَ !! ولم يقنع بذلك ، بل زادَ فى مدح كتابه ، فوصفه مرة أخرى بأنه : « أجمع وأدقّ ما كتِب عن الشاعر » !! غريبة أيضاً !!

ما علينا ! تجاوزتُ المقدّمة ، وأخذت الكتابَ أقرؤه . فإذا به ، منذ أوّله ، يتعقّبنى تعقُّباً متستّرًا متلثّماً بعباءة الأخبار التى رواها الرواة ، فهو يقف عند ما وقفتُ عندَه منها ، ويخالفنى معرِّضًا غير مصرِّح ، أو يُعارضُنى موافقاً لبعض رأيى مُغفِلاً سائرَهُ ، وأثر ألفاظى فى ألفاظه واضحٌ كلَّ الوضوح !! ويقف أيضًا على كُلِّ شعرٍ من شعر أبى الطيب ، لم يتنبّه للوقوف عنده أحدٌ قبلى ، ويعلّقُ عليه بنفس ألفاظى التى علّقتُ بها عليه !! وظلّ يسلَخُ من كتابى سلخًا مرّةً بعد مرّةٍ ، مقتفياً آثارى ، ويقول، وكأنّ ما يقولُه ممّا يظهر لكل قارىء شعرَ أبى الطيب ، بلا معاناة وبلا سببٍ، ويعرضه عرضًا كأنه اجتهادٌ منه لم يُسْبَق إليه من قبل !! وأعمال أخرَى قبيحةٌ ، مع الأسف ، وضنَّ ضنًّا شديدًا بأن يكرّمنى ويشرّفنى بذكر اسمى ، وما هو إلاّ أن يقول فى ثنايا سُطور كتابه : « قال بعض الأدباء » و « رأى بعض الكتاب » و « قال كاتب المقتطف » !! يا للعجب ! فلما فرغتُ من الكتاب، ساوَرنى أن أكتب ، وأن أبيّنَ قَباحةَ هذا الأسلوب ، ولكنى تأنّيتُ به ، لأنى كنت لم أزل أحبُّه وأجلّه ، ولأنى رَحمتُه وأشفقتُ عليه من حَيائِه ، إذا أنا هتكتُ عِرْض كتابه .

ويشاء الله أن لا يطُول عليَّ التأنّى، فبعد أيام قلائل كنتُ جالسًا فى مجلس أستاذنا أحمد حسن الزيّات فى مكتبه بمجلة «الرسالة»، وفجأةً قطع الأستاذ حديثه وقامَ وأشرقَ وجهُه، ورحّبَ وأهّل وسهّل، وإذا القادمُ هو الأستاذ عبد الوهاب عزام. فقمتُ وسلّمتُ، وجلسنا. فلما بَرَدَ المجلسُ، وانقضتْ لَحَظاتُ الحفاوة بمَقْدمه، التفتُّ إلى أستاذنا عزّام، وأعلمتُه أنى قرأتُ كتابَه، وبدأتُ أعاتبهُ على استنكافه أن يذكرنى باسمى، فغلبه الحياء، وجعل يحاولُ أن يجاملَ، وأنْ يجعله أمرًا غيرَ مقصودٍ البتة، وأنه عرضَ لآخرين غيرى، فلم يذكر أسماءَهُم. فغاظتنى مجاملته، وغاظنى حياؤه أيضًا !! فقلت له: ليس هذا بصحيح، فإنك ذكرت الأعجمى المستشرق «بلاشير» باسمه مرات! فعَجِل قائلاً: لأنى كنت أردّ على أقواله التى كتبها فى «دائرة المعارف»! فزادنى تقززًا، فقلت له: ياسيدى الأستاذ، إنّك أيضًا كنت تردُّ على أقوالى، منذ أوّل كتابك، فعلت كذا وكذا، وكان أسلوبك فى مناقشة الأعجمى واضحًا، وقد تعرّضت لنَقْد القضايا التى كتبها، مؤيّدًا بالنقل عنه والإشارة إلى كلامه، أفلست أنا جديراً بأن أعامَل معاملتِه على الأقلّ! ومع ذلك، فإن أقوال هذا الأعجمى المستشرق لا قيمة لها فى الحقيقة، وهو لو انخلع من أبّهة الاستشراق، ومن روعة الاسم الأعجمىّ، ثم جاءك فى زىِّ طالبٍ لتمتحنه، لاستكثرت أن تزيده درجة على درجة الصِّفر. فأى شىء هذا؟ وَهَبْ أنّه جاء برأى غريبٍ، كرأيه فى أن المتنبّى «قرمطىٌّ» الرأى والهوى، فاستحقّ أن تردّ عليه، أفلا يستحقُّ رأيى فى «علوية أبى الطيب» مثلاً، أن تذكره

وتردّ عليه ردًّا مباشرًا ، كما فعلت مع الأعجمىّ ، دون أن تلجأ إلى التضمين الملفّف، وإلى الإغفال المتعمّد ؟ ثُمّ تزيد الأمرَ سُوءًا حين تتعقَّبُ ترتيبى لشعر القسم الأوّل من ديوان أبى الطيب ، وتوقيتى لرحلته فى الشّام منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ ، إلى أن لقى أبا العشائر سنة ٣٣٦ ، مع أنّى كنت أوّل من نبّه إلى هذا الترتيب ، وأوّل من حاول هذا التوقيت! أيليق هذا ؟ ثم أيليقُ بك أنْ تعارضنى فى كل توقيتٍ لقصائده ورحلته ، بلا جديدٍ وقفتَ عليه بجهدك ، وإنما أنت معتمدٌ فيه على تخاليط « بلاشير » ؟ هذا من عجيب السّجايا ، وأعجبُ أنّك فى كتابك قد أقررتَ ، غير مُريدٍ ! ! أنك كنت تعتقد أن هذا القسم من الديوان مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما أزالك عن اعتقادك ، فمن الذى فتح لك الطريق حتّى توقفت فى الأمر وبحثت ؟[1] وطال الـكلامُ ، ولم أدَعْ شيئاً مما كنتُ أحبُّ أنْ أقوله له كتابةً ، إلا قلتُه له بلسانى . وختمت حديثى فقلت له : خيرٌ لك أن تعيد النظر فى كتابك هذا ، ففيه آفات كثيرة أرجو أن يبرأ منها إذا أعدتَ طبعه مرة أخرى ، فهذا أليقَ بك ، وأكرم بك عند الناس .[2] وكان هذا حَسْبى ، وطرحتُ فـكرة الـكتابة عن كتابه جانباً ، ولم أذكرُه بسُوء حين تعرّضتُ لنَقْد الـكتاب الآخر ، كتابِ كبيرهم الذى علّمهم « السطو » ، وبَعَجَ لهم أساليبَه ، ومدّ لهم قِياسَه وعلّله ! ! كما قال ابن سلامٍ فى إمام علم النحو « عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى » ! !

* * *

(١) انظر ما يلى ص : ١١٨ ، س : ٦ .
(٢) انظر ما سيأتى ص : ١١٤ ، س : ٥ .

وليس سبيلى هنا أن أفصِّل القول فى نقد كتاب الأستاذ عزّام ، والوقوفَ بالقارىء على موضع موضعٍ من أفعاله بكتابى فى كتابه ، فهو أمرٌ لا يعنينى الآنَ ولا غدًا ، بحمد الله ، ولكن عنايتى هى إظهارُ فسادِ الحياة الأدبية ، فى زمنٍ مَضَى نَعَمْ ، ولكنَّه ألقى بذور الفسادِ التى أينعَت من بعده إلى زماننا هذا .

ذكرتُ قبل ما عانيتُه فى ترتيب تاريخ قصائد القسم الأول من ديوان أبى الطيب [انظر ما سلف ص: ٥٠ـ٥٤] ، وكان عملاً شاقًا وَعْرَ المسالك ، لأنّ اعتمادى فيه كان على « تذوّق الشعر » ، وأما الأخبار وتراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر ومتى قاله ، فكان يحتاج ضبطُ تواريخها إلى حذر شديد . وقد استطعتُ ، بحمدالله ، أن أوَفَّقَ إلى توقيتها توقيتًا مقاربًا للحقيقة ، ولم يسبقنى إلى التفكير فيه ، أو إلى عمله ، أحدٌ أنتفع بعلمه . ولكنّى لم أعقد فى كتابى بابًا بعنوان « ترتيب قصائد المتنبى » ، بل فرغتُ من الترتيب ، ثم بثثْتُهُ فى مواضعه من الكتاب منذ أوّله إلى نهاية الفصل العاشر [من ص : ١٣ ـ ١٧٩] . وقد كنت انتهيتُ ، فى تذوّق لشعر أبى الطيب ، إلى أن الترتيب الذى وضعه أبو الطيب نفسه ، فى القسم الأول الذى لم يؤرخ قصائده كما أرّخ القسم الثانى من ديوانه ، كان ترتيبًا مقاربًا للصواب . وذلك لأنه كان واضحًا أن أبا الطيب كان ، عند جمع شعره فى ديوانه ، شديد الإحساس بالتاريخ فى القسم الثانى ، فهو خليقٌ أن يكون شديد الإحساس به أيضًا فى القسم الأوّل ، ولكنه كان قد نسى الأيام والشهور والسنوات ،

فرتب هذا القسم على ما بقى فى نفسه من الإحساس الخابى بهذه التواريخ التى قدُم عهدُه بها ، [انظر ماقلته آنفاً من ص : ٥٠ـ٥٣] .

والأستاذ عزّام قد قرأ كتابى بلا شكّ ! ! ورأى هذه الفصول العشرة الأولى « مرَصَّعةً » ! ! بالتواريخ التى تؤرِّخ شعر أبى الطيب الذى لم يؤرخه هو باليوم والشهر والسنة ، وأدرك كما أدرك الدكتور طه حسين : « أنّ أحدًا لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبّى هذه » [انظر السفر الثانى : ١٧٣] ، بل هو قرأ التعليق الذى كتبتُه فى كتابى ، [انظر هذا السفر الأول ص : ٢٧ ، تعليق : ١] حيث قلت : « واعلم أننا نجتهد فى تاريخ مالم يؤرخ من قصائد المتنّبى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقة فما فوقها ، لنترجم للرجل على بيِّنةٍ وهدًى ، وستجد فائدة ذلك فيما يمرُّ بك إن شاء الله » ، فانظر الآن ماذا فعل ؟

عقد فصلاً فى كتابه بعنوان « ترتيب ديوان المتنبى » ، لا يتجاوز ثلاث صفحات من الطبعة الأولى العراقية ، وهو فى صفحتين فقط من الطبعة الثانية المصرية ! ! وختم هذا الفصل المهمّ بقوله :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى ، (مَنْ غيرهُ هذا ! لا أدرى) ، أنّ القسم الأوّل من كتاب ديوان المتنّبى ، مرتّبٌ على التاريخ ، حتى عرفتُ بعد بحثٍ طويل أنّ القصيدتين اللتين مدح بهما « مساور بن محمد الرومىّ » نظمتا سنة ٣٢٩ ، يُعْرَفُ ذلك من ولاية هذا الأمير على حلب فى هذه السنة ، ومن ذكر هزيمة ابن يزداد فى إحدى القصيدتين ، وكانت هزيمته فى ذلك الوقت أيضاً . وهاتان القصيدتان فى الديوان مقدمتان على قصائد « بدر بن عمار »

التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، وأظنُّ مَدْحَ مساور كان بعد مدح بدرٍ . ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار ، قصائد كثيرة لا أظنُّ أن المتنبي نظمها بين مدحَيْ هذين الأمرين . فهذا أضعف ثقتي بالترتيب في الديوان ، قسمه الأول = ومنعني أن أعتمد عليه في تاريخ الشاعر ، وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كُلّه الترتيب التاريخيّ. فأدَعُ الاعتماد على ترتيب الديوان في القسم الأول ، إلى أن أجد من الأدلة التاريخية ، ما يكفي للثقة بترتيب قصائده كُلِّها على التاريخ » . انتهى الـكلام والحمد لله . . . ثم إنّ الله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلا للـكلام ، فإبطالُ عملها إبطالٌ لنعمةٍ من أجلّ نِعَم الله على الناس ، وهذا قبيحٌ بنا معشرَ البشر ! ! أليس كذلك ؟

كان يعتقد أن القسم الأول مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما أزال اعتقاده ، فأضعف ثقته بهذا الترتيب ومنعه أن يعتمد عليه في تاريخ الشاعر = كلام مستقيم ، ولـكن ما معنىَ الجملة التالية له : « وإن ظننتُ أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيبُ التاريخي » ! ! تأمّلْ هذا الـكلام ، وما يدلُّ عليه من الحيرةِ المفضية إلى التناقض ! ألم يقُل قبل إنَّ هذا الظنّ أو الاعتقاد، قد جاء ما يبطله بعد « بحث طويل » ؟ هذا على كُلِّ حال نصُّ كلامه في الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ . فانظر الآن ماذا كانَ من أمره في الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ، بعد أن انقضى على حديثنا عشرون سنة ، قال في مقدمة الطبعة الثانية :

« وقد نفدت نسخ الطبعة الأولى بعد قليل . . . ثم يسَّر الله نشرهُ . . .
فأعدت النظر فيه ، وغيَّرتُ قليلاً ، حاشا الفصل الأخير ، فقد أعدتُ كتابته .
ووجدت الكتاب ، بعد هذه المدة الطويلة ، كما وصفته فى مقدمة الطبعة
الأولى ، ولم يتغيَّر رأيى فى شىء فيه ، فهو جديرٌ بعناية كُلِّ معنيٍّ بسيرة
أبى الطيب ، حقيق بثقة كُلِّ قارىء » .

وظاهر بعد الحديث الذى حَدَّثتك عمّا كان بينى وبين الأستاذ عزّام ،
أنّه يعرِّض بى ، على استحياء !! ، من وراء بُرْقُعٍ لايراهُ غيرى ! وانظر
إلى ثنائه على كتابه ، وقد وصفت لك من قبلُ حياءَهُ ، وأنه أمرٌ غير معهودٍ
فيه أن يتبجَّح بذكر نفسه والثناء على أعماله [انظر ص : ١٠٧ س: ٨] .
فليت شعرى ما الذى غيَّر الرجُل ! وقد ذكَرَ أنّه أعاد النظر فى الكتاب ،
و« غيَّر قليلاً حاشا الفصل الأخير... »! وسأضرب لك مثلاً على ما غَيَّر فى فصل
ترتيب الديوان الذى نقلته آنفاً [ص : ١١٢ س : ١٤ ، وما بعده] ، فإنه قال هناك :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى . . . حتى عرفت بعد بحثٍ طويلٍ أنه
القصيدتين ... » ، فكان التغيير هو هذا : « حتى عرفت بعد بحث طويل
مُتعبٍ أن القصيدتين ... » ، فزيادة « متعب » تغيير كان لا بُدَّ منه ، لأنه
أمرٌ شديد الخطر ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا التغيير ! وهو يستحى أن
يرانى قلتُ : « وأعلم أننا نجتهد فى تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبى ، وقد
وجدنا فى ذلك المشقّة فما فوقها » [انظر ما سلف ص : ١١٢ ، س : ٨ ، ٩] ، ثم يقتصر

هو على وصف بحثه بأنه « طويل » ، والاقتصار على صفته بالطول مفسدةٌ وإخلالٌ وزلّةٌ لاتُغتفر ، فصار لِزاماً أن يغيِّر فيقول: « بحث طويل متعب » لتستوى كِفَّتَا الميزان ! وإذا لم يَكنْ هذا القدر من الدّقة والحرص والأمانة هَزْلاً محضًا ، فماذا يكون ؟

* * *

وينبغى أن تستيقن ، إكراماً لى على الأقلّ ، أن الرجُل لم يبحثْ بحثًا لا طويلاً ولا قصيرًا ، ولا متعباً ولا هيِّناً « حتى عرف أن القصيدتين اللتين مدح المتنبى بهما مُساورَ بن محمد الرومىّ ، نظمتا سنة ٣٢٩ . . . » إلى آخر ماقال . وتفسير هذا بسيطٌ جدًّا عندى ، لأنى أعرف ما كتبتُ ، وأعرف ما يكتب الآخرون . أمّا كشف الستار عن حيل هؤلاء المؤلفين الذين يتستّرون تحت عباءة « البحث العلمىّ المتعب » ، ويتلعّبُون بعقول القراء ، ويفسدُون الحياة الأدبية بتعبهم فى اختطاف مايختطفون ، ثم بتعبهم فى إخفاء ذلك بأساليبهم المبتذلة المتنوِّعة ، فيحتاج إلى بَسْطٍ وإطالة . ولكنى سأقنع هنا بما لا بُدَّ منه .

كنتُ قد قسَّمت ديوان أبى الطيِّب أقساماً . لم أذكر ذلك فى كتابى ، ولا أجد ما يدعونى إلى تفصيل كلّ هذه الأقسام هنا ، والذى يهمنا هما القسم الأول والثانى .

القسم الأول: يبدأ من أول الديوان ، إلى آخر القصيدة ٤٨ (من شرح الواحدىّ واليازجىّ أيضًا) ، ويتضمّن ٢٧ مقطوعة ، و٢١ قصيدة من قصارِ

القصائد : وتاريخها يبدأ من أول سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٥ تقريباً . وهي مما قاله في الكوفة صبيًّا في الحادية عشرة ، ثم في الشام سنة ٣٢١ ، ثم في السجن سنة ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ثم في بغداد والكوفة سنة ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ثم في الشام مرةً أخرى في أوائل سنة ٣٢٦ .

والقسم الثاني : يبدأ بالقصيدة ٤٩ وما بعدها ، عند نزوله بالتنوخيين باللاذقية سنة ٣٢٦ وما بعدها .

أما القسم الأول ، فهو يقع في كتابي من أوله ص : ١٣ إلى آخره ص : ١١٦ من هذه الطبعة . وقد استشهدت بأكثر مقطوعات هذا القسم ، أمّا قصائده ، فلم أستشهد فيه إلاّ بأربع قصائد من قصائده لا غير . وكان فيه توقيت رحلته والحديث عنها ، منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ إلى الشام ، ثم سجنه ، ثم عودته إلى الكوفة وبغداد ، ثم عودته إلى الشام مرة أخرى سنة ٣٢٦ . ولما بلغتُ في كتابي ص : ١١٣ ، قلت في تعليق لي هناك : « اعلم أننا تركنا في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ، ما قال من شعر في مدح رجالٍ لقيهم في طريقه بالبلاد التي نزل بها ، إذ ليس يضرُّ إغفالُ ذلك ... » ، فكان مما أغفلته آخر قصيدتين في هذا القسم (٤٧ ، ٤٨) ، في مدح « مساور بن محمد الرومىّ » الذي ذكره الأستاذ عزام .

ثم شرعتُ بعدَ ذلك منذ ص : ١١٧ في القسم الثاني ، الذي يبدأ عند نزوله على التنوخيين باللاذقية سنة ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ، ومضيت في تاريخ هذه الحقبة إلى أن لقى بدر بن عمار الأسدى ، من أواخر سنة ٣٢٨ ، إلى سنة ٣٣٣ على

وجه التقريب [ص : ١٣٩ ـ ١٥٣] ، وتابعت التاريخ والتوقيت بعد ذلك، إلى أن انتهى المتنبّي إلى أبي العشائر الحمداني في أواخر سنة ٣٣٦ ، ثم جاء القسم المؤرخ من الديوان ، منذ نزل المتنبّي على سيف الدولة في جمادى الأولى سنة ٣٣٧ .

فماذا حدث ؟ حدثَ أن الأستاذ عزام ، قد تعب تعباً شديدًا حقًا ، ولكن تعبه هذا كان وهو يحاوِل أن يتبيّن هذا التقسيم الذي فصّلتُه هنا بعض التفصيل ، وما فيه من التأريخ الذي لم يسبقني إليه أحدٌ ، وقد ظلّ يتعقّبني في هذا القسم الأوّل [ص : ١٣ ـ ١١٦ كما قلت] ، يأخذُ من كلامي ، ويفرِّقُه على أبواب كتابه « المدرسيّ » ، ثم يحاوِل أن يعارضني مرة بعد مرةٍ ، بلا ذكرٍ ولا بيانٍ ، وبأسلوبٍ غير مرضيّ ولا مستساغ ، لأنّه توقّف ، هكذا تظاهر ، على كُلِّ شعرٍ من شعر أبي الطيب أو خبر من أخباره ، كنت أنا أوّل من توقّفَ عنده وكشف معانيه . فمن ذلك أنّه حين انتهى إلى مسألة نبوته وسجنه في كتابي [ص : ١٠٦] ، وجدني قد توقفت عند شعر أبي الطيب الذي قاله وهو في السجن ، وكتب به إلى « الأمير ؟ » وذلك قوله :

رَمَى (حامِيًا) بنَوَاصِي الخيولِ، وسُمْرٍ يُرِقنَ دمًا في الصعيد

. . . .

فوَلَّى بأشياعه (الخَرْشَنِيُّ) ، كشاء أحسّ بزأرِ الأسودِ

وهو من القصيدة ٣٦ من القسم الأول ، فقلت في توقفي على هذين البيتين اللذين لم يتوقف عندهما أحد قبلي : « والذي تنبّهنا له هنا ، أنه ذكر في هذه

القصيدة (حلبًا) و (الخرشنى) ، وقد عَيِينَا (أى تعبنا !!) بالبحث عن الحادثة التاريخية التى نستطيع بها أن نعيّن السنة التى قيلتْ فيها ، ثم وفّقنا الله لتفسير ذلك بالاستنباط » ، وذكرت الحادثة وتاريخها ثم قلت : « والخرشنى هو ملك الرُّوم، لأنهم ينسبون ملوك الروم إلى جبل ببلادهم ، يقال له (خَرْشَنَةَ)، وتكون هذه القصيدة لذلك ، مما كتب أبو الطيب إلى محمد بن طغج الإخشيد التركىّ (الأمير) ، فى أواخر سنة ٣٢٢ ، وأوائل سنة ٣٢٣ » .

فتوقف الأستاذ أيضاً ، دون أن يذكرنى أو يذكر ما قلت فى ذلك ، وجاء يعارضنى ويتعقبنى ويزعُم أن (الخرشنىّ) ، هو « بدر الخرشنىُّ » ، وأنَّه ولى حلب سنة ٣٢٤ ، وكتب ذلك فى فصل لطيف كلُّه خلط عنوانه : « متى سجن أبو الطيب ؟ » وكان سبيلُه إلى هذا الكشف أن يلتمس كتاباً فيه « تاريخ حلب » ، فوقع على كتاب الأستاذ محمد راغب الطباخ ، فذكره ، وأخذ منه ما أخذ . وفيما هو يقلِّب الكتاب وقع عَرَضًا على اسم « مساور ابن محمد الرومىّ » الذى مدحه المتنبىّ بالقصيدتين (٤٧ ، ٤٨) ، وهما فى آخر القسم الأوّل عندى . فمن هنا قال : « كنت أعتقد كما يعتقد غيرى . . . . حتى عرفت بعد بحثٍ (متعبٍ) أن القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومى نظمتا سنة ٣٢٩ ، يعرف هذا من ولاية هذا الأمير على حلب فى هذه السنة ، وفى ذكر هزيمة بن يزداد فى إحدى القصيدتين . . . » إلى آخر ما قال [انظر ماسلف : ١١٢ ص] ، ولم يشر إلى كتاب الأستاذ الطباخ هنا البتة !! مع أن خبر « مساور » ، وهزيمته ابن يزداد ، وهو الذى ساقه هنا كأنه شىء معروف مشهور = وهو أسلوبٌ مُبْتَذَل من أساليب التَّعالُم =

لا يوجدُ له ذكر فى كتب التاريخ المعروفة، ولم يجر له ذكرٌ إلاّ فى كتاب الأستاذ الطباخ، وهو نقله من مخطوطة كتاب «زبدة الحلب» لابن العديم، الذى طبع بعد ذلك بزمان طويل! (سنة ١٩٥١). فالأمرُ كُلّه غير «متعب» كما ترى، وهو شىء جاء اتفاقًا، ولكنه فرح به أيّما فرحٍ، لأنه يتيحُ لَهُ أن ينقُضَ علىَّ «الترتيب التاريخى» الذى سرتُ عليه فى كتابِى، فيقول بعد ذلك مباشرةً: «وهاتان القصيدتان فى الديوان، مقدمتان على قصائد بدر بن عمار التى نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل ٣٢٩، وأظنّ أن مدح مساور كان بعد مدح بدر، ثم بين قصيدتى مساور ومدائح ابن عمار قصائد كثيرة لا يُظَنّ أن المتنبّى نظمها بين مدائح الأميرين. فهذا أضعف ثقتى بالترتيب فى الديوان ....»، إلى آخر ما قال [انظر ما سلف ص: ١١٢، ١١٣].

والخلاصة، أنه لولا توقفى عند (حلب) و(الخرشنى) ثم وقوفه عرضًا على ذكر «مساور» فى كتاب الطباخ، لَظَلّ الأستاذ على اعتقاده (كما اعتقد غيره!): أن الديوان مرتّب ترتيبًا تاريخيًا!! فهذا هو الذى أحدث له الإشكالَ فى هاتين القصيدتين!! ولكن الصحيح هو أن القصيدة الأولى (٤٧)، قالها المتنبّى بعد خروجه من السجن سنة ٣٢٣، وبعد عودته إلى الشام سنة ٣٢٦، ثم فارق مساورًا، وذهب إلى التنوخيين، على سياق ما فى كتابى. أما القصيدة الثانية (٤٨)، فقد قالها حقًّا، سنة ٣٢٩، وهو عند بدر بن عمّار فى طبرية، بدليل ذكر هزيمة ابن يزداد فيها، وأرجَحُ الظنّ عندى أنه كتبها بطبرية، وأرسلها إلى «مساور»، وهو بحلب. ثم لما جمع المتنبى شعرَه، على ما بقى فى نفسه من تواريخ قصائد القسم الأول، ضمّ القصيدة

الثانية التي قالها سنة ٣٢٩ ، إلى القصيدة الأولى التي قالها سنة ٣٢٦ ، وقد فعل المتنبي ذلك مرارًا ، حتى في القسم المؤرَّخ ، فإنه ضمّ قصائد أو أبياتًا في تاريخ متأخر ، إلى قصائد في تاريخ متقدّم ، وقصائد في تاريخ متقدّم ، إلى قصائد في تاريخ متأخر ، ليكون شعره في الرجل الواحد ، مجموعًا في مكان واحد . وقد أشرت إلى ذلك من فعله فيما سلف [انظر ص : ٥١] .

* * *

ولست هُنا مريدًا للوقوف على جميع ما أستهجنه من أفعال الأستاذ عزام ، وهي كثيرة جدًّا ، ولكني سأقفك على هذه الأشياء الغريبة التي تحرّك هؤلاء الكتاب ، ملفّفة في الغموض والإبهام . فالأستاذ عزام ، لم يلق بالاً إلى شعر أبي الطيب عن الرجل الذي ذكره آنفاً في عُرْض كلامه ، وذكر تاريخ قصائد أبي الطيب فيه ، « وهو بدر بن عمار الأسدّى » ، ثم أغفله في كتابه إغفالاً يكادُ يكون تاماً ، ولا أدرى لم ؟ إلا ما كان من قوله آنفاً : إن قصائد أبي الطيب فيه كانت سنة ٣٢٩ ، ثم لم يذكر عنه شيئاً ذا بال سوى هذا التاريخ « المحدّد » !! أما أنا فقد عقدتُ له فصلاً كاملاً مفردًا ، هو الفصل التاسع كلُّه [هذا السفر : ١٣٩ ـ ١٠٣] ، وردّدت ذكره قبل ذلك وبعد ذلك [اطلبه في الفهرس] ، وحدّدت شعر أبي الطيّب فيه من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ . وجعلتُ لقاء أبي الطيب ببدر أوّلَ إسفارة واضحة عن طبيعة أبي الطيّب وأهدافه بعد أن خرج من السجن ، وعن تأمُّلاته وآلامه وحوافزه ، حيث استعلنت « عصبية أبي الطيّب للعرب والعربية » ، وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العربيّ العدويّ ، هازم الروم ،

وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق » ، كما قلت [ص : ١٤١] .

وقد أحدث هذا الفصل للأستاذ عزام غماً شديداً ، وارتبا كاً متعباً ، ولم يستطع أن يقول فيه شيئاً فى كتابه البتة ، ولم يستطع أن يتعقّبنى كعادته ، فوقف بحثه « المتعب » كُلُّه عند مسألة التاريخ التى يذكرها عرضًا بلا دليل البتة ! ! لأنّ الدليل لم يكن عنده فى كتب التاريخ المعروفة ! ! ولا وجد ذكره واضحاً فيها ، فأخذه تسليماً = ثم اجتهاداً من عند نفسه ! = من رجُل آخر ، أخفى ذكره فى هذا الموضع إخفاء تامًّا ، مع أنه ذكره فى مواضع أخرى كثيرة من كتابه ، إلاّ هذا الموضع ! !

فالأعجمى المستشرق « بلاشير » ، كتب ترجمة لأبى الطيب فى دائرة المعارف الإسلامية ، وقد ذكره الأستاذ عزام وذكرها مرارًا كثيرة جدًّا فى كتابه ، وبأدبٍ جَمّ حتى عند أشد المخالفة . فكان ممّا قاله « بلاشير » أن المتنبى بعد « ثورته » : « رجع إلى احتراف المديح !! واستئناف حياة التجول بداية عام ٣٢٥ ... وقنع بمدح أهل أنطاكية ودمشق وحلب وغيرها وبعض صغار العمال فى هذه المدن ، الذين كانوا يقترون عليه فى العطاء كلّ التقتير (ياسلام ! !) . وذاع صيتُه شيئاً فشيئاً حتى أصبح فى أوائل عام ٣٢٨ هـ شاعر الأمير بدر الخرشانى (هكذا ، والصواب : الخرشنى) الذى ذكره فى ديوانه باسم « بدر بن عمار » ، وكان والياً على دمشق ، من قبل أمير الأمراء السابق ابن رائق ، الذى كان قد احتل الشام وشيكاً . ولما كان بدرٌ من

أصل عربيٍّ ، فقد اعتبره المتنبي مولاه الذي كان ينتظرهُ من أمدٍ بعيد » .
ثم يقول : « ولم تدُم صداقة المتنبي لبدرٍ إلاّ حوالى عام ونصف عام » .

ثم يقول هذا الأعجمي أيضًا مادة « بدر الخرشني » من دائرة المعارف الإسلامية : « بدر الخَرْشَنيّ ، أميرٌ يرجّح (يا سلام !!) أنه من أهل خَرْشَنة ... ويعرف أحيانًا (لا ياشيخ) بنسبة ربما كانت أسطورية (يالطيف)! وهي « بدر بن عمار الأسديّ » ، حاجب الخليفة القاهر ... ووُلّي على جند الأردنّ ، وجعل مقرّه في طبرية سنة ٣٢٨ هـ ، وحوالى هذا الوقت مدحه المتنبّي . وأثناء الصراع بين ابن رائق وأمير الموصل الحمداني ناصر الدولة ، عاد بدرٌ هو أيضًا إلى العراق ، ونال الحظوة مدة قصيرة لدى الخليفة المتقي ، ولكنه اضطر إلى الالتجاء إلى الفسطاط في مصر عند محمد الإخشيدي . وتوفي بدر هناك في نهاية سنة ٣٣٠ » .

اللهم اغسِلْ حَوْبتي (أي إثمي) ، وتقبّل توبتي ، فإن الأستاذ عزام قد أوقعني في إثم كبير بنقل هذا الخلط الخبيث إلى كتابي هذا . وأنا لا أشكُّ لحظةً أنّ الأستاذ عزّام قد استقذر هذا الكلام كما استقذرته ، ولذلك لم يذكره في كتابه ، لا ناقلاً ولا مُعلّقًا ولا ناقدًا ولا مصحّحًا ! وعلة ذلك معروفة ، وهو أن هذا الجيل من الأساتذة كان لا يملك إلاّ أن يقف خاشعًا مُخْبِتاً بين يدى « العلماء المستشرقين » !! فما وجدُوا من « جديدٍ » أخذُوه فأذاعوا به وتقلّدوه ، أو انتحَلُوه وتأبّطوه ، وأمّا ما وجدوا من « خَبيث » فقد أجْرَوا عليه السنة في كُلِّ خبيثٍ ، أن يُغْضُوا عنه أو أن يدسُّوه في الترابِ !

وكذلك فعل الأستاذ عزام . وأنا لا أستحلُّ نقل هذا الخَبَث دون أن أبين فساده ، وإن كانَ عملي هنا لا يتناول مثل هذه الخبائث .

« بدرٌ الخرشنّي » ، غلامٌ روميٌّ من « خرشنة » في بلاد الروم ، ظلّ يعلو شأنه حتى صار من كبار رجال الدولة . وحين ولي الخليفة المتقي في ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان بدرٌ ببَغداد ، فخلع عليه المتقي ، وقلّده الحجابة ، وجعله حاجب الحجاب . ثم جرت له أمور ببغداد ، فصرف عن الحجابة سنة ٣٣٠ ، وقلّده المتقي طريق الفرات ، فسار إلى الإخشيد محمد بن طغج ، أمير مصر ، مستأمناً ، فأمنه الإخشيد وولاه إمرة دمشق ، فوليها شهرين ، ومات في ذي القعدة سنة ٣٣١ . وكذبٌ بحتٌ أن يقال إنه جعل مقرّه في طبرية سنة ٣٢٨ = أو أن يقال : إنّه من أصل عربيّ = أو أن يقال إن المتنبي مدحه ، إلى آخر هذا الإفك .

وأما « بدر بن عمار بن إسماعيل الأسديّ الطبرستاني » ، فهو عربيٌّ صليبةً من بني أسد ، يقول المتنبّي ، وهو أعلم ببدر من يكون ، يذكر باسمه كاملاً في شعره ، حيث يقول :

حَدَقٌ يُذِمُّ من القواتلِ غيرَها بدرُ بنُ عَمّارِ بنِ إسماعيلاَ

ويذكر نسبه في العرب فيقول :

إلى البدر بن عَمّارِ الذي لم يكُنْ في غُرّةِ الشّهر الهلالاَ

سِنانٌ في قناةِ بني مَعَدٍّ ، بني أَسَدٍ ، إذا دَعَوُا النِّزالا

وبنو أسد ، من معدّ بن عدنان . وهو ليس أسطوريًّا ، وليس عند العرب ما يقال له شخص « أسطوريّ » كالذي عنه الأعاجم ، فقد ذكره محمد بن عبد الملك الفرضيّ الهمذاني (ـ ٥٢١ هـ) ، صاحب تكملة تاريخ الطبري فقال : « وكان بدر بن عمار الأسدي الطبرستاني ، يتقلّد حربه طبرية لابن رائق ، وهو الذي مدحه المتنبي بقصائد عدة » ، وليس له ذكر في كتب التاريخ المطبوعة التي بين أيدينا ، سوى هذا الكتاب ، وما جاء في ديوان أبي الطيب . ولم يكن واليًا على دمشق قطُّ ، وزال بحمد الله الخَبَثُ والخَلْطُ . فهما إذن رجلان مختلفان لا رجل واحد ، أحد شِقَّيه حقيقة والآخر أسطورة ! ! هذا مجرّد عَبثٍ بارد .

ثمّ إنّ الأستاذ عزام الذي اجتنب هذا الخبث فلم يذكرهُ في كتابه عن المتنبي ، واقتصر ، وهو في حيرةٍ من أمر ما قرأه في كتابي ، على أن ذكر « بدر بن عمار الأسديّ » في مواضع قليلة ، ولم يؤرخ له إلاّ في أول الكتاب (سنة ٣٢٩) ، واستخرج هذا التاريخ استخراجًا من بين التواريخ التي ذكرها بلاشير في تخاليطه السالفة بين « بدر الخرشني » و « بدر بن عمار » ، وكأن الأستاذ كان في ريبة من أمره .

وقد كنت في حديثي معه في دار مجلة « الرسالة » ، قد أشرتُ إلى هذه الذي كان منه في شأن « بدر بن عمار » وإغفاله ، ومضت سنوات منذ

سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، حين نشر الأستاذ ديوان المتنبّى ، وبذل جهداً كبيراً فى الجمع بين النسخ المختلفة للديوان ، وكتب له مقدمةً طويلة ، وعقد فيها باباً بعنوان « ترتيب الديوان » ، وذكر القسم الأول الذى لم يؤرخ ، وكان كلامه مُوهماً أن بعض هذا القسم قد عُرف تاريخه فى بعض النسخ المخطوطة ، وليس هذا صحيحاً ، والتواريخ المذكورة فيه هى مما أودعه هو كتابه عن أبى الطيب ، ولكنه انتهى أخيراً إلى غلبة الظنّ بأن ترتيب هذا القسم موضوع على الترتيب التاريخى ، ولم يزد على أن قال متواضعاً فى هذه المرة : « ولم أعرف فى ترتيب هذا القسم ما يخالف الترتيب التاريخى ، إلا القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد . فقد قدَّرتُ أنهما نظمتا سنة ٣٢٩ » ، إلى آخر ما قاله فى كتابه عن أبى الطيب . وقد أزلنا نحنُ إشكالهما آنفاً بحمد الله ، و بقى ترتيب المتنبى للقسم الأوّل من ديوانه سليماً مطابقاً للترتيب التاريخى .

ولما بدأ الديوان ، لم يتدخل الأستاذ عزام فى حواشى الكتاب بشىء ، فإنّه لما بلغ قصيدته التى قالها فى سجنه ، وزعَم فى كتابه وفى مقدمته أنّ (الخرشنى) هو « بدر الخرشنى » ، وأن تاريخها هو سنة ٣٢٤ أو ٣٢٥ ، لم يعلِّق بشىء فى داخل حواشى الديوان = ولما بلغ القصيدتين التى قالهما فى « مساور بن محمد الرومى » ، والتى أرخهما فى كتابه وفى مقدمته بسنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، لم يعلق أيضاً بشىء فى داخل حواشى الديوان . وقد أحسن إذ لم يفعل ، وليته استمرَّ على ذلك ! غير أنهُ لما بلغ مدائح

أبي الطيّب في « بدر بن عمار » ، لم يملك نفسه ، فقد كان حديثي يؤرقه منذ سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، فأحدث هذا التعليق ، وهو التعليق الفردُ اليتيمُ الذي جاء به من عند نفسه ، في هذا القسم الأول ، لا بل في سائر الكتاب قال :

« قصائد بدر بن عمار » يسهل تأريخها ، فبدرٌ كانَ يلي طبرية من قبل ابن رائق . وكان استيلاء ابن رائق على الشام سنة ٣٢٨ ، وقتل في رجب سنة ٣٣٠ ، فقصائد بدر نظمت بين هذين التاريخين . ثم أبو الطيب في القصيدة الآتية التي مطلعها : « بقائي شاء ، ليسَ هُمُ ، ارتحالاً » ، يمدح بدراً بقوله :

حسامٌ لِابنِ رائقٍ المُرَجّى ، حُسَامُ المُتّقِي أيامَ صالاَ

وكانت خلافة المتقي في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ ، فقد نظمت هذه القصيدة بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب من السنة التالية . والظاهر أن القصائد الأخرى توالت قبل هذه القصيدة . فشعر المتنبي في « بدر » ينبغي أن يؤرخ بسنة تسع وعشرين وثلثمئة » .

وهذا كلامٌ في غاية الغموض والإبهام والاضطراب ، سقيمُ التركيب لا يتركّبُ على هذا الوجه إلاّ في نفسٍ تركتها الرِّعدةُ تدورُ في مكانٍ ضَنْكٍ ، أشلاء متطايرة ، وألفاظاً في ظلمة تتصادَم : ليس هذا خيالاً ، بل

هو تصوير للحقيقة . إمّا لا ، فانظر إلى سياق منطقه ! ولكن ينبغى أن تعرف ، أوّل كل شىء ، أن عدد القصائد التى قالها المتنبى فى بدر بن عمار(٥) خمس قصائد لا غير ، و٢٣ مقطوعة . وهو كلام يتركّب من ثلاث مقدمات ونتيجة ، وهذا تشقيقُه وتحليلُه :

المقدمة الأولى : « قصائد المتنبى فى بدرٍ قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » .

المقدمة الثانية : « القصيدة الثالثة ، نظمت بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، (بينهما ستة عشر شهراً) .

المقدمة الثالثة : « الظاهر أنّ القصائد الأخرى (الأربعة) توالت قبل هذه القصيدة = أى قبل القصيدة (الثالثة) .

النتيجة : « فشعر بدرٍ ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » .

وأنا أرجّح أن (المقدمة الأولى) لم تذكر إلاّ تمهيداً وحصراً لما يأتى بعدها ، وإلاّ صار الكلام سُقْماً خالصًا كلُّه ، لأنه يناقض (النتيجة) ، ولكنه أساء التعبير .

وأما (المقدمة الثانية) : فهى تجعل (القصيدة الثالثة) متردِّدة بين طرفين فى زمن مقداره ستة عشر شهراً = ممكن أن تكون فى الشهر الأول ،

أو الذى يليه ، إلى الشهر السادس عشر ، (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ، و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ . كلٌّ ذلك جائز .

وأما (المقدمة الثالثة) : فتجعل ظاهرَ الأمر أن القصيدتين الأولى والثانية ، والقصيدتين الرابعة والخامسة ، قالها المتنبى متوالية قبل (القصيدة الثالثة) ، أى هى تابعة لقصيدة متردّدة بين طرفين فى زمن مقدارهُ (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ، و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ .

ومعنى ذلك أننا إذا فرضنا أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى رجب سنة ٣٣٠ ، فالقصائد الأربع الأخرى التى توالت قبلها ، ممكنٌ أن تقع جميعاً فى الأشهر الستة الأولى من سنة ٣٣٠ فقد خرجت (سنة ٣٢٩) خروجاً كاملا سهلاً من تاريخ هذه القصائد !! أليس كذلك ؟

فكيف يمكن إذن أن تكون (النتيجة) الحاسمة : « فشعر المتنّى ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » ؟ « ينبغى » ، ياللعجب ! هذا هو السهل الممتنع ! ! . وهذا السهل الممتنع ، هو الذى يجعله سهلاً عليكَ أن تقبَل منِّى ما وصفت به هذا الكلام ، وأنه حقيقة واقعةٌ ، لا خيالَ فيها !

لا ، بَلْ إذا فرضنا فرضاً آخر ، وهو أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى أول ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان ممكناً أن تتزحزحَ معها القصائد الأربع الأخرى ، راجعة القَهْقَرَى ، حتى تدخُلَ جميعاً فى سنة ٣٢٨ دخولاً صريحاً ربما انتهى إلى أوائل هذه السنة . فكيف يمكن ، إذن ، أن تكون النتيجة الحاسمة : « فشعر المتنِّى ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ هـ » ؟ يا للعجب ! .

جائزٌ جدًّا أن يكون الأستاذ لم يتعلّم الحساب قط ، ولـكن ليتَ شعرى هل يجوز أن يكون ضعيف الذاكرة أيضاً ضعفاً يجعله ينسَى ماقاله فى كتابه الذى هو « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » ، والذى هو « جديرٌ بعناية كلِّ معنّى بسيرة أبى الطيب وشعره ، وحقيق بثقة كل قارىء » ، فإنّه قال هناك على وجه القطع : « قصائد بدر التى نظمت فى أواخر سنة ٣٢٨ ، وأوائل سنة ٣٢٩ » ، بهذا التحديد الحاسم والمبهم أيضاً ، وأيضًا بغير دليل ؟ وإذا صح أنه قد نسى ماقاله فى كتابه سنة ١٩٣٦ ، فكيف تذكر فى سنة ١٩٤٤ أن ينقله بنصه فى مقدمة الديوان الذى فيه تحديد التاريخ بسنة ٣٢٩ ، على وجه القطع بقوله « ينبغى » ؟ يا للعجب ! إنه : كما قلتُ آنفاً ، كلامٌ ، والله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلاّ للكلام ، فإذا فعلنا ، فذلك إقرارٌ منا له سبحانه بعظيم نعمته ، والحمد لله رب العالمين .

وفى هذا الكلام آفاتٌ أخرى كثيرة ، أنا أعلمُ من أين أتتْ ، ولكنّى أتركُها جانباً ، وأحمِّل إثمها الرجُلَ الذى أخذ الأستاذُ عنه ، وإن لم يصرّح بذكره . قلت آنفاً فى (المقدمة الأولى) التى قال فيها : « قصائد المتنبّى فى بدر قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، قلت : « إنى أرجح أنّه لم يذكرها إلا تمهيدًا وحصرًا لما يأتى بعدها » ، إفراطاً فى حسن الظنّ ، وتبرئة لكلامه من التناقض الفاحش . وهذا التاريخ المحدّد فى (المقدمة الأولى) إنما هو تاريخ ابن رائق منذ ولايته على الشام سنة ٣٢٨ إلى أن قتل فى رجب ٣٣٠ ، وليسَ تاريخاً لبدر بن عمار ، حتى يصحّ أن تكون مقدمة حاصرة لما يأتى بعدها من التواريخ .

كلُّ ما فى الأمر أن بدر بن عمّار الأسدى «كان يلى حرب طبرية من قبل ابن رائق» ، كما قال المتنبى نفسه ، أى أن ولايته تبدأ سنة ٣٢٨ حين ولاه ابن رائق . فإذا قُتل ابن رائق فى رجب سنة ٣٣٠ ، أفمعنى ذلك أن يكون ابن عمار قُتِل هو الآخر (أتوماتيكياً) فى هذه السنة ؟ أو معناهُ أن يكون صُرِف عن ولاية حرب طبريّة (أتوماتيكيًّا أيضاً) ساعة قتل ابن رائق ؟ من أين للأستاذ أن يكون العمل الجارى فى الولايات أى يُصْرفَ كُلُّ العمال عن ولاياتهم ، إذا مات أو قُتل الذى ولاّهم ؟ أليس ممكناً أن يكون ابن عمار بقى على حرب طبرية بعد قتل ابن رائق ، سنة أو سنتين أوثلاثاً أو أربعاً ، أو فوق ذلك ؟ ممكن بلا شكٍّ ، وإذا كان هذا ممكناً ، فما قيمة هذا التاريخ ، « سنة ٣٢٨ إلى رجب سنة ٣٣٠ » فى الحصْر المؤدِّى إلى حصر تاريخ شعر المتنبى فى بدرٍ بين هذين التاريخين ؟ الأمرُ كُـلِّه فسادٌ وخَلْطٌ ودَعْوَى ، ورغبةٌ فى مخالفتى ، لا أكثر ولا أقل ، لأنى قلت فى كتابى : إن المتنبى بقى فى جوار بدر بن عمار : « من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب ، لا على وجه التحقيق » [انظر السفر الأول ، ص : ١٤٠] ، هذا كُلُّ ما فى الأمر « والسلامُ » . وكُلُّ ما فى الأمر أيضاً أن الأستاذ عزام ظل ثمانى سنوات (من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤) ينتفض فى قبضة كلماتى التى قلتها له ونحن فى دار مجلة « الرسالة » ، فحاول هذه المحاولة « اليتيمة » البائسة ، فى الردِّ علىَّ من وراء حجاب ! أمَّا عقول القرّاء ، وأمّا التحقيق التاريخى ، وأما أمانة العلم ، فأمور لاقيمة لها ، مادام قد بَلَغَ منِّى بِغَلَنَه مبلغاً حتى سُقِط فى يَدِى ، وأطرقتُ أنظر إلى الأرض ، أقرع السنَّ من ندم على ما قلتُ .

هكذا كانت تجرى الأمور ، ولا تزال تجرى ، على المثل الجارى : « مِنْ دَقْنِهِ وافتل له » ، يأخذُ مِنّى ويردُّ علىّ ! ويظنّون أنه باب خفىٌّ من أبواب علم « السطو » ، فسبحان ربّنا الأكرم ، الذى علَّم بالقلم ، علَّم الإنسانَ مالم يعلم !

إنما عرضت مثلاً مما فى الكتاب لا أكثر ، أمّا سائر ما أخذه الأستاذ عزّام اجتراءًا مجرَّدًا ، أو سطوًا عريانًا ، فلم أتعرض له هنا ، وقارىء كتابى وكتابه قادرٌ على أن يراهُ ، كما رأى بعضَه ذلك الشاب العِراقىُّ الذى لم يدخُلْ « جامعةً » ، ولكنه ثقّف نفسه بالقراءة ، وهو جالِسٌ فى دكانٍ صغير يبيعُ فيه الكتب ، فكتب إلىّ رسالة يذكر فيها أكثر من ثلاثين موضعاً فى كتابى،أخذها الأستاذ فوزّعها بالعَدْل والقسطاس علىأبواب كتابه ، ورحم الله الشابَّ قاسمَ الرّجب الكُتْبىَّ ، فقد كانَ مِثالاً لليقظةِ فى شبابٍ وشيوخٍ كثيرٍ ، قد نامت عقولهم واسترخَتْ « تحت التخدير الثقافىّ » !

* * *

الكتاب الثانى

أمّا الكتابُ الثّانى . . . أمّا الكتاب الثّانى . . . أمّا الكتابُ الثانى ، وأمرنا جميعاً إلى الله ، فهو كتابُ الدكتور طه حسين « مع المتنبّى » الذى نشرهُ بعد صدور كتابى بسنة وَاحدة أو أقلّ .

قلتُ آنفاً [انظر ماسلف ص : ٤٦ ، ٤٧] إنى حين قرأت شهادة الدكتور

طه على جيلنا المفرَّغ من ثقافة أمته فى سنة ١٩٣٥ ، توهمتُ ، بحسْنِ الظنّ ، أنه سوف يبدأ عَهْدًا جديداً فى تفكيره ، وأنه سيفارق السُّنَّة التى سنَّها هو والأساتذة الكبار ، أعنى سُنَّة « السطو » وسُنَّة التلخيص ، ولما فرغت من من قراءة آخر مقالاته فى مايو سنة ١٩٣٥ ، وجدتُ أيضاً أنه يُحاوِل محاولة أن يسلُك طريق « تذوّق الشعر » [انظر ما سلف : ٤٧] ، وهو الطريقُ الذى حاولتُ قديماً ، وأنا طالبٌ فى الجامعة أن أقنعَه به فيأبَى ويُعْرِضُ ، وذلك الطريق هو كما قلت : « ضرورة قراءة الشعر الجاهلىّ والأموى والعباسىّ قراءة متذوِّقة مستوعِبةً ، ليستبين الفرقُ بين الشعر الجاهلىّ والإسلامىّ ، قبل الحديث عن صحّة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، والتماس الشُّبَه لتقرير أنه باطلُ النسبة ، وأنه موضوع فى الإسلام ، من خلال رواياتٍ فى الكتب ، هى فى ذاتها محتاجةٌ إلى النّظر والتفسير » [انظر ما سلف : ٣٣] :

ثم قلت : [ص : ٤٧] واصفاً تذوُّقَه للشعر فى مقالاته : « ولكنّه تذوُّقٌ بلا منهج ، وبلا هَدَفٍ ، وعلى غير أصلٍ » . وإذا أنا مخطىء فى الأمرين جميعاً خطأً فادحاً .

وجاء أسبوع الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة أبى الطيب ، بدار الجمعية الجغرافية سنة ١٩٣٦ . وقبيل ذلك بأيامٍ كان قارىء الدكتور طه المصاحبُه ، قد لقينى فى الطريق ، فأخبرنى أنّ صاحبه يرى أن المتنبّى « لَقيطٌ لِغَيّةٍ » ، فاستكبرت ذلك واستنكرته مستعيذًا بالله من سوء ما أسمع . كنتُ لم أَلْقَ الدكتور طه منذ فارقتُ الجامعة فى سنة ١٩٢٨ ، حتى كان أسبوع هذا

الاحتفال . وفي أوّلِ يوم من الأسبوع بدأ الدكتور طه محاضرته، واستفتحها قائلاً: «لقد شكَّ بعضُ الناس في نسب المتنبِّي، وأنا أوافقه على هذا الشكِّ».
فكدتُ أقوم من فوري لأرُدّ عليه، ولأُعْلِمه أنّي حاضرٌ غير غائب! فقد غاظني زَهوُهُ وخيلاؤُه، وعُنْجُهِيَّتُه وهو يرتِّل ألفاظَه ترتيلاً، ليجمع أنظارَ الناس إلى مَخْرَج كلماته، كعادته في الزَّهوِ. وكانَ إلى جواري أحدُ الأساتذة المقرَّبين إليه، فأحسَّ بما هممتُ به فأمسكَني وقال: لاتَعْجَلْ! فقلتُ له: إذن، فأبلغ الدكتور طه أنّ موافقته أو مخالفته لا تساوي عندي «قرشاً ماسحاً» تتلافظُه الأيدي في الأسواق، لأنه لُفَاظةٌ لا تَصلحُ للتداوُل! وانتهت المحاضرة.

وعند انصرافي رآني أستاذنا عبد الحميد العباديّ رحمه الله، فأقبل وأخذ بيدي وخرجنا من القاعة، وإذا نحن فجأة عند الباب خلفَ الدكتور طه حين انصرافه، فعزمَ عليّ أستاذنا العبّاديّ أن أسلِّم على الدكتور، فاستعملنَ غضَبي وَأبيتُ، ولكن لم أَكدْ حتى سمعتُه يقول للدكتور: هذا محمود شاكر، يادكتور! فوقَفَ، والتفت التفاتةً يسيرةً، ومددت يدي فسلَّمتُ، وغلبني الحياءُ والخجلُ ممّا لقيني به من فَرْط البشاشة والحفاوةِ، ثم أخبرني أنَّه قد قرأ كتابي كلَّه، وجاء بثناء لم أكنْ أتوقَّعُه، وأطالَ وأفاضَ، وغَمَرَني ثناؤُه حتى ساخت بي الأرض [انظر خبر ذلك في السفر الثاني: ١٧٣].
فماتَ لساني في فَمِي، فلم أستطعْ أن أنبس بحرفٍ حتى فرَغ، وهو آخذٌ بيدي لايُرْسلها، إلى أن ركب، وافترقنا. غير أن صاحبنا الذي كان إلى جواري، لم يكذِّبْ خبرًا، فأبلغ الدكتور طه رسالتي إليه، لأني لم أكد

أبلغ باب دار الجمعية الجغرافية في اليوم التالي ، حتى وجدتُ صاحبنا على الباب ينتظرني ، ويأخذني إلى الدكتور طه ، فإذا هو جالسٌ ومعه الدكتور منصور فهمي وأستاذُنا الشيخ مصطفى عبد الرازق وآخرون ، فاستقبلني الدكتور مهلِّلاً ضاحكاً أشدَّ ضحكٍ وهو يقول : لاتبرحُ أن تكونَ صَعيديًّا ، كما كُنْت قديماً !! واستمرَّ الحديث بيني وبينه وبين الجماعة ساعةً ، حتى دَنا ميعادُ محاضرة اليوم ، فقمنا إليها ، [انظر طرفاً من الحديث في السفر الثاني ص : ٤٧] .

تصرَّم الأسبوع كُلُّه ، فلا أنا سَعَيْت إلى لقائه مرَّة أُخرى ، ولا هو ذكرني فناداني ، ولكنِّي ، في الحقيقة ، قضيتُ بقية الأسبوع أقلِّبُ أمرَ الدكتور طه في نفسي ظهرًا لبطنٍ ! لم أرتح إلى هذه الحفاوة المُفْرِطة ، ولا إلى حديثه المُسْهَبِ الذي يَرْشحُ ثناءً وإطراءً ، ورابَني ما رابَني من أمره ، لأنِّي أعرِفُه معرفةً !! فلما لقيتُ الشيخ مصطفى عبد الرازق في داره بعد أيَّامٍ ، وكانَ قد ذكرَني في كلمته التي ألقاها في أسبوع المتنبِّي ، بثَثْتُ الشيخَ مافي نفسي من الارتيابِ في أمر الدكتور ، وأنِّي مُقْبِلٌ غدًا على تجرُّعِ إحدَى قَتَلاته ! فاستنكر الشيخُ حديثي استنكارًا شديدًا ، وغضبَ مُزْوَرًّا عن كلامي ، وقال لي : لاتكُنْ سيِّءَ الظنِّ بأُستاذك ! وأمسِكْ عليكَ لسانَك وأوهامَك ! ورحم الله الشيخ ، فقد كانت صداقتُه للدكتور طه وحبُّه إيَّاه يزيدانَ في سلامة طَوِيَّته !! ويمُدَّان بها على شَفَا حُفْرةٍ هاويةٍ لايراها ويأبَى أن يراها ، « وعيْنُ الرِّضَا على كُلِّ عيبٍ كليلةٌ » ! ولا أدري بعد ذلك ما كانَ ؟ وهلْ أحسَّ ساعةً أن الدكتور طه قد خَذَلَهُ وخذَل ثقتَهُ

خِذْلانًا كبيرًا ، أوْ لا ؟ فإن كُلَّ ما سمعه الشيخ منّى من شكوكٍ وريَبٍ ، سُرْعانَ ما تحقّقَ ، على الوجهِ الذى فصّلْتُه له تفصيلاً صريحًا . وكان ما كانَ ، و « رَجَعتْ ريمَةُ ، إلى عادتها القديمة » ، كما يقال فى المثل ، بل هى لم تفارقْ عادتها قط ، ولا تملكُ أن تفارقَها ضَرْبةَ لازب .

* * *

ففى يناير سنة ١٩٣٧ ، أى بعد أقلَّ من عامٍ منذ ظهر كتابى ، كان ما توقّعته ، كالذى حدثتُ به الشيخَ حَذْوَكَ القُذّة بالقُذّة ، كما يقالُ فى هذا المثل وإخوته . نشرت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » كتاب الدكتور طه « مع المتنبِّى » فى جزءين كبيرين ! وقد حدثتك قبل ، [ص: ٤٦] ، أنَّ الدكتور طه فى سنة ١٩٣٥ ، وماقبلها وما بعدها ، « كانَ فى قمة مجده الذى حازه بالضجة التى ثارت حول كتابه « فى الشعر الجاهلىّ » ، وأنّه كان يومئذٍ يروحُ ويغدو على ذُرَاها ، يعلوه الزَّهْو ، وتستخِفُّه الخُيَلاءُ ، ويميدُ به العُجْبُ » .

اشتريتُ الكتابَ ، وكان خسارةً ! ولكنْ أين المفرُّ ؟ فكل محبٍّ للقراءة مثلى يُوقعه حبّه مراراً وتكراراً فى الخسارة بعد الخسارة ، ثم لايتوبُ ! هكذا كُتُب زماننا ! لقد جلبتُ على نفسى شرًّا كبيرًا ! شرعت أقرؤه ، وأجارك الله وعَصَمك من كُلِّ تَلَف . وقعتُ فى مهلكةٍ من غمٍّ مطبقٍ تَقُوْيِس من كلِّ نجاةٍ . ست صفحات فى صدر الكتاب [من ص : ٣ إلى ص : ٨]

وأنا تحت أقدامٍ مَزْهُوّة ، وخُطوات تتَبختر ، وتحت مواطىء عُجْب غليظٍ يدوسني جَيْئةً وذُهوباً ، منذ أول سطرٍ :

« لا أريد أن أدرس المتنبيّ . . . لم أترك القاهرة إلى فرنسا للبحث والدرس . . . كتبٌ لا أستجيبُ لها إلاّ حين أدعُ مصر وأعتزلُ المصريين . . لا أريدُ إذن أن أدرس المتنبيّ . . . فررت بنفسي وأهلي من الدرس والتحصيل . . . أكره لنفسي أن أمضي في درس المتنبيّ . . . أكتفي بأيسر طبعة من ديوان المتنبي لأني لا أريد درساً ولا بحثاً . . . ليس المتنبّي من أحب الشعراء إليّ . . . هو بعيدٌ كل البعد أن يبلُغ من نفسي منزلة الحب والإيثار . . . أحبُّ أن أعاند نفسي وآخذها من حين إلى حينٍ ببعض ماتكرهُ من الأمر . . . لم أجد بأساً أن أثقل على نفسي . . . بالتحدث إليه المتنبّي إذن . . . إنما هي قراءة المتنبي . . . لا أريد أن أدرس المتنبي إذن . . . إنما هي قراءة المتنبي في غير نظامٍ ولا مواظبة . . . قراءة إن صورت شيئاً ، فإنما تصور طغيان المرء على نفسه ، ولعبه بوقته وعَبَثَهُ بعقله وعصيانه لهواه . . . قل ماتشاء في هذا الكلام الذي تقرؤه . قل إنه كلام يُمليه رجلٌ يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذي به صاحبه هذياناً ، قل إنه كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلامٌ يصدرُ عن شذوذٍ وجُموح ، فأنت محقٌّ في هذا كُلِّه . . . ما أظنُني أعرفُ أدباً مقيّداً مسرفاً في التحرُّج ، غالباً في الاحتياط، كأدبنا العربيّ الذي ينشئه أصحابُه وهم يفكّرُون في الناس أكثر مما يفكّرون في أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم ، وأصبحوا عبيداً للجماعة وخدماً للقراء .

« فلنتمرّد على الجماعة ، ولنثُر بالقراء ، ولننبُذ الاحتياط ، إلاّ هذا الذى يُثير الشرّ ويؤذى الأخلاق » ، انتهى تلخيصه ، من [ص : ٣ ، الى ص : ٨].

« لا أريد أن أدرس المتنبىّ » ، « ولا أريد بحثاً ولا درساً » !! زهوٌ بغيض ، وخُيلاء نابية ، وعُجْبٌ لا يرحم بائسًا رماه حُبُّ القراءة فى تَنُّور وَقودُه من زَمْهرير ثرثرةٍ قارسة . و « شِنشنةٌ أَعرفُها من أخزم » ، فهو دائمًا يحبُّ أن « يغيظ » القراء ، وأن يثير « سخطهم » ، وأن يعاند نفسه و « يعاند » الناس . سلسلةٌ طويلةٌ مكررةٌ من الاستعلاء والاستخفاف . ومضيتُ أقرأ محتملاً ماحُمِّلتُ ، فرأيتُ الدكتور قد صدَقَ وعيدَه حيث لا خيرَ فى الصِّدق ، فما هو إلاّ « الذى يثير الشرّ ويُؤذِى الأخلاق » ، كُلّ ذلك فَعَلَ ، وجاوزهُ إلى أكبر مما قال وأفحش ، حتى فرغ من الكتاب . ولكنى فوجئت بفصل فى ثمانى صفحاتٍ [ص : ٧٠٤ — ٧١١] ختم به كتابه ، بعنوان « بعد الفراغ » ، لا يقلُّ عن الفصل الأوّل إغراقاً فى الزّهو والعُجْبِ والُخيلاء ، ولكنه جاءنى أنا وحدى بأعجب العجب ، فعرّفنى بشأن من شئون الدكتور لم أكن أعرفُه أو أعهدُه ، من ذلك أنّه رجل نسّاء ، ينسَى كُلّ ما يهضِبُ به لسانُه نِسيانًا كاملاً فى أقلّ من نصف سنة ، ثم يعودُ فيذكره ، فينقضُ على نفسه ما قاله آنفاً نقضاً مبرماً !

وبَيَانُ ذلك : أنه كان مما قال لى يومَ دار الجمعية الجغرافية ، على مشهدٍ

من الأساتذة وقوفاً حوله[1] : « يا فلان ؟ اعلم أنى قرأتُ كتابك مرّتين ، بل ثلاثاً ، ولا أظنُّ إلاّ أنى عائدٌ إلى قراءته مرّات ، وأنا أُشهِدكم (هكذا قال) ، أنّى لم أقرأ منذ سنوات كتاباً مثل هذا الكتاب ، ولا أستثنى ، لا فى العربية ولا فى غير العربية ، لا عن الشعراء ولاعن غير الشعراء . وأشهد أنّى ماقرأتُه مرّةً ثم عُدت إليه أقرؤه ، إلاّ وجدتُ لذةً أخرى فوق التى وجدتها فى المرّة السالفة . وأشهدُ أنّك مثّلت لى المتنبّى تمثيلاً ، وأنك أحييتَهُ إحياءً كأنى أراه وأسمعُه. وأشهد أنك درستَ المتنبّى كما كان ينبغى أن يُدرس ، وأشهد أنّك صوّرت المتنبىّ كما كانَ يعيش ، أو كما كان ينبغى أن يعيش . وأشهد ... » وثناءٍ آخر طويلاً ، فقد وجد لسانه لذّة (أشهد) ، فراح يكرّرها على عادته .

و (من نفسى) ، أحبُّ أنا أيضًا أن (أشهدَ) شهادةً واحدةً على نفسى :

---

(١) قلت فى نقدى لكتاب الدكتور ، المنشور فى السفر الثانى ص : ١٨٣ ، مانصه :

« إنّ الدكتور طه نفسه ، فى أول لقاء لى معه فى يوم من أيام أسبوع المتنبىّ بالجمعية الجغرافية ، وَقف يثنى على كتابى بما أستحيى أن أردّده فى هذا المكان من كلامى . ثم اعترف بأن أحداً لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبى هذه ، وأنه قد رضى كل الرضا . . . . إلى آخر كلامه الذى أذكره ولا أنساه » . قلت هذا فى مايو سنة ١٩٣٧ ، والذى أذكره هنا هو بعض ثنائه يومئذ ، ولا بأس إن شاء الله ، لأنى أقصُّ قصّةً ، ولا حَياء فى القَصص ، فيما أظن ! !

أنى لم أجد لإسهابه يومئذ في الثناء ، ولا لإغراقه في الإطراء ، بعضَ الذي وجدته لثناء الرافعي حين ذكر كتابي ، ولا بعض الذي وجدتُه من الراحة والبهجة في صمت العقّاد عن كتابي ؛ [انظر ماسلف ص : ١٠٣ ـ ١٠٥] ، بل الذي وجدتُه جاثماً في نفسي بعد فراقه ، هو ما أفضيتُ به إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، لأنّي كنت خبيرًا بالرجل أعرفهُ معرفةً ، و « خَمْرُ أَبِي الرَّوقاء لَيْسَتْ تُسْكِرُ » ، أو هي ليست تسكرني أنا على الأقل ؟

قال ما قال ثم نسيه ، هكذا ينبغي أن أظنّ ! وبعد أن فرغَ من كتابه تذكَّر ما قاله ، فأخذه ، فأكله ، فمضغه فأجاد مضغه ، ثم ابتلعه ، ثم عاد فاستخرجه ، فأنشأه خلقاً آخر ، فقال : « الأمر الثاني أني أبعدُ الناس عن حسنِ الرأى فيما أمليتُ ، ولا تظنّ أني أريد التواضع = أو أن أغضّ من هذا الجهد الذي أنفقتُه . . . إنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوّرَ شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوّرني أنا في بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضي (!!) ، أكثر مما يصوّر المتنبي » ، (وهذه حقيقة كتابه هذا ، لكن من غير الوجه الذي أرادهُ هو !!) . ثم قال بعقب ذلك مباشرةً : « وإنّه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالعواطف والخواطر التي يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجَّلهُ في كتاب ، ظنّ أنه صوّر الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغي أن يُدْرَس ، على حين أنه لم يصوِّر إلا نفسَه ، ولم يعرضْ على الناس إلاّ ما اضطربَ فيها من الخواطر والآراء » ، وفهمت أنا تعريضه الخفيّ ، وفهمت أيضاً (نظرية

اللحظات !) التى أتى بها بعد ذلك ، حين استمرَّ يتكلم ... حتى سكتَ ... ووضعتُ الكتاب جانباً ، وعزمتُ أنا على أن أتكلَّم .

وفى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧ ، كتبتُ المقالة الأولى ، من المقالات التى جعلتُ عنوانها : « بينى وبين طه » . وحين بدأتُ أكتب ، كنت قد حدّدت طريقى تحديدًا كاملاً ، وهو أن أواجه الدكتور طه بثلاث حقائق : الحقيقة الأولى أنه ، فى أكثرَ أعماله ، « يسطُو » على أعمال الناسِ سطوًا عُرْيانًا أحيانًا ، أو سطوًا متلفِّعاً بالتَّذاكى ، والاستعلاء والعجُبْ أحيانًا أخرى = والحقيقةُ الثانية أنه لا بَصَر له بالشِّعر ، ولا يحسن تذوُّقه على الوجه الذى يتيحُ للكاتب أن يستخرجَ دقَائقه وبواطنَه ، دونَ أن يَقع فى التدليس والتلفيق = والحقيقة الثالثة أنّ منطقَهُ فى كلامه كُلِّه مُخْتَلٌّ ، وأنه يستُرُهُ بالتكرار والترداد والثرثرة . ولم أجد بُدًّا من هذه المواجهة ، لأنى يوم فارقت الجامعة ، سنة ١٩٢٨ فارقتها « ومعى ذُلُّ العجز ، يومئذٍ ، على مواجهته برأيى فى تفاصيل « سُنَّة السطو » التى سنَّها لتلاميذه من بعده = ومعى أيضاً ما أجده فى نفسى من البشاعة ، بشاعةِ ادّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنه مما اهتدى إليه ، واستحقَّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناة فى البحث وشقاء فى الدرس = وأن عجزي ، كان ، عن مواجهته بلسانى ، غير متهيِّب ولا متأدِّب ، كان يهدمُ نفسى هدمًا ، وينسفُ آدابى نسْفاً ، ويتركُ فى ضميرى غُصَّةً تأبَى أن تزولَ : كان شيئاً بشعًا لا أطيقه » ، [انظر ماسلف ص : ٢٤] . كانَ ذلك كلُّه مما أجد ، لا لأنه كان أمراً يمسُّنى ، لا ، بل لأنّه كان يسُنُّ سُنَّة مُتْلفةً مفسدةً للحياة الأدبيةِ والحياة

العقلية والحياة النفسيّة فى الجيل البائس الذى أنا منه ، بسَطوه سطْواً عريانًا على مقالةِ الأعجمىّ المستشرق « مرجليوث » ، ثم بسطوه على آخرين لم أذكرهُمْ سطوًا متلفّعًا بالتذاكى والاستعلاء والعجب . ذلك عجزٌ كان ، ثم انقضى .

أمّا الآنَ ، فلا ! وإذا كان غيرى قد قبل راضياً بما يفعلُه الدكتور بجهده ونَصَبه ومعاناته ، أو قبل ذلك صامتاً على مضَضٍ ، اتقاءَ لمَعَرّة لسانِه ، أو هيبةً لما حازهُ من المجد والذكر والصّيت ، أو مخافةً من سوء ظنّ الناس به ، أو رجاءَ لخيرٍ يتوقّعه على يديه ، فإنّى أبَيْتُ . أبيتُ فى سنة ١٩٣٧ أن أستخذى لهذا السطو والإرهاب (الثقافىّ) !! وأخذتُ هذه المقالة الأولى ، وذهبتُ إلى دار صحيفة « البلاغ » ، إلى أستاذنا إبراهيم عبد القادر المازنىّ ، وسألتُه أن يقدّمنى إلى صاحب « البلاغ » عبد القادر حمزة باشا ، ولم أذكُرْ له شيئاً مما أريده ، فقدّمنى إليه وانصرف . وبعد حديثٍ قصير عرّفته فيه بنفسى ، أخرجت المقالةَ ومددتُ يدى بها إليه ، وقرأ العنوان : « بينى وبين طه » والأسطر الأولى ، ثم نظر إلىّ ، وقال بهدوئه الركين : قد قرأتُ عدد المقتطف ، ولكنى لم أر كتاب الدكتور طه . ثم عاد يقرأ حتى فرغَ . ثم وضع المقالة أمامه على مكتبه ، وقال لى : لماذا كُلُّ هذا العُنْف ؟ فبدأت أحدّثه عن أوّليّة أمرى مع الدكتور طه فى الجامعة ، حتى بلغتُ ما كان منهُ يوم دار الجمعية الجغرافية ، وما أفضيتُ به من شكوكى إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما تحقّق من هذه الشكوك بتأليفه كتاب

« مع المتنبّي » . وكان حُسْن استماعه لي وإصغائه ، يزيدُني عُنْفاً في الحديث ، فلما بلغت الغاية وسكتُّ ، قال لي : ألا تخافُ لَدَدَ الدكتور طه ؟ فقلتُ : إني لا أهابهُ ، بل أنا أعرفُه ، وأعرف أنه إذا ما قرأ المقالة الأولى وما بعدها سوف يعرف ما عندي . والذي عندي من أدلّة سطوه على كتابي ، مادّةً وأسلوباً وطريقةً في تذوّق الشعر ، وما عندي من أدلة سَطوه على آخرين ، سوف يمنعه أن يتكلّمَ ، ولو تـكلّمَ ، « فما كلُّ بيضاء شَحْمَة ، ولا كُلُّ سوداء تَمْرة » ! فضَحِك وقال : ياللك من مخاصمٍ عنيد ! ثم قال : سأنشر كُلّ ما تـكتبه ، ولـكني أحبُّ أن تفعل كذا وكذا ... نصيحةٌ ضمَّنتُ بعضَها أوّل المقالة الثانية ، [انظر السفر الثاني : ص ٢٦ وما بعدها] .

ومضيتُ أكتب أسبوعاً بعد أسبوعٍ في البلاغ بعنوان واحد هو « بيني وبين طه » من بلاغ يوم السبت ٢ من ذي الحجة سنة ١٣٥٥ (٣ فبراير سنة ١٩٣٧) ، إلى أن كان اليومُ الأخير من صفر الخير سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) . لم أكد أفرغُ من كتابة المقالة الثانية عشرة ، حتى جاءني نعيُّ أستاذي وصديقي مصطفى صادق الرافعيّ رحمه الله ، فانهدمَ في نَفْسي كلُّ ما كان قائماً ، وذهبَ الدكتور طه وكتابُه جميعاً من نَفْسِي تحت الهدمِ ، فزدت على آخر المقالة : « ولـكن .... وننتهي من هذه الـكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه في ص ٩٨ ، فإنّ في الذي يستقبل من كتاب الدكتور طه طولاً قد امتدَّ وسَمَقَ وتسامى !! وإن في حاجة النفس لَمَا يشغلنا عن الدكتور طه ، وما يأتي به ، أو يقع فيه ، أو يعرض دونه :

لَيتَ الحوادِثَ باعَتنِي الذي أَخَذَتْ
مِنِّي ، بِحِلْمِي الذي أعطَتْ وتَجْرِبتي ! »

وانقطعتُ عن البلاغ أياماً طِوالاً ، فلما زرت الأستاذ عبد القادر حمزة ، حاول أن يجعلنى أعاود الكتابة ، فأصررتُ على تركها . وحاول آخرون ، فلم أستجبْ ، وكرهت كتابى وكتاب الدكتور طه جميعاً ، وعدتُ إلى عُزْلتى لا أبالى .

* * *

وكذلك لم يكن مقدّرًا لى أن أتمّم هذه المقالات على الوجه الجامع ، لأنّى لم أتجاوز فى نقدى كتاب الدكتور طه الصفحةَ الثانية والتسعين من ٧١١ صفحة . ونعم ، كنتُ حريصًا ، منذ أوّل ما كتبت ، أن أكشف فى مقالاتى الأولى عن أساليبه المتنوّعة الماهرة فى « السطو » العُرْيان ، وعن أساليبه أيضًا فى « السطو » الخفىّ الذى يحاولُ بالثرثرةِ البارعة ، أن يجعل ماسطا عليه ، يبدُو كأنه رأْى ارتآه هو بعد بحث ودرسٍ وتنقيبٍ وتحقيق ، إلى آخر ألفاظِه التى يغرُّ الناسَ بها عن الحقيقة . ومع ذلك فأنا أستطيع أن أقول إن الذى ذكرته منها بلا تفْصيل فى مقالاتى ، هو جِماعُ أساليبه التى دَرِب عليها من قبل فى كتابيه : كتاب « فى الشعر الجاهلىّ » ، وهو الحاشية الصُّغْرى على مقالة مرجليوث ، وفى تَوْأمِه المعدَّل بعد أن عَلَت به السنُّ ! وهو كتابُ « فى الأدب الجاهلىّ » ، وهو الحاشيةُ الكبرى على هذه المقالة [انظر ماسلف ص : ٢٠] . بيد أنّى فى الحقيقة لم أبلغ فى الذى كتبتُه يومئذٍ ، كُلَّ الذى كان ماثلاً فى نفسى بعد الفراغ من قراءة كتابه « مع المتنبى » ، وحين بدأتُ أكتب ، لأنى كنتُ أدّخِر شيئاً كثيراً لأبواب الكتاب الأخرى ، من ص : ٩٩ إلى ص : ٧١١ .

وكتاب « مع المتنبي » هو في الحقيقة حاشيةٌ كُبْرى على ثلاثة كُتُب : أولها كتابي ، ثم كتاب الأستاذ عزام ، ثم كتاب بلاشير عن المتنبي ، وكان الدكتور طه قد اكتسب خبرة فائقةً ، بعد عشر سنوات من (سنة ١٩٢٦ ، إلى ١٩٣٦) ، في كتابة الحواشي (الحديثة) . ففي هـذه الحاشية الكبرى جمع كُلَّ ما استطاعَ أن يحتجنَهُ من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه لم يفعلْ ذلك إلاّ بعد أن تجاوز هذه الصفحات الثمانية والتسعين التي وقفتُ عندها . وقد أقرَّ هو نفسُه على ذلك بلسانه ، وذلك أنه قال في خاتمته التي سمَّاها « بعد الفراغ » ، بهذا الزَّهْو الغريبِ الذي كان يستخفُّه مُدِلاً على القراء :

« .... لم أكن جادًّا ولا صاحبَ بحثٍ وتحقيق ، وإنما كنتُ عابثاً أريدُ أن أداعب المتنبيّ ، أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً ، وليس أدلّ على ذلك من هذه الصفحات التي تقرؤها في صدر هذا الكتاب . فهي لا تصوِّرُ بحثاً ولا جدًّا ، وإنما تصوِّر عبثاً ولهوًا ، ولكنِّي لم أكد ألقَى المتنبيّ وآخذ في الحديث معه أو الحديث عنه ، حتى صرفني عن اللهو والعبث ، [الكتابة عملٌ ظريفٌ ، أليس كذلك ؟] ، واضطرَّني إلى محاولة البحث والتحقيق ، وأيّ غرابة في ذلك ؟ [لا ، لا غرابة !] ، ولم يكن المتنبيّ صاحبَ راحة ولا ميَّالاً إلى اللهو ، وإنَّما كانت حياتُه كُلُّها جدًّا ، وجدًّا ثقيلاً ، ينتهي به وبقرَّائه إلى الملل أحياناً » ، (ص : ٧٠٤) .

لاريب عندي في أن هذا الزَّهو كُلَّه بعبَثه وجدّه ، عبثٌ محضٌ ،

وخيلاء بغيضة . ومع ذلك ، فإن صحّ عند أحدٍ أنه جِدٌّ ، إذا هو تورّط فى الخضوع لمنطق الثرثرة ، فإنّ هذا الجدّ ليسَ من جدّه هو ، بل من جِدّ كتاب الأستاذ عزام ، وكتاب الأستاذ بلاشير ، فهما الكتابان اللذان أخرجاهُ من العبث الجادّ إلى الجدّ العابث ! ولذلك صار فيما بعد ص ٩٨ ، يذكر أسماء بعض مَنْ كتب عن المتنبيّ وخاصة بلاشير ، ويرصّع بعض الصفحات القليلة بحواشٍ قليلة ، يذكر فيها المراجع بالجزء والصفحة ، ويذكر أيضاً ديوان المتنبّي بشرح الواحدى ، كأن هذه المراجع مراجعُه هو ، وعنها أخذ ما أخذ ، ولكنها فى الحقيقة مأخوذةٌ من كتابى عزّام وبلاشير ، والحمد لله الذى عافانى ، فليس فى كتابى ذكرٌ للمراجع . ونسى الدكتور طه أنه حدثنا فى أوّل كتابه أنه كان معتزلاً فى « قرية من قرى الألب بفرنسا » ، وأنه لم يحمل معه من مصر من الكتب ، إلاّ « أيسَر طبعة من طبعات ديوان المتنبّي » ، وشرح الواحدى لديوان المتنبي لا يدخل فى باب « أيسر طبعة » ! فمن أين له المراجع ؟

لم ينْسَ ، ولكنه مُسْتَخِفٌّ بالقرّاء وبعقولهم ، ولكن الكتابة عملٌ ظريفٌ ، وتأليف الكُتب عملٌ أظرف ! فإن الدكتور طه لم يخرج فى كتابه هذا عن أن يكون عابثاً بلا جدٍّ ، فقد جمع الكتب الثلاثة وعجنها عَجْنًا حتى كانت صَلصَالاً من حمإٍ مسنونٍ ، يستجيبُ أحسن استجابة لأنامله الماهرة ، فهو يشكّل منها أشكالاً كما يشاء أو يشاء هواهُ !

وإذا كنتَ محبًّا للوقوف على قدرة هذا المثّال المقتدر فى العبثِ ، فإنى

أدلك على المقالات الثلاث الأخيرة من مقالاتى [السفر الثانى : ١٢٧ – ١٨٢]
حين اهتَبَل من بلاشير فكرة « القرامطة » اهتبال الصائد ، وجعل يردّد
لفظ « القرامطة » و« قرمطية المتنبى » ترديداً غليظاً ، تلذّذاً وتشدُّقاً وتشبُّهاً
بالذين « يملأون أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ »
أو كما قال : [انظر ماسلف : ٤٣] . وهذا من فعله سَطْوٌ مجرّدٌ على بلاشير .
وفكرة « قرمطية المتنبِّى » ، على سخافتها وتفاهتها ، فكرة واهيةٌ دالّةٌ على
خلوّ عقل القائل بها من فَهْم « القرمطية » ماهى ؟ ولكن الدكتور ظنّ أنه
قادرٌ بالثرثرة ، وبعجن ما فى الكتب الثلاثة ، على أن يجعَلَ شعر المتنبّى
مُبيناً عنها ، مع أنّ شعره دالٌّ على خلافها تمام الدلالة ، وكلامِى الذى افترصَهُ
من كتابى ، وعجنه فى صَلْصاله ، مناقِضٌ لها كلّ المناقضة . فكيف
أطاق أن يفعل مافعل ! هذا عبثٌ مجرّدٌ لاخير فيه . فاقرأ ، غيرَ مأمورٍ ،
ما كتبتُه فى المقالات الثلاثِ ، فستعلم علم اليقين أن حياتنا الأدبية والثقافية
والفكرية عامةً ، قد بُذرت فيها بذورٌ من الفساد والعَبث والاستخفاف ،
والتعالم البغيض ، والسَّفَه المؤدِّى إلى انتقاض عُرَى العقل عروةً عروةً ،
حتى أثمرت هذه الثمرة اليانعة النضيرةَ التى تتحلّى بها حياتنا الأدبية اليوم »
(سنة ١٩٧٧) ، وتتميّزُ تميُّزًا ظاهرًا ، فى كتابة الكتاب وبَحْث الباحثين !
لايكاد أحدنا يستثنى نفسه ، فهو كجليس صاحب الكير (الحدّاد) ، إن لم
تحرقه ناره ، ناله من شَرَره ! ماعلينا ، والأمر لله وحده ، لامَلْجَأ ولامَنْجَى
إلاّ إليه .

وكتاب « مع المتنبى » ، بُنى على طرازٍ غيرِ معهودٍ فى كتب الدكتور

طه أو كتب غيره ممّن كتب عن الشعراء ، فلذلك قلت مرارًا فى مقالاتى ، وفى الذى تقرؤه من قصة كتابى : إن الدكتور طه لم يكن إلاّ مقلّدًا لى . وقد وصفت نفسى آنفاً [ص : ٢٧] ، وأنا أميِّل الرأى حائراً بين أساليب الكتابة ، وذكرت طرفاً من مناهج المحدثين من كتابنا فى تأليف الكتب فى تراجم الشعر وغيرهم ، وبيَّنتُ متى استقمتُ على الطريق وكيف ؟ [ص:٦٣] ، وهو طريق مخالفٌ كلَّ المخالفة للمعهودِ من كُتُب التراجم ، وقد انفردتُ بهذا النهج على غير مثالٍ سابق [ص : ١٠٢] ، فإذا جاء بعدى رجلٌ يقصُّ على آثارى قَصَصًا ، خطوةً خطوة ، فهو بلا ريبٍ مقلِّد لا أكثر ولا أقلّ . وقد بيّنْتُ ذلك فى مقالاتى بياناً صريحاً ، ثم قلت : « ونحن هنا لا نفخر بأننا أوّلُ من كتب تاريخ المتنبّى على هذا الوضع الذى تراه فى كتابنا ، ولكننا نقرِّرُ ذلك إقراراً للحق ، وبياناً للذى فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ آراءنا فأفسدها ، ووضعها فى غير موضعها ، واستعملها بغير حقِّها ، وأخرج كتابه على غِرار كتابنا غير متهيِّبٍ ولا متورِّع من مذمّةٍ أو إثم . وأغراه بذلك ما يعلمُ من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحنُ فيه من الخفاء والصّمتِ وقلة الاكتراث بالدعاية الملفقة لأنفسنا .... » [السفر الثانى ١٨١] .

ومع ذلك فإن بناء كتابه قائمٌ على جُدُرٍ تُريدُ أن تنقضّ ، لأنّ بنّاءه كان فاعلاً بغيره ، لا بنفسه ! وبناء كتابى كان بنّاؤه « متذوِّقاً للشعر » بنفسه وعلى طريقته .

وقد ذكرتُ آنفاً ، [س : ٢٣] أن أول صراعِي مع الدكتور طه في الجامعة ، كان صراعاً على ضرورة قراءة الشعر الجاهلى « قراءة متذوِّقة مستوعبة » ، وأنى كنت أحاولُ يومئذ أن أقنعه به فيأبَى ويعرضُ ، [س : ١٣٢] ، كان ذلك سنة **١٩٢٧** وما بعدها = ثم لما جاء هو فى سنة **١٩٣٥** ، وتذكر ما كنت أصارعه عليه ، حاول محاولة مّا أن يسلُك طريق « تذوُّق الشعر » ، فعل ذلك ، ولكنه « تذوّق بلا منهج ، وبلا هدفٍ ، وعلى غير أصل » ، [س : ٤٧ ، ١٣٢] . فلما كانت سنة ١٩٣٦ ، وقرأ الدكتور طه كتابى ، كما قال هو : « مرتين ، بل ثلاثاً ، وما أظن إلاّ أنى عائدٌ إلى قراءته مراتٍ » ، [س : ١٣٨] ، ظنّ ، وأكذبُ الحديثِ الظنّ ، أنّه قد قتل « تذوُّق الشعر » علماً حتّى طاعَتْ له عواصيه ، بعدَ أنْ رأى تفسير هذه القضيّة ، قضيّةِ « تذوُّق الشعر » التى كان أباها علىّ ورفضها منّى رفضًا = رآها مطبّقَة تطبيقاً شاملاً لكتابى كُلّه .

وسوّلت له نَفْسُه أن يغتالَ « تذوُّق الشعر » ، ووجدهُ أمرًا لا غُبَار عليه أن يفعلهُ معى ، جزاءً وفاقاً = ولم ؟ لأنّه ظنّ أنّى اغتلتُ « منهجَ الشكِّ » وسَرقتُه منْه وغلبتُه عليه « سطوًا » فاجرًا ، حين شككتُ فى نسب المتنبّى الذى رواهُ الرواة . فواحدة بواحدةٍ ، والبادى أظلم .

* * *

وههنا نكتة لطيفة أحبُّ أن تقف عليها ، لتعرفَ أساليب المكر

اللطيف فى الكتابة ، وفى صناعة « السطو » خاصة ، لأنها نافعة مجرّبة !
فالدكتور طه حين قرأ كتابى ، وقام قائماً فى الجمعية الجغرافية يلقى كلمته ،
كان أوّل ما افتتح به كلامه أن قال [انظر ما سلف : ١٣٣] : « لقد
شَكَّ بعضُ الناس فى نسب المتنبى ، وأنا أوافقُه على هذا الشكِّ » ،
وانطلقَ يردّدها مراراً مالئاً بها فمَهُ . فلما حمَّلتُ صاحبى الذى كان إلى
جوارى مَأْلُكةً (أى رسالة) يبلِّغها الدكتور وهى : « أبلغ الدكتور أن
موافقته أو مخالفته لا تساوى عندى قرشًا ماسحًا ، تتلاقفه الأيدى فى
الأسواق ، لأنه لُقاطةٌ لا تصلح للتداول » ، لم يكذِّب صاحبى فبلغه إيَّاها .
فلما استدعانى فى اليوم التالى ، استقبلنى ، كما قلت ، مهلِّلاً ضاحكاً أشدَّ ضحك
وهو يقول : « لا تبرح أن تكون صعيديًّا ، كما كنتَ قديماً » ، يعنى أيام
جدالى إياه فى الجامعة ، فى « المنهج » و « الشك » و « تذوّق الشعر » ،
[انظر ص : ٢٣] . ولا شكَّ عِندى البتَّة فى أمر الدكتور طه ، أنه حين
بلغته الرسالة ، علم علماً ليس بالظنّ ، أنّى أعنى « الشكّ » الذى اصطنعه ،
كما يقول هو ، منهجًا ، وذكر كُلَّ ما كنتُ أقوله له من القوادح المهلكة
لهذا المنهج ، « منهج الشكّ » ، وعادت إليه ذكرى استخفافى به ، وأنّه
ليس شيئًا يعتدُّ به ، وأن أمر العلم عندنا ، نحن أهلَ العربية والإسلام ، قائمٌ
أبدًا فى كُلِّ خبرٍ من الأخبارِ على « التبيّن » ، وهذا « التبيُّن » هو الذى
أنشأ علم « الجرح والتعديل » فى الحديث ، وأن منهجه هذا لا يساوى شيئاً ،
إذا ما قُورن بالذى عندنا فى ذلك مبذولاً لكل طالب علمٍ هو حقُّ الطالب
للعلم ، لا الطالب للثرثرة = وأن هذا مبذولٌ عندنا فى كُلِّ كتابٍ = وأن

أصلَهُ كلّه راجعٌ إلى هداية الله تعالى لعباده المؤمنين ، حيث قال لهم فى سورة الحجرات : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى ما فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ، [وقد بينتُ ذلك فى كتابى : « كتاب الشعر »] .

فانظر ماذا فعل بعد ذلك ؟ أَلَّفَ كتابه « المتنبى » ، وتجاهَلَ كُلَّ التجاهل كلمته التى افتتح بها محاضرتَه ، والتى جَهَّل فيها اسمى تجهيلاً ، فقال : « لقد شكَّ بعضُ الناس فى نسبِ المتنبِّى ، وأنا أوافقه على هذا الشكِّ » وألغاها إلغاء = مع أن « الشك » منهجه ! = وافتتح كتابَهُ بهذه العبارة :

« قد تعوّد الناسُ أن يؤمنوا بأن المتنبّى عربىٌّ خالص النسب .... » ، وظلّ يأكُلُ الكلام أكلاً ليثبت « أن المتنبّى « لقيطٌ لِغَيَّة » ، لا يعرف لنفسه أمًّا ولا أباً » ، واجتنب لفظ « الشكّ » اجتناباً يقظاً جداً ، وحشا هذا الفصل والذى بعده بألفاظ « والشىء الذى ليس فيه شكٌّ » و « أنا لا أشك .... » و « لا نكاد نشُكّ » ، و « أنا لا أفهم الشكّ فى عربية المتنبّى » على نفى « الشك » جميعاً ، ثم يأتى بها بعد كلامٍ طويل فى معرض شىء آخر ، فى قوله : « ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك فى معرفته لأبيه وأمّه ، ما دمت لا أميل إلى الجدال فى عنصره العربىّ الصريح » ، [ص : ٢٠] . ومع ذلك فقد كان فى هذا « الشكّ الملفّف » مقلِّدًا مُسيئًا .

وقد قلتُ آنفاً [ص : ٧٢] : « كنت أوّل من شك في نسب أبي الطيّب الذي رواه الرواة ، ولكنّي لم أقف عند الشكّ المجرّد ، كما ذهب إليه من قلّدني (وهو الدكتور طه) = بل أبنتُ عن علّة الشكّ ، لأثبت مكانه حقيقة أُخرى ، دلّني عليها شعرهُ ومواقفه في حياته كُلّها ، مما كان له ارتباط وثيق بعلّة الشكّ » . وقد فسّرت أسباب الشك في بيان « الفقرة الأولى والثانية » من عمود صورة المتنبي بياناً كافياً [ما سلف ص : ٦٩ ـ ٨١] .

وهذا الأُسلوب في تجاهل الألفاظ ، ثم الالتفافُ حولها بألفاظ أُخرى ، وإخراجُها مُخرجَ الأمر غير المتعمّد ، وإخفاء « المحرِّك » وراء نِقاب مُموَّه = هو من الأساليب الناجحة أيضًا في « علم السطو » ، والذي يقتدر عليه يبلغُ مبلغاً عظيماً في باب « السطو الخفيّ » ، فاحفظْهُ ، فإنه نافعٌ جدًّا ، وإذا خُلِط بمسحوق حَبّ « الثرثرة » ، طَيَّبَ نفسَ القارىء ، وأطفأ حرارةَ الفهم ، وسَهَّل عَمل الغَفلة !! عن ابن البيطار ، العشّاب الطبيب . وانتهت النكتة اللطيفة !

* * *

قلت آنفاً إن الدكتور طه ، غرَّتْهُ نفسُه أن يغتال مِنِّي « منهج تذوّق الشعر » ، كما اغتلتُ أنا منه « منهج الشك » جزاءًا وفاقًا ، وقد رآه سانحًا له = مطبّقاً في كتابي من فاتحته إلى خاتمته . رآه مطبّقاً ، ولم يعرفْهُ مفصّلاً ولا مشروحًا ، لا في كتابي ، ولا في كتاب غير كتابي ،

فاجتهد اجتهاداً مبروراً ، (أى لاشبهة فيه ولاكذب ولاخيانة ، ولايخالطه شىء من المآثم) .

ولما كانَ « موضوع » التذوّق بيني وبينه واحدًا ، وهو شعر المتنبيّ ، رآهُ على نفسه سهلاً يسيرًا ، وهيّناً ليّنَ المعاطف ، أن يتذوّقه كما تذوّقتُه ، وأن يستخرج منه حياةَ أبى الطيب ، وطبائعه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانَه ، وأثرَ ذلك على بناء قصائده ، ودلالةَ هذا الأثر على أحداثِ حياته . وقد لاقى الأمرّين فى هذا التذوّق ! لأنه كُلّما جاء إلى شعر يتذوّقه ، فوجد لسانى عندهُ يتذوّقُ ، زاحمنى عليه ، والتقى اللسانان ، ثم رفع لسانَه ليكتب عن أثر تذوّقه ، وإذا هو من حيثُ لايدرى قد تذوّقَ بلسانِى ، فتطابق ذوقُ اللسانين ، والحمدُ لله ! وقد ضَربتُ لذلك مثلاً أو مثلين أو ثلاثة ! وتستطيع أن تجد شيئاً من ذلك مثلاً ، فى المقالة التاسعة [السفر الثانى : ١٢٧ - ١٤١] . وتستطيع أن تجد مثلاً آخر فى المقالة الحادية عشر حين تفرّدَ لسانه بالتذوّق ، فى قصيدةٍ لم أكتب شيئاً مفصّلاً فى تذوّقى لها ، فأشرتُ إليها إشارةً ، فأخذها فاجتهد فيها اجتهادًا مبرورًا فتذوّقها وحدهُ !! وأثبت فى كتابه تذوّقه هو ، فخرج منها بكُلِّ استنباط جديد يخالف ما كتبتُه فى كتابى . فكانت العاقبة أن أتى بضروب مختلفة المذاقِ من الأخطاء ، ومن قلّة البصر بالشِّعر ، ومن إهدار ألفاظ الشعر نفسه إهدارًا لايكون مثلُه أبدًا من متذوِّقٍ قد عرف معنى « تذوّق الشعر » ، وإنما هو تذوّق عابثٍ مفتعِلٍ ، يحكِّم فى الشِّعر والشاعر تخاليط بلاشير وأضرابه ، مع أن أوّل شرط فى

« تذوُّق الشعر » أن نجعلَهُ محكًّا لا فى شأنِ هذه التخاليط الأعجمية ، بل فى تعديل أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو تجريحها ، أو استخلاص الصِّدق من نصوصها و نَفْى مازيَّفَهُ التذوُّق ، [انظر السفر الثانى : ١٦٠ — ١٧٠] .

فلما تخطَّى الدكتور مرحلة العَبَث واللَّهو ، و « الشقاوة » فى مداعبة المتنبِّى ومداعبة خصومه وأصدقائه جميعاً ، كما قال [انظر ما سلف ص : ١٤٤ ، س : ١٠ ، ١١]، و « شبَّ عمرٌو عن الطَّوْقِ » ، عند ص ٩٩ من كتابه أو قبلها بقليل = جاء ما صرفه عن اللهو والعبث ، واضطَرَّهُ إلى محاولة البحث والتحقيق ، (بحكم السِّنِّ على الأقل) . جاء هذا الجائى ومعه كتاب عزام براجعه ، وكتابُ بلاشير براجعه ، وكتب اثنين آخرين ذكرهما بعد دَهرٍ فى ص ٤٢٥ من كتابه ، وزعم أن كتبهم « ليست فى أيدى قراء العربية » ، لأنها كتبت فى الفرنسية والإيطالية ، (وليس هـذا صحيحاً على إطلاقه !) ، فعندئذ فـكَّر وقدر ، ثم نظر ، ثم عَبَس وبَسَر ، ، ثم استبان له النَّهجُ ، واستتبَّ له الطريق : أن يكون باحثاً محقِّقاً ، وناقداً متذوِّقاً ، فى قَرَنٍ واحدٍ !! [والقَرَنُ : الحبل ، أى مجتمعين فيه معاً] ، وهذا مركبٌ وعرٌ شاقٌّ ، لا تصلُح معه السجَايا المتناقضة فى النفس الواحدة ، حين يكون : « من سجيّتها الأناةُ ، ومن سجيّتها العَجَلة ، ومن سَجيّتها الجدّ ومن سجيتها اللهو ، ومن سجيّتها التفكيرُ ، ومن سجيتها الهذيان » ، [كتابه ص : ٧] ، ويرضى أن تطغى عليه بعض سجاياه هذه طغياناً « يصوِّرُ لعبهُ بوقته وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته لهذا الهوى أحياناً » [أيضاً ص : ٧] .

والذى هذه سجاياهُ ، ثم يكونُ لا يملك أمرَ نفسه ، ولا يفرِّق فى أمرها بين القبيح والحسن ، ثم يبلُغ به إرسال النفس على سجيتها ، أن لا يفرِّق بين مواضع الجدّ ومواضع العبث ، حتى يرضى أن يأمرَ قارئه غير مبالٍ: « قل إنه كلام يمليه رجل يفكِّر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبُه هذياناً ..» [إماسلف: ١٣٦] ، فهذا بلا ريب لا يُؤْمَنُ على ركوب طريقٍ لا يصلُح معه إلاّ الجدّ والصبرُ والحزامةُ ومخافةُ العِثار = إلاّ أن يكون غير صادقٍ فيما يقول عن سجاياهُ = أو إلاّ أن يكون مترجماً سيّء الترجمة لشعر المُعَيْر السلولىّ :

إذا جَدَّ عِنْدَ الجِدّ ، أرضاكَ جِدُّهُ ،

وذُو باطلٍ ، إن شئتَ أرْضَاكَ باطِلُهْ

= أو إلاّ أن يكون قال ما قال ، من فَرْط الزَّهو بنفسه ، والإدلال على سامعيه أو قارئيه ، وهم من تحت سمائه ، قيامٌ شواخصُ الأبصار إلى أُبَّهته فى عليائه ! ولكن مالى أنا ولهذا ؟ فإن الله لم ينصِّبنى محامياً أدفع عن كرامة عقول البائسين من السامعين والقراء !

أمّا الذى يعنينى ، فهو منهج « تذوّق الشعر » ، فإنه قد وقع فى محنةٍ عظيمة منذ ص ٩٩ ، إلى آخر الكتاب ، لا ، بل كانَ ذلك منذ أوّله أيضاً ، فقد صار مفروضاً عليه فرضاً لا زباً ، أن يكون خادماً سامعاً مطيعاً للمعارضات الخفية الماكرة التى جاء بها الأستاذ عزام فى كتابه تحت عباءة « البحث الطويل المتعب » ، وللتخاليط التى تتخلّل كتاب بلاشير وغيره عن المتنبى ، وصارت هذه الكتب محكّمةً فى تذوّق الشعر ، وفى حياة أبى الطيب ، ولم

تَعُدْ للشِّعر نفسه ولا لتذوُّقه هيمنَةٌ على شيء ، لا على حياته،ولا على تمحيص الحوادث والأخبار التى تتصل بحياته ، [انظر ماسلف : ٥٤ ، ٥٥] . وهذه المحنة القاسية الغليظة = مع إصرار الدكتور طه على تقليدى فى « تذوّق الشعر » على الوجه الذى توهَّم أنّه فهمه من كتابى = أدَّت بالدكتور طه نفسه إلى بذل جُهْدٍ كبير فى التقليد حين يتعرَّضُ لشعرٍ لم أتعرَّض لهُ مكتوباً بالحبر والقلم ، وأما الذى رآنى قد تعرّضْتُ له ، فقد اضطرَّهُ أن يبذلَ جُهْداً مضاعفاً أضعافاً كثيرة فى تمويهه حتى يُخْفِى آثار سَطوه عليه ، وقلَّما نجح = وأن يبذلَ أيضاً جُهْداً أكبر فى تطويعهِ للعَجْن فى خَليط من أخلاطٍ مجلوبَةٍ من أرضٍ بعيدة غير أرضه ،

ومُكَلِّفُ الأَشياء ضِدَّ طِباعِها ، مُتَطلِّبٌ فى الماء جُذْوَةَ نارِ ،

« وحِلْمُ القِطط كلُّه فيران » ، كما يقال فى المثل العاميّ . فالدكتور طه بدأ كتابَهُ مشغولاً بكتابى ، وبتطبيقِى فيه منهجى فى « تذوق الشعر » ، وكلمة « التذوّق » لا تزالُ أصداؤها فى نفسه منذ كنت طالباً فى الجامعة ، [انظر ما سلف قريباً : ١٤٨] . فلما بدأ يكتبُ ، اجتنبَ لفظ « التذوّق » اجتناباً كاملاً متعمَّداً ، فكان يستعمل مكانها « التبيُّن » و « والاستنباط » و « الاستخراج » و « التدبُّر » و « التأمُّل » ، وهى كلمات دائرة أيضاً فى كتابى ، وخاصة حيث أختصر الكلام اختصاراً ، مجتنباً الإطالة ، فأحيل القارىء فى هوامشى على شعر أبى الطيب ، لينظر فيه على الأصول

التى درجتُ عليها فى الكشف عن حياة المتنبّى وعن شخصيته.[1] ولكنّه حين بلغ ص ١٠٦، وأراد هو أيضاً الاختصار !! لم يملك إلا أن يستعمل كلمة « التذوّق » ، التى تؤرقه ، لأوّل مرة حيث قال كما أقول: « وخُذ أنت هذا الشعر ، وقف عليه من وَقتك أيّاماً ، فما أشكُّ فى أنّك ستصلُ إلى مالا أريدُ أنا أن أطيل فيه ، ولكنّى واقفٌ معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد أن تتذوّقَه ، لعلنا نتعرفُ على أصول فنّ المتنبّى فى شىء من التفصيل والوضوح » . هذه أوّل مرّة ، ثم انطلق يستعملها مراراً بعد ذلك غير متحرّج . ولكن ظهر ظهوراً بيناً بعد ذلك فى سائر كتابه : أنه لم يخرجْ قط عن أن يكون تذوّقه هو التذوّق الساذَج الذى ألفه فيما كتبه عن بعض شعراء الجاهلية ، وعن شعر الغَزِلين ، وشعر أبى نواسٍ وأضرابه ، فى كتابه « حديث الأربعاء » = إلا ما شذّ قليلاً حين تذوّقَ بلسانى بعض شعر المتنبى ، كما أشرت إليه منذ قليلٍ .

وهو معذورٌ فى ذلك ، لأن القَدْر الذى عرفه من تطبيقِ منهجى فى « تذوق الشعر » ، وفى تذوّق الأخبار أيضاً ، كانَ قدراً لا يكفى . فهو لم يستطع أن يدركَ « تذوق الشعر » بمنجاة من تأثير الأخبار المرويّة ، كيف يكون . ولم يستطع أيضاً أن يعرف « تذوّق الأخبار » أيضاً معروضةً على الشعر ، ولا كيف تكون هَيمنةُ الشعر على الأخبار ، حتى يُزيِّف « تذوّقُ الشعر » منها ما يزيِّف ، ويصحِّح منها ما يصحّ ، لكى يجلوها جلاءً جديداً يجعلُها قادرةً على أن تجعل حياةَ أبى الطيب ، واضحةً جليّةً مستوية . ولا كيف يكون ذلك

(١) انظر السفر ص : ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ٢٠٣ ، ٢٤٥ ، ٢٧٨ ، وتعليق الهوامش فيها . ومواضع أخرى فى الكتاب نفسه .

الصحيح من الأخبار قادراً على أن يجعل حركة وجدان أبي الطيب في شعره أشدَّ ظهوراً ووضوحاً = ويجعل صورة حياته التي دلَّ عليها تذوّق شعره أدنى إلى الوضوح ، وأقدر على الالتحام بصورة الحياة التي يدلُّ عليها ، ماصحَّ من الأخبار ، [انظر ما سلف : ٦٥] . وهذه هي بعض الأصول التي يمكنُ أنْ تجعل « تذوّق الشعر » قادراً على استخراج صورة صحيحة مستوية غير متناقضة لحياة الشاعر ، وتعصم الكاتب أيضاً من أن تضلّله الأخبارُ ، فيرى في شعر الشاعر معاني بعيدة كُلَّ البعد عن المعاني التي يدلُّ عليها تذوق شعره جملةً واحدة ، وإلا خرجت الصورة كلُّها مشوهةً تشويهاً ، [انظر ماسلف : ٥٥] .

فلما كان الدكتور طه لم يدرك قدراً كافياً من هذا المنهج ، وكان في عَجلةٍ من أمره ، وكانت العجلة إحدى سجاياهُ ، لأنه قد طوى نِيّتَهُ على تأليف كتاب عن المتنبي في صيف سنة ١٩٣٦ بفرنسا ، [١] ليطمس به ذكرَ كتاب كتبه كاتب مغمور خامل الذكر في يناير سنة ١٩٣٦ ، كما قلت للشيخ مصطفى عبد الرازق ، [انظر ما سلف: ١٣٤، ١٤١] = فإنّه بدأ كتابه وانتهى منه على الصورة التي في وصفها في فصل « بعد الفراغ » : « ولكن لم آخذ في الإملاء حتى دفعتُ إليه دفْعاً عنيفاً ، لم أستطع له مقاومةً ولا عليه امتناعاً ، وإذا أنا أجري في الإملاء أو أعدو فيه أشدَّ العدو، حتى لا يتابعني صاحبي إلا بجهد كُلَّ الجهد ، ومشقة كلَّ المشقة ، وإذا أنا أملي إذا أصبحتُ ،

(١) تبين من رسالة للدكتور طه إلى توفيق الحكيم في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، أنه قد فرغ من كتاب المتنبي قبل ذلك بأسبوع ، أي في ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ تقريباً ، فإذا كان قد غادر مصر في أواخر مايو ، فقد استغرق تأليفه ثلاثة أشهر أو أقل . وانظر كتابه توفيق الحكيم « وثائق من كواليس الأدباء » .

وأملى إذا أمسيت ، وأملى بين ذلك ، وأبغضُ الراحة أشدَّ البغض » ، إلى آخر ماقال ، وصدق ! [كتابه س : ٧٠٠] . لما كان ذلك وفرغَ من الكتاب، مكدوداً قد انتهى به الإعياء إلى أقصاهُ ، وجد نفسه لم يقل للمتنبي ولم يقل عن المتنبِّي كل ما كان يريدُ أن يقوله [س : ٧٠٠ أيضاً] . ولكن حقيقة هذا الكلام أنه وجد « صورة المتنبّى » التى كتبها ، صورة لا تمثِّل شيئاً له قيمة ، فعبرَّ عن ذلك بقوله : « إنّى أبعد الناس عن حسن الرأى فيما أمليتُ ، ولا تظنّ أنى أريد التواضع . . . . وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوَّر شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوِّرنى أنا فى بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى ، أكثر ممّا يصوِّر المتنبِّى »[كتابه س ٧٠٦] . وهذه صحيح جدًّا مع الأسف ، لأنه يصوِّر حقيقة أعماله ، ودوافعه دائماً ، منذُ كتب حاشيته الصغرى على مقالة مرجليوث المسماة « فى الشعر الجاهلى » لا فى سنة ١٩٢٦ ، منذ عشر سنوات ، ولم يتغيَّر لا كثيراً ولا قليلاً ، وأعجزته دوافعه ، « فلم يستطع لها مقاومةً ولا عليها امتناعاً » .

ولما كان كتابه ، كما قال ، خليقٌ أن يصوّره هو أكثر مما يصور المتنبى ! وأدرك ذلك إدراكاً يقيناً ، فإنه نظر إلى صورة المتنبى عنده، وصورتَها عندى ، فأنكر ما عنده إنكاراً شديداً ، فقد وجدها خَلْقاً مُشَنَّأً تضيق به نفسُه ، [والمشنَّأ : المختلِفُ الخلق، المخبَّله ، القبيح الصورة] . ولكى تعلم أن هذا كما أقول ، فإنى موجزٌ لك صورة المتنبِّى التى اختلطت فى كتابه حتى خرجتْ ، فأنكرها هو أشد الانكار :

لقيطٌ لغيّة ، لا يعرف لنفسه أمًّا ولا أبًا ، شاذٌّ لأمرٍ ليس له في يد ، لا يستطيع أن يفاخر بأسرته ، فهو يشعر بالضعة والضعف ، (من عنده) ، نباتٌ شعبيٌّ خالص ! ! (من عنده) ، شابٌّ مستعدٌّ لسانه للسخرية (من عندى ، والتصوير من عنده) ، صبيٌّ شيعيٌّ متشيّع للعلويين ، وقرمطيٌّ لحبه سفك الدماء (من عنده) ، حانقٌ على النظام الاجتماعي والسياسي (خليط) ، قويّ الحسّ عنيف النفس (من عندى) ، يمتحن ممدوحيه ليتبيّن استعدادهم للخروج على السلطان (خليطٌ) ، صاحبُ مذهب سياسيّ أشمل من القرمطية والتشيع ، وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم وسلطانهم ، وأن يردّ غير العرب من الخدم إلى طورهم الذى كانوا فيه (الأصل من عندى مع خلط) ، يَنْشُدُ أميراً عربيًّا يحيي آماله ، مثل بدر بن عمار (من عندى) ، كان يسأل جدته عن خبر أبيه وأمه ، (من عندى مع خلط) ، نشأته علّمته الحيطة والحذر (من عندى مع خلط) ، سجنه جريمة من جرائم الرأى (من عندى مع خلط) ، ما ينسب إليه من النبوة مرفوض (من عندى مع خلط) ، كفكف السجن من غلوائه (من عندى) ، شقىٌّ بالأمل فى أول أمره ، شقى باليأس بعد سجنه ، فأنضج ذلك نفسه (من عندى) ، ظهور شخصيته فى أوقات العنف ، وفى أوقات الحزن (من عندى) ، يشعر بالغربة ، لولا جدته (من عندى) ، لقاء بدر بن عمّار وثب بفنّه ، فبلغ من الرقّ ما لم يبلغه فى الأيام السالفة (من عندى) ، وثب فنّه الوثبة الأولى عند التنوخيين ، والثانية عند بدر ، وكانت نواةً ستنبت وتنمو وتعطى شيئاً كثيراً مختلفاً ألوانه فى الوثبة الثالثة عند سيف الدولة ، حين وثب

وثبته الأخيرة التى رفعته إلى الأوج (كله من عندى) ، يمتلىء قلبه بالبهجة عند لقاء بدرٍ وأمثاله حتى يعجز عن إخفائها (من عندى مع خلطٍ كثير) ، يثورُ آبياً للضيم على من أرادوا أن يضيموهُ (من عندى)، جبانٌ (من عنده) ، طبيعته التى يصورها شعره : جوع وأحاديث ، وفلسفة فى الهواء (من عنده) ، امتناعه عن مدح العلوىّ طاهر من زهْو وغرور (من عنده) ، يلتزم برأيه حين يستغنى ، ويضحّى حين يخاف أو يطمع أو يحتاجُ (من عنده)، اتخذ لنفسه مذهباً سياسيًّا وفلسفيًّا ، (من عندى مع خلط) ، يتخذ الشعر وسيلةً لا غاية ، وكان عبداً للطمع والمال ، لا للجمال والفن (من عنده) ، يمثل فكرة الجهاد بين الروم والمسلمين عند سيف الدولة ، وتجد فيها فنًّا وجمالاً (من عندى) ، ينتقل انتقالاً مفاجئاً فى شعره (من عندى ، ولكن بغير دلالتها على شىء !) ، ذليل ضعيف مهين بين يدى السلطان ، لم يكن صاحب مذهب ولا رأى ، إنما هو رجل متهالك على المنافع العاجلة (من عنده) ، رجلٌ مضطربٌ متلوِّن (من عنده) ، نفسٌ غير متحضّرة ولا رقيقة الحسّ (من عنده) ، لا يقول الشعر إلا حين تدفعه دوافع كامنة أو ظاهرة (من عندى ، مع خلط) ... و « حسبك من شرٍّ سماعُه » .

هذه بعض ملامح الصُّورة ، لم أستوعبها لأنى فى مقامٍ غير مقام نقد هذا الكتاب ، ولكنها كافية فى الدلالة على شيئين : على « السطو » المجرّد ، وعلى الخلطِ المحكم الذى وصفته آنفاً ! [انظر ص : ١٤٥] . فلمّا أفاق الدكتور من إملاء كتابه وهدأ ، أنكرها ، لا إنكار مقرٍّ ببشاعة

الصورة ، ولكن ببَراعةٍ وفلسفة وتذوُّق ، فقال فى فصل « بعد الفراغ » .
[ص : ٧٠٧ ، ٧٠٨] :

« وأكثر من ذلك أنى أخذت أرى رأياً ، ما أظنُّ إلاّ أن كثيراً من الناس سيضيقون به ، ولعلهم أن ينكروه علىّ ، وقد ضقتُ به أنا وأنكرتُه على نفسى ، ولكنّى لم أزدَد إلاّ إمعاناً فيه ، واطمئناناً إليه ، وتعجُّباً من أنّى قد انتظرتُ هذه السنّ ، وهذا الطورَ من أطوار الحياةِ ، قبل أن أفطُنَ إليه وأطيل التفكير فيه ، وهو : أن شعر المتنبّى لا يصوِّر المتنبى ، وأن شعر الشعراء لا يصوّر الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً ، يمكّننا من أن نأخذهم منه أخذاً ، مهما نبحث ، ومهما نجدّ فى التحقيق . وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التى يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضًا ، وإنما أريد أن ألفتك إلى شىء يسير ، وهو أن ديوانَ المتنبى إن صوّر شيئاً ، فانما يصوِّر لحظات من حياة المتنبّى ، لا أكثر ولا أقلّ » . . . وطفق يتفلسفُ !

وبالطبع ، كما نقول نحن المصريين فى دَرَج الحديث ، لا يوجد شىء كهذا الذى يُوهِم الدكتور بِكلامه أنه كائن . لا يوجَد شىء كهذا يقال فيه إن شعر الشعراء ، أو كلام غير الشعراء ، يصوّرُهمْ تصويراً كاملا صادقاً ، « يطابِق الأصل ويوافقه » . لا توجد « نظريّة » كما سمّاها ، تبلُغُ هذا الحدّ من السُّخف والتفاهةِ والإسفاف ، ويحتاج المرء معها « أن ينتظر هذه السنّ ، وهذا الطور من أطوار الحياة » ، ويحْطِمَ الثامنة والأربعين من عُمُره ،

وينطحَ بقرون رأسِه جدارَ الحسين ، حتى يفطُنَ ويجيدَ الفطنة ، وحتى يفكر ويطيل التفكير ، حتى يتبيَّن أنها باطلةٌ ! ثم يحتاج بعد ذلك أن ييسِّر على قارئه المسكين فهمَ وجه بطلانها بضرب الأمثال ، فيقول : « فكما أنك لاتستطيع أن تزعُم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعُم أنك قادرٌ على أن تستخرج من كتبي كلِّها صورة صادقةٍ لى تطابق الأصل وتوافقه ، فكذلك أنت عاجزٌ عن أن تخرج من ديوان المتنبي صورة صادقةً ، تلائم حياة المتنبِّي ، كما كانت فى النصف الأوّل من القرن الرابع من الهجرة » .

هذه ثرثرةٌ حائرة ، ومجرّدُ عبث محض بالألفاظ ، ولهوٌ فارغ يلهو به من يكوِّن جُمَلاً مفيدة ، من ألفاظ مسطورة : « صورة » و « أصل » و « تصوير » و « قادر » و « عاجز » و « صادق » و « تطابق » و « توافق » !! والناسُ حين يقولون : « صوّر الكاتب صورةً صادقة لشاعرٍ » ، لا يعنون بداهَةً ما حاول الدكتور أن يُوهِم به قارئه ، ويستزِلَّ عقله بتأكيده المتواصلِ : « تصويراً صادقاً كاملاً !! » = عن المعنى الذى يدركه عامة الناس بالبَداهة ، وهو أن الذى استخرجه الكاتب من شِعْر الشاعر ، يجعلُ شعرهُ أكثر وضُوحاً ، وأظهر دلالة على فنّه ، وأقوَى بياناً عن طبيعته وعَوَاطفه ، ويجعلهم أكثر قدرةً على تمثُّل ما تخبؤُه ألفاظُ شعره من موقِفه تجاه أحداثِ حياته التى عاشها ، فصاغَها صياغةً مبينة عمّا كان يعتلجُ فى نفسه حين صاغها . وهذا موضع المثل : « زِىّ الطَّبْل منفوخ عَ الفارغ » ، وصدق من قاله .

وكل ما فى الأمر أن الرجُل حين فرغ من كتابه ، رأى صورة أبى الطيب فى كتابه ، وقد رآها من قبل فى كتابى ، وأدرك أن بين الصورتين بَوْناً بعيداً ، كالبعد بين المستقيم والمعوّج ، وبين الوليد الذى وُلِد لتمامه ، والسَّقْط الذى وُلِد لغير تَمام ، فاعتذر ، فأساء الاعتذار ، ولم يدر كيف يقول !

° ° °

أما الآن ، وقد فرغتُ من لَمْحة خاطفة فى القسم الذى يبدأ من ص ٩٩ إلى ٧١١ ، من كتاب « مع المتنبى » ، وهو الذى لم يكن مقدَّرًا لى أن أتم كلامى فيه فى مقالاتى : « بينى وبين طه » التى كتبتُها سنة ١٩٣٧ ، ونشرتها اليوم فى أول السفر الثانى = أمّا الآن ، فإنى أتلفَّت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشْفِق من مَغَبَّة السُّنن التى سَنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنّة « تلخيص » أفكارِ عالمَ آخر ، ويقضى أحدَهُم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعُر بأنه أمرٌ محفوفٌ بالأخطار ، ودون أن يستنكف أن ينسبُه إلى نَفْسه نسبةً تجعله عند الناسِ كاتباً ومؤلفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريهٌ . ومع ذلك فهو أهوَنُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطى إلى ماسطا عليه ، فيأخذهُ فيمزّقه ثم يفرِّقه ويُغرقه فى ثرثرةٍ طاغيةٍ ، ليخفى معالمَ ماسطا عليه ، وليُصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ، ويُنْسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكاملٍ بلاسببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يعلمونَ عِلماً جازماً أنه غير مطيقٍ لما أطاقوا ، دعوته إلى الاستخفافِ به

كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهونُ مما فعلوهُ وسنُّوه من سُنَّة « الإرهاب الثقافى » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِبَةً : بعضُها سياطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتَى ، وبعضها سِياطُ عذابٍ لمن خالف وأبَى .

أتلفَّتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبُوا بعْدَ أن تركُوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدُوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتنوَّعَت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طَيلسانُ « البحث العلمى » و « وعالميّة الثقافة » و « الثقـــافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُه إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غُرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضيّة ، واختلط الحابل بالنابل . قل ذلك فى الأدب والفلسفَة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صدقاً لا يتخلف . فالأديب مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف مفكِّر بعقل سواهُ ، والمؤرِّخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنّان نابضٌ قلبُه بنبضٍ أَجْنبيّ عن تراثٍ فنّه .

وأما الثرثرةُ والاستخفافُ ، فحدِّثْ ولاحرج ، فالصبىُّ الكبير يهزأ مزهوًّا بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِث أحدهم من مرقده ، ثم نظر

إليه نظرةً دون أن يتكلَّم ، لأَلجمه العَرَقُ ، ولصارَ لسانُه مُضْغَةً لاتتلجلجُ بين فـكَّيه ، من الهَيْبة وحدَها ، لامن علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

والله المستعانُ على كُلِّ بليَّة ، وهو المسئول أن يكشفَها ، وهو كاشفها بمشيئته ، رَحمةً بأمة مسكينة ، هؤلاء ذُنوبُها كانوا ، وأشباهٌ لهم سبقُوا ، وغفرانَك اللهمَّ ؟

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧
٦ من نوفبر سنة ١٩٧٧

محمود محمد شاكر



* على هيئته التى نُشر عليها فى عدد المقتطف ، يناير ١٩٣٦

* الشعر الذى فى رأس كل فصلٍ ، من شعر المتنبّى

ص : ١٢٨ س : ١٥ ، اقرأ : « ورَبَّ مَالِ » ، ويحذف التعليق

هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا ، فهو فى موضوع واحدٍ ، ولكاتب واحدٍ .

أمّا الموضوع فأبو الطيب المتنبى .

وأمّا الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر .

وقد رأى محرر « المقتطف » فى العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبى ، وفى طرافة المباحث التى انطوت عليها رسالة الأستاذ شاكر ، ما يُسَوِّغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

إلى أبى الطيب المتنبى

أنَا الّذِى نَظَرَ الأعْمَى إِلى أدَبِى
وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَام مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا
وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا ويَخْتَصِمُ

كنت فى غلواء الشباب حين وقعت لى ، فيما كنا نتعلم من « المحفوظات العربية »، أبياتٌ للمتنبى حفظتها فى غير عناء، وجعلت أرددها بكثير من اللذة والحماسة ، لأنها كانت تنطوى ، فيما أظن الآن ، على ذكر سجايا يتيه بها الشاب وتهتز معاطفه ، إذ لا يزال فى مستهل الحياة ، يراها ، أو يتصورها ممتدة أمامه ، ميدانًا رحبًا ليس له فيه إلاّ الاقتحام والغزو والظفر . فكذلك كان مما حفظته ، وكأنما طبعت فى ذاكرتى بأحرف من نار :

رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى، يانَفْسُ، وَاتْرُكِى حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى للشَّاءِ والنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذَرْكِ على الأَرْمَاحِ سَائِلَةً فَلَا دُعِيتُ ابْنَ أُمِّ المَجْدِ والكَرَمِ

* * *

أَيْنَ فَضْلِى، إذا قَنِعتُ مِنَ الدَّهْرِ بِعَيْشٍ مُعَجَّلِ التَّنكِيدِ ؟
أَبَداً أَقطَعُ البِلادَ، ونَجْمِى فى نُحوس، وهِمَّتى فى سُعُودِ

* * *

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفيعُ من الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبِه الدَّمُ

* * *

ولا تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً فَما المجدُ إلاَّ السَّيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ
وتَضريبُ أعْنَاقِ المُلُوكِ، وأَنْ تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
وتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيًّا كأنَّما تَدَاوَلُ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

* * *

وعندما أراجع ديوان المتنبى الآن تمرُّ بى أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها محول إلىّ من مغاور متغلغلة فى جوف الماضى . وأكثر هذه الأبيات من شعر الغزل والنسيب الذى كان المتنبى يستهلُّ به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك إلاَّ نزراً يسيراً ، لأن رجولة المتنبى كانت هى التى فتنتنى فى صباى دون رِقَّته ونسيبه ، وقد كنت أظن أن رجولته هذه يكون مردُّها، فى الغالب ، إلى خياله المتوثب وحده — إلى أن قرأت أصول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ، فإذا هى ، بحسب رأى الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التى قامت عليها جدته ، «أم أمه» وحوادث عصره وحياته ، وإذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله .

وكنت أطلب العلم فى جامعة بيروت الأمريكية فكان أستاذنا فى الأدب العربى « جبر ضومط » رحمة الله عليه ، مولعاً بدراسة المتنبى وتدريسه ، فقضينا معه سنتين نحفظ من قصائد المتنبى ما يتخيره لنا منها ، ونحن فى حل أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويمعن هو فى تفسير معانيها وبيان ما تحمل فى ثناياها

من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته أن يلمّح أحياناً إلى أن حياة المتنبي على صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لايعي من تاريخ الشرق العربي في ذلك العهد إلاّ اليسير ، فمرّ بهذا التلميح غير آبهٍ .

وأكبر الظن عندي الآن — وقد اطلعت على رسالة صديقي الأستاذ محمود محمد شاكر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — أن أستاذنا كان قد حاول أن يجتلي بعض هذا الغامض، فتبينت له أشياء لم ينشرها ، إمّا التزاماً بالحذر العلمي قبل القطع برأي ، وإمّا مراعاة للأحوال السياسية .

وعلى ذلك ظل المتنبي — على علوّ مقامه في الأدب العربي ، ونصوع معانيه ، وسمو حكمته ، وكمال رجولته — تكتنفه في ذهني غمامات من الغموض، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه .

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا ، عند طلبنا العلم ، عن ترسيخنا في معرفة أصول تاريخنا الشرقي العربي صرفتني عن دراسة المتنبي ، فكنت فيما تلا من عهد الدراسة لا أذكره إلا عندما أسكن إلى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجي ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادفاً عما قد تنطوي عليه أحياناً من مغلق المعنى ، أو مهجور اللفظ ، أو معقد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسهما ، بعد انقضاء عشرة قرون ، تتفجران من معاطف هذا العربي كالينبوع ، وتتطايران من عينيه كالشرر .

فلما ذكّر المذكّرون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت : هي فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك في إحياء ذكر عظيم من عظماء العرب ، ونابغة

من نوابغ اللسان العربى ، كسُنَّته فى الاشتراك فى إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم ، ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف فى الحالين واضح .

فنحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجتزىء بجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والإشادة بخلقه أو مِثاله من الناحية الأدبية . ولكننا — إذ كان المتنبى من عباقرة شعرائنا — لا ينبغى لنا أن نجتزىء بجمل أقوال الرواة والنقاد فى حياته وشعره .

فتحدثت فى ذلك مع صديقى المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر ورغبت إليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الإسهاب عن المتنبى . وأُقِرُّ أننى كنت مقتنعاً — عندما ألقيت إليه هذا الاقتراح — أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات المقتطف ، فوعدنى أن يبذل ما لديه . ولكن البحث تشعب أمامه ، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت ، فلم يرض ، وقد وجد مجال القول ذاسعة ، بالنهج المطروق . فبعد أن كتب عشرات من الصفحات مزقها ونبذها ، وعاد إلى الكتابة على نهج آخر . فأصبح المقال عدداً كاملا من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا العدد الكامل إلا موجز سفر فى المتنبى ينوى أن يجعله فى أربعة مجلدات أو أكثر .

ولا أخفى عن القارىء أننى مغتبط بهذا كل الاغتباط . ففى هذه الرسالة ، على إيجازها بالقياس إلى ما كان يجب أن تكون ، دلائلُ على تبحّر الكاتب فى تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربى ، ومقدرته على تبين الإشارات الخفية فى شعر المتنبى إلى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة فى استنباط

حالات الشاعر النفسية من أبيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والأحداث التى كانت فى الأمة العربية بوجه عام . وفى الغالب أن يكون عملٌ كهذا متعذراً إذا لم يوفق الكاتب إلى دليل يهديه سواء السبيل ، فى تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة فى العلم ، وبراعة فذة فى الاستنباط . وهذا الدليل الذى هداه هو رأى جديد فى أصل المتنبى ونشأته ، أشبه مايكون بالنظرية العلمية فى ميدان العلوم الطبيعية .

فالحقائق فى علوم الطبيعة هى خصوم النظريات ، والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من أدوات العلم ، عمل لا ينقطع ولن ينقطع ما بقى الإنسان على فطرته فى حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق ، فإذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تجىء هذه الحقائق الجديدة التى يكشف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية فى مجملها أو لنواحٍ منها ، فتعدَّل النظرية القديمة ، أو تُطْوَى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط فى النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عامًّا مُنَسِّقًا للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة مايجعلها تحتمل تفسير الحقائق التى تستجدُّ ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة .

فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أوّلاً فيما قيل عن أصل المتنبى ووالده وذهابه إلى الكوفة لزيارة جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة فى الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد . ثم لما طبقه على نفسية المتنبى فى شعره ، وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيِّده ما كان من حوادث العصر . ولا يبعد

أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء فى حياة المتنبى وتاريخ عصره على منوال ما تولّده النظريات فى العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعلّ الأستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً فى سفره المرتقب ، إن شاء الله .

ولا يسعنى فى هذه السطور أن أفصّل القواعد التى بنى عليها الأستاذ شاكر رأيَهُ ، فهى كثيرة مفرقة فى جميع الفصول ، وهذا البحث الظريف فى حياة المتنبى وأدبه ليس إلا وليد تطبيقها .

فقد استطاع أن يكشف من شعر المتنبى عن دقائق حياته ، وينقض الروايات المنقولة إلينا عن أصله ونشأته وتنبؤه وحبه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل وأحداث عصره . وبذلك اتسقت حياة المتنبى ، واتصل أولها بآخرها ، وقَلَّت الفجوات فى تسلسلها ، واستقام فهمها على أساس معقول من الأدب والتاريخ .

فالذى يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبى ، متدبّراً ، تنكشف أمامه معانى شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى .

فقد نقض الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبى كان سقَّاءً بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته فى مدارس الأشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبى بالعلويين من نشأته إلى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك فى حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونَفَى ما اتُّهِم به المتنبى من النبوة مستدلاً على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل إلى السبب المعقول فى تسمية أبى الطيب بالمتنبى .

وقد درس حياته وهو فى جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبى ، وأنهما كانا يعملان معاً على تحقيق الأمل السياسى لردّ الحكومة إلى العرب، ونزعها من يد الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبيّن أثر هذه الصلة السياسية فى شعر أبى الطيب الذى قاله لسيف الدولة .

وأثبت فيما أثبته من تاريخ هذه الفترة أن أبا الطيب كان يحب « خولة » أخت سيف الدولة ، وما كان لهذا الحب من الأثر فى سموّ شعره، وروعةِ بيانه.

فؤاد صرّوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

« لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهاَ ، لَهاَ ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَت ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِنا ، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَطَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا »

« رَبَّنَا لاَتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ »

وبعدُ ، . . . . فهذه كلمة مِنِّي عن شاعر العربية ولسانِها الحكيم :

أبي الطيب المتنبي

وأنا أشكر لكل من أعانني — بعلمه أو قلبه أو عطفه — عونَه ، وأخصّ بالشكر الفريق أمين فهد المعلوف ، والأستاذ محمد فريد نامق ، والأستاذ فؤاد صرّوف ؟

مصر الجديدة : شارع المنصورة ٢٢
أول شوال سنة ١٣٥٤
٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

ذكرتك بين ثنايا السطور ،

وأضمرتُ قلبيَ بين الكلِمْ

ولستُ أبوحُ بما قد كتمتُ ،

ولو حزَّ في النَّفْسِ حدُّ الألَمْ

تُمزِّقُني — ما حَييتُ — المُنى ،

فأرْقعُ ما مزَّقتْ بالظُّلَمْ

فكمْ كتمَ اللّيلُ مِنْ سِرِّنا ،

وفي اللَّيلِ أسْرارُ مَنْ قدْ كتمْ

تشابَهَ — في كَتْمِ ما نستسِرُّ —

سوادُ الدُّجى ، وسوادُ القلَمْ

محمود محمد شاكر

— ١ —

أنا ابنُ مَنْ بعضُه يفوقُ أبا الـ
باحثِ والنَّجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنما يذكُرُ (الجُدُودَ) لَهُمْ
من نَفَرُوهُ وأنفدُوا حِيَلَهْ
إنَّ الكِذابَ الَّذى أُكَادُ بهِ
أهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الذى نَقَلَهْ

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد الجُعْفِىّ »
« أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبّار الجُعْفىّ »
« أحمد بن محمد الحسين بن عبد الصّمد الجُعْفىّ »

هو أبو الطيب الملقَّبُ بالمتنبِّى . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ بمحلة كانت بها تسمى كِندة ، وكان أبوه الحسين سقاءً يسقى الناس على جملٍ له بالكوفة ، وكان لقَبُه الذى يُلَقَّب به هو : « عِيدَان السَّقَّاء » [١] .

(١) ضبطه ابن العديم في « بغية الطلب » فى ترجمة المتنبى ، نقلا عن الخطيب البغدادى أنه قال : « عيدان ، بكسر العين ، وبالياء المعجمة باثنتين من تحتها » ، وكذلك ضبطه صاحب القاموس ، وذكره الزبيدى في تاج العروس فقال « هكذا ضبطه الصاغانى » ، وهكذا ضبطه الأمير ابن ماكولا فى الإكمال (٦ : ٩٩) . ونقل الحافظ الذهبى فى مشتبه النسبة : ٤٣٣ عن أبى القاسم بن برهان النحوى (عبد الواحد بن على) : « إن المتنبى : ابن عيدان » ، جمع عيدانة (بفتح فسكون) ، وهى النخلة الطويلة ، وأخطأ من قال بالكسر ، يريد عيدان » ، ونقله أيضاً الحافظ ابن حجر فى تبصير المنتبه : ٩٠٥ . و « السقاء » ، هو الذى يسقى الماء ، بتشديد القاف ، مضبوطاً في جميع المواضع من بغية الطلب .

حدَّث عليّ بن المحسِّن التنوخيّ ، عن أبيه (المحسِّن بن على التنوخى) قال :

« اجتمعت بعد موت المتنبي بسنين مع القاضى أبى الحسن بن أمّ شَيْبان الهاشمى ،[1] وجرى ذكر المتنبي فقال : كنتُ أعرفُ أباهُ بالكوفة شيخاً يسمَّى « عِيدَان » ، يستقى على بعير له ، وكان جُعْفيًّا صحيح النسب » .

وحدّث التنوخى أيضاً ، عن أبيه قال :

« حدّثنى أبو الحسن محمد بن يحيى العلويُّ الزيديُّ ،[2] قال : كان المتنبي وهو صبيٌّ ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان يُعْرَف أبوه ، بِعِيدَان السَّقَّاء — يَسْتَقِي لنا ولأهل المحلة ... » .

وقال أبو الحسن العلوى أيضاً من حديث التنوخى عنه : « كان عِيدَان ، والد المتنبي ، يذكر أنه جُعْفِيٌّ ، وكانت جدة المتنبي همدانيةً صحيحةَ النسب

---

(١) نقلته فى الطبعة الأولى مصحفاً : « القاضى أبو الحسين بن أم شيبان » ، وترجمت له عن الخطيب البغدادى فى التاريخ ١٢ : ٩٩ « على بن محمد بن صالح » . وهذا خطأ محض . ثم تبين لى أن الصحيح هو ماضبطه ابن العديم وغيره « أبو الحسن بن أم شيبان » ، وهو والد المذكور آنفاً ، وهو : « القاضى أبو الحسن محمد بن صالح بن على بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى ، ابن أم شيبان » . و « أم شيبان » هى والدة ، يحيى بن عبد الله جد أبيه ، واسمها كنيتها ، وهى والدة يحيى بن عبد الله بن محمد ، جد أبيه ، ويعرف هو وأهله ببنى أم شيبان . وهذا القاضى أبو الحسن بن أم شيبان ولد سنة ٢٩٤ ، وتوفى سنة ٣٦٩ هـ ، وهو من الكوفة ، بها ولد ونشأ ، وفارقها إلى بغداد سنة ٣٠١ هـ مع أبيه ، ثم تكرر دخوله إليها . ثم دخلها سنة ٣٠٧ ، فقرأ على أبى بكر بن مجاهد ولقى الشيوخ ، ثم استوطن بغداد فى سنة ٣١٦ هـ (تاريخ بغداد ٥ : ٣٦٣ — ٣٦٥ / المنتظم ٧ : ٥٦ ، ١٠٢) .

(٢) كنت ظننت فى الطبعة الأولى أنه هو « محمد بن عمر بن يحيى » ينتهى نسبه إلى زيد ابن على بن الحسين رضى الله عنهم . كان من أهل الكوفة ثم سكن بغداد ، وكان المتقدم على الطالبيين فى وقته ، والمنفرد فى علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ ، وتوفى ببغداد فى ١٠ ربيع الأول سنة ٣٩٠ ، ثم حمل بعد ذلك بسنة أو أقل إلى الكوفة فدفن بها . ولكنى أرجح الآن أن هذا خطأ ، ولعل هذا المذكور « محمد بن يحيى » هو عم « محمد بن عمر بن يحيى » ، ولكن أعيانى أن أجد ذكره فيما بين يدى من الكتب .

لأشكُّ فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ... » .

ثم قال التنوخى (على بن المحسِّن) ، قال أبى :

« فاتفق مجيء المتنبي بعد سنين إلى الأهواز منصرفاً من فارس ، فذكرته بأبى الحسن (يعنى محمد بن يحيى العلوىّ الذى مرّ آنفاً) فقال : ترْبى وصديقى وجارى بالكوفة ، وأطراهُ ووصفه ...

« وسألتُ المتنبي عن نسبه فما اعترف لى به ، وقال : أنا رجلٌ أخْبِط القبائل ، وأطوِى البوادى وحدى ، ومتى انتسبتُ لم آمنْ أن يأخذنى بعضُ العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التى أنتسبُ إليها . وما دمت غير منتسبٍ إلى أحدٍ ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » .

هذا ماذهب إليه رواتنا ممن وقع إلينا كلامُهم فى نسب المتنبىّ ، يزيد بعضهم وينقُصُ بعضٌ ... وقبل أن نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من أمر « الكوفة » التى ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ ، عسى أن تكون منه فائدةٌ فيما يستقبل من كلامنا .

* * *

كان تمصير الكوفة وأوّل أمرها ، على ماذهب إليه أكثر العلماء ، فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما بين سنه ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك أن المسلمين لمّا فرغوا من وقعة رستم بالقادسيّة وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما أنزلهم فيه سعدُ بن أبى وقاص رضى الله عنه ، مكانٌ من سواد العراق يقال له : « سُوق حَكَمَة » ، فنُفِض المسلمون وجَهَدهم المرض ، فكتب سعدٌ إلى عمر بذلك فكتب إليه :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان إلاّ ما أصلحَ الشاةَ والبعير ، فعليك الرِّيف ، ولا تجعل بينى وبين المسلمين بحراً » .

فلما ورد كتابُ عمر ، دَلّ ابْنُ بُقَيْلة (رجُلٌ من سواد العراق) سعداً على موضع الكوفة ، وكان يقال له « سُورَسْتان » ، فلما أقرَّ سعدٌ الرأيَ على اختيار الموضع أسهم بين المسلمين ، فأسهم لنزارٍ وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سَهْمُه أوّلاً ، فله الجانب الشرقى ، وهو خيرُهما ، فخرج سهمُ أهل اليمن أوّلاً ، فصارت خططُهم فى الجانب الشرقى من الكوفة .

ومما وردَ فى صفتها وحُسْنها ما يُروى عن مالك بن دينار قال: كان علىٌّ رضى الله عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يا حَبّذا مُقَامُنَا بالكُوفَهْ أرضٌ سَوَاء سهلةٌ معروفَهْ
تعرفُها جِمَالُنا العَلُوفَهْ

وما قاله محمد بن عُمَيْر العُطَارِدِىُّ فى مجلس عبد الملك بن مروان :
« الكوفة سفُلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البَصْرة وحَرِّها ، فهى مَرِيئةٌ مَريعةٌ . إذا أتتنا الشّمال ذهبتَ مسيرة شهر على مثل رَضْراض الكافور ، وإذا هبّت الجَنوب جاءتنا ريح السّواد[1] ووردهوياسمينه وأُتْرُنجه . ماؤنا عذبٌ ، وعيشُنا خِصْب » .

فهى كما ترى أرضٌ ذات طبيعة جميلة ، حببت إلى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما ، فاتخذها أمير المؤمنين علىٌّ قاعدة أمره ، واجتمع فيها أشياعُه وغلبوا عليها ، فمن يومئذٍ والكوفة معقل من معاقِل الشيعة والعلوية والزيدية إلى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الأمين الحسينى العاملى صاحبُ كتاب (أعيان الشيعة):[2] « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد، ثم خربت . واليوم فيها كثير من العمرانِ ، وجميعُ أهلها شيعة » .

---

(١) السواد : الريف (٢) هو كتاب جليل على ما فيه .

أمَّا أمر تخطيطها وعمرانها فى القرن الأول والثانى أو القرن الرابع الذى عاش فيه أبو الطيب ، فلا نكاد نجد بين أيدينا شيئاً مما رُوى يدلُّنا عليه ، ويقفُنا عنده ، إلَّا مارُوى عن بشر بن عبدالوهاب القرشى من أنَّه ذكرَ قدر الكوفة فكانت ستةَ عشرميلاً وثلثى ميل ، وذكر أن فيها خمسين ألف دارٍ للعرب من ربيعة ومُضر ، وأربعة وعشرين ألف دارٍ لسائر العرب ، (وستة آلاف دارٍ لليمن) ، وذلك فى سنة ٣١٤ وما قبلها .

وقد رَمى إلينا المتنبى طرفاً آخرمن تخطيط الكوفة لعهد صباهُ ، إذ يقولُ وهو بالشام فيما مدح به (على بن إبراهيم التنوخى) :

أمُنْسِيَّ السَّكونَ وحَضْرَمَوْتاً (ووالدتى) وكِنْدَةَ والسَّبِيعاَ

يقولُ الواحدى: « هذهأماكنُ بالكوفةسميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال » . ولا شك أن « محلة كندة » التى ولد بها صاحبنا أبو الطيب كانتخطة منخطط الكوفة ، نزلها فىالصَّدرِ الأول من نزلَ من بطونِ كندة فسُميت بهمْ ، وأن سائر الكوفة ــ أو الجانب الشرقى منها على التحقيق ــ كان مقسَّماً مخططاً إلى أحياء كثيرة غيرهذه التى ذكرها أبوالطيب فى شعره .

ولكن مما نعجبُ له أن بشر بن عبد الوهاب يقولُ: إن دورأهل اليمن (جميعاً فى كل أحياء الجانب الشرقى) بالكوفة كانت فى سنة ٣١٤ وما قبلهاوعدتها (ستة آلاف دار) ، ويقول صاحبُ (إيضاح المشكل فى شعر المتنبى) أبوالقاسم عبدالله بن عبدالرحمن الأصفهانى أن (ابن النجار)حدثه ببغداد:[(١)]

---

(١) كنت نقلت هذا في الطبعة الأولى من خزانة الأدب للبغدادى (١ : ٣٨٢) ، حيث نقل القسم الأول من كتاب « إيضاح المشكل في شعر المتنبى » ، ثم طبع هذا الكتاب فى تونس سنة ١٩٦٨ . و « ابن النجار » . هو « محمد بن جعفر بن محمد بن هرون بن فروة ، أبو الحسن التميمى النحوى »، ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ، ورحل إلى بغداد ، ثم مات بالكوفة سنة ٤٠٢ . (تاريخ بغداد ٢ : ١٥٨ / ومعجم الأدباء ٦ : ٤٦٧/وبغية الوعاة) . ولابن النجار « كتاب تاريخ الكوفة » ، قال ياقوت : « وقد رأيته » .

« أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَّاء ونسّاج » ، وذلك سنة ٣٠٣ . فليت شعري أكان جُلُّ أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة ، وهو خير جوانبها ، ما بين سقاء ونساج ؟ هذا عجبٌ أن يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكم شَغل من بقي من أهل اليمن من أصحاب الصناعات ومن لفَّ لفّهم من التجار وأصحاب الأرضين . ثم ما يبقى من حَيٍّ أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، وهمْ كُثْرٌ .

فهذه المبالغة وجهٌ من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) ، وسترى أن المتنبي قد مُنِيَ في حياته وبعد موته بضروب من العداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزَلّة لا تثبت عليها قدم ، ولا يهتدي فيها إلا بصيرٌ متثبتٌ . ولو نظرتَ إلى أقوال الأصفهاني صاحب (إيضاح المشكل) ، وما رواه في مقدمة كتابه ، رأيته ممن كان يتحامل على أبي الطيب ، ويذكره بالسوء في كل قوله ، وما أتى له بمحمدة إلاّ وأتبعها بمذمةٍ بالغة قارصة . وهو قد ألف كتابه هذا لأصغر أبناء « عضد الدولة » — الذي مدحه المتنبي ، وكان آخرَ من مدح — بهاء الدولة خاشاذ بن عضد الدولة ، وكان التحاسد واقعاً بين أبناء عضد الدولة ، حتى إن المتنبي حين ذكر أخويه ، وهما أكبر من بهاء الدولة ، في مدح أبيهما دعا لهما فقال :

فَعَاشَا عِيشَةَ القَمَرَيْنِ يُحْيَا ... بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتَحَاسَدَانِ

فكأني بالمتنبي قد أدرك ذلك منهما ، وألمَّ بطرفٍ من تحاسُدِهما . وقد خابت دعوة صاحبنا ، فإن شرفَ الدولة شَيرزيل بن عضد الدولة حاربَ

أخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروب وحبسه . فلعلَّ بهاء الدولة هذا كان ممن يحتد على المتنبى ، إذ لم يمدحه أو يذكره فى شعره (مع صغره إذ ذاك) ، فكتب الأصفهانى كتابه تقرباً وزلفى إليه . ومما يؤيد ذلك أن كتابَ الأصفهانى فى نقد كلام ابن جنى ، وهو صاحبُ المتنبى ومريده ومن الضَّالعين معه . وسيأتى طرف من غرائب ما ذكره الأصفهانى فى ثنايا القولِ ، يؤيد رأينا فى أن الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ .[١]

* * *

والآن ، وقد فرغنا من القول فى محلة كندة التى ولد بها المتنبى ، وما وقع فى أمرها من المبالغة ، ننظر فى نسب الرَّجل ، لترى كيف بالغوا أيضاً فى الإساءة إليه ، وتحقير مولده ، والحط من أصله ونشأته ، لأغراض خافيةٍ قد أحاطت بصاحبنا ، أضرَّتْ به فى حياته ، وأفسدت تاريخه بعد وفاته . رأيتَ قبلُ فى أول ما رَوينا لكَ من أقوال الرُّواة ، أنهم أرادوا أن يثبتوا بما روَوْا أنَّ الحسين والد المتنبى هو عِيدَان السَّقَّاء ، كان يسقى الماءَ على بعير له بالكوفة . وراوى القصة كلها هو علىُّ بن المحسن التنوخى ، عن أبيه المحسن التنوخىِّ ، ونحن نتقدَّم فنشكُّ فى رواية المحسن التنوخىِّ لأسبابٍ نذكر طرفاً منها هنا ، ثم تأتى بعدُ أسبابٌ أُخرى تثبت ما نقوله إن شاءَ الله .

---

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت أطراف ترجع إلى العداوة بين بنى بويه وسيف الدولة ، وما جرت هذه من الخصومة بين أهل العصر ، والأدباء خاصة . وقد اشتدت المنافسة أخيرا بين بهاء الدولة وسيف الدولة وتورط الأدباء فيها فكتبوا وألفوا يريدون بما ألفوا التقرب إلى واحد من الخصمين . وأيضا فإن بنى بويه كانوا يعرفون يقينا أن المتنبى لم يكن خالص المدح لهم ، فقد شاب مدحه بالحسرة على لقائهم فى بعض قصائده ، وما كان ذلك ليخفى عليهم .... وهناك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما أتى بعضه عرضاً فى آخر ما نكتبه عن مدح المتنبى بنى بويه إن شاء الله .

القاضى أبو على المحسِّن بن على التنوخى ولد سنة ٣٢٧ ، وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ ، فكان من أصحاب الوزير أبى محمد المهلبى ، وكان المتنبى حين دخل بغداد فى طريقه إلى عضُد الدولة بشيراز ، قد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى المهلبى به الشعراء وغيرهم ، كأبى على الحاتمى صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ، ذكر فيها سرقات المتنبى ، وزعم أنها قد وقعت كما قيَّدها بينه وبين المتنبى ،[١] فلا عجب أن يكون محسِّن التنوخى من أعداء أبى الطيب لصلته القريبة بالوزير ، فقد بلغ به أن كان من نِدمائه . ولا عجب أيضاً أن يسند التنوخى روايته (أو كذبه) إلى بعض شيوخه لئلاّ يفتضح . ولذلك زعم ، كما قدمنا لك ، أن القاضى ابن أم شيبان حدَّثه فقال: « كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يقال له عِيدان . . . إلخ » . والقاضى ابن أم شيبان ، يحتاج أمره إلى بعض النظر ، إذا حدث عن المتنبى ، لأنى أخشى أن تكون صلته قريبة جداً ، بحياة المتنبى وما لقيه من العلويين ، كما سأبينه فيما بعد .

وهذا الشيخ التنوخى يقول : إنه سأل المتنبى عن نسبه فما (اعترف له به) ، وكان إذ ذاك شابّاً فى السابعة والعشرين ، وكان المتنبى قد نيَّف على الخمسين ،[٢] فما نَظُنُّ أن القاضى التنوخى كان يجرؤ أن يسأل المتنبى عن ذلك ، لبُعْدِ ما بينهما ، ولتعالى المتنبى وترفُّعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضى بالوزير المهلَّبى وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) . فمن يترفع عن الوزير أبى محمد المهلبى ، وهو من هوَ فى سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبذَّل مع صاحبنا القاضى

---

(١) الرسالة الحاتمية ، مطبوعة ، وقد طبع صديقنا الدكتور محمد يوسف نجم كتاباً آخر للحاتمى فى الحط على أبى الطيب ، سماه : « جبهة الأدب » ، ونشره الدكتور نجم باسم « الرسالة الموضحة » (سنة ١٩٦٥ بيروت) . والكلام هنا أكثر انطباقاً على الكتاب الثانى .

(٢) لقيه التنوخى بالأهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤ .

التنوخى . هذا، فإن كان قد سأل المتنبى حقًّا كما يقول، فما يكون جواب المتنبى عن ذلك هذا الكلامَ الملفَّقَ الضعيفَ الذى يَضَعُ من رأى صاحبه ويستفسد من عقله : « أنا رجل أطوى البوادى وحدى وأَخْبِط القبائل . . . » . فلم يكن المتنبى ممن يطوى البوادى وحده إذ ذاك، بعد أن سار اسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبى الذى لم يَخَفْ أن يخرج غير محروسٍ يوم قُتل وقد أَوْعدُوه، وأرصدُوا له، وتحقق هو ذلك، لا يقول : « ومتى انتسبتُ لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها ». وهل أذَلُّ من قوله : « وما دمتُ غير منسبٍ إلى أحدٍ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » ؟ أهذا يقوله من أوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة فى عصر كانت تذهب فيه الأرواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيء ؟ ! كلاَّ يا أبا على . . .

وقد بالغ صاحبنا التنوخىُّ فى روايته عن المتنبى حين سأله عن أبى الحسن محمد بن يحيى العلوىّ، ومبالغته تدلُّ على أنه كان يريد أن يولِّد كلاماً، فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول قوله أن المتنبى حرَّكته الذكرى، فأفاض فقال عن أبى الحسن العلوى : « تِرْبى . . . وصديقى . . . وجارى بالكوفة . . وأطراه ووصفه » .

وأخرى . . . فمن جهل هذا التنوخى بأساليب الوضع المتقنة — التى جرى عليها شيوخ الوضَّاعين وأحكموا أمرها حتى خفيتْ على الحفِيِّ البصير من العلماء والأدباء — أنه جمع بين النقائض فى الكلام الواحد الذى يراد به إثبات ما لا يكون، أو كَوْن ما لم يثبُتْ . فمن ذلك أنه روى أنّ أبا الرجل كان سقّاء يسقى على بعير له، ثم حدّث عن الرجل نفسه أنه قال : « متى انتسبت لم آمَنْ

أن يأخذنى بعض العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التى أنتسبُ إليها » . وهذا أمرٌ من الأمر ،فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت التِّرات القديمة ، وألقت بالسخائم المتوارثة ، وانصرفت إلى ما جدّ من الأحداث فى دولتهم وفرّق شملهم وجعل بأسهم بينهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ، حتى لعبت بهم الأعاجم فخطّتهم الأيام . فإذا كانت العرب قد نسيت ما قَدُم أو ذكرته قليلاً قليلاً ، فما خوف المتنبى مما لا يخاف منهُ ؟ وما خوفهُ وهو آمنٌ فى المدن بين الكوفة وحلب وأنطاكية ودمشق والفسطاط ؟ أوكان المتنبى وحده من أهل عصره هو الذى يخشى ذاك ؟ألم يكن فى عصره مثلهُ ممن يطوى البوادى وحده ؟ كلاّ ، وإن رجُلاً قد سقط بآبائه السواقطُ إلى السِّقاءَة وغيرها من حقيرة المهن ، لا تُبْغَى عنده طائلةٌ ، وإن بُغِيت فما يكون لمدركها عنده فخرٌ . و (ابن السقاء هذا) ما عَرض فى شعره كُلّهِ إلى قبيلة فهجاها أو عرّض بها أو لمزها بشىء ، حتى يخشى ظهور كيدٍ يُكاد به ، ولئن فعل لقالوا له كما قال الأول :

وكنْ كيف شئتَ ، وقل مَا تشا ءُ ، وأرعِدْ يميناً وأبرِقْ شمالاَ
نَجَا بكَ عِرْضُكَ مَنْجَى الذُّبا بِ حَمَتْه مقاذيرُهُ أن يُنَالاَ

وما عِرْضٌ كعرض سقاء وابن سقاء ينجو به ناجٍ من طالب ثأرٍ أو مدرك تِرَة !

وهلاّ أدرك هذا المترفّع المتعالى على الملوك والأمراء ، عنيتُ المتنبى ، بنسبه رجلا آخر غير هذا السقاء ، الذى هو أبوه ، فوقَفَ عليه بنسبته ! ! ما كان يضير هذا الرجل ، لو أنه كان قد سئل عن نَسبه ، كما يوم التنوخىّ ، أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس معلوم غير منكور ولا محقَّر ؟ ! إن الرواة قد

اختلفوا ، كما رأيت فى صدر مقالنا ، فى اسم جدّهِ (أبى أبيه) ولم يجمعوا على شىء ، وأخطأ بعضهم فى اسم أبيه فسماهُ (محمداً) ، واقتصر جُلّ شراح ديوانه من الأوائل ، ثم أكثر النُّسخ المخطوطة — على اسم أبيه وحسب ولم يزيدوا . فهذا دليل على أن الكتمان إنما كان كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب إليها أنْ يلحقه من جرائها أذًى فى تِرَة ، أو مكروهاً فى ضغينة قديمة أو محدثة ، وأىُّ ثأرٍ يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاءً بالكوفة !

ثم إن التنوخى يروى هذا الخبر ، ويروى أيضاً أنه كان جعفياً صحيح النسب ، وما تصحُّ نسبة سقّاء إلى جعفىّ بن سعد العشيرة إلاّ أن يذكر نسبه متّصلاً إلى جعفىّ ، لأن سقاءً يدعى الانتساب إلى جعفى ، لا بدّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُدٌّ . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصٌّ واحدٌ يذكرُ فيه نسب المتنبى إلى رجل من جعفىّ لايختلفُ فى أمر نسبته . فماظنُّك بمنْ اختلف فى جدّه الأدنى والذى بعده ، ولم يتجاوزوا ذلكِ إلى متفق عليه من عمود النسب ؟

أو لم يكن الذى حفز التنوخىّ أن يسأل المتنبى عن نسبه فأخفاه عنه ، ليحفزهُ أن يسأل ابن أم شيبان الهاشمى ، أو أبا الحسن العلوىّ ، كيف صحت نسبةُ الرجل إلى جعفىّ ، وخاصة بعد أن جحده المتنبى وكتم عنه ماعرفه غيره؟ ولو كان فعل ، لكان نسب الرجل مشهوراً عندنا كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة .

وبعد ، ألم يكن بين العرب جميعاً مَنْ يعرف أن الرجل جُعفىّ القبيلة غير

« ابن أم شيبان الهاشمى » و « أبى الحسن العلوى » و« أبى علىّ التنوخىّ » ؟
أوَ قدْ حرصوا ثلاثتهم على أن لا يذيع نسب الرجل إلى جعفىّ ؟ ولو كان ذلك ،
فما الذى حملهم على هذا الحرْص ؟ والتنوخى نفسه لم يكن يعرف سبب حرص
المتنبى على كتمان نسبه إلاّ فى السنة التى مات فيها (سنة ٣٥٤) ! أ كانوا
ثلاثتهم لا يأمنون « أن يأخذ المتنبى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى
ينتسب إليها » ؟ وكذلك شهد الرجل (التنوخى) على نفسه فى حديثه بالتخليط
أو الوضع .

ولا يفوتنّك أن المتنبىّ فى أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية ، وكان
التّنوخيون ينزلونهما من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ
هناك نابتةٌ من المودة، ثم نمت وربَتْ واهتزّت ، فمدحهم ورثاهم ، ودفع عنهم،
ورمى دونَهم ، وأقامَ طويلاً بينهم مكرَّماً ، وقد كان بين أصحاب أبى الطيب
من التنوخيين وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن إسحق التنوخى ورثاهُ
المتنبى ، جرى فى أنطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شمتوا بموته ، فلجأ هؤلاء
الشامتون إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى الشماتة عنهم ، فكان مما قال
فى ذلك :

(أبناءِ عَمّ) كُلُّ ذَنْبٍ لِامْرِئٍ إلاّ (السِّعايَةَ) بَيْنَهُم مَغْفورُ
طَارَ الوُشَاةُ على صَفاءِ وِدَادِهِم وكذا الذُّبَابُ على الطَّعامِ يَطِيرُ

ثم عادوا فسألوه أن يزيد ، فكان مما قاله على لسانهم :

رَثَى ابنَ أبينا غيرُ ذِى رَحِمٍ لَهُ فَبَاعَدَنا عَنْهُ ، ونحن الأقاربُ
وعُرِّضَ أنَّا شامِتُونَ بِمَوْتِهِ ، وَإلاّ فَزَارَتْ عارِضَيْهِ القواضِبُ

أليسَ عَجِيباً أنَّ بيْنَ بَنى أبٍ (لِنَجْلِ يَهُودِيّ) تَدِبُّ العقاربُ

وهذه العداوة التى كانت بين التنوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحدٍ من تنوخ (كأبى على التنوخى) ممن يذكرُ من أمر أبى الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله حتى تقطعَنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون إلى هوى ، ولا يُصغون أفئدتهم إلى بِغْضةٍ ، فما ظنك بأبى علىّ التنوخى وهو قد اجتمعت الدلائل — كما رأيتَ — على وهن روايته ، واختلاط حديثه ، وبيان هواه ؟

وليس عجيباً أن يكون التنوخى ممن يحمل لأبى الطيب فى صدره شحناء لصلته المعروفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة ، أو النيْل منه بكل سبيل . واعلم أن عليًّا التنوخى (والد المحسّن هذا) كان ممن وُلِدَ بأنطاكية وشبّ بها ثم رحل عنها ، فلعلّه رحل عن أنطاكية لِحَدَثٍ وقع بين أهله وبين أقاربهم ، وبقيتْ فى صدره وصدر أبنائه حزازاتٌ موروثة وأحقاد لبنى عَمه هناك . ولا عجبَ ، فقد كانت هذه الفترةُ من العصرِ العباسى مِرْجَلاً يغلى بالأحقاد بين الأخوة وبنى الأعمام ، حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه ، وهتك عرضه ، واستباح حرماته ، وخاصة من رقى درجات الإمارة ، أو أدرك سبباً من السلطان كأصحابنا التنوخيين ، (وهم نسلُ ملوك تنوخ الأقدمين) .

* * *

هذا ، ولو سلمنا للتنوخى رحمه الله بصحة روايته عن أبى الحسن العلوى ، وأن الذى قالهُ عن المتنبى هو من لفظ أبى الحسن جملةً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه — فعندنا فى أقوال العلويين المعاصرين عن أبى الطيب سببٌ

للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا نجادل ... [١]

ففى ديوان أبى الطيب معنىً من المعانى ، وإخاله سرًّا من الأسرار ، لعلهُ أن يكون يوماً مَا مفتاحاً تتسنّى له الأبواب المغلقة فى نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذى يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلينا أن نستوفىَ هنا بعض الرأى الذى نذهب إليه ونقيّدهُ على مُكْثٍ .

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهى إذ ذاك دارُ العلويين ، ومعقل الأئمة منهم والنابهين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثلهِ ممن ينالُ بالشعر ويؤمّلُ منه ، أن يمدح مَنْ تُرْجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين فى ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم نَهلَ واغترف ، [٢] واستقى وأفاض (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف .

فعجباً لأبى الطيب ، أيَّما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجلين ما امتدَّ به العمر ، وقد بيّن أبو الطيب فى إحدى قصيدتيه ، وبينت الرواية فى الأخرى ، سببَ ذلك المدح ...

---

(١) وقبل فلا تنس ما كتبنا لك : أن العصر الذى كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية عصراً خبيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طغت فيه الدسائس ولعبت به الأهواء واستحرت الأحقاد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيدوعشيرته التى تؤويه . وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه فى أثناء كلامنا فا فى كل موضع يمكن الإشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارىء حين يفوز إلا بما يفطن إليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزه سواه .

(٢) « اعلم كما سترى بعد أن المتنبى تعلم فى كتاب للعلويين » ، هكذا قلت قديماً بل الأمر الآن أكبر من التعلم كما ستعلم بعد .

قال العكبرى : « وكان محمد بن عبيد الله العلوىُّ المعروف بالمشطّب ،[١] هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌّ دون العشرين سنة ، فقتل منهم جماعة ، وجُرِح فى وجهه فكسته الضربة حُسناً . . . فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا » — :

فمدحه المتنبى بقصيدته التى أولها :[٢]

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها   أبعدُ ما بَانَ عنكَ خُرَّدُها

فذكر فيها أن ناقته حملته إلى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح :

إلى فتًى يُصْدِرُ الرِّماحَ وقد   أنهلَهَا فى القُلوبِ مُورِدُها

لهُ أيادٍ إلىَّ (سَالِفَةٌ)   أعُدُّ مِنهَا وَلاَ أُعَدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال :

وكم وكم نِعمَةٍ مُجلِّلَةٍ   ربَّيْتَها كان منك مولدُها

وكم وكم حاجةٍ سَمَحْتَ بها   أقربُ مِنِّى إلىَّ موعدُها

ومَكْرُماتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الـبِرِّ ، إلى مَنْزِلِى تَرَدُّدُها

أُقِرُّ جِلْدِى بها علىَّ فلا   أقدِرُ حتَّى المماتِ أجْحَدُها

فَعُدْ بهـا لا عَدِمْتُها أبداً   خَيْرُ صِلاتِ الكريمِ أعودُها

---

(١) قال الأمير ابن ما كولا فى الإكمال ١ : ٨١ « الأشتر النقيب أبو الحسين محمد بن عبد الله بن على بن عبيد الله بن على بن عبد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، مدحه المتنبى ، وكان يلقب « المصهرج » ، قاله لنا الشريف النسابة » .

(٢) الرأى عندنا أن المتنبى قال هذه القصيدة بعد مرجعه إلى الكوفة من مقامه بالبادية سنة أو أقل ، وقبل خروجه إلى بادية كلب واللاذقية حيث سجن فى دعوى النبوة ، كما يزعمون ، وقد كانت سنه حين قالها على الأرجح عندنا خمس عشرة سنة أى سنة ٣١٨ هـ . واعلم أننا إنما نجتهد فى تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقة وما فوقها ، لنترجم للرجل على بينة وهدى . وستجد فائدة ذلك فى كثير مما يمر بك إن شاء الله .

والمتنبى ، كما ستعلم بعد، كان أوّلَ أمره وهو صبىٌّ : « يختلفُ إلى كتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة » من العلويين ، فكأنَّ (محمد بن عبيدالله العلوى) هذا كان من لِدَات أبى الطيب أو أسنانه الذين كانوا معه فى المكتب .[1] وأخذت بينها المودَّة ثَمّ ، ولعلهُ كان يُفْضِل على المتنبى ويتعهدهُ ويكرمه فلذلك قال : « لهُ أيادٍ إلىَّ سالفةٌ » . فأكدت هذه المودة القديمة سببَ المدح حين عاد من رحلته فى البادية يتسقطُ اللغةَ وينتجع الرزق .[2] وأرجح الظن أن المتنبى حين عادَ إلى الكوفة : عاد إليه صاحبه العلوى بالإفضال والتعهد ، فلما أصيب بالجراحة فى حربه ، مدحه المتنبى لصداقته ومودته ، ولما أسدى إليه من معروف ، وما اتخذ عنده من صنائع .

* * *

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح ، فهو أبو القاسم طاهر بن الحسن ابن طاهر العلوى لم يمدحه المتنبى ابتداء : كما مدح غيره ، وفى ما نرويه لك من خبره عجب !

---

(١) تقول فلان سن فلان أى مثله فى سنه ، والجمع أسنان .

(٢) هذا ما قلته منذ أربعين سنة ، أما الآن فقد صار ما قلته هنا لايعبر عن الحقيقة . فإن علاقة المتنبى بالعلويين لم تقتصر على تعلمه فى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، بل ارتفعت علاقته إلى أخوة من الرضاع . فقد ذكر ابن العديم (٥٨٨ — ٦٦٠ هـ) فى ترجمته التى سننشرها مع سائر التراجم الجديدة فى آخر الكتاب ، أن المتنبى : « أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » وأسنده فقال : « أخبرنى صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى مولى الحموى البغدادى ، قال : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبى بخط أبى الحسن على بن عيسى الربعى قال فى أوله » ، وذكر مانقلته وغيره كثير . و « على بن عيسى الربعى » ، ممن روى عن المتنبى وأخذ عنه شعره . فالأمر إذن أجل من التعلم فى كتاب أولاد أشراف الكوفة من العلويين . و « آل عبيد الله » ، هم بنو « عبيد الله بن على بن عبد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، ومنهم « المشطب » الذى مدحه ، كما ترى فى نسبه ص : ٢٧ ، تعليق : ١ ، والأرجح الآن أنه أخو المشطب من الرضاع على الأقل !

كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج وهو بالرملة لم يزل يراسل أبا الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، ويعزم عليه فى القدوم عليه ، فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُدَيْدة ، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيدالله بن طغج) ، يسألُ أبا الطيب أن يخصَّ أبا القاسم (طاهراً العلويَّ) بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتهى ذلك) !! وأبو الطيب يقول : « ما قصدتُ إلاّ الأمير (ولا أمدح سواه) ! ! » فقال له أبو محمد : « عزمت عليكَ أن أسألكَ قصيدةً تنظِمها فىّ فأجعلها فيه » ، (تأملْ هذا) ، وضمن له عنده مئات من الدنانير ، فأجاب .

قال محمد بن القاسم الصوفىّ : « فسرتُ أنا والمطلبىّ برسالة طاهر إلى أبى الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعةٌ من الأشراف ، فلما أقبل أبو الطيب ، نزل طاهرٌ عن سريره ، والتقاه مسلماً عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه فى المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه . فتحدّث معه طويلاً ثم أنشده أبو الطيب فخلع عليه للوقت خِلعاً نفيسة » .

قال على بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير أبى الطيب ، فإنى رأيت هذا الأمير قد أجلسه فى مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده :

أعِيدُوا صَبَاحِى فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ
ورُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائبِ[1]

---

(١) لابد لنا هنا من التنبيه إلى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا فى كتابه عن المتنبى ، إذ زعم أن المتنبى قال هاتين القصيدتين (فى ابن طغج والعلوى) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح أنهما قيلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ، ومن ثم فى تلك السنة رحل إلى أنطاكية قاصداً أبا العشائر الحمدانى الذى وصل أسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ . وسترى ذلك فى موضعه من مقالنا . هذا على أن أسلوب الرجل فى هاتين القصيدتين ونفسه فى الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر أدنى تدبر .

وفى هذه القصيدة التى يمدح بها رجلاً علويًّا سامِيَ القدر يقولُ :

كثيرُ حَياةِ المرءِ مِثْلُ قليلِها	يَزُولَ ، وَبَاقِى عُمْرِهِ مِثْلُ ذَاهبِ
إليْكَ ، . . فإنى لستُ ممن إذ اتّقى	عِضَاضَ الأَفاعِى نامَ فوْقَ العَقَاربِ
أتانِى وَعِيدُ (الأَدْعياءِ) ، وأنَّهُمْ	أعَدُّوا لِيَ السُّودَانَ فى كَفْرِ عاقبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِم لَحَذِرْتُهمْ	فَهَلْ فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهم غَيْرُ كاذِبِ
إلىَّ لَعَمْرِى قَصْدُ كُلِّ عجيبةٍ	كأَنِّى عجيبٌ فى عُيونِ العَجَائبِ
بأىِّ بلادٍ لم أجُرَّ ذُؤَابَتى ؟ !	وأىُّ مكانٍ لَمْ تَطَأْهُ رَكائبى ؟ !

ونفسُ الرجلُ فى القصيدة يدلُّ على أنه كان قد لقى كيداً فى سنته تلك من هؤلاء القومِ الأَدعياءِ (وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم إلى علىّ رضى الله عنه) . وبيّنٌ مما ورد فى شعر أبى الطيب أنه حين أزمع الرحيل من طبرية سنة ٣٣٦ ، أرصد له هؤلاء العلويون (الأدعياء) قوماً من السودانِ عَبيدِهم فى طريقه بكفْرعاقب ليقتلوهُ ، (١) فلم يظفروا بما أمّلوا ، وأحْفَظ ذلك أبا الطيب ، فلما دخل الرّملة كان ، على عادته كما سترى ذلك ، ثائراً لا يفتأُ يذكر ما يختلج فى ضميره ، لا يراعى ولا يُحابى ولا يتهيّب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله فى هذه القصيدة أيضاً :

إذا (عَلَوِيٌّ) لم يكنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إلاّ حُجَّةٌ للنّوَاصِبِ (٢)

ثم أجْرى هذا الأَمر مجرى المَثَل كعادته فقال :

---

(١) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن .

(٢) النواصب : هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، واحدها ناصى .

إذَا لمْ تكن نَفْسُ النَّسِيبِ كأَصْلِهِ فَمَاذَا الَّذِى تُغْنِى كِرَامُ المناصبِ !
وَمَا قَرُبَت أشْباهُ قومٍ أباعِدٍ ولا بَعُدَتْ أشْباهُ قَوْمٍ أقاربِ

والبيت الأخير هو حجتهُ فى نفى العلوية عنهم ، وإثبات أنهم أدعياء لا يمتُّون إلى الشرف بسببٍ ولا صلة . فلو كانوا علويين ، لاجرم ، لتشابهت الأخلاق فى الكرم والسموّ ، ولكانوا كهذا العلوىّ الذى يمدحه (طاهر ابن الحسن) .

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب ، قبل هذا بأيّام ، يقول للأمير أبى محمد بن طُغْج فى مديحه :

كريمٌ نَفَضْتُ الناسَ لَمَّا بلَغتُهُ كأَنَّهُمُ ما جَفَّ من زاد قادِمِ
وكادَ سُرُورى لا يَفِى بندامَتِى عَلَى تركِهِ فى عُمرِىَ المتقادِمِ
وَفارقتُ شرَّ الأَرْضِ أهلاً وتُربَةً بِها (عَلَوِىٌّ) جَدُّهُ غيْرُ هَاشِمِ

(وشرُّ الأرض) هى طَبَرِيّة التى كان بها قبل مقدمه إلى الرَّملة .

أو ماترى بعد أن فى تجنُّب المتنبى مدح العلويين ورجالهم وأئمتهم فى أول أمره وهو بالكوفة ، إلا واحداً كان رفيقَ صباهُ وأجد أسنانه ، ومن خير المفضلين عليه والمتعهديه فى محنته وفقره — ثم فى طلب الأمير منه أن يمدح طاهراً العلوىّ فيمتنع ويستعصى عليه حتى يكثّر عليه الأمير ويقول: «أنا أشتهى ذلك» ، فيقول أبو الطيب: «ما قصدت إلاّ الأمير ولا أمدح سواه » ، فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج منه وعده ، ثم فى إكرام العلوىّ له هذا الإكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه فى مرتبته وعلى سريره ، ولا يتورَّع المتنبىّ إذ ذاك

أن يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض ونفى النسبة الكريمة عنهم — ألا ترى أن هناك سرًّا من الحفيظة بينهُ وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفى ديارهم، ودرس فى مكتبهم، بين أولادهم ؟[١]

هذا، وسيأتى طرف من ذلك بعدُ، [٢] فترى أن أبا الطيب حين خرج فى أوّل أمره باللاذقية، كان الذى عذّبه وسجنه رجلٌ هاشمىٌّ أو علويٌّ هو (ابن علىّ الهاشمى)، وكان بكوتـكين، فجعل فى عنق صاحبنا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له :

زَعَمَ المُقيم بكُوتَـكِينَ بأنّه ... من آلِ هَاشمٍ بنِ عَبْد مَنافِ
فأجبته : مُذْ صِرْتَ من أبنائهم ... صَارَتْ قُيودُهُمُ من الصَّفصافِ

يسخَر منه، ومما أخذه به.

أفلو شككنا، من أجل هذا، فى صحة ما يقوله العلويون عن أبى الطيب، وتوقّفنا دون الأخذ بأقوالهم فى ترجمة الرجل، نكون قد أتينا أمراً كبيراً لا يقرُّنا أحد عليه ؟ لا أدرى !

رأيت قبلُ أنَّ الذى قال : إنّ والد المتنبى هو « عِيدَانُ السَّقّاء »، إنما هو أبو على المحسّن التنوخىّ، وهو من شيوخ العراق وأصحاب الوزير المهلبىّ، فزدْ على هذا أيضاً أَن المتنبى حين دخل العراق بعد فراق كافور، أعرض عن المهلَّبى، ولم يمدحه، ولم يبال به، فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب

---

(١) بل زاد الأمر على التعلم والنشأة وزادالعجب ! انظر ماسلف ص ٢٨، تعليق : ٢.

(٢) سيأتيك فى خبر نبوته أيضا بعد أنهم زعموا أن أبا الطيب ادعى أنه علوى حسنى، ثم ادعى النبوة ثم عاد يدعى أنه علوى. وسترى بطلان ذلك إن شاء الله، وتأويله عندنا على الرأى والنظر لا الرواية.

والأدباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن ينال أبو الطيب فى العراق ما نال فى الشام ، فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويعصف بذكرهم عند الملوك والأمراء ، كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشأم كأبى فراس الحمدانى، والسرى الرفاء ، وأبى العباس النامى ، وأبى الفرج الببّغاء ، وخلقٍ كثير من الشعراء . وقد هجم على أبى الطيب ووقع فى عرضه شُعَراء العراق حين أغراهم الوزير المهلبىُّ به حتى قالوا فيه :

أىُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلُبُ الفضْـــلَ من الناس بُـكْرَةً وعشيَّا
عَاشَ حيناً يَبيعُ بالـكُوفَةِ المَا ءَ ، وحِيناً يَبيعُ مَاءَ المُحَيَّا

فزعموا أنه هو الذى كان سَقَّاء لا أبوه ، وهاج هذا القول الحسن بن لنـكك شاعر البصرة ، وكان، كما كان الخالديان، (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إيّاه ، زاعماً أن أباه كان يسقى الماء بالـكوفة) ، فقال ابن لنـكك شماتةً حين رأى وقيعةَ شعراء بغداد فى الرجل :

قُولوا لأهْلِ زَمانٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ ضَلُّوا عن الرُّشْدِ من جَهْلٍ به وعَمُوا
أعْطيتُمُ المُتَنَبِّى فَوق مُنْيَتِهِ فزَوِّجُوه برَغْمٍ أُمَّهـاتِـكُمُ
لـكنّ (بغداد) جَادالغَيْثُ سَاكِنَها، نِعالُهم فى قفَا السَّقَّاء تَزْدَحِمُ

وقال أيضاً :

« مُتَنَبِّيـكُمُ ابْن سَقَّاء كُوفانَ . . . .

و نضحَ — بعد ذلك — إناء ابن لنـكك بما فيه.

فذكرُ المتنبى بالسوء وزعْمهم أن أباه كان سقاء ، من « مصنوعات »

العراق وتجارته التى كان المهلبى (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح ، فكم اتّجر صاحبنا المهلبىّ بالأكاذيب فى أيام وزارته ، كما روت التواريخ عنه وعن أيام أصحابه . وإلاّ فكيف (يصحُّ فى الأذهان) أن يقف ابن السقّاء ، هذا المتنبىء كما زعموا ، فى كل المواطن موقف المتعالى المتكبّر الذى لا يرى أحداً فوقه ، ولا أحداً مثله ، حتى سيف الدولة ابن حمدان ولىَّ نعمته ، وصاحبه ، ومُكرِمُه على حين مَساءةٍ من الزمن ؟! يا عجباً ! ! ألَمْ يكن فى مجلس سيف الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ، ويتصدّى له أبو فراس وهو ينشد فيجبهه ويقطعه عن الإنشاد ؟ يقول المتنبىّ فى هذا المجلس :

سَيَعْلمُ الجمْعُ ممَّن ضَمَّ مجلِسُنَا ... بأنَّنى خَيْرُمن تَسْعَى به قَدَمُ

أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبى ... وأسمعتْ كَلِماتى مَنْ بِهِ صَمَمُ

فانظر كيف فضَّل نفسه على من ضمَّ مجلس سيف الدولة وفيهم سيف الدولة نفسه ، ولم يزد أبو فراس — وهو قريع المتنبى فى الشعر وعدوُّهُ لمنزلته عند سيف الدولة — على أن قال له فيما قال : « ومن أنت يادَعِيَّ كندة » !! وفى قوله : « دعىُّ كندة » نَظَرٌ . فما نظنُّ الرجل ادّعى لكندة ، وأصحابنا يزعمون أنه كان يخفى نسبه ! وكان أولىّ بأبى فراس ، وأوقعَ فى المتنبى ، وأوضع له فى تِيهِه وتَعاليه على الأمراء والملوك وكبار الشعراء كأبى فراس نفسه — أن يقول له إذ ذاك : « مَن أنت ياابن سقاءِ كُوفَانَ » .. لو أنه كان علم ماعلمه التنوخىّ وأصحابه ، وشعراء العراق ، وشاعر البصرة الحسن بن لنكك ، الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلّبى وزير معز الدولة أحمد ابن بويه (الديلمىّ) عَدُوِّ بنى حمدان ، وفى رأسهم سيف الدولة (العدوىُّ العربىُّ).

أترى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذِكْرِهم ، ولم يُعْفِهم من ذمّه لهم في شعره ، كانوا لا يتقصَّوْن خبر الرجل وقد استفحل أمره بينهم ، فيعلموا أنه كان (ابن سقَّاء) فيلمزوه بذلك ، ويستخفُّوا به ، أو يعبثوا به ويتنادروا عليه ؟! وهذا ابن السقّاء يتحدّاهم ويتحدّى سيف الدولة نفسه ، وأبو فراس قريبه وعدوُّه في المجلس إذ يقول :

كَمْ تَطْلُبُونَ لنا عَيْباً فيُعْجِزُكُمْ ويكْرَهُ اللهُ ما تأتون والكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ العَيْبَ والنقْصانَ من شَرَفي أنا الثُّرَيَّا ، وذَانِ الشيبُ والهَرَمُ

أئِنَّهم ليطلبون له عيباً فيعجزهم الطلب ، ويكون متعالماً في العراقِ بعدُ أن الرجل ابن سقاء كان يسقي الناسَ على بعير له بالكوفة ! !

اقرأ ديوان الرجل كله ، تجده تيّاهاً يتسامى بنفسه على كلّ ممدوحٍ ، ويتعالى على كلّ أهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سُخْريته وهو قد قطع أرزاقهم ، وألْوَى بهم وبذكرهم ، وكلامه كلام الواثق الذي لا يدخله الشكّ ، ولا يروِّعه الكذب ، ولا يردُّه الافتراء ، فلو كان في نسب الرجل ، إذ ذاك ، مطعنٌ لطاعن ، أو في أصله تُهَمَةٌ لمتّهم ، لتردَّد في قوله تردُّدَ الحيران ، ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والهمهمة والتلفيق والدسّ عند الأمراء ومن إليهم من رجال الدولة . ولو كان في نسب الرجل شيء ، لسمعتَ عند كل موضعٍ من فخره في شعره نادرة يتناقلها الأدباء ، وغمزةً قد غمزه بها أنداده وأعداؤه من الشعراء . ألم يسمع هؤلاء إلى قوله في فخره :

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرُفُوا بي وبنفسي فَخَرتُ لا بِجُدُودِي
وبهمْ فخرُ كُلِّ من نَطَقَ الضَّا دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ

فهذا من أكبر الفخر ، فما من قوم يفخر بهم « كلّ من نطق الضاد » غير أبناء على رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول يرثى جدته وقد ماتت بالكوفة ، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة حيث نشأ وعُرِفَ :

وإنّى لَمِنْ قَومٍ كَأَنَّ نفوسَهُمْ بِها أَنَفٌ أن تسكنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبرٌ واحدٌ يُطْعَن فيه الرجل بأنه ابن سقاء ! وما يكون لابن سقاء أن يقول مثل هذا ، ويكون كل ما وصلنا من خبر أبيه إنما وصل فى خبر دخوله بغداد فى آخر عمره ، ومن رجالٍ بينهم وبين الوزير المهلبى آصرة مودّةٍ وتنادُمٍ ، أو شعراء آسَدَهم هذا الوزير المهلبى وأغراهم بالرجل ، حتى وقعوا فى عرضه ، ووَلغوا فى شرفِ نسبه ، وجودة قريضه وبيانه !! إنّه العجَبُ وما فوق العجبِ !

فَوَا أَسَفا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً
لِرأسِكِ والصدرِ اللّذَا مُلِئا حَزْمَا
وألاّ ألاقى رُوحَكِ الطيّبَ الذى
كأنَّ ذَكِيَّ المسْكِ كان له جِسْمَا
ولو لم تـكونى بِنْتَ أكرَمِ والدٍ
لـكان أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لى أمّا

هما، ولا غيرُهما، . . . أبوه الذى كان سقّاء، زَعَمُوا، يسقى على بعير له بالـكوفة، « وكان جعفيًّا صحيح النسب ... »، وجَدّته، « وكانت همدانية صحيحة النسب لا يُشكّ فيها، وكانت من صلحاء النساء الـكوفيات ». هما ولا غيرهما، أصلهُ وفَرْعهُ، وقديمه وحديثه، وعشيرته وأهله، وعَصَبته وقومُه، والقائمون بأمره فى أوّل حداثته، لا عمٌّ ولا خالٌ !!

أمّا أمُّهُ فقد جهدتُ أن أجدَ لها خبراً واحداً، أو ذكراً فى كلام، فما وصلتُ. أمّا ما يزعم بعض الـكتاب والأدباء من أنه أراد أمَّهُ بقوله وهو فى السجن، وقد كتب به إلى الوالى:

بِيَدِى أيُّها الأميرُ الأريبُ   لَا لِشَىءٍ إلاّ لِأنّى غَرِيبُ
أوْ (لأُمٍّ)، لَها إذا ذكرتنى،   دَمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ

فليس عندنا بشىء، فإنه كان يسمى جدّته (أمّه)، وقد جاء ذلك فى قصيدته التى رثاها بها فقال:

وَلَوْ لم تـكونى بِنْتَ أكرمِ والدٍ ... لـكانَ أباكِ الضَّخمَ كَوْنُكِ لى(أُمّا)

ومن قرأ قصيدته هذه وتدبَّرها ، وقع فى قلبه اليقينُ أنه لم تعطفه عاطفةٌ إلى أحدٍ من أهله ، (ولا نستثنى أباه السقاء !!) ، إلاَّ أن تـكون هذه الجدَّةَ الـكريمةَ التى حملته صغيراً وثـكلته شابًّا بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابُه وهو متوجِّهٌ إلى العراق (ولم يمكنه دخولُ الـكوفة على حالته تلك ! !) أو كما قالوا . . . . وفى قصيدته هذه إشارة دقيقة بليغةٌ مقدَّرةٌ ، يشير بها إلى أن أُمّه قد ماتتْ وهو صغيرٌ ، فـكفلته جدَّته العجوز رحمها الله،(١) وذلك فى قوله :

طَلَبتُ لهـا حَظًّا ففاتَت وفاتَنِى ... (وقد رَضِيَتْ بى،لَوْرَضِيتُ بها ،قِسْما)(٢)

فتدبر الشطر الأخيرفضل تدبر ، تجد المعنى الذى أردناه من أن أمه ماتت وهو صغير ، فـكان مما (قُسِمَ) لجدته أن تحضنه ، فرضيت بذلك رضىً خالصاً ، وأحبته حبًّا عظيماً ، يقول فى الدلالة عليه :

لَكِ اللهُ مِن مَفْجوعَةٍ بحبيبِها ... قَتيلةِ شَوْقٍ غيرِ مُلْحِقِها وَصْمَا

وفى تسميته جدته (أُمًّا) بعضُ الغنى فى الحجة المرَجِّحة لقولنا هذا .

شهد التنوخى أو أبو الحسن العلوى ، أو من تشاء ، لجدّة المتنبى أنها كانت من « صلحاء النساء الـكوفيات » ، ولعلَّ هذا أمرٌ لا ريب فيه ، وإن

---

(١) كان هذا الذى قلته ظناً ظننته ، ثم جاء النص على ذلك فيما حدثنا به ابن العديم ، عن الربعى ، أن المتنبى أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، فدل هذا على أن أمه ماتت قبل أن يتم رضاعه ، أو لعلها ولدته ثم ماتت فى ولادها ، ولم ترضعه قط .

(٢) القِسم بالـكسر النصيب ، وقد مضى الشراح من أصحابنا ولم ينظروا فى قوله (لو رضيت) . فاعلم أن (لو) فى هذا البيت إنما تفيد الأسف والحسرة ، وهما وجه من وجوه التمنى ، وللبيت موضع آخر من مقالنا هذا نتولى فيه شرحه ، فقد أفسده الشراح .

لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك ، فإنها هي التي تولّت تنشئة المتنبي من صغره ، حتى كَبِر، وقد شهد له أكثر أهل عصره حتى أعداؤه : أنه كان كما قال على ابن حمزة البصريّ (راوية المتنبي : كما سماه أهل المغرب) :[١]

« بلوتُ من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كَذَب ولا زنى ولا لاط » ، وقال ابن فُورَّجَه : «لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلاّ بخله وشرهُه على المال » .

وقد كان أثر جدَّته بيِّناً في أوّل شعره كما سترى ، وقد ذكر المتنبي خُلُقه في أبيات لهُ ، منها قوله :

وترى المُرُوَّةَ والفُتوَّةَ والأبوّ ةَ فيَّ كلُّ مليحةٍ ضَرَّاتِها
هُنَّ الثلاثُ المَانِعاتِي لَذَّتي في خَلْوَتي لا الخوفُ من تبِعاتِها

فلا شكَّ أن أكثر ذلك من أثر جدَّته ، وزكاء نفسها ، وصلاح قلبها .
وقد وصفها المتنبي فجمع ما شاء ودلَّ عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال :

فَوَا أسفَا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً لرأسِكِ والصَّدرِ اللَّذا مُلِئا حَزْما
وَألاّ ألاقِيَ رُوحَكِ الطَّيِّبَ الذي كأنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كان له جِسْما

ويبدو لنا أن هذه العجوز الحازمة التي بيَّنت للمتنبي أمره ، ومهَّدت له طريقه ، كانت مع حزمها وهَدْيها ، وبصيرتها ، رقيقةَ القلب تكاد تنخلع من نفسها إذا أعطت عواطفها قِيادها . ومع ذلك فقد كانت تحزم أمرها ، وتقسو

---

(١) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصقلية ، ولما دخل المتنبي بغداد كان بها على بن حمزة فنزل المتنبي في داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله في المتنبي لموضعه من الكلام إن شاء الله .

على نفسها ، حتى يخيَّل لمن لم يخبُرها أنها لا تعطى القادة لشيء إلاّ للعقل والتدبيرالمُحكم . وفى الذى روَوْا من خبر وَفاتها ،دليلٌ بينٌ على ذلك ، فإنها كتبت تشكو إلى ولدها وحَفِيدها شَوْقَها ولَوْعتَها وطولَ غيبته عنها ، فلما توجَّه إلى العراق (من الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !! » ، انحدر إلى بغداد ، وكتب إليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد ، فلما أخذت كتابه « قبّلته وحُمَّت لوقتها ، وغلبها الفرح فقتلها » ، رحمة الله عليها . وقد وَرِث المتنبي عنها هذا ، فقد كان مع ما يبدو من شدّته وصولته وجُولته ، متهالكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلمُّ بقلبه . وفى رثاء جدته بلاغٌ لك ، إن تدبرته . وسترى ذلك أيضاً فى آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة ، وعن أمره مع النساء ، أو مع المرأة التى أحبَّها فهلكتْ ، ثم أهلكهُ على إثْرها جوًى داخلٌ وأسًى دَفينٌ .

- ٣ -

لاَ بِقَوْمِي شَرُفتُ بَلْ شَرُفُوا بِى
وَبِنفسِى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى..
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا
دَ وَعَوْذُ الجانِى ، وغَوْثُ الطَّريدِ

* * *

وَإِنِّى لِمَنْ قَوْمٍ كأَنَّ نُفُوسَهُمْ
بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

ندعُ الآن أمرَ جدَّته إلى حِينه ، إن شاء الله ، فى كتابنا عن المتنبىّ ، ونبدأ برأى لم نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن . . .

رَوى الأصفهانىُّ أن المتنبى ، وهو ابن السقاء !! ، « اختلف إلى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العَلويَّة) شعراً ولغةً وإعرابًا ، فنشأ فى خير حاضرة »[1].

وتأويل هذا ، أن العلويين ، وهم « الأشراف» ، كما يتضح من هذا النص، كانت لهم مكاتب خاصة يتلقَّى فيها أولادهم مبادىء العلوم . ولا شك أن العلويين كانت ، ولا تزال ، لهم مدارس خاصة بهم ، تقوم أصولها فى التعليم

(١) الواضح فى مشكل شعر المتنبى : ٦/ والخزانة ١ : ٣٨٢ ، ويخيل إلى أن صواب هذه العبارة : « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً »

على أصل اعتقادهم . وقد مرّ بى فى قراءتى كثير من ذلك لا أذكر موضعه الآن ، وإنما أذكر أن الشريف الرضىّ كانت له مدرسة سماها (دار العلم) . ونحن وإن لم نك نعلم نظام هذه المدارس العلوية ، إلا أنه يتبادر إلى الفهم أن هذه الكتاتيب والمدارس كان لا يدخُلُها إلا أبناء العلويين ، ونصُّ الأصفهانى يقول بذلك . فدخول « أحمد بن عِيدَان السَّقَّاء » ، الذى هو المتنبى ، بين أبناء العلويين فى كتّاب لهم ، غريب عجيب ! فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أنّ بين جدة المتنبى وبين العلويين سبباً موصولاً قوياً ، هو الذى شرح صدورهم وأرضاهم أن يدخلوا بين أبنائهم غلاماً كان أبوه سقاءً فى بلدهم.[1]

هذه واحدة من علاقة أبى الطيب وجدّته بالعلويين . ثم إنّ أبا الطيب فارق جدته ورحل لغير سبب معلوم إلى البادية ، ثم عاد إلى الكوفة شاعراً قوّالاً ذا لسان ، فلم يمدح إلّا « محمد بن عبيد الله المشطّب العلوى » ، الذى قدمنا ذكره وذكر السبب فى مدحه ،[2] ولم يمدح أحداً من العلويين قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلوّ مرتبتهم ، وخلوص عربيتهم،[3] فى عصر اختلطت فيه الأمور ، وصارت الشوكة إلى الأعاجم .

فلما خرج صاحبنا إلى الشام ، ذكروا فيما ذكروا من (أمر الفضول الذى نُبِزَ به ، يَعْنُونَ النبوّة) : أنّه ادّعى العلويةَ مرّتين ، أى ادّعى أنه علوىٌّ صَلِيبةً ، وكان الذى قبض عليه هناك وعذبه وسجنه (ابن علىّ الهاشمى) أو :

---

(١) قد برح الخفاء الآن، فلا عجب . فالمتنبي إلا يكن علوى النسب ، فإنه أخو العلويين من الرضاعة ، لأن امرأة علوية من آل عبيد الله ، هى التى أرضعته . انظر ماسلف ص : ٢٨ ، تعليق : ٢ ، ثم ص : ٣٨ ، تعليق : ١

(٢) انظر ص : ٢٨ ، تعليق : ٢ ، ففيه نسبه إلى « آل عبيد الله » .

(٣) والمتنبى كما تعلم ، كان من أكثر أهل عصره تمجيداً للعربية وتعصباً لها .

العلوى ، لا أدرى . وكان إذ ذاك باللاذقية سنة نَيِّفٍ وعشرين وثلاثمئة ، واللاذقية يومئذٍ دارٌ من ديار العلويين ، يربض فيها رؤوس من الدُّعاة العلويين .

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، وأراد الخروج إلى الرملة ، أرصد لهُ العلويون قوماً من عبيدهم السُّودان ليقتلوهُ ، ولكنه فاتهم بحيلته ودهائه ، ودخل الرَّملة يمدحُ الأميرَ أبا محمد الحسن بن عبد الله بن طُغْج ، فكان مما قال فى قصيدته : [انظر ماسلف ص : ٣٠]

وَفارقتُ شَرَّ الأَرض أهلاً وتُرْبةً بها (عَلَوِيٌّ) جَدُّهُ غيرُ هاشمِ

ثم كان ما روينا لك من امتناعه عن مدح العلوىّ (أبى القاسم طاهر ابن الحسن بن طاهر) ، ولم يمدحه إلاّ بعد إلحاح الأمير وتدنّيه فى السؤال منه ، وكان مما قاله أبو الطيب فى هذا المدح : [انظر ماسلف : ص ٣٠]

أَتَانِى وَعِيدُ (الأدعياء) ، وأنّهم أعدُّوا لِىَ السُّودَان فى كَفْرِ عَاقِبِ
ولَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُم فَهَلْ فِىّ وَحْدِى قَوْلُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

ثم انتزع من ذلك أمثالاً فى النِّسْبة إلى العلوية المكرمة فقال :

إِذَا لم تكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ فَمَاذا الّذِى تُغْنِى كِرامُ المَنَاصِبِ؟
وَمَا قَرُبَت أشباهُ قَوْمٍ أباعِدٍ ولاَ بَعُدَت أشْباهُ قومٍ أقاربِ
إذا (عَلَوِىٌّ) لَمْ يكن مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُو إلاَّ حُجَّةٌ للنَّوَاصِبِ

فلما دعتْهُ جدَّتُه إلى العراقِ أن يزورها ، قصدَها ، والنصُّ الذى ورد فى ذلك هو هذا : « فتوجه نحو العراق وَلَمْ يُمَكِنْهُ دُخول الكوفة (على حَالَتِه

تلك) ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدّته (قَدْ يَئِسَتْ منه) ، فكتب إليها كتاباً يسألُها المسيرَ إليه . . . » . وهو نص غريب كما ترى !! وليت شعرى وشِعْرَك ما الذى أرادوا بقولهم : « لم يمكنه دخول الكوفة على حالَتِه تلك » ، وهو قد أتاها قاصداً دُخُولها ، ورؤية جدّته التى تحبه ويحبُّها ، ويقطع صاحبنا الأَرض من أقصى الشَّام إلى أسْفَلِ العراق ودخولُ الكوفة همُّه ، ثم يمتنع من دخولها لغير سببٍ مذكور أو معقول !! إذن فلا مناص من القول بأنه قد مُنع من دخول الكوفة ، وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النص الغريب .

فإن صَحّ أيضًا ما أسنده التنوخى ، (وذلك ما أوردناه فى أول كلامنا ص : ١٤، ١٥) ، إلى أبى الحسن العلوىّ وابن أمِّ شيبان الهاشمى، وهما كوفيان ، وأن ذلك من كلامهما ، كثرت الأدلة التى تُوَجِّه الحَدْسَ والظنَّ إلى وجهٍ بعَيْنِه ، وذلك أن بين المتنبى والعلويين سببًا مجهولاً حملهم أوّلَ أوّلَ إلى إكرامه بدخوله بين أبنائهم فى كُتَّابهم بالكوفة ، ثم حملهم بعدُ على النية المعقودة للفتك به فى الشام ، ثم حملهم على منعهِ من دخول الكوفة ليرى جدّته العجوز التى أرسلت إليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك فى هذا يقينًا وعليه اعتماداً ، رثاء المتنبى لجدّته ، ففيه لطائف من الإشارة نكتفى بذكر البيّن منها هنا ، ثم نعود إليها بعد قليل . يقول المتنبى :

هَبِينِى (أخَذْتُ الثَّأْرَ فيكِ من العِدَى) فكيفَ بأَخْذِ الثَّأْرِ فيكِ من الحُمَّى

ثم يقول :

لئن لَذَّ يَوْمُ (الشَّامِتين) بيوْمِها لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لِأنفُهِمْ رَغْمَا

فقد أثبت أبو الطيب أن لجدته ثُمَّ له أعداء ، كان همُّهُ كلُّهُ أو أكثرهُ أن

يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وأن هؤلاء الأعداء قد شمتوا بموتها يوم ماتت . فهذه الجدّة الصالحةُ العجوزُ قد اتخذت لنفسها أعداءً يُرْضُون أنفسَهم بالشماتة ، وهؤلاء الأعداء ، ولا بُدَّ ، كانوا من الكوفة ، والأرجح أنهم كانوا من العلويين ، والهاشميين ، لما رأيت قبلُ من الصلة أو العداوة القائمة بينهم وبين أبى الطيب المتنبى .

* * *

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبي كان من أبناء العلويين ، فإن هذا يفسِّر كل غموض فى حياة الرجل ، وفيما روى عن نسبه من الملفَّقات . وحسبى هنا أن أمُرّ بك مرًّا على مواضع بعينها ، لترى رأيك ، وفقك الله ، فيما أردنا من القول به ، فإن رأيت حجتنا ساقطةً فأسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فإن رجَّحتَ مانقول به ... فأنْ نَدْعُوَ النَّاسَ لآبائهم أقْسَطُ عِنْدَ الله .

* * *

وضع القضية عندنا هو هذا :

تزوّج رجلٌ من العلويين ، ولاَ جرم أن يكون من كِبارهم ، بنت جدة المتنبى ، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عِيدَان السَّقَّاء) ،[1] ولأمرٍ ما أريد هذا الرجل العلوىُّ على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويُّون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت إلى أمِّها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً أهلكها ، فاستلَّها الموت وذهب بها ، وبقى الطفل فكفلتهُ جدَّتهُ وتعهدته وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلّته على الطريق بعد

(١) يمكن أن يكون « عيدان السقاء » هذا جده لأمه .

أنْ صرَّحت لهُ بحقيقة أمره ، وصحيح نسبته ، وكان من حزمها أن حذّرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه ، وأخذت عليه المواثيق والعهودَ ، بحبها له وحبِّه لها ، وأنه إن فعلَ كان فى ذلك هلاكُها وهلاكُه ، فبقى على ذلك متململاً حتى كان من أمره ما كان من ادِّعائه العلوية بالشأم ، فقبض عليه ، فاضطرَّ إلى الإخلاد والتسليم ، وحرص على أن يطيع أمر جدّته ، بعد أن علم حَزْمها وصوابَ رأيها ، وإخلاصَها له المشورةَ ، ومَحْضَها له النصيحةَ .(١)

* * *

وهذا الوضعُ لقضية المتنبى هو الذى يفسِّر لك طولَ تكتّم المتنبى على نَسَبه ، وإخفائه جُهْدَه من أصحاب الألسنة المتنقلة بين الرجال ، ويفسِّر أيضًا مخرج قِصَّة (أبيه السَّقَّاء) ، وحرصَهُمْ على حبكها ، والتقديم لها بلطيف القول ، وحَسَن العبارة ، كما رأيت فى أول كلامنا (ارجع إلى نقدنا لكلام التنوخى) — ويأتيك بالدَّليل البيّن فى أمر دُخُوله كتّاب أشرافِ العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية — ويُبينُ أيضًا عن السبب الذى من أجله سكت المتنبى عن مدح العلويين وعظمائهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة ، ثم تأبّيه على مدح أبى القاسم العلوىِّ صاحب الأمير ابن طغج حين كان بالرملة ، ثم ما كان قبلُ من إرصَادِ العلويين له عبيدَهم لقتله بكفر عاقب . وكفاك هذا ، فإنا سَنَبْنى بقية كلامِنا عن المتنبى مِن أوّل أمره على هذا الاسِّ أو ما يقرُبُ منه . وبحسبك هنا أن نفسِّر لكَ بعض المعانى فى رثاء جدته على هذَا الأصل . ونص مقدِّمة رثاء جدّته هو هذا :

---

(١) سأذكر فى آخر هذا الفصل (ص : ٥٢) قصة تشبه قصة هذه القضية ، وهى زيادة لم أذكرها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

« وردعلى أبى الطيب كتابٌ من جدّته لأمه تشكو شوقَها إليه ، وطولَ غيبته عنها ، فتوجَّه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدَّته قد يَئِست منه ، فكتب إليها كتاباً يسألُها المسيرَ إليه ، فقبَّلت كتابَهُ وحُمَّتْ لوقتها سُروراً به ، وغَلب الفَرحُ على قَلْبها فقتلها » .

وتأويل هذه العبارة كلها : أنه حين ورد عليه كتاب جدَّته أزمع الرحيل من الشأم إلى الكوفة ليلقى بها جدته ، فبلغ الخبرُ مَشْيَخَةَ العلويين ، فذهب بعضهم إلى جدته ، وأبانوا لها سُوءَ رأيها ، ونَهَوْهَا أن يكون لقاء ولدِها من همّها ، وأخبروها أنهم قد أجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من أمره وهو بالشام ، من إظهاره العلويَّةَ ، ورغبتِهِ فى تحقيق نسبته إلى العلويين . فلما فَجئَهم الخبرُ بورُود صاحبهم «المتنبى» على طرَف الكوفة، خرجوا إليه وأنذروه أن يكون ذلك من إرادته بعد فُضُولِه فى الشام ، وأمروه بالانحدار إلى بغداد ، ورجعُوا إلى جدّته فأيأسوها من لقائه بتًّا . فلما استقرّت بالمتنبى بغدادُ ، وزاد شوقُه إلى جدته ، وبكى من خِيفته عليها ، حمله ذلك على الكتابة إليها ، بعدَ أن لم يجد عن ذلك محيصاً فى نفسه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ببغداد ، ففرحتْ العَجُوز فَرَح اليائس من أمرٍ ، ثم أتته البُشرى بالظَّفر من وجْهٍ آخر ،فاشتَدَّ ذلك عليها واستبدّت العواطف المعتلجة المتنازعة المتضادة بذلك البُنْيان المهدّم الضعيف ، فانقضَّ بعضه على بعضٍ ، فماتت رحمةُ الله عليها ، وأثابها بما صبرت .

فلما ماتت المسكينة ثارت نفسُ الرجل ثورة اليأس ، وخاف أن يستعلن للعلويين بالعداوة وهو ببغداد : أنْ يقتلوه من أجل ذلك ، فأضمر مافى نفسه ،

وأشار إلى هذه المعانى من طَرْفٍ خفىّ . ويحسن أن نذكرَ هُنا أن المتنبى خرج آخرَ مرةٍ من الكوفة مُرْغَماً على ذلك الخروج . وهذا أمرٌ طبيعىٌّ إذا صَحّ القولُ الذى نقول به . فانظر الآن ماذا يقول الرجل فى رثاء جدّته :

بَكَيْتُ عليهاَ خِيفةً فى حَيَاتِهاَ وَذَاقَ كِلاَنا ثُكْلَ صَاحِبه قِدْمَا

وقد شرح الشرّاح هذا البيت ، وأداروا معانيه ، ولكنه بقى فى شرحهم لا معنى له ، كقولهم : « وكنت أبكى عليها فى حياتها خوف فَقْدها ، وفرّقت الأيام بينى وبينها ، فذاق كلانا ثُكْلَ (فقدَ) صاحبه قبل الموت » ، فالعطف فى الذى قالوا به « وفرقت الأيام » لامعنى له هنا ولا فائدة منه . وتفسير البيت هذا :

لما أيأسوها من لقائى ، وقد منعونى من دخول الكوفة ، علمتُ يقيناً أنها ستحمل ثِقْلاً يهدُّها ، فبكيتُ خِيفةً عليها من أثر الحزن فيها ، ومايبكينى أن لا ألقاها ، وكيف أبكى لذلك (وقد ذاق كلانا ثُكْلَ صاحبه قديماً) ، بالفراق الذى حُمِلنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيتُ للفراقِ الذى كان بيننَا بمنزلة الموت ، فعدَّتنى هى قد مِتُّ ، وعدَدْتُها قد ماتت (وهذا تأويل قوله : وذاق كلانا . . .) ، أى ثكلتنى وثكلتُها .

ثم يقول بعدَ أبياتٍ :

طَلَبْتُ لها حَظًّا ، ففاتَتْ وفَاتَنى ، وقَدْ رضيتْ بى ، لورَضِيتُ بها ، قِسْمَا[1]

---

(١) تفسير البيت عند الشراح هو هذا : فارقتها لأطلب لها حظاً من الرزق ففاتتنى هى وفاتنى هذا الحظ ، وقد كانت راضيةأن أكون قسما لهامن الدنيا ، لو رضيتها قسما لى (والقسم النصيب) ، وقد كنت أطلب من الرماح أن تسقينى دم الأعداء ، فلما ماتت تركت الحرب وجداً عليها ، وصرت أطلب من السحاب أن يسقى قبرها — أو كما قالوا !! فانظر هذا التفسير ، واقرأ تفسيرنا .

فَأَصْبَحتُ أَسْتَسْقِي الغَمامَ لِقَبْرِها ... وَقَد كُنْتُ أَسْتَسْقِي الوَغَى والقَنَا الصُّمَّا

ومعنى البيتين عندنا: كانت العجوز رضى الله عنها قد رغبت إلىّ أن أكتم أمر نسبتى العلوية إلى أن يشاء الله ، ولكنى خالفتها ، وآثرت فراقها لعلّى أصيب بعيداً عن الكوفة مالم أدركه بها ، فخرجت أطلب لها (حظًّا) ، أى فضلاً وخيراً فى ردّ شرف انتمائنا إلى العلويين ، ولكن شاء ربُّكَ أن تفوتنى بها الأَحْدَاثُ فتموت ، ويفوتنى أيضاً بعد موتها ذلك الحظُّ ، لما أعلَمُ من أنها كانت هى السببَ فى امتناعهم عن الفتك بى إن حاولت أمراً ، فواحسرتاه! لم خالفتها ، وخرجت أطلب لها هذا الحظّ ، وقد رضيتْ بى قسْماً وحظًّا ونصيباً ، وجعلتْ ظفرها بى عِدْلاً لما فاتها من الحظ الذى كنت أطلبه لها ؟ فياليتنى رضيت بها كما رضيت بى ،[1] وجعلتها عِدْلاً لما فاتنى من هذا الحظ . وعلى هذا الأصل يكون معنى البيت الثانى واضحاً بيناً فهو يقول : كنت أريد القتال والحرب لأشفى بالدم المهراق غليلها ، وأردّ عليها حياتَها فى شرف نسبتنا إلى العلوية ، فالآنَ وقد ماتت وفاتت ، لا حيلة لى إلاَّ أن أسأل الله أن يبرِّدَ قبرها مما يُدِرُّ عليها من ماء الغمام . ثم قوله :

هَبِينى أخذتُ الثأرَ فيكِ منَ العِدَى ... فكَيْفَ بأخْذِ الثأرِ فيكِ من الحُمَّى
لَئِنْ لَذَّ يومُ الشَّامتين بِيَوْمِها ... لَقَد وَلَدَتْ مِنِّى لِآنُفِهِمْ رَغْمَا[2]

وقد مضى بعض القول فى هذين البيتين ، (ص : ٤٤) ولكن بقى أن نقول : إن هؤلاء الأَعْداء والشامتين كانوا من أشراف الكوفة ، لما رأيت أولاً ، إذ لا يعقل أن يكون غير ذلك ، لا يُعْقَل مثلاً أن يكون أولئك الأعداء والشامتُون من طبقة السَّقائين والنسَّاجين ومن إليهم ! ولو كان ذلك كذلك ، لما

---

(١) اعلم أن (لو) فى بيت المتنبى معناها التمنى والأسف والحسرة .
(٢) الآنف ، والآناف ، بالمد ، والأنوف جمع « أنف »

حَفَلَ المتنبّي بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رَغماً لأنوفهم ، وهو مَنْ هوَ في الكبرياء والتسامي والغلوّ في الترفُّع والعظمة .

وعلى عادته أتى في القصيدة بإشارة عجيبة ، هي من باب التفاتِ القلب إلى ما يَلج فيه من الرأى المُضْمَر ... يقول :

فوَا أسَفَا ألاَّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً لرَأْسِكِ والصَّدْرَ اللَّذَا مُلِئَا حَزْمَا
وألاَّ ألاَقِي رُوحَكِ الطَّيِّبَ الّذِي كأنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمَا

ثم استيقظت في قلبه تلك الثورة العجيبة التي أصبحت طابع شعر الرجل كله ، فانفتَلَ من معاني الحنان والرقة إلى معاني القسوة والعتوّ ، فقال :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بنتَ أَكْرَمِ وَالدٍ لَكان أبَاكِ الضخمَ كَوْنُكِ لي أُمَّا
لَئِن لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِين بِيَوْمِها لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك: « هبيني أخذت الثأر من العدى » فصرخ صرخته هذه ، فكأني به يقولُ : أبعدوك ونفوك ، فما يضير نفيهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية !! ولا تأسَيْ ولا تحزني ، فإنك قد ولدتني ، وكفاكِ شرفاً أن تكوني لي أمًّا ، فإني مُرْغِمٌ أنوفهم ، وحاملهم على خُطَّة الخَسْفِ حتّى يُعْطوا المَقَادة وهم صاغرون . فعلى هذا فسر قوله :

وَإِنّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا
كَذَا أَنا يَادُنْيا ، إذَا شِئْتِ فَاذْهَبِي ، ويَا نَفْسُ زيدى في كَرائِهها قُدْمَا
فَلاَ عَبَرَتْ بي سَاعةٌ لا تُعِزُّنِي ولا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

وقوله :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ ، بَل شَرُفُوا بِي ، وبنَفْسِي فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِي

وَبِهِم فَخرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ ، وعَوذُ الجانى، وغَوْثُ الطَّرِيدِ

ونخر من نطق الضاد ، هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله أيضاً :

ولـكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بذُبابِهِ[1] ومُرْتَكِبٌ فى كلِّ حَالٍ به الغَشْمَا
وَجَاعِلُه يَوْمَ اللقَاء تَحِيَّتِي وَإلاَّ فَلَسْتُ(السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا)[2]

ثم فسر على هذا الأصل قوله أيضاً ، وقد جعل قوم يستعظمون ماأتى به فى رثاء جدَّته :

يَسْتَعظِمون أُبيَّاتاً نَأَمْتُ بها ، لاتَحْسُدُنَّ، على أن يَنْأَمَ،الأسَدَا[3]
لَوْ أَنَّ ثَمَّ قُلوباً يَعْقِلُون بها أنساهمُ الذُّعْرُ مِما تحتها الحَسَدَا

وتدبر قوله : (لا تحسدُنَّ) ولو كان غيرُ المتنبي — هذا الموتورُ صاحبُ الثأر عند هؤلاء القوم — لقال : (لا تعجبنَّ) أو ما يقرُب من ذلك .

ونحنُ لو شئنا أن ننقل لك هُنا ونُفَسِّر كل شيء يدُلُّ من قريبٍ أو بعيدٍ على ما نذهبُ إليه ، لـكلَّفنا ذلك أن نشرح لَكَ أكثر ديوان المتنبي ، ولـكن بقيتْ أشياء ننبّه إليها . لوأنت قرأتَ ديوانَ الرجل لوقعتَ على كثيراتٍ من أمثالها . وذلك كقوله بعد وَفاة جدَّته ومَرْجِعِه إلى الشام:

سَأَطْلُبُ(حَقِّى) بالقَنا ومَشَايخٍ كأنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَاالْتَثَموا مُرْدُ

فقوله : (حقّى) ، لا يقع هذا الموقع من شعر إلاَّ من أَحَدِ رجلين : رجلٍ دَعِيٍّ طويل الباع واللِّسان فى الدعوى والـكذب ، أو رجلٍ صادقٍ

(١) يعنى سيفه و « ذبابه » ، حده
(٢) «القرم » بفتح وسكون ، السيد المعظم المـكرم الذى لايذل لشىء
(٣) النئيم : زئير الأسد .

لا يكذبُ عَلى نفسه ولا على الناسِ ، وليس المتنبي بأولهما . إذن فقد كان له حقٌّ يطلُبه بالحرب وهو الذى سَمّاهُ « حظًّا » فى رثاء جدّته ، وإنما خفف « الحق » فى الرثاء وجعله « حظًّا » لما أشرنا إليه من قبل . ومثل هذا قوله لكافور :

فَارْمِ بِى حَيْثُ شِئْتَ مِنِّى فإِنِّى أَسَدُ القَلْبِ آدَمِىُّ الرُّوَاءِ
وَفُؤَادِى مِنَ (المُلوكِ) ، وإن كا نَ لِسَانِى يُرَى من الشُّعراءِ

فلا عَجَب بَعْدُ فى فخر المتنبي وتعاليه وتعاظُمه ، فكلٌّ مفسَّرٌ بيِّنٌ واضحٌ العِلّة والمعنى على هذا الأصل ، وكان عجباً عاجباً عند الناس أن تبلغ الحماقة بابْن سقاء ، أن يفخَر مثل هذا الفخر ويتعاظم على الملوك مثل هذا التعاظُم ، وذهبوا فى تأويل ذلك مذاهبَهم . ولعلّ هذا ، إن شاء الله ، هو المذهبُ الحقُّ .

* * *

أحبُّ أن أختم هذا الفَصْل ، بقصّة اخترتُها من بين أشباهٍ لها ، وهى قصة أبى جعفر المنصور ، ووَلدٍ كان له من إحدى بنات دهاقين الأهواز ، حيث كان مستتراً قبل توليه الخلافة . وقد زدتُها على أصل الكتاب ، لأنى آثرتُ أن لاَ أغيِّر شيئاً من سِياق الكتاب ، كما كتب منذ أربعين سنة . وهذه القصة ، شبيهةٌ بالقصة التى افترضْتها آنفاً فى مولد « المتنبي » ، وأنّ أباه كان رجلاً علويًّا ، فتزوّج امرأةً ، ثم حيل بينَهُ وبين إظهار نسب ولدِه إليه ، لسببٍ من الأسباب التى توجب الكتمان إلى حين . ونقلتها من كتاب « الوزراء والكتاب » للجَهْشَيارىّ ، [توفى سنة **٣٣١** من الهجرة] ، وهى فى كتابه ص : **١٢١ — ١٢٣** ، قال الجشهيارى :

لما كان [أبو جعفر] المنصور ، [وهو ثانى الخلفاء العباسيين] ، مُستتراً

بالأهواز [قبل توليه الخلافة] نزل على بعض الدَّهاقين ، فاستَتَر عنده ، فأكرمه الدّهْقان بجميع ما يَقْدِرُ عليه ، حتَّى أَخْدمه ٱبْنَته ، وكانت فى غاية الجَمال ؛ فقال له أبو جعفر : لَسْتُ أستحِلُّ ٱستخدامَها والخَلْوَة بها وهى جارية حُرَّة ، فزوِّجنيها ؛ فزوَّجه إياها ، فَعَلِقَت منه [أى حملت] . وأراد أبو جعفر الخروجَ إلى البَصْرة ، فودّعهم ، ودَفع إلى الجارية قَميصَهُ وخاتَمَهُ ، وقال : إن وَلدْتِ فاحتفِظى بولَدِك ، فمَتَى سمعتِ أنَّه قد قامَ فى الناس رَجُلٌ يقال لهُ : عبدُ الله بن محمّد ، ويكنى أبا جعفر ، فَصيرى إليه بولَدِك ، وبهذا القَميص والخاتَم ، فإنه يَعْرف حَقَّك ، ويُحْسِن الصُّنع إليكِ ، وفارقَهم . فولدت ٱبناً ، وَنَشأ الغُلام وتَرَعْرع ، فكانَ يَلْعَب مع أَتْرابه . وملك أبُو جعفر ، فعَيّر الغلامَ أترابُه بأنه لايُعرفُ له أبٌ ، فدخَل إلى أمّه حَزيناً كئيباً ، فسألَتْهُ عن حاله ، فذكَرَ لها ماقال أتْرابُه ؛ فقالت : بَلَى ، والله إن لك أباً فَوْق النّاس ! قال لها : ومَنْ هُوَ ؟ قالت : القَائمُ بالمُلْكِ ؛ قال : فهذا أبِى وأنَا على هذه الحال ! هل مِنْ شَىْء يَعْرفنى به ؟ فأخرجت القميصَ والخاتَم . وشخَص الفتى فَصار إلى الرّبيع [مولى أبى جعفر المنصور ، وأحد رجال دولته] ، فقال له : نصيحة ! قال : هاتها . قال : لا أقولها إلا لأمير المؤمنين . فَأَعْلَمَ المنصورَ الخبَرَ ، فأدخله إليه ؛ فقال : هاتِ نصيحتك . فقال: أَخْلِنى ! فنحَّى مَنْ عنده ، وبقى الربيعُ ؛ فقال : هاتِ . قال : لا ، إلاّ أنْ يتنحَّى . فنَحَّاه ، وقال : هات . قال : أنا ٱبنُك . قال : مَاعلامةُ ذلك ؟ فأخرجَ القميصَ والخاتَم ، فعَرَفَهما المنصور ، وقال له : مامَنعك أن تقول هذا ظاهِراً ؟ قال : خِفْت أن تَجْحَد ، فتكون سُبَّةَ آخِرَ الدّهر . فضمّه إليه وقبّله ، وقال : أنت الآن ٱبنى حقًّا . ودعَا المُورِيانى [هو أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان المورياني ، أحد

رجال الدولة] ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنتَ تفعلُه بوَلَدى لو كان لى عندك فافعلْه بهِ . وتقدَّم إلى الربيع فى أن يُسْقط الإذن عنه ، وأمرَه بالبُكور إليه فى كلّ يوم والرَّواح ، إلى أن يُظْهِرَ أمْرَه ، فإن له فيه تدبيراً . فضَمّه المُورِيانى إليه ، وأخْلَى له منزلاً ، وأوسَع له من كلّ شىء ، فكان يغْدو وَيَرُوح إلى المنصور ، وخُصّ به جدًّا ، وكان الفَتَى فى غايةٍ من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلُو معه ، فيسألُه المُورِيانى عمّا يَجْرِى بَيْنهما ، فلا يُخْبِره ، فيقول له : إن أمير المؤمنين لا يكتُمُنى شيئاً ! فيقول له [الفتى] : فما حاجتك إلى ماعِنْدى إذَنْ ! فحَسَده المُورِيانىّ ، واستَوْحَش منه ، وثَقُل عليه مكانُهُ ، فأطعمه سُمًّا فمات ، وصارَ إلى المنصور ، فأعْلَمه أنه مَات فَجْأة ، ثم وَلَّى ، فقال المنصور : قَتَلْتَهُ ! قَتَلنى اللهُ إن لم أقْتُلْك بهِ ! فلم يلبث بَعْدَ أن فعل به مافعل .

أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَا عَاشَ ، وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ وَالِدَةً
وَالسَّمْهَرِيَّ أَخاً وَالمَشْرَفِيَّ أَبَا
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى المَوْتَ مُبْتَسِماً
حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرَبَا
فَالمَوْتُ أَعْذَرُ لِي ، وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي ،
وَالبَرُّ أَوْسَعُ ، وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

ماتت أمّ (أحمد بن الحسين) أبى الطيب المتنبي وهو وليدٌ بعدُ ، فيما زعمنا ، فوقع إلى جدته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا . فكفلته ، وألقت كلَّ ذاتِ قلبها وكبدِها فى تعهُّدِه ورعايته ، ثم فى تربيته وتنشئته ، ثم فى النصيحة له وتَطْرِيق وَعْر الدنيا عند قَدَميه ، ومنحته فى ذلك حنان الأمّ الفاقد على ولدها اليتيم الملطَّم بلا أب ولا أمّ . وكانت العجوز ، كما وصفوها ، « من صلحاء النساء الكوفيّات » ، وكما وصفها حبيبها وولدها ثم حفيدها ، « حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » ، غَيْرَ أُنثى العَقْل .

وكانت امرأةً موتورةً ، كما ذهبنا إليه فيما مضى بك ، لا تزال تجدُ فى قلبها الأمر الذى يقول لها : « ها أنا ذا . . . . فلا يَلْفِتَنَّكِ حنانُكِ عن الجِدّ فى تدبير العزم وإدارة الرأى على وجوهه ، فى طلب الثأر الذى لكِ فى أعدائك

المُنْزِ لِيكِ بشر منزلةٍ ما ترضاها نفسٌ كنفسك في الطيب والزكاة» . وأطاعت العجوز آمِرَها بالانتصاف لنفسها ولحفيدها ، ولا حيلةَ لها إلاَّ تنشئة الصغير على غِرارٍ فذٍّ يَكْفُل لها إدراكَ ما تروم ، وكذلك فعلت . فكان المتنبي في الزمن ، ثم في الشعراء خاصةً ، شخصيةً عجيبة ، إذا أخذتها من يَمينٍ التوت بك إلى شمال ، وإن ذهبت تطلبها من وجه ، راغت من وجوه ، واستبهم أمرهُ على الناس باستبهام الغرض الذي رمى إليه هذا الإنسان ، وكان كما قال ابن رشيق : « ملأ الدنيا وشغل الناس » ...

لا ندري كيف تمَّ الرأي بينها وبين العلويين أن « يختلف — الفتى أحمد — إلى كتَّابٍ فيه أولاد أشراف الكوفة » ، كما نقل الأصفهاني ،[1] ولعلهم أرادوا بذلك أن يُرْضوا العجوز ، ويخففوا عنها ثقل همومها ، ويحملوها على المطاوعة لهم خشيةَ أن تفجأهم بما لا يحبون من إظهار ما أرادوا كتمانه وإخفاءه . دخل الفتى الكتّابَ ، وقد قال التنوخي في حديثه الذي أسنده إلى أبي الحسن العلوي ، وهو يعني المتنبي : « ونشأ وهو محبٌّ للعلم والأدب فطلبه » . ولا شك أن جدّته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحثُّه على طلب العلم ، وتستفزُّهُ إلى ذلك ، ليتمَّ لها ، إن شاء الله ، ما تؤمل من الفرح بنبوغه وتفوقه على لِدَاته وأسنانه من العلويين ، ويستطيعُ بعد أن يدْركَ لها «حظًّا» ويطلب لنفسه « حقًّا » هُضِم ومُنِع من دونه حتى أُلقي في أسوأ مَجْهَلةٍ وبشرِّ منزلةٍ ، في خَفاء من النسب ، وقلّةٍ من المال ، وبُعْدٍ عن مَساعي المجْد . وقد وجدت

---

(١) أعود فأكرر أن الأمر قد تجاوز هذا القول ، بظهور الخبر الذي رواه ابن العديم عن الربعي : أن المتنبي قد أرضعته امرأة علوية من آل عبيدالله ، فكان أخاهم من الرضاعة ، على الأقل ! انظر (ص : ٢٨ ، تعليق : ٢)

العجوزُ أرضاً صالحة بطبيعتها لما تريد من أمريْها ، فتأدّب الفتى بالعِلم الذى كان يتلقاه فى كتّاب أولاد أشراف الكوفة ، واجتهد فى ذلك ، وبرع وفاق أصحابه، وأخذته جدّته بأخلاقٍ صالحةٍ طيّبةٍ ، وحاسبته وحَرَصتْ على استطلاع خبره كلّه ، وألقت فى قلبه وفكره وخياله طَلَبَ المجد بالعلم ، ثم زيّنت له الفتوّة وعلوّ النفس وبُعد الهمّة وعِظَم المطالب ، وأدّبته بالصدق والأمانة وكتمانِ السِرّ ، وعلّمته من حِيلتها ودهائها وحذَرها ، سَعة الحيلة ، وخَفاء الدَّهاء ، وتقديمَ الحذَر . وبعد أن أدرك الفتى من الفكْر ما يسَّر لها ما تريد أن تبوح له به ، طَفِقت تُديرِ له السّر من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم ، والاحتراس من ثورة الفتى إذا هى فجِئَتْه بما تريد ، حتى بلغتْ ما أرادت .

وهذه المعانى كلّها دائرة فى حياة المتنبى وشعره دَوَران الدَّم فى عروقه فإذا أنت قرأت ديوانه منْ أوله إلى آخره ، فلن يفوتَك أن تراها جميعاً ، أو ترى بعضها ، ماثلاً غيرَ خفيٍّ فى كلّ موضعٍ من شعره .

ويؤيد قولنا هذا : أن الغلام ، وهو صغيرٌ بالمكتب ، كانت له وفرة من الشَّعر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنةً جميلةً فقال له بعضُ أصحابه من الفتيان (العلويين): يا أحمد ، « ما أحسن هذه الوفرة » ؟ فكان جوابه أعجب جواب من صبيّ فى مكتب :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى ... منشورةَ الضَّفْرَين يَوْمَ القِتالْ
عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدةً ... يَعُلُّها مِنْ كلِّ وَافِي السِّبَالْ[1]

---

(١) « الضفر » ، الخصلة المضفورة من الشعر كالغديرة . وقوله : « معتقل صعدة » أى حامل رمحه إلى الحرب . « ويعلها » ، يسقيها من الدم مرة بعد مرة . و « الوافى السبال » ، هو الطويل اللحية .

فَطُنَّ ما شئت بغلامٍ في مثل سنّه لا يزال في أوّل طلبه للعلم يقول مثل هذا القول . ويحسُن أن نطيل القول قليلاً في هذين البيتين، ففيهما أصول كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد .

فالأصل الأوّل : هو هذا الالتفات الشِعْريّ الجميلُ من المعنى المحدود بغرضِ قائلهِ ، إلى المعنى المترامى بخيال سامعهِ ، فإن أصحابه كانوا يُعجّبون من حسن وَفرتِهِ واسترسالها ولينها ، فتجاوز صاحبُنا هذا بخيالِه من الصُّور الحاضرة إلى الصورة التي يريد أن يراها ، شَعْثاء غَبْراء يومَ يَنْشُر مضفورَه يوم القتال بين الغبار الثائر والدم المهراق . وهذا إثباتٌ للأصل الشعرى القائم في نفسه .

والأصل الثانى : هو الرجولة والفتوّة ، وبُعد الهمّةِ ، وعِظَم المطلب وانصرافُه عن سَفْساف الأمور إلى معاليها ، لا يعبأ بلذّةٍ لا تُجدى خيراً ، ولا تؤتى ثمراً ، وإنما يَجد لذّتَه فيما يأتيه بما يريد ، ولو كان فيه شقاؤه وجهده . وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسيّ في شعره بعدُ فقال :

سُبْحانَ خالقِ نَفْسى ، كَيْفَ لذَّتُها ... فيمَا النُّفوسُ تَراه غَايَة الأَلَمِ
الدَّهْرُ يَعْجَبُ من حَمْلى نَوَائِبَهُ ... وَصَبْرِ نَفْسى على أَحْدَاثِه الحُطُمِ

وهذا أصل رُجُولته وفتوتهِ النفسية التي ظهرت واستعلنتْ في كل شعره حتى صار بها فذًّا أوْحَدَ .

والأصل الثالث : هو الثورة الدائبة ، فأنت تراه من صِغَره هكذا ، لا يريد إلا القتال والدّم .

والأصل الرابع : أن هذين البيتين من صغير كقائلهما ، يضمران وراءهما معنى آخر غير هذه المعانى ، وهو أنه مُنَشَّأٌ على طلب الثأر من عدُوّ ، فهو لايزال ينقلُ الصورة من وضع إلى وضع آخر يُرْضى مايدور فى نفسه من المعانى المحدّدة بطفولته ، وما غذيت به من الآراء والأخلاق . وإن شئتَ فتدبَّرْ السرَّ العجيب فى قوله « يَعُلُّها » ، أى يسقيها الدم مرّة بعــد مرّة ، لايــكتفى بواحدةٍ . وتعجّب من قوة الأصل الشعريّ فى هذا الغلام ، ومن طغيان الحقْدِ والثأر على قلبه الصغير .

والأصل الخامس : هو بيانه الخفيُّ عن عدوّه الذى يريد أن يحاربه ، وقد صرّح بذلك فى قوله « كُلّ وافى السِّبَالِ » ، فانظر من أرَاد هذا الصغير بهذه الصيغة ! أتُراه عنَى كلَّ كبير السن ذى لحية طويلة ؟ أترَى ذلك ! ! كَلاّ ، فالبيِّن البيِّن أنه أراد قوماً بأعيانهم كنى عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاء الذين يريدُهم بهذه الصفة ؟ أليس المعقول أن هذا الصغير إنّما يتجه خياله إلى أقربْ الناس إليه فى بلده ، ثم إلى الذين أوحت إليه جدته بأنَّ بينها وبينهم سَخِيمة من العداوة ؟ ومن يكون هؤلاء من أهل بلده إلاّ مشيخة العلويين الذين أنزلوا الهوان به وبجدتِهِ ،[1] فيما ذهبنا إليه من الرأى فيما مضى .

والأصل السادس : أن هذه الثورة التى تلبست به وأخذت عليه مذاهبه فى حياته ، إنما هى من أثر جدته ، إذ باحت له بسرِّها وألقت إليه بمكنون

(١) وهذان البيتان من الأدلة على ما ذهبنا إليه فى قضيته مع العلويين فى الذى مر بك ولم نذكرهما هناك لتفادى الإطالة .

صدرها . وذلك لأنَّ الفتى الصغير لا يكادُ يدرك هذه المعانى كلَّها ويُسيغها حتى تظهر هكذا مُسَهَّلةً على لسانه ، إلاَّ أن يكون قد أُخِذَ بها ، وهُيِّىءَ لها ، وأُعْطِىَ من نَفْسِ غَيْرِه قوةً تخرجه من طبيعة الطفولة ، إلى عادَةِ الرُّجولة والفُتُوَّة .

ولولا أن صاحبنا أبا الطيب قد « أسقط من شعره الكثير ، وبقى ماتداوله الناس » ،[1] كما حدثنا بذلك أبو القاسم الأصفهانى ، عن أبى الفتح ابن جنى ، لوجدنا فيما أسقطه كثيراً من أمثال هذا القول الذى يدلُّ على نفسيّة الصبى التى كبرت معه ، وكانت هى (المتنَبِّىَ) الشاعرَ الفردَ الذى لا يكاد يخفى شعره على أقل النَّاس بصراً بالشعر .

* * *

وأبياتٌ أخرى قالها وهو بالمكتب أيضاً :

إلى أىِّ حينٍ أنت فى زِىِّ مُحْرِمِ ... وَحَتَّى مَتَى فى شِقْوَةٍ ؟ وإلى كَمِ !![2]

وإلاَّ تَمُتْ تحتَ السُّيوفِ مُكَرَّمًا ... تَمُتْ وتُقَاسِ الذُّل غَيْرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وَثْبَةَ ماجِدٍ ... يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وهى وإن كانت مما قال فى صغره ، إلاّ أنها أمثل من الأبيات الأولى

---

(١) هذا القول يغلب على شعر صباه ولا شك ، ولا شك أيضاً أن بعض شعره فى فتوته وكهولته قد سقط ، أو أسقط ، ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفع شيئاً .

(٢) «زى محرم» كناية عن فقره لقلة ثيابه التى تستره ، والمحرم من الحاج لا يلبس إلا إزارين غير مخيطين .

فى الدلالة على المعانى التى ذكرناها ، والأصول الستّة التى استنبطناها . فتدبرها على ماقدَّمنا لك ، تجد الشاعر الكبير فى الشاعر الصّغير ، إلاّ فى موضعٍ واحدٍ قلَّ فى شعره بعدَ الكِبَر ، وذلك هو تقديم الثِّقة بالله ، على الثقة بسيفه ونفسه ، وهذا الموضع ولا شك من أثَر جــدَّته التى كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » . وهو يؤيد رَأينا فى أن العجُوز كانت تمنَحُه نَفْسَها ، وتَمْحَضه نُصْحَها ، وتربِّيه على ما أرادت ، لم تكْتَفِ أن تَرْكَنَ فى تأديبه وتثقيفه إلى المكتب أو إلى الزمن وأحْداثه ، وهو المعلِّم الأكبر والأسْتاذُ البارع .

هذا ، وما نشكُّ فى أن الفَتى كان وهو بالمكتب أكثرَ أصحابه تحصيلاً للعلم وإقبالاً عليه ، وانصرافاً إليه ، وذلك لما ذكرُوا من قُوَّةِ ذاكرته التى كادت تكون إحْدَى الخوارق = ثم لما أخذته به جدَّته من الأدب والرأى ، وما زيَّنت له من طلب المجد ، ثم ماتهيأ فى نفس الصغير من أصل طبيعته التى تسرع به إلى السموّ ، ولهذا كان الفتى محسَّداً بين أترابه ، منظوراً إليه بعين . فالحسد الصَّغير الذى مُنِيَ به وهو فى المكتب ، وما يَمُوج فى صدره من حِقْدٍ وثورة وبُغْضٍ لمن أريد لَه أنْ يَشْنَأهم ويُبْغِضهم = كل ذلك كان هو الأصلَ فيما تعجَّب منه المتعجبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحسد والحساد والوشاية والوشاة، وما إلى ذلك مما يُلِمُّ به ، وقد ألمَّ صاحبنا بهذا الذى أردناه فى قوله وهو بأنطاكية فيما بعد :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بالسُّوء يَذْكُرُنى ... فَلَا أُعاتِبه صَفْحاً وإهْوَانَا

(وَهَكذا كُنْتُ فى أَهْلِى وَفِى وَطَنِى) ... إنَّ النَّفِيس غَرِيبٌ حيثُما كانَا

(مُحسَّدُ الفضل مكذوبٌ على أَثَرِى) ... أَلْقَى الكَمِىَّ ويَلْقَانِى إذَا حَانَا

فهو من يوم كان فى وطنه الكوفة إلى سنة ٣٢١ حين رحل إلى الشام ، كان يلقى العَنَتَ من الحسد والحسّاد ، وما تكذّبوا به من أباطيلهم ، وما ألقوا عليه من عيوبهم . فلما استمَرّ مَرِيرُه وبَرَع وفاقَ الشعراء ، وأكل أرزاقهم إلى رزقه ، أجلب عليه الحُسَّاد والوشاة ، فدَسُّوا له وأذاقوه من بأسهم ، فبقى إلى آخر عمره يذكر ذلك فى شعره ، ويتخيَّله فى صغير أمرِه وكبيره .

* * *

قلنا : إن الفتى كان أحذق أَسْنَانه وأسرعَهم إلى التحصيل ، وأحفظَهم للعلم ، وظاهرُ شعره الذى قاله فى أول أمره وصباه ، يدلُّ على أنه لم يَقْصِر درسه على « دروس العلوية وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » ، بل كان كما كان إلى يوم وفاته ، متتبعاً للكتب يقرَؤُها ويحقِّقها ويحفظها ، من كتب الشعر والأدبِ والدِّين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره ، وسنأتى على طرفٍ من شعره فى سياق الدَّليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة ، هو صاحبنا الأصفهانى ، أنّ المتنبى « وقع فى صغره إلى واحدٍ يُكنى أبا الفضل بالكوفة ، فهوّسه وأضلَّه كما ضلّ » ، هكذا قالوا ! .

ولا شكَّ أن أبا الطيب قد لقى هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعدُ ، والقصيدةُ الَّتى فى ديوانه ، والتى قدّموا لها بقولهم : « وقال وهو بالمكتب يمدح إنساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه » ، هى فى ذكر هذا الرجل الذى ذكره الرواة ، وأولها :

كُنِّى ، أرانى ، وَيكِ ، لَوْمَكِ ، ألومَا　　همٌّ أقام عَلى فُؤَادٍ أَنْجَما[1]

ويقول فيها ، وقد ذكر اسم الرجل :

كَصِفات أَوْحَدِنا(أبى الفَضْل) الذى　　بَهَرَتْ ، فأنطق وَاصِفيه وأَفْحَمَا

ومن قرأ القصيدة كلها ألفاها كلها ، فما فيها بيتٌ واحدٌ من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله ، وما ندرى ما الذى جعل أبا الطيب يحرص على إبقائها فى ديوانه ، وقد أسقط الكثيرمن شعر صباه ، على ماذكر تلميذه ابن جنّى ؟ وقد أَعْجَمَ صاحبُنا القصيدةَ كلَّها ، وأتى فيها بكل ساقطةٍ من ألفاظ الفلسفة وما إليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أَخَلّ ذلك بعربيتها إخلالاً بيّناً لم يقع مثله فى ساقط شعره وسفسافه . والظنُّ عندنا أنهُ لقى أبا الفضل هذا ، وكان يدّعى الفلسفة ، ويتبجّح بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويُمَرِّض نفسهُ لقراءة دَرْس فيها ، وكان فى ذلك أضحوكة يعجبُ منها ويتفكه بها ، وكانت صورته فى ذلك كلّهِ تستقصى الضّحك وتستخرجُه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تندُّراً به وعبثاً وسخريةً . ولا حاجة بنا إلى تَفْصيل ذلك بذكر الأبيات التى تدلُّ على ما أردناه ، فإن قليلاً من التدبُّر ، فيما جمع فيها أبو الطيب من السُّخف والمضحكات والمناقضات والمبالغات ، فيه دليلٌ كافٍ وافٍ . وبيِّنٌ إذن أن المتنبى ما أثبت هذه القصيدة فى ديوانهِ ، إلاّ لأَنَّهُ كان يذكُرُ بها شخصيةً كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغايةَ الاستغراب .

---

(١) ترتيب ألفاظ صدر البيت : « كنى لومك ، ويك [أى ويلك] أرانى ألوما »

والعجب للأصفهانيّ، صاحب « إيضاح المشكل » ، الذى مرّ فى أول كلامنا ذكره ، أن يزعم أن معتوهاً كأبى الفضل هذا النكرة ، قد هوّس أبا الطيب وأضلّه كما ضلّ ! فمن كان فى بديهة المتنبى وذكائه وتوقّده ، لا يلعب به رجلٌ مغمورٌ غيرُ مذكورٍ كهذا الذى ذكروه . وظاهر أمْر الأصفهانى ، أو منْ قال له ذلك ، أنه وقع إليه خبرُ أبى الطيِّب وتندُّرُه بأبى الفضل ، هذا الدعىّ على الفلسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدّ ، ونسب إلى المتنبى الأخذ عنه ، والاقتداء بسخفه وهذيانه . فلولا جاءوا بشَيْخٍ مذكور من شيوخ الفلسفة ، وادَّعوْا ذلك فيما ادَّعوْا على الرجل ! !

ونحن لا نَنْفى عن أبى الطيب التأثُّر بالفلسفة وغيرها مما يداخلها أو تداخله على مذهب الأوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذٍ موجٌ متلاطمٌ بالجدَل والخصام ، والعلماء يومئذٍ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون ، وأصحاب الجدَل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلى ، والكتب المخلَّفة كثيرة لم تذهبْ بعد ، وهى كتبٌ نشأ منها بعد علم الكلام الذى اختلطت به الفلسفة وصارت أصلاً من أصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصَّخَب الذى لا يُجْدِى ولا ينفع فى أصول الدين وعقائده . فلسنا نشكُّ بعدُ أن هذا الفتى المتوقِّد = الذى قال عنه كثير ممن رأوه إنه كان واسع العلم والمعرفة = قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل ، وأخذ بأطرافٍ مما سمع وقرأ وحفظ ، حتى بان ذلك فى شعره الأوّل بياناً لا خفاء فيه ، ثمّ قلّ بعدَ أن استحكَمت قوته وغلب عليه الأصل الشعرى الذى استولى على أكثر موهبته وقدرته .

ونسوق إليك هنا طرفاً من ذلك فيه غنى إن شاء الله ، يقول :

وضَاقت الأَرْضُ حَتَّى كَانَ هاربُهُمْ إذَا رَأَى (غيْرَ شَيْء) ظَنَّهُ رَجُلاَ

يريد « لا شيء » فأبدل ، وهذه من ألفاظ المتكلمة ، والخيال خَيالُهم ، وقال :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ (حَلاَوَةُ التَّوحِيدِ)

وهذا من ألفاظ المتصوفة . وقال :

كتمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً ثُمَّ استوَى فِيهِ إسْرَارِي وإعلانى
كأنَّه زادَ حَتَّى فَاضَ عن جَسَدِي فَصار سُقْمِي به فِي (جسم كِتمانى)

والبيت الثانى ، واللفظ الأخير خاصة ، دليلٌ على تأثره بالمعانى الفلسفية والصوفية ، وهذه هى التى أخرجت له هذا الخيال السخيف . وقوله :

فَتًى أَلْفُ جُزْءٍ رأْيُه فى زَمَانِهِ أَقَلُّ جُزَيْءٍ بَعْضُه الرَّأْيُ أَجْمَعُ

فهذه قسمة حسابية ! ! والجزء والجزىء من ألفاظ المتكلمين والفلاسفة ، وقلما يأتى أحدهما فى الشعر مستحسناً . وقوله :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ (أُصُول البَرَاعَاتِ الَّتى تَتَفَرَّعُ)

وهذا مدحٌ فلسفى ليس بشعر ، وانظر إلى جمعه «البراعة» وهى من الغرائب التى تلدها الفلسفة . وقوله :

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هانَتْ عَلَيَّ (صِفَاتُ جَالينوسَا)
بَشَرٌ (تَصَوَّرَ غَايَةً) فِي آيَةٍ تَنْفِي الظُّنُونَ (وَتُفْسِدُ التَّقْيِيسَا)

فقوله : (صفات جالينوسا) ، يريد ما يصفه جالينوس للأمراض من الدواء ، وهو دليل على نظره فى كتب الطب ، ثم قوله : (تصور غاية) ، من أساليب المتفلسفة ، وقوله : « تُفْسد التقييسا » يريد « تفسد القياس » ، وهو مما يردفى كتب الكلام. ومن تتبع سائر شعره فى صباه ، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ أبو الطيب وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والملل والنحل والتاريخ وسير الأوائل والأنبياء الماضين، وغير ذلك مما كان من علوم أهل عصره ، وقد أحاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نَظَرَ المتفكِّرِ المتدَبِّرِ ، ولولا ذلك لما وَلِعَ بذكره فى شعره ، ولَمَا دار على غير إرادة منه فيما نظن .

وقد كان فى هذا القسم من شعره يلجأ إلى الأساليب الفلسفية فى استخراج المعانى وتوليدها ، وكان يكثر من التقسيم الفلسفى ، والتَّوجيه المنطقى وغيره من ألوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتزندقة أيضاً ، حتى فسدت معانى شعره ، فلذلك كان أكثر ما تجد من ساقطه ومرذوله = مما عابه عليه النقاد ، وخاصمه به المتعصبون عليه = هو من هذا القسم الذى قاله فى صباه إلى أطراف سنة **٣٢٨** على وجه التقريب لا التحقيق .

* * *

وهذا العهدُ من حياة المتنبى لم تردْ عنه روايةٌ مُوَثَّقة مستفيضة ، وإنما عملُنا فيه الاستنباطُ من قليل شعره الذى قيل فى صباه ، واستخراجُ الأصول النَّفسية منه ، ثم مَسِيرُها بعدُ وتدرُّجُها معَه حتى بلغت مبلغها فى كبير شعره الذى « ملأ الدنيا وشغل الناس » .

عندنا أنّ المتنبي بقي في المكتب إلى سنة ٣١٧ تقريباً ، وكانت سنّه أربعة عشر ، ولكنه كان بتوقّده وذكائه في درجة من أناف على العشرين ، وقد ذكر التنوخيّ أنه قال الشعر صبيًّا ، وذكر غيرُه أنه كان آيةً في الذكاء والفطنة ، وقال غيرها إنه من دهاة عصْره ، أي كان كذلك فيما بعد. وكان مما ورثه عن جدته ، هذا الإحساسُ المُرْهَفُ الدقيقُ الذي يهتزُّ في قوته وكبريائه ، لا في ضعفه وذُلّه . واجتماع الذكاء والحسِّ المُرهَف هما آلةُ كُلِّ شاعرٍ ، وقد ظَفِر المتنبي من كليهما بنصيب الأسد المهصور ، ولذلك كان شعره أروع شعر في العربية وكثير غيرها ، وكان محبباً إلى أهلِ عصره متداولاً سائراً بينهم ، لأنه كان يأخذ بنفسه المُرهفةِ من شعور الناس وآلامهم وأحداثهم ، ويبني بما يأخذ بُيوتَ شعره ، وروائع بلاغاته .

وهب الله هذا الذكيَّ المرهف الحسّ جَدَّةً حازمةً ، كانت ، فيما ذهبنا إليه ، تُوقِد في قلبه نيرانَ الثورة ، وتؤرِّثها بالحقد على قوم بعينهم ، وتدرِّبه على كرائم الخُلُق ، كالصدق والأمانة والوفاء وحبِّ المجدِ ، والتطلُّع إلى العلياء ، والجرأةِ المُسْتَنْفَرةِ التي لا تتهيّب ، يَحُدُّ منها الحذرُ الذي لا يتهاون ، والدّهاء الذي لا يتورَّطُ في موارد التلف . وشرع الفتى يطلبُ العلم ويستزيد منه ، ويشتدّ في الطّلَب مُصَمماً معتزماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يهلك دونه . ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وتُرّهاتها ، وجِدِّها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تتلمّسُ الأشياء هنا وثَمَّ ، لتستقرّ على ما ترضى به وتأنسُ إليه .

وكانت الكوفة ، التي نشأ بها وشبّ وترعرع وتَفَتَّى ، لذلك العهد ،

بلداً من بلاد الإسلام ، قد رمتْها القرامطة بجيوشها مرّات وفعلت بأهلها الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية فى شُغُلٍ عن الكوفة بانقسامها شِيَعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكةُ الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاء ، فأوقعوا بين المسلمين وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف فى ثورةٍ دائمة لاتفتر ، ولا تنقطع الحروب فى ناحية إلاّ اتّقدت نيرانُها فى أخرى . وانقسمت دويلاتٍ ، ولم يبق للخليفة إلاّ الاسمُ الكريمُ يحمله مُرْغَماً ويضَعُهُ مُرْغَماً لا إرادة له . ولاشكّ أن إحساس أبى الطيب قد ألمّ بذلك كلّهِ وفصّلَهُ ونَقده ، وعرف الداء الذى كمن فى بدن العربيّة واستلّ قُوّتها وقتل روحها ، فازْدَادَ إلى ثورته ثورةً وإلى حقده حقْداً .

وكانت أخلاق الأمة قد اتّضعتْ وفَسَلت بما تداخلها من أخلاط الأمم الذين لا أصل لهم يرجعون إليه ، ولا خُلُقَ عندهم يستذِمّون به ، وفسدت العامة من أهل المدُن فساداً كبيراً ، واضطربت فى أيدى الناسِ حِبالُ الأخلاق ، وصارُوا لايقيسون الناس إلاّ بمقياس الظّاهر ، ولايَزِنُونهم إلاّ بميزان المال . فبطلت موازين الرجال التى يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرُّجُولة وكرم العنصر . فكان نظر الفتى إلى هذا ، مما ألقى الحطب على النار التى فى صدره ، فبُغّضتْ إليه سَفْسَافُ الأخلاقِ وتعلّق بمعاليها ، وزُيّن فى قلبه أن يكون هو الثائر الذى يردّ هؤلاء الأَهْمالَ والهمجَ إلى مردٍّ ، ويأوى بهم إلى مأوًى ، ويقوم عليهم قيام الراعى حتى يخلصُوا من الشّرِّ ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذى لايبخس الناس حَقّهم ، ولا يظلمهم ، ولا يُدَنّيهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنيّة ، ويجعلهم قوة مستحكمة تردُّ عدوان العادى وبغى الباغى ، ليصلوا بذلك إلى المجد والسلطان .

اصطدم هذا الخيال الذى أراد أن يحققه بحقيقة ماهو فيه من الفقر والخفاء، والبعد عن مساعى المجد ، وامتناع نفسه عن إعطاء الطاعة للأخلاق التى كان يصلُ بها أهلُ ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيىء والدسيس وما إليهما من حيل الخبيثين . وقد روى الرواة أن أبا الطيب قال :

« أذكر وقد وردت فى صباى من الكوفة إلى بغداد ، فأخذت بجانب منديلى خمسة دراهم ، وخرجت أمْشِى فى أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دُكّان يَبيع الفاكهةَ ، فاستحسنتها ، ونويْتُ أن أشتريَها بالدراهم الّتى معى ، فتقدمت إليه وقلت :

— بكم تبيع هذه الخمسة بَطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : اذهب فليس هذا من آكلك ، ..

فتماسكت معه وقلت :

ياهذا ، دع ما يَغيظ ، واقصدِ الثمن .

فقال : ثمنها عشرة دراهم .

فلِشدَّة ما جَبَهَنِى به ، ما استطعت أن أخاطبه فى المساومة . فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

— يامولاى ! هذا بطيخ باكُور ، بإجازتك أحمله إلى البيت ؟

فقال الشيخ : ويحك ! بكم هذا ؟

قال : بخمسة دراهم ..

قال : بل بدرهمين ..

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل .

فقلت له : ياهذا ! ما رأيت أعجب من جهلك ؟ أسْتَمْتَ عليَّ فى هذا البطيخ ، وفعلت فعلتَك التى فعلت ، وكنتُ قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم، فبعته بدرهمين محمولاً ! !

فقال : اسكت . هذا يملك مئة ألف دينار !

قال المتنبي : فعلمت أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم مَن يعتقدون أنه يملك مئة ألف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينارٍ » .

فبهذا وأمثالهِ من أعمال الحياة لذلك العهدِ اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقرَّ على أن يجد لما يريده مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والأخذ باللين والملاطفة ، وازداد بذلك للناس احتقاراً ، ولأعمالهم بغْضاً ، وحَقَرَ العظماء الذين لا يَعظُمون فى أعين الناس إلاّ بالمال ، وجعل يديرُ الرأى حتى خلَصَ إلى العَزْم : أن يطلُبَ المال ، لا ليجمعه ويفرَحَ به ، ولكن لينال به ما يريدُ مما ينطوى عليه قلبه من حقدٍ على قومٍ ، وما يدور فيه من معانى الإصلاح ، وما يبغى من إيقاظ الهمّة العربيّة للاستيلاء على السلطان المضيّع ، والمجد المفقود .

* * *

ومع هذا ... ، كان الذكاء ، والثورةُ ، والنَّظرُ ، والتجربةُ والاختلاطُ بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبه من فساد أقيستهم وبطلانِ مذاهبهم ، ثم اعتماده فى نفسه على الثقة بها ، واعتداده بقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو السلطان أو القضاء إلاّ بالسُّوء والقبيح ، ثم طبيعتُه الشَّاعرة المرهفة التى (تلتقط صُوَر) الأَشياء ثم تنتزع منها الأخيلة الشعرية ، والحِكم البليغة . . كلُّ ذلك أسرعَ بالفتى إلى ضرب من القول السَّاحِر الذى لم تَرَ العربيّة مثْلَه فى شعر شاعرٍ ، إلاّ أن سخريته التى انفرد بها لم تسكن بعد فى كبره إلاّ ضرباً من الحكمة والعبرة التى لا يفطن إليها إلاّ أفذاذُ العقول ، ثم يَدُلُّون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالغون فى تصويرها ، بل يضعون لها اللَّفظ الذى يخرجها مَخرج الحكمة ، ويزيدها روعةً فى السَّخَر ، وسنتعرَّض لتفصيل ذلك بعدُ . وقد حفظ لنا المتنبى ضرباً من سخريته فى صغره تدلُّ على ما استحكم فى شعره بعدُ ، وصار فى شاعريته طبيعةً متأصّلة مستحكمة .

مرَّ المتنبى برجُلَين قد قتَلا جُرَذاً ، وأبرزاه يعجِّبان الناس من كِبَره ، فقال:

لَقَدْ أصْبحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ أسيرَ المنايَا صَرِيعَ العَطَبْ
رَماهُ الكِنانِيُّ والعامِرِيُّ ، وتَلاَّهُ للوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلا الرَّجُلَيْنِ اتَّلَى قَتْلَهُ ،... فأيُّكما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ
وَأَيُّكما كانَ من خَلْفِه ؟ فإنَّ به عَضَّةً فى الذَّنَبْ

قتل الرَّجلان ، الكنانيُّ والعامريُّ ، هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجّبا الناس من كبره ، وهذا سُخْفٌ منْهُمَا ، إذ شغلا نفسيهما بعَبَثٍ لامعنى لمثله

عند المتنبي الذي يريد في نفسه قتل الملوك ، فمن هنا قال : « الجُرَذُ المُسْتَغِير » ، الذي قد أغار عليهما كما تغير الجيوش . ثم لما فرغ من جعله كذلك ، ذكر أن هذا الفأر قد وقع في (أَسْر المنايا) كما يقع العدو في الأسر حين رماه الكناني والعامريّ بالسهم كما يُرْمى العَدُوّ ، وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلبيهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول إلا فأراً !! ثم لا يكتفي صاحبنا بهذا ، بل يقول إنهما أخذا يصارعانه كما يصارع العربي خصمه مستعيناً عليه بالقوة حتى يَكُبَّه على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : « تلاَّه للوجه فعل العرب » ، ثم يقول بعدُ : كِلاَ كُما تولَّى قتله ، وذلك لِكِبَر الفأر وشدته ، ولكن من منكما الذي سَرَق حُرَّ ثيابه وجيد سلاحه ، كما يسرق السارق في الحرب من أسلاب القتلى ويخفيها عن أصحابه من المقاتلة ؟ ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميتُماه بسهميكما ، وكان أحدكما من خلفه ، فمن منكما الذي كان من ورائه ليحتال على صرعه ، وقد عرفت حيلته في صرع هذا الفأر العظيم ، فإنه عضه في ذنبه ، وهذه العَضَّةُ بَيِّنةٌ ثَمَّ !

وأنت إذا عُدْت فقرأت الأبيات على ما تكلفنا شرحه ، رأيت بلاغةَ الرَّجل في السخرية ودِقَّته في اختيار اللفظ وإيجاز الصورة التي يريد أن يتفكَّه لك بها . وهذا الضرب من الكلام من أكثر ضروب الكلام دوراناً في شعر المتنبي ، حتى بلغ من دِقَّته في وضعه ، ونُفُوذِه في معرفته وإتقانه ، أنه كان يقول القولَ في المدح وهو أبلغُ الهجاء ، كما فعل بكثير من ممدوحيه ، حاشا سيفَ الدولة ، وفي أوَّلهم كافورٌ الأسْودُ الخصِيُّ.

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام أبي الطيب ، وما يضيق به صدره من الأحقاد والآراء ، ولعله كان في أصل طبيعته قريبَ المَيْل إلى المَرَح

والطَّرَب في وقار ، ولولا ما كلّف نفسه من المشقّة للسيادة والمجد ، لكان من أبرع الناس نكتةً بليغة ، وأكثرهم نادرةً عالية . يدلّك على هذا أنّ أبا الطيب كان قد نادم في حياته كثيراً من الأُمَراء ، وكانوا يحبّونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متزمّتٌ بارد الطبع ثقيل الظل ، طويل الصمتِ جهم الوجه ، مُقطِّبٌ . ومما قاله «مُعاذ اللاذقي» لأبي الطيب سنة ٣٢١ : « والله إنك لشابٌّ خطير ، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير » ، ومعنى هذا أن أبا الطيب كان ظريفاً خفيف الرُّوحِ ، محبباً إلى النّفس ، مع وقارٍ وتُؤَدة . ومن تدبَّر سخريته في شعره كُلِّه ، وجد فيها هذا المعنى ، إلا أنه لم يكن يَهْزِلُ هَزْلَ السخفاء .

* * *

كان هذا الفتى يمشي في نواحي الكوفة بآلامه وأحقاده وفقره ، ويتنقل في حوانيت الوراقين يقرأُ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف إلى مجالس الأئمة يستمعَ العربية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً إلى الحوادث التي تقع بين ظَهْرانَيْ قومه ، ويَتسمَّع لما تردُ به الأنباء من أخبار الدولة المترامية الأطراف ، يُضحكه ما يقع من الأحداث العجيبة التي ترفع وتضع ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيما يرتفع إلى الذروة أقوامٌ ، من العجب أن يصلوا إلى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيما يرتفع بهم إلى إمرة الأمراء ، ومَشْيخَة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعدُ أن يكونَ هذا الفتى الثائر الذى يشهد آثار الأحداث في أمته ، كثيرَ العَجَب مِمَّا يرى وما يسمع ، قليلَ الحفْلِ بهذه الأصنام التي ترفعُها الحوادث وتَضَعُها ، عظيمَ العُجْبِ بنفسه وما أوتى من فطنةٍ وذكاء وعلم ولسان قوَّال ، لم ينل بها إلاّ الفقر والمَسْكَنة والحِرْمان :

لُمِ اللَّيالِي الَّتي أَخْنَتْ على جِدَتي ... برقّةِ الحالِ ، وٱعْذِرْنِي وَلاَ تَلُمِ
أَرَى أُناساً ، ومَحْصُولي على غَنَمٍ ... وذِكْرَ جُودٍ ، ومحصولي على الكَلِمِ

وقد بقى فى الكوفة على ذلك - فيما نرى - إلى أطراف سنة ٣١٧ ثم خرج إلى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية إلى نجد ، وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم وأخذ يتنقل بينهم ، ليسمع ما بقى من العربية المبرأة على ألسنة هؤلاء القوم الذين قلّت بينهم الأعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل إلاّ مامَرَن عليه من مشقّة السَّفر ، واكتسابِ الصديق ، واختبارِ الخُلُق . ثم عاد إلى جدّته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها ، يَنال من فضل بعض أصحابه متعففاً ، كمحمد بن عبيد الله العلوى المشطب الذى مرّ آنفاً (ص : ٢٧). ولعلّ العلويين الذين نكبوا جدّته كانوا يفضلون عليها ليتّقوا بذلك شر أحداثها لو حَدَّثتها نفسها بشىء . وبقى المتنبى هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح أحدٍ من العلويين أو غيرهم من رجال الكوفة وعظمائها ، وقد جاءَ فى حديث المتنبى الذى ذكرناه آنفاً أنه انحدر مَرّةً من الكوفة إلى بغداد ، وما نشك أن مخرجه هذا إلى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩ إلى أوائل سنة ٣٢٠ . ودخل صاحبنا بغداد يرى العجبَ العاجبَ من الأحداث التى كانت تقع بها ، وشَغَبِ الجند على الخلفاء ، وظهورِ الموالى من العجم والديلم والترك على مواليهم من الأمراء والخُلفاء ، وقَضَايَهم فى شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسةَ الأمة على الشهوات المتنازعة والأهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يرعوون . فعفّ كذلك عن مدح أحد من هؤلاء الأمراء والخلفاء ، وأنف أن يتكسب بشعره من هؤلاء المحقّرين لديه ، ورَضِى بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع فى صدره المملوء أحقاداً مؤرّثة ، وتِراتٍ لَم تَرْوَ بعدُ من الدم ، فعج صدره

بالنار المضطرمة التى لاتهدأ ، تؤرِّثها أفكاره ونظراته التى لا تَفْتُرُ ولا تكلُّ.
فنى سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وإن أبت جدته عليه ذلك ، لما كانت تخشى من تدفعه إلى موارد التلف بما يحمل فى صدره ، وعَقَدَ قَلْبه على إحداث حَدَثٍ لعلّه أن يصيب من ورائه ما يبتغى وما يؤمل ، ويدرك به فى قوم ثأراً ، ويشفى به صَدْرَ جدَّته وصَدْرَه . ولعلّ هذه الأبيات التى نرويها لك كانت آخِرَ ما قاله بالكوفة مما وصل إلينا وما لم يصل من شعره ، ولعله عنى بالخطاب فيها جدته ، قال .

مُحِبِّى قِيَامِى مَا لِذٰلِكُمُ النَّصْلِ ... بَرِيئاً من الجَرْحَى، سَلِيماً من القَتْلِ
أَرَى مِنْ فِرِنْدِى قطعةً من فِرِنْده ... وَجَوْدَةُ ضَرْبِ الهَامِ فى جَوْدَةِ الصَّقْلِ
وخُضْرَةُ ثَوْبِ العَيْشِ فى الخُضْرَةِ التى ... أَرَتْكَ احْمِرارَ المَوْتِ فى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهى بِمَا وكَأَنَّهُ ... (فَمَا أَحَدٌ فَوْقِى ولا أَحَدٌ مِثْلِى)
وذَرْنِى وإِيَّاهُ وطِرْفِى وذَا بِلِى ، ... نَكُنْ وَاحداً يَلْقَى الوَرَى وَانْظُرَنْ فِعْلى

وقوله : « محبى قيامى » ، يعنى ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن أحداً كان يحبُّ ذلك منه غير جَدَّته ، مع خوفها عليه وخشيتها أن يصيبه مكروه ممن يتربّص به من العلويين ، فيما ذهبنا إليه . وفى الأبيات أثرٌ بيِّنٌ من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدلُّ دِلالة بينة على عزيمة هذا الفتى الأبِيِّ الذى يريد أن يدرك ثأراً ، ويُحْدِث أمراً .

ولم يمض إلاّ قليلٌ بعدَ ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتَّخذ طريقَهُ ، على ما وقعَ عندنا من الرأى ، من الكوفة إلى بغداد ، ثم خرج لوقته متخذاً

طريقَهُ فى ديار رَبيعة بين النهرين إلى نَصيبين ورأسِ عَيْنٍ وحَرّانَ وَمنْبِج ، وطفِق يتنقّل بين القبائل فى جوف البوادى حتى انقضى به المسيرُ إلى الشام فى سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها ، (أعنى بعلبك ، وطرابلس وحِمْصَ) ، ثم كره الأرض التى نَزَلها ، ثم صعّد سَنَتهُ إلى مَنْبج وحلب واللاّذقية وأنطاكية ، ومدح بها مَنْ مدح ، ثم اعْتُقِل بحمصٍ ، لما قالوا به من ادّعائه العلويّةَ ثم النبوةَ ثم العلويّة ، ثم اسْتُتِيبَ وأُشهِد عليه بالكذب فيما ادعى ، ثم تابَ وأُطلِق . هذا موجز رحلته الأولى بالشأم ، وتفصيلها غير ميسرٍ بعدُ لغموضها ونقصها . ولهذه الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعدُ .

سَيَصْحَبُ النَّصْلَ مِنِّى مثلُ مَضْرِبِهِ
وَيَنْجَلِى خَبَرِى عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاَتَ مُصْطَبَرٍ
فَالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاَتَ مُقْتَحَمِ
مِيعادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَداً
وَمَنْ عَصَى من مُلُوكِ العُرْبِ والعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِى بِهَا لَهُمُ ،
وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ

النُّبوَّة فى حياة المتنبى هى أبرز الحوادث التى عُرِف بها الرجل ، ثم نُبِزَ بها بَعْدُ . وقد اختلف النّاس فى أمرها اختلافاً كبيراً ، فعلينا هُنا أن نَذْكر لكَ أوَّل ذِى بدء رِوايةَ الرُّواة فى أمر نبوته ، تامة كما رَوَوْها ، ثم نعقبها برأينا الذى ارتضيناه ، وقَضَينا به . وقد جاءت الرواية بها عن التَّنُوخى الذى مرَّ ذكره فى أوّل كلامنا عن نسب المتنبى ، وجاءت أُخْرى عن أبى عبدالله مُعَاذ بن إسماعيل اللاَّذقى الذى قال : إنَّه لَقِيَ المتنبى باللاَّذقية ، وبايَعه بالنبوة ، وأخذ بيعَتَهُ لأَهْله أيْضًا !! كما سترى .

رَوَى التنوخىّ (عَلِيّ بن المحسِّن) ، عن أبيه المحسِّن التنوخىّ ، عن القاضى أبى الحسن بن أم شيبان الهاشمى الكوفىّ ، قال :

١ — « وقد كانَ المتنبِّى لمَّا خرج إلى كلبٍ وأقام فيهم ادَّعى أنه عَلَوِىٌّ حسنىٌّ ، ثم ادَّعى بعد ذلك النبوَّةَ ، ثم عادَ يَدَّعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أُشهِد عليه بالشأم بالكذب فى الدعويين ، وحُبِس دهراً طويلاً ، وأشرف على القتل ، ثم استتيب ، وأُشْهِد عليه بالتوبة وأُطْلِق » .

٢ — وحدّث التنوخىّ أيضاً عن أبيهِ المحسن قال : حدثنى أبو على بن أبى حامد قال :

« سمعت خلقاً بحَلَبَ يحكون ، وأبو الطيِّب المتنبى بها إذ ذاك ، أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤٌ أميرُ حمص من قِبَل الإخشيدية فقاتله وأَنفرَه ، وشَرَّدَ من كان اجتمع إليه من كلبٍ وكلابٍ وغيرها من قبائل العرب ، وحَبَسَه فى السِّجن حبساً طويلاً ، فاعتَلَّ وكاد أن يتلف ، حتى سُئِل فى أمره فاستتابه ، وكَتَب عليه وثيقةً أَشْهَد عليه فيها ببطلان ما ادَّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله ، وأطلقَهُ »(١) .. ..

* * *

ثم هذا حديث مُعاذٍ اللاَّذقىّ ننقله على طوله :

٣ — « قدم أبو الطيب اللاَّذقية فى سنة نَيِّف وعشرين وثلاثمئة : وهو لا عِذَار له ، وله وَفْرَةٌ إلى شحمتى أذنيه ، فأكرمته وعظَّمته لما رأيت من فصاحته وحسن سَمْتِهِ . فلما تمكن الأُنْس بينى وبينه وخَلَوْت معه فى المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه قلت :

(١) لهذا الحديث تتمة فيها ذكر قرآن أبى الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد .

والله إنك لشابٌّ خَطِيرٌ ، تصلحُ لمنادمة ملكٍ كبير .

فقال : ويحك ! ! أتدرى ماتقول ؟ أنا نبيٌّ مرسل !

فظننتُ أنه يهزلُ ، ثم تذكّرت أنى لم أسمع منه كلمة هَزْل قطٌّ منذ عرفته .

فقلت له : ماتقول ؟ — فقال : أنا نبى مرسلٌ — فقلت : إلى مَنْ مرسلٌ ؟ — فقال : إلى هذه الأُمّة الضالة المُضِلّة — قلت : تفعلُ ماذا ؟ — قال : أملأُ الدنيا عَدْلاً كما مُلِئَتْ جَوْراً — قلت : بماذا ؟ قال : بإدرار الأرزاق ، والثوابِ العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى . فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيمٌ أخاف عليك منه ! وعذلته على ذلك ، فقال بديهةً :

أَبَا عَبْدِ الإله ، مُعاذُ ، إنِّى خَفِىٌّ عَنْكَ فِى الهَيْجَا مَقَامِى
ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَّلَبِى ، وأَنِّى أخَاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسَامِ
أمِثْلِى تأخُذُ النَّكَبَاتُ منه ، ويجزَع من مُلاقاةِ الحِمَامِ ؟
وَلَوْ بَرَزَ الزمانُ إلىَّ شَخْصاً لخضّب شَعْرَ مَفْرِقِه حُسَامِى
وَمَا بلغتْ مَشِيئَتَها الليالى ولاَ سَارتْ وفِى يدها زِمَامِى
إذَا امتلأتْ عُيُون الخيلِ مِنّى فويلٌ فى التيقُّظ والمنامِ

فقلت : ذكرت أنّك نبى مرسلٌ إلى هذه الأُمة ، أفيوحى إليك ؟ — قال : نعم ! — قلت : فاُتلُ علىَّ شيئاً مما أُوحى إليك ! — فأتانى بكلام

ماَمَرّ بمسمعىّ أحسنُ منه — فقلت : وكم أوحى إليك من هذا ؟ — فقال : مئة عبرة وأربع عشرة عبرة — قلت : وكم العبرة ؟ فأتانى بمقدار أكبر من الآى فى كتاب الله تعالى — قلت : فى كم مدة أوحى إليك ؟ — قال : بُجْملة واحدةً — قلت : أَسْمَعُ فى هذه العبرَات أن لك طَاعة فى السماء ، فما هى ؟ — قال : أَحبس لِلمدْرَار ، لقطع أرزاق العُصاة والفُجّار — قلت : أتحبس فى السماء مطرَها ؟ — قال : إى والذى فطرها ! أما هى مُعْجِزة ؟ — قلت : بلى والله — قال : فإن حبست المطر عن مكان تنظُر إليـــه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بى ، وتصدقنى على ما أوتيت من ربّى ؟ — قلت : إى والله — قال : سأفعل ، ولا تسألنى عن شىء بعـــــدها ، حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر ، وانتظرْ ماوُعِدْتَه من غير أن تسأله = ثم قال لى ، بعد أيام : أتحبُّ أن تنظُر المعجزة التى جرى ذكرها ؟ — قلت: إى والله — فقال لى : إذا أرسلتُ إليك هَذا العبد فاركب معه إلىّ ولا تتأخر ولا تُخْرج معك أحداً — قلت : نعم .

فلما كان بعد أيامٍ تغيّمت السماء فى يوم من أيام الشتاء ، وإذا عَبدُه قد أقبل فقال : يقول لك مولاى : اركب للموعد . فبادرتُ إلى الركوب معه ، وقلت : أين رَكِب مولاك ؟ — قال : إلى الصحراء . واشتدّ وقع المَطَرِ فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى ، فإنه ينتظرنا بأعلى تَلّ . لايصيبه فيه مطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : أقبل إلى السماء أوّل مابدا السحاب الأسود ، وهو يتكلم بمـا لا أفهم ، ثم أخـذ السوط فدار به فى موضع ستنظر إليه ... وإذا هو على تَلّ بعيد عن البلد نصف فرسخ ، فأتيت إليه ، فإذا هو على التل لم يصبه من ذلك المطر شىء ، وقد

خُضْتُ فى الماء إلى رُكْبة الفرس ، والمطر فى أشدّ ما يكون . ونظرتُ إلى نحو مثتى ذراعٍ فى مثلها من ذلك التل مافيه قطرة مطر . فسلّمتُ عليه ، فردّ علىّ السلام . فقلت : ابسط يدك . . أشهد أنّك رسول الله . فبسط يده فبايعته بَيْعَة الإقرار بنبوته ، ثم قال :

أَىَّ مَحلٍّ أرْتقى أَىَّ عَظيمٍ أَتَّقى
وكُلُّ ماخلق اللـــهُ ومَا لم يَخْــلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتى كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

« وأخذتُ بيعتَهُ لأَهلى ، ثم صحّ بعد ذلك أن البيعة عَمّتْ كلّ مدينة بالشام ، وذلك بأصغر حيلةٍ تعلَّمها من بعض العرب ، وهى « صدحة المطر » يصرفه بها عن أىِّ مكانٍ أحبّ ، بعد أن يحوِيَ بعصاً ويَنْفُثَ فى الصَّدْحةِ التى لهم .

« قال أبو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسَّكُون وحَضْرَموت والسَّكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه ، حتى إنّ أَحَدهم يَصْدَح عن غنمه وإبله وعن القرية فلاَ يصيبها شىء من المطر ، وهو ضَرْبٌ من السّحْر. وسألت المتنبى بعد ذلك : هل دَخلت السَّكون ؟ قال : نعم ! أَمَا سَمِعتَ قولى :

أُمِلُّ القَطْرِ أعطِشْهَا رُبُوعَا وَإلاّ فَاسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعا
أُمُنْسِىَ السَّكُون وحَضْرَمَوْتاً ووَالِدَتى وكِنْــدَةَ والسَّبيعَا

« فقلت : مِنْ ثَمَّ استفادَ ماجوّزه على طَغام أهل الشام . . . (وأنت منهم يا أبا عبد الله إذن) !!

. ثم قال أبوعبد الله هذا : « ومما كان يُمَخرق به فى البادية ، أنه كان مشّاءً قويًّا على السير ، يسير سيراً لاغاية بعده ، وكان عارفاً بالفلوات ومواقِع المياه ومحالّ العرب بها . وكان يسير من حِلّةٍ إلى حِلّةٍ بالبادية ، وبينهما مَسيرة أربعة أيام ، فيأتى ماءً فيغسل وجهه ويديه ورجليه ، ثم يأتى أهل هـذه الحِلّة فيخبرهم ماحدث فى تلك الحلّة التى فارقها ، ويوهم أنّ الأرض تُطْوَى له . وسئل فى تلك الأيام عن النبى صلى الله عليه وسلم : فقال : أُخْبَر بنبوّتِى حيث قال : « لانبى بعدى » ، وأنا آسمى فى السماء « لا » .

« ولما اشتهر أمره ، وشاعَ ذكرُه ، وخرج بأرض (سَلَمْيَة) من عمل حمص فى بنى عدِيّ ، (وظهر منه ماخِيف عاقبته) ،[1] قَبَض عليه اُبن على الهاشمى فى قرية يقالُ لها (كُوتَكِين) ، وأمر النجار أن يجعل فى رجليه وعنقه قُرْمَتين من خشب الصفصاف ، فقال المتنبى :

زَعَم المُقيمُ بكُوتَكِين بأنّهُ مِن آل هاشمٍ بنِ عبدِ مَنافِ
فأجَبتُه : مُذْ صِرْتَ من أبنائهم صارتْ قُيُودُهمُ من الصَّفْصَافِ

انتهى حديث معاذ بن إسماعيل اللاّذقى (أبى عبدالله الصِّدّيق !!) الذى الذى كان أول من صدّق بنبوة أبى الطيب وآمن به وأخذ بيعته لأهله !!

* * *

ومادمنا قد أطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ، إن شاء الله ، لونقلنا لك مارواه أبوالعلاء المعرى أيضاً قال :

---

(١) فى بعض الكتب هذه الزيادة .

٤ — « وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه ، أنه لما حصل في بني عديّ وحاول أن يخرج فيهم قالوا ، وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقةٌ صعبةٌ ، فإن قدرت على رُكوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل ، فتحيَّل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكَّرَتْ بُرْهة ، ثم سكن نفارها ومَشَت مَشْيَ المُسْمِحَة ، وأنه وَرَد بها الحِلَّة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كلَّ العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

« وحَدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاَّذقيّة ، وأنَّ بعضَ الكتّاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مُفْرِطاً ، وأن أبا الطيب تَفَل عليها من ريقه وشدَّ عليها غير منتظر لوقته . وقال المجروح : لا تحلّها في يومك ! وعَدَّ له أياماً وليالي ، وأن ذلك الكاتب قَبِل منه ، فبَرِىء الجرحُ ، فصاروا يعتقدون في أبي الطَّيب أعظم اعتقاد ويقولون : « هو كمحيي الأموات » .

وحَدَّث رجلٌ كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاَّذقية أو في غيرها من السواحل : أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلبٌ ألحَّ عليهما في النباح ، ثم انصرف . فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرّجل ألْفَى الأمرَ على ما ذكر . . ولا يمتنع أن يكون أعدَّ له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل . . . واَلخرْبَق سَمّ الكلاب » .

* * *

هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند أكثر الرواة ، أما قرآنه فقد أجمعوا أنه لم يبق إلاَّ مانرويه لك . قال أبو على بن أبى حامدٍ ، الذى مرّ آنفاً :

٥ — وكان (يعنى أبا الطيب) قد تلا على البوادى كلاماً ذكر أنه قرآنٌ أُنزل عليه ، وكانوا يحكُون له سوراً كثيرةً ، نسخت منها سورة ضاعت ، وبَقِى أوّلها فى حفظى وهى :

« وَالنَّجْم السَّيَّار ، والفَلَك الدوَّار ، والليل والنَّهار ، إنّ الكافر لَفِى أخطار ، امض عَلى سَنَنِك ، وَاقْفُ أَثَر من كان قَبْلك من المرسلين ، فإنّ الله قامع زيغَ من أَلحدَ فى دينه (الدين) وضل عن سبيله (السبيل) » . قال : وهى طويلة ، لم يبق منها فى حفظى غير هذا .

* * *

وأنا لا أحبُّ أن أتجاوز هذه النصوص إلى ماسواها ، إلاّ وقد نظرت فيها وبصَّرْت القارىء بالتوائها وضعفها وَوَهَنِها ، ويأتيه ما استنبطناهُ وقد وَقَر فى نفسه ردُّ هذه المقالة التى نُبِز بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردّنا مقام البيّنة على ما أردناه ، أصبنا أو أخطأنا .

لن نعودَ تارة أخرى إلى ماقدّمنا من ذكر التنوخىّ ، ثم روايته عن أبى الحسن العلوى وابن أم شيبان الهاشمىّ ، ففى أول كلامنا تجدُ بعض الأدلَّة على وَهَن رواية التنوخى ، واستسقاطِنا إياها ، ولا غِنَى لك عن العوْدَةِ إلى تذكّره عند هذا الحديث عن نبوّة المتنبى .

بَيَّنَّا لك فيما مرَّ ما بين أبى الطيب و بين العَلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديمٌ هو الذى أراد أن يدركه فيهم ، وينال « حقه » منهم ، ورجح عندنا الاستنباط أن يكون أبو الطيب « علويًّا » منكوباً فى نسبه وشرفِهِ وجاهِهِ ، وأنه كان يريد أن يظهر نسبته إلى العلويين ، ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ ، فإذا جمعت هذا الرأى هنا ونظرت فى النص الذى وقع إلينا من التنوخى عن ابن أم شيبان الهاشمى ، وهو علوى كبير ، ملكَكَ الشكُّ وغلب عليك فيما رَوَى ، فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيما قال — لو صدق التنوخيّ فى روايته عنه — أن أبا الطيب ادعى العلوية مرتين .

أما حديث معاذ بن إسماعيل اللاذقى فنقد سَنَدِهِ لا يتيسر لنا ، لأن صاحبنا هذا اللاذقى مجهولٌ لم نقع له على ذكر ، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطًّا لكثير من كبار الدُّعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله . فلا بأس من أن تجعل هذا ذِكْراً مذكوراً وأنت تتبصَّر فى أصل الرواية ، على وَهَنِها وتضارُبِها وتهالك معانيها التى يُفْسِد بعضها بعضاً ، كما سترى بعد .

فالحديث الأول ، وهو حديث ابن أمّ شيبان الهاشمى ، عجيبٌ لا يَفْرَغ العجب من اختصاره وتداخُله . فهو رتَّب أمر ظُهور المتنبى على درجاتٍ ثلاث : الأولَى ادعاؤه العلوية ، والثانية ادّعاؤه النبوة ، والثالثة ادعاؤه العلوية مرة أخرى . فأما أن يدعى العَلوية ، ثم يعود فيدّعى النبوة ، فهو قولٌ لا بأس به ، ولكنَّ العجبَ أنه بعد هذا عقَّب على « النبوة » بلفظ التعقيب (ثم) ، فقال « ثم عَاد يدّعى أنه علوىّ » . فالذى يدّعى النبوة ويُبَايَع بها ، كما يقول

اللاذقى الصدِّيق ! ! ، لا يُعقِّب على هذه الدعوى بالعَلوية . فادعاء الرجل النبوَّة ثم انحطاطه منها إلى العلوية إكْذابٌ لنفسه ، وإقرارٌ منه بالمخرقة على الناس والعبث بهم ، ولا يكون ادَّعى النبوة ثم ينحطُّ منها إلاَّ بعد قتالٍ يُرْغَم فيه على التسليم ، ولا شَكَّ أنه لو كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحبس لوقته قبل أن يتمكن من القيام بالدعوة إلى نفسه مرَّة أخرى بين بنى كلب فيدَّعى العلوية . ثم لَوْ أنه كان مُطْلقاً ، ورجع عَن النبوة إلى ادعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً فى تكذيبه وتحقيره عند من سَلَّموا له بما ادعى من عَلَويَّته بدءا ، ونُبُوَّته بعد . فهذا وجه فى إبطال هذا النص .

أمَّا حديث أبى على بن أبى حامد ، ولم نعرف الرجل ، فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذى قدمناه ، إذ اقتصر صاحِبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلاَّ من قِبَل غرابته عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدَّعون النبوة ، فيقول أبو على : إن لؤلؤاً أميرَ حمص : « استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشْهدَ عليه فيها ببُطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » . أمَّا أن يستتيبه ويُشْهِدَ عليه أنه تائب ، فهذا لا بأس به ، وهو الحكم مع المتنبئين = وأما أن يكتب وثيقةً عليه ببُطلان نُبُوَّته ، فهذا أمْرٌ لا معنى له ، لأن الوثيقة إنما تُكْتَب فيما يُخَاف من قِبله معاودةُ الدَّعوى ، فتكون إقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطلان من المدَّعى نفسه ، كدعوى الملكية فى العروض ، ودَعْوَى العلوية « مثلاً » فى النسب ، فتكون الوثيقةُ حُجَّةً عليه إذا عادَ ليُحَاجَّ الناس فيما ادَّعاه ، بعد الإقرار على نفسه بالكذب فى الدعوى الأولى . أمّا النبوَّة ، فالأمر فيها على غير ذلك ، فإنّ الرجل إذا ادَّعَى النبوةَ ثم

استُتيبَ وأشهد على نفسه بالكذب فيما ادَّعى ، ثم رجع بعد ذلك يدَّعيها مرة أخرى ، لم يكن يُنظَرُ حتى يحاجَّ الناس فيما يدَّعى ، ويقول لهم : إنكم لم تأخذوا علىَّ وثيقة مكتوبة مشهوداً علىَّ فيها بالكذب ، وإنما يكون جزاؤه القتل من غير إنظار ولا استتابة .

فهذه الوثيقة التى ذكرها أبو على ، إذا صح أمرها ، إنّما تكون قد أخذت عليه فى دعوى العلوية لا دعوى النبوة . فأنت ترى أن نَصّ ابن أم شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وأن ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه ، وترى أن نص أبى على بن أبى حامد يرجح دعوى العلويّة لا دعوى النبوة ، فإذا قَرَنْتَ هذا إلى ما تمادَيْنَا فى ذكره عن نَسب المتنبى ، وما أتينا به من الحجة فى ترجيح نسبته إلى العلويين ، لم تَبْعُدْ عن الحكم بأن هذه الروايات إنما يراد بها دعوى العلوية لا دعوى النبوة .

أما ثالث الأحاديث ، وهو حديث أبى عبد الله الصدِّيق !! معاذ بن إسماعيل اللاذقى ، فعجبٌ كله ، وبطلانه بيِّن للمتدبِّر أدنى التدبُّر ، ولولا أن كثيراً ممن كتب عن المتنبى مرَّ به ولم يَعْرِض له لتركناك تحكم بوضعه من سياقه ومَدْرَجِه ، دون أن نأخذ أنفسنا بنقده . وأنت إذا تدبرت الحوارَ الذى زعمه أبو عبد الله هذا بينه وبين أبى الطيب ، لم تشكَّ ساعةً فى أن الرجل كان يَضَع هذا الكلام وَضْعاً ولا يرويه رواية . والعجب له !! قد اتهم نفسه فى مواضع من كلامه بقلة العقل وعمى البصيرة ، وسُرعة التهور فى التسليم.

فهذا المسمى معاذاً كان، ولا شك رجلاً مسلماً مدركاً يملك من العقل مقداراً يكفى ، على الأقل ، فى الإنصات له إذا حدَّث ، وإلا بَطَل حديثُه هذا

من غير محاولة منا فى إبطاله ... فإن كان كذلك ، أو أقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يَصْبر على الرَّجُل حين آدعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتمادى فى الحوار معه ، ثم يصف كلامَ فتًى فى السابعة عشر أنه « ما مرَّ بسمعه أحسنُ منه ». فهذه إمَّا أن تكون كلمةَ جاهلٍ ، وإمَّا كلمةَ وضاعٍ يريد أن ينتقِصَ من الرجل ، فهو يهيِّيء لانتقاصِه بامتداحه وتعظيمه . ثم كيف يُعْقَل أن رجلاً مُسلماً كان فى عصر المتنبى ، ثم فى مدينة كاللاذقية ، ويدل كلامه على بَعْض العلم ، يُصدِّق دعوى حَبْس المطر ويَعُدُّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوةَ بعد موتِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ! وأعجب من ذلك فى الوضع البَيِّن أنه يدّعى هذا المسمَّى معاذاً أنه أقرَّ بنبوَّة المتنبى ، ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر ، وأنه أخذ البيعةَ لأهله أيضاً على الإيمان به ، فأىُّ رجلٍ مسلمٍ غير جاهلٍ ولا مفتون فى ذلك العصر ، يتهوَّر فى الكفر بغير معجزة ولا بينة ؟ ومن عجيبِ سَهْو هذا اللاذقى فى الوضع أنه قال بعد ذلك تَوًّا : « يريد معجزة حبس المطر » ، « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو أنّه كان قد أَتقن وضعه، لزعم أنه بقى على بيعة المتنبى والإقرار له بالرسالة ، إلى أن رأى ، بعد زمان ، أو سمع واستيقن ، أن الذى فعله المتنبى وَزعمه معجزةً له ، أمرٌ مشهورٌ عند بعض العرب يتعاطَونه إذا كَرَبَهمُ المطرُ ، ثم يصف كما وصف أنه « صدحة المطر ، يصرفونَهُ بها عن أى مكان يحبون ، بعد أن يحوُوا بعصا وينفثوا فى الصدحة التى لهم ... الخ » ، فكفر بنبوة المتنبى لذلك، وتابَ ورجع إلى الإسلام . ثم من ضعف وَضْع هذا اللاذقى أنه زعم أنَّه كان قد رأى كثيراً من أهل السَّكون وحَضْرَموت يفعلون صدحةَ المطر ولا يتعاظمونها ، فسأل المتنبى : هل دخلْتَ السَّكون ؟ قال : نعم ! وما دام

اللاذقى هذا كان قد عَرَف هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ، ولا دليلَ له على نبوته غيرها ، وهى مشهورة فى اليمن معروفة معمول بها ، كما يقول .

وأعجب من هذا أنه يدعى أنّ دعوةَ المتنبي قد عمت كل مدينة بالشأم وبويع له بها : كيف يكون هذا ؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان أكثرُ أهلها لا يتخلفون عن صلاةٍ ، ولا يزال بين ظهرانيهم عالمٌ يقرأ فى مجلسه ، أو واعظ يعظ فى حَلقته ، أو خطيب يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية . وإن زعمنا أن اللاذقى قد آمن بالمتنبي لصدحة المطر ، أفتؤمن له كل مدينة بالشأم وتبايعه لهذه الضلالة ، أو هذه الأُكْذوبة التى لا تعقل ؟ ليكن اللاذقى رجلا لا عقلَ لهُ ، أفيكون أهل الشأم كلُّهم هذا الرجل ؟ !

ويقول اللاذقى للمتنبي يخوّفه مما يقول به من النبوة : « إنّ هذا أمرٌ عظيم أخاف عليك منه » ، فيجيبه المتنبي بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وإنما هو شعرُ رجل مُقاتل يريد الحرب ، لا مقالةُ نبيٍّ يريد أن يؤمن الناس به . ثم إنّ الذى قاله فى الشعر يدل على غير ذلك ، فإنه قال :

ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَّلبى،وَأَنى أُخَاطِرُ فيه بالمُهجَ الجِسَامِ

وليست النبوة مطلباً يطلب ويخاطر فيه بالنفس والنفيس ، وإنما النبوة أمرٌ من الله لمن أوحى إليه أن يصدع بما يؤمر به ، فيكون عمله هدايةَ الناس باللين أو بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبى يريد أن يناله ، بل

يكون أمراً يجب أن يطيعه ويعمل به ، وكذلك الأبيات التي أنشدها :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي

فالقول فيها قريب من هذا . أمّا البيتان الأخيران ، فهما الدليلُ على تلفيق الرجل ، فالبيت الأول هذا : « مُاثَّ القَطْر » ، أول قصيدة للمتنبي ، والبيتُ الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدها المتنبي معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرموت ، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم إنَّ المتنبي ، بغير شكٍ ، لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم وُلد إلى يوم مَات . أما الَّذي ذكر في الأبيات فهو ، كما قدمنا لك ، أسماء خطط لأهل اليمن بالكُوفة التي ولد بها أبو الطيب (انظر ص : ١٧) .

وأيضاً ، فإنّ هذه القصيدةَ التي منها هذان البيتان ، في مدح علي بن إبراهيم التنوخي ، وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن ، أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ ، على ما حققناه .[1] وهذا الذي ذكره اللاذقيُّ في حديثه كان سنة ٣٢١ ، قبل أن يقبض عليه . فهذه كلُّها أدلة بينة على وضْع القصة وتلفيقها ، وأنها وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبي بزمان .

ومن أكاذيب هذه الرواية أيضاً ، دعواهم أن المتنبي كان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ، ومحالِّ العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلاّ لمن وُلِدَ بهذه البلاد

---

(١) الرأي هو هذا الأخير كما سترى بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره .

ونشأ بها ، والمتنبي دخل البلاد في السنة التي يَرْوى فيها اللاذقي هذا الحديث » وحُبِس في السنة نفسها ، فما كان له أن يعرف مَجاهِلَ البادية ومواقعَ مياهها ومحالَّ أهلها ، كما زعم ، في قلةٍ من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء الوضاعين ؟

* * *

أمّا معجزات المتنبي ، فلا نتكلم فيها لأنَّ بطلانها بيِّن وفسادَها مكشوفٌ ، ولقد علمت بهذه الأحاديث التي رويناها لك ، أنهم كانوا يريدون أن يتّهموا الرجل بما هو منه براء ، فأولى أن تكون المعجزات التي رَوَاها أبو العلاء ضرباً من الكيدِ له ، وتأييداً لاتّهامهم الرجل بدعوى النبوة .

أما قرآنه ، فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنما هو « ضربٌ من الهذيان » . والعجبُ أن يبايع له اللاّذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول : « ما مرَّ بمَسْمَعي أحسن منه » ! ثم الأعجب أن تعم بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة الصغيرة التي رَوَوْها ، يزعم أبو علي ابن أبي حامد أنها بقيت في حفظه !!

ولا ندري لماذا أصيب المتنبي بهذا العَجَب ! ! ففي مسألة نسبه ، كانت نسبته إلى جُعْفِيٍّ بن سعد العشيرة ، التي كان يخفيها خوفاً ، لا يعرفها إلاَّ التنوخيّ وابن أم شيبان ، وأبو الحسن العلوى = وقرآنه لا يحفظه إلا أبو علي ابن أبي حامد واللاذقيّ ، ثم لا يحفظان معاً منه إلاَّ قطعة بعَيْنها ، مَع أن اللاذقيّ قد ذكر تَعْدادَها مئة عبرة وأربع عشرة عبرة ، واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقي من هذا العدد !!

* * *

وبعدُ ، فإنّ أحداً لا يشك فى أن الرجل (أبا الطيب) كان قد سجن لأمر مّا ، ولكن حرص هؤلاء الذين رَوَينا أقوالهم على أن يجعلوا حبسه من أجْل النُّبوة ، يجعلنا نرى أنهم جعلوا مسألة « النبوة » غطاء يسترون به حقيقة ما قام من أجله أبو الطيب فقبض عليه . وبيّنٌ على مذهبنا فى نسب المتنبى أن الرجل حُبس من أجل « دعوى العلوية » التى ذكرها الرّجل الطيب ابن أم شيبان ، وأقحم عليها « النبوة » ، ليجعلَ دعواه فى علويته كذباً ، فإن الذى يدّعى النبوةَ لا يتورع عن ادّعاء العلوية . ثم إن هذا الرأىَ من ابن أمّ شيبان ، لو صَحَّ عنه ، يزيدنا يقيناً بأن الرجل كان يعرف من أمر نَسَب المتنبى شيئاً ، ويريد أن يخفيه ، وأن لا يُظْهِرَ عليه أحداً من الناس .

ومسألة القبض على المتنبى وَحَبْسه لها عندنا سياقٌ تاريخىٌّ آخر استنبطناه ، ولكن يحسن بك أن تهيِّىء فى نفسك مرة أخرى ما قلنا به من نسبة المتنبى إلى العلويين ، وما أفضنا فيه من القول فى عدة مواضع ، ليسهل عليك أن تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هَذا ، ونحن والقارىء فى هذا الموضوع سواء ، فمن تبيَّن له وجه أو توَجَّه له رأى ، فليكتب لنا به مشكوراً .

دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِى البَلاءُ
وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحَدِيدِ
وَقَدْ كَانَ مَشْيُهُمَا فِى النِّعالِ
فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِى القُيُودِ
وكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فى مَحْفِلٍ
فَهَا أنا فِى مَحْفِلٍ من قُرُودِ
فلاَ تَسْمَعَنَّ مِنَ الكَاشِحِين
وَلاَ تَعْبَأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُودِ)
وكُنْ فَارِقاً بين دَعْوَى (أَرَدْتَ)
ودَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوٍ بَعِيدِ

قلنا إن المتنبي فى أواخر سنة ٣٢٠ ، اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على إحداث حدث لعله أن يصيب من ورائه ما يبتغى وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً فى قومٍ ، ليشفى به صدر جدَّته وصدره ، ثم أنفذعَزْمه فى الرحلة عن الكوفة إلى بغداد ، ومن ثَمَّ اتخذ طريقه مُصْعِداً إلى ديار ربيعة بين النهرين ، إلى الموصل ونصيبين ورأس العين ، وانحدرَ بعدُ إلى الشام ، فقُبض عليه هناك .

وكان مرور المتنبي برأس عين فى أوائل سنة ٣٢١ على الأرجح ، وفى تلك السنة حدث حادث كان من جرَّائه أنْ قُتِل أبو الأغرِّ بن سَعيد بن حَمْدان.

(ابن عم سيف الدولة) . وذلك أنّ بنى تَغْلَبَة اجتمعوا إلى بنى أسَدٍ القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيء ، فصارُوا يداً واحدة على بنى مالك ومَنْ معهم من تَغْلِب (وهم قوم بنى حَمدان) ، وقَرُب بعضهم من بعض للحرب . فركب ناصر الدّولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، (أخو سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان) ، فى أهله ورجاله ومعه أبو الأغرّ بن سعيد ابن حمدان للصلح بينهم ، فتكلم أبو الأغرّ فطعنه رجل من حزب بنى ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقَتَل منهم ، ومُلّكت بيوتهم ، وأخذُوا حريمهم وأموالهم ، ونَجَوْا على ظهور خيلهم ، وتبعهم ناصرُ الدولة إلى الحديثة (بقرب الموصل) . فلما وصلوا إليها ، لقيهم يأنَسُ غلامُ مؤْنِس ، وقد وَلِى الموصلَ وهو مُصْعِد إليها ، فانضم إليه بنو ثعلبة وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذى بين أيدينا فى كتب التاريخ ، ولكن بعضَ رُواة ديوان المتنبى أو شرّاحه يقولون : إن المتنّبى مَرّ برأس عين فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة ، وقد أوقع سيف الدولة بعَمْرو بن حابِس من بنى أسد ، وبنى ضَبَّة وبنى رِياح من بنى تميم ، فمدحه بقصيدته الّتى أوّلها :

ذِكْرُ الصِّبا ومَراتِعِ الآرَامِ ... جَلَبَتْ حِمامى قَبْل يَوْمِ حِمامى

وذكر ما كان من أمر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين فى أرض الموصل وما جاورها . فبيّنٌ أنّ لقاءَ سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بنى أسد وبنى ضَبَّة وبنى رِياح ، كان على إثْر قتلهم ابنَ عمه (أبا الأغر بن سعيد بن حمدان) = وأنّ مدحَ المتنبى سيف الدولة قد أحفظ

عليه بنى أسَدٍ وبنى ضَبَّة حتى كان أمرهم بَعْدُ معه ما كان — على ما نذهب إليه — من أنهم قتلوه بالعراق ، كما سيأتى بعد .

ويقول رواة الديوان : إن أبا الطيِّب لم ينشد سَيْفَ الدولة هذه القصيدة ، ولا نَظُنُّ أن ذلك يكون دليلاً على أنّه لم يلقَ سيف الدولة فى سنته تلك ، بل الأرجح عندنا أنه لقيه وحدّثه ، واتَّصل بينهما الودُّ قليلا قليلا ، وفى القصيدة أبيات تدل على أن سيف الدولة (وكان صغيراً فى مثل سن المتنبى) أفْضَلَ عليه بعض الإفضال وأكرمه وأحبه . والعجب أن تكون هذه القصيدة ، وهى من أول قصائده فى حياته ،[1] تدل على حبٍّ بليغ لسيف الدولة ، يَقْرُب من حبه له بعدُ ، والذى تدل عليه مدائحه التى استفاضت بعد اتصاله به فى سنة ٣٣٧ ، كقوله مثلاً :

وتعذُرُ الأحْرَار صَيَّر ظَهْرَها ... إلاّ إليكَ علىَّ ظَهْرَ حَرام[2]
(أنْتَ الغَريبةُ) فى زمانٍ أهْلُهُ ... وُلِدَتْ مَكارِمُهُم لِغَيْرِ تِمَام
أكثرتَ من بَذْل النّوالِ، ولم تَزَل ... علماً عَلَى الإفضال وَالإنعام
صَغَّرتَ كُلَّ كبيرة، وكَبُرْتَ عن ... لَكأنّه ، وعَدَدتَ سِنَّ غلاَم
ورَفَلْتَ فى حُلَل الثناء ، وَإنما ... عَدَمُ الثَّناء نِهاية الإعدام
عَيْبٌ عليكَ تُرَى بسَيْفٍ فى الوغى، ... مَا يَصْنَعُ الصَّمْصَامُ بالصَّمْصَام ؟
إنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أوْهُوَ كائِنٌ ... فبرِئْتُ حينَئِذٍ مِنَ الإسْلام

وهذا غلوٌّ عجيبٌ ... وأنت إذا رجعت إلى مدائح المتنبى إلى أن اتَّصل

(١) كانت سن المتنبى إذ ذاك ١٨ سنة .

(٢) « ظهرها » ، يعنى ظهر ناقته .

بسيف الدولة فى سنة ٣٣٧ ، لم تجدْ دلالة الحب والتعظيم بادية فى مثل هذه المعانى ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبى كان قد رأى من سيف الدولة فى ذلك العهد مثلاً من أمثلة المروءة والفتوّة التى كان يفتقدها فى رجال عصره . وأنت ترى أن المتنبى فى صِغَره ، كما بيَّنا لك أوّلَ كلامنا ، كان يرى الرُّجولة والفتوّة المثلَ الأعلى الذى يعلِّق به طَرْفَه ، وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب المجد وطلب الثأر ، ولما فى نفسه من الثورة على زمنه وأهله ، وعلى من ظلموه وأرادوا به شرًّا وذلاًّ ومهانة .

وعجيبٌ أيضاً أن لا يمدح المتنبى واحداً من الخلفاء وأبنائهم وهم بالعراق ، ولا أحَداً من كبار العراقيين من الأمراء ، ثم يعمد إلى مدح بنى حَمْدان وَحْدَهم ، ولم تكن شوكتهم بعد قد بلغتْ مبلغ غيرهم من الأمراء ، فذلك دليل على أنه لم يمدحهم للعطاء وحدَه ، بل مدحهم لأمرٍ آخر لا نكادُ نتبيَّن إلاّ أطرافاً منهُ . ولعلّ بنى حمدان كانوا يعرفون من أمر المتنبى شيئاً ، وكانوا يصلون جدّته فى حال نكبتها ، فلذلك ذكر المتنبى أبوىْ سيف الدولة فى القصيدة وطلب لقبريهما السُّقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذكرهما ، وذلك قوله :

صلَّى الإلهُ عليكَ غير مُوَدَّعٍ وَسَقَى ثَرَى أبَوَيْكَ صَوْبَ غَمَامِ

وفى مدحه لبنى حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجّح ذلك :

قومٌ تفرَّسَتِ المَنَايا فيكُمُ فرأَتْ لكم فى الحربِ صَبْرَ كِرامِ
تَاللهِ مَا عَلِمَ امرُؤٌ لَوْلاَ كُمُ كَيْفَ السَّخاءُ وكَيْفَ ضَرْبُ الهَامِ

وعندنا أن هذه القصيدة قد أنبتتْ فى صدر سيف الدولة محبّةَ هذا الفتى العربىّ الطموح الثائر الذى لا يستقرُّ ، وكأن توافقهما فى السِّنّ والفتوة قد جمع بين قلبيهما.(١) ولولا ما كان فى صدر المتنبى من الأمانى التى لاتهدأُ ولا تَفْتُرُ، لبقى معه، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك ، ومن أُهبته إلى حرب بنى أسد وبنى ضَبّة ، لعزم على صاحبه فى الرُّفقة فى الحِلِّ والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان ...

* * *

وخرج المتنبى من أرض بنى حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصةً ، إلى عزيمته بالشام . وبدأت الحوادثُ تأخذُه أخذاً حتى رمتْ به فى سجنه ، ولم يكن المتنبى لذلك العهد مغموراً مجهولاً ، كما يذهبُ إليه أكثر الكتاب ، بل كانت قصائدُهُ قبل مدخله إلى الشام قد أثبتت عليه عُيُون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هَضَموهُ وظلموهُ ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً ، وكانت دَعْوة الفاطمية قد نَفَذتْ فى بلدان العربيّة فى تكتُّمها واستتارها ، مع قوّتها وحصافة القائمين بالدعوة إليها ، وما كان لهم من المذاهب فى التدخُّلِ فى شؤون السياسة تدخُّلاً حكيماً خفيًّا مكتوماً ، يترفقون لهُ ليصلوا إلى ضربِ الخلافة العباسية والقضاء عليها ، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية .

وكان الذى أمسك العيونَ على المتنبىّ ، فيما نذهب إليه ، أنه قبل أن يَلقَى سيفَ الدَّوْلة فى المرة الأولى سنة ٣٢١ ، وكان فى طريقه بأرض العراق ،

---

(١) ولد المتنبى سنة ٣٠٣ ، وولد سيف الدولة فى تلك السنة .

قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاء ، فلَفَتهمْ إليه . فمن ذلك ما رُوِىَ من أن أبا سعيد المُجَيْمِرِىّ عذله على تركه لِقاَء الملوك وامتداحهم ، فقال له :

أَبَا سَعِيـــدٍ جنِّبِ العتَابَا فَرُبَّ رَأْيٍ أَخْطَأَ الصَّوَابَا
فَإِنَّهُم قَد أَكْثَرُوا الُحجَّابَا وَآستَوْقَفُوا لِردِّنَا البَوَّابَا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابَا والذّابِلاتِ السُّمْرَ والعِرابَا
تَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الحِجَابَا

فمثل هذا القول لا يذهبُ باطلاً عند أصحاب الأمر فى الدولة ، ومن يضعون عيونهم على سياسة العصر ودَسَائسه ، وقد كان عصراً مملوءاً بكل عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرية التى لا يخطئها مُطَّلع على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسى . وَبيِّنٌ من شعر المتنبى الذى وقع فى تَرْتيبنا لديوانه فى هذه الفترة ، أنه حين دخل العراق لَقِى بعضَ الكيد على أثر ما عُرِف عنه من الثورةِ القائمة فى صدره ، ودليل ذلك قوله :

رَمَانِى خِسَاسُ الناسِ من صَائِبِ آسْتِهِ وآخَرُ قُطْنٌ من يَدَيْهِ الجَنادِلُ
ومِنْ جَاهِلٍ بى ، وَهْوَ يجهَلُ جَهْلَهُ ، ويَجْهَـلُ عِلْمِى أنه بِىَ جَاهِلُ
ويَجْهَلُ أنّى ، مَالِكَ الأرض ، مُعْسِرٌ وأنّى ، عَلَى ظَهر السِّماكَيْن ، رَاجلُ

ولم يكتف صاحبنا بذلك ، بل خرج إلى ذكر نفسه وصفتها ، وعرَّض بما يضمر من الخروج ابتغاءً لما يؤمِّلُ من الثأر أوَّلاً ، وماسمَّاهُ « المجد والعلى » ثانياً ، فقال :

تُحَقِّرُ عندى همَّتِى كُلَّ مَطْلَبٍ ويَقْصُر فى عينى المَدَى المُتطاولُ

وَمَازِلْتُ طَوْداً لاتَزُولُ مَنَاكِبِي إلى أن بَدَت (لِلضَّيْمِ) فِيَّ زَلاَزِلُ

. . . .

يُخَيِّلُ لى أنَّ البِلادَ مَسَامِعِى وأَنِّى فِيهَا ما تَقُولُ العَواذِلُ
ومَنْ يَبْغِ ماأَبْغِى مِنَ المجْدِ والعُلَى تَسَاوَ المَحَايَى عِنْـدَهُ والمَقَاتِلُ
(ألاَ لَيْستِ الحَاجَاتُ إلاَّ نُفُوسَكُمْ ولَيْسَ لَنَا إلاَّ السُّيُوفَ وَسَائِلُ)
(غَثَاثَةُ عَيْشِى أن تَغَثَّ كَرَامَتِى وَلَيْسَ بِغَثٍّ أنْ تَغَثَّ المآكِلُ)

ولا يَلفتنَّكَ ما نحن فيه عن أن تعود إلى ما ذهبنا إليه فى أمر نَسَبِه ونكبتِه الأُولى وهو صغيرٌ، لِتَعْلَمَ سرَّ القولِ فى قوله : « إلى أنْ بَدَتْ لِلضَّيْمِ فِيَّ زلاَزِلُ » ، فهو يردُّك إلى ذكر المشكلة القائمة فى نفسه، والتى وصفناها لك على ما وُفِّقنا إليه، إذ أنه بهذا الشطر قد ضَمَّن لك معنى ما نريد من أنه كان مغلوباً على أمره، محكوماً عليه بأمر كُلُّه ظلم وضيم. فلمَّا بلغ مبلغاً، زلزله هذا الضيم وقد حاول من صدره مخرجاً، على أنه كان ـ كما وصف نفسه ـ رابِطَ الجأش، ثابتَ النفس، ثبوتَ الجبل على مايعمل تحته من العوامل البركانية التى تبتغى مخرجاً بانفجارٍ .

* * *

دَعْ ذا — ونعود إلى شعره فى الفترة التى نحن فيها من تاريخه، فكانَ مما قاله فى العراق أيضاً قصيدته التى أوّلها : « ضيف ألمّ برأسى غير محتشم »، ونَنقل إليك طرفاً منها لتتدبّره على ما رسمنا، يقول :

لَيْسَ التعلُّلُ بالآمالِ مِنْ أَرَبِى ولاَ القَنَاعةُ بالإقلال مِنْ شِيَمِى
وَلاَ أَظُنُّ بنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى حَتَّى تَسُدَّ عَلَيها طُرْقَهَا هِمَمِى

. . . .

سَيَصْحَبُ النَّصْلَ مِنِّى مِثْلُ مَضْرِبِهِ ... وَيَنْجَلِى خَبَرِى عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ
لقد تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبِرٍ ، ... (فَالآن أَقْحَم حَتَّى لاتَ مُقْتَحَم)
لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيْلِ سَاهِمةً ، ... والحربُ أَقْوَمُ من سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
بِكُلِّ مُنْصلِتٍ ما زال منتظرى ... (حَتى أَدَلْتُ لهُ مِنْ دَوْلَةِ الخدَمِ)
تُنْسِى البلادَ بُرُوقَ الجوِّ بَارِقَتِى ، ... وتَكْتفِى بالدَّم الجارِى عَنِ الدِّيَمِ
رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يا نَفْسُ وَاتَّرِكِى ... حِيَاض خَوْفِ الرَّدَى للشَّاء والنَّعَمِ
(إنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلاَ دُعِيتُ ابْنَ أُمِّ المجدِ والكَرَمِ)
(أَيملِكُ المُلْكَ — وَالأَسيافُ ظَامِئَةٌ ... والطَّيرُ جائعةٌ — لَحْمٌ على وَضَمِ)[1]
مَنْ لَوْ رَآنِى مَاءً ماتَ من ظَمَإٍ ... وَلَوْ عَرَضْتُ لَهُ فى النَّوْمِ لم يَنَمِ
مِيعادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غداً ... (وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلوكِ العُرْبِ والعَجَمِ)
فإن أجابوا ، فَما قَصْدِى بها لهمُ ، ... وإنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ

* * *

فهذا الذى أثبتنا لك من شعره فى القصيدتين ، وما صرَّح به فيهما عن آماله وآرابه ، وعن رأيه فى الدولة العباسيَّة التى ملك زمامَها العجمُ والديلمُ والتُّرك من خَدَم الخلفاء ، وعن رأيه فى الخليفةِ الضعيف الذى لا يَمْلِكُ من أمر نفسه شيئاً ، ثم يُعَدُّ فى نَظَرِ شَعْبه ملكاً مملَّكاً تعطى له المقادة ، وتصرف إليه الطاعة بالإذعان والتسليم = وما يتجلّى فى كلماتِه من إرادة التغلُّبِ والثورة على الدولة عَرَبِها وعَجَمِها = كُلُّ ذلك ولا شكَّ ، جَلَب على صاحبنا ، على

---

(١) (لحم على وضم) جملة يكنى بها عن الضعيف الذى لا ناصر له ، كالمرأة التى لا حامى لها ، وهذه الكناية فاعل قوله (أيملك الملك) ، والبيت الثانى بدل من قوله : « لحم على وضم » .

صِغره ، اهتمامَ القائمين بأمر الدولة من الولاة والدُّعاة من العرب والعجم والترك والدَّيلم ، واهتمامَ أصحابِ الدعوة العلوية والدعوة الفاطمية ، على التخصيص.

فلما كان اتصالُه ببنى حمدان فى سنة ٣٢١ ومدحُه لهم ، دونَ غيرهم من الولاة والأمراء أمثالهم ، والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاعَ بهم لما عرفوا به من الصَّراحة فى الحكم ، والدهاء فى السياسة ، والعصبيّة للعربيّة الصريحة ، وبُغْضِهم لحكام الأعاجم الذين كانوا هُم أصحابَ الأمر والنَّهْى فى الدولة كلها = ازداد اهتمامُ هؤلاء بالفتى العربى (المتنبى) ، وردوا أنظارهم إليه ، وأدركوا أن هذا الثائرَ الشاعرَ البليغَ سيكون لهُ شأنٌ أىُّ شأن ، لو تُرِكَ غير مُرَاقَبٍ ولا مأخوذٍ عليه السبيلُ التى يبغى ، والأمرُ الذى يهدِّدُ به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لايستفحِلَ أمرُهُ ، ويتّسع عليهم الخرقُ من قِبَلِهِ ، فلا يملِكُ له الراقِعُ مَرْقَعةً .

ورحل صاحبنا من (رأس عين) حيث مدح سيف الدولة ، متخذاً طريقه إلى الشام مارًّا بحرَّانَ ثم مَنْبج ، ثُمَّ أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلبَكّ ، وتردّد بين هذه المدن حتى قُبِض عليه . وكانت هذه البلاد نفسُها منازلَ من منازل الدُّعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسةٍ ودهاء فى دعوتهم إلى قَلْب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الأعاجمُ فى الشرقِ ، والموالى الذين بلغوا غاية السلطان فى خدمة الخلافة العباسية ، يداً مع العلويين على الدولة العباسية . وكانت هذه البلادُ أيضاً مجالاً للدُّعاة الفاطميين أصحابِ الجيوش والسلطان بالمغرب ، وكان هؤلاء الدعاة يسعَوْن جَهْد السَّعْى لضمّ العلويين إليهم ، واستمالةِ الولاةِ على اختلافهم

إلى مناصرتهم ، ليتمّ لهم دخولُ الشأم دون معارضةٍ بعد فتح مصر — وكانوا يعدّون له العدّة — ثم يقفوا وجهاً لوجهٍ حيال الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تمّ لهم أمرٌ عظيم فى ما وَراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على أنقاضها الدولة العلوية الفاطمية .

وكأنى بالمتنبى فى طريقه يُظْهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ، ويذيع بينهم أنه علويُّ الأصل شريف النّسبِ ، محتالاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً فى اتخاذ العَضُد قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً ، لئلاّ يواقعه العلويُّون وينزلوا به كيدَهم الذى يكيدون لهُ . دار دَوْرته فى البلادِ التى ذكرناها وأمرُهُ إلى عُلوّ ، لما عُرِف من فصاحته وبلاغته ، وحُسْن سَمْته ، وجَمَال هَدْيه ، وتوقّد ذكائه وما يمتاز به من حُسْن المعاشرة ولطيف المنادمة ، مع سعة العلم ، ودقة الفهم له . وكان فى القبائل البادية أظهرَ أمراً ، وأشدّ عَضُداً ، حتى كان آخرُ أمره ببنى عدىّ وبنى كلب ، ففشا ذكره بينهم ، وبايعوه على العون له ، فى الدعوة إلى ردّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم . وكان ظهوره فى بنى عدىّ هو الذى جلب عليه السّجن والشقاء .

ذلك أنّ بنى عدىٍّ هم قوم بنى حمدان ،[1] فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف الدولة ، ومدحُه بنى حَمْدانَ عامة = سبباً فى تيقُّظ وُلاَة (محمّد بن طُغج الإخشيد) ، وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر أمرُه بمصر بَعْدُ . وكانت بين بنى حمدان والإخشيديين الأتراك المتعصبين للدولة العباسية

(١) هم بنو عدى بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وينتهى إلى « عدى » هذا ، نسب بنى حمدان .

عداوةٌ جلبتها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بهذه العداوة وحده دون بنى حمدان ، لِماَ ظهر من قوّته ، على صِغر سنه ، وحبّه فى توسيع سلطان بنى حمدان حتى يَضُمَّ الشام وما يتبعها إلى ولايته وولاية إخوته . فلا بدَّ إذن للإخشيديين من مراقبة هذا الذى مدح بنى حمدان ، وأحدث حدثاً فى القبائل التى كانت لهم موالية ، خشْية أن يكون مُوفَداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الإخشيديين فى الاستيلاء على الشام ومصر .

وأيضاً ، فإن دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشّام نظروا إلى ذلك ، وخافوا أن يكون موفداً من قبل سيف الدولة وبنى حمدان ، وكان بنو حمدان قد استعصوا على الدعوة الفاطمية ، مع أنهم كانوا من شيعة العلويِّين . وامتناعُ بنى حمدان على الدعوة الفاطمية ، كان هو السببَ فى مناصَرتهم للخليفة العباسى وتحققهم بخدمته ، لما يعرفون من أنّ دَعوة الفاطميين كانت قدضمَّت إليها أكثر ولاة الأعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ماوراء الفرات وفى العراق نفسه . وكان هذا هو السببَ أيضاً فى العداوة المتّقدة بين بنى بويه وبنى حمدان فيما بعد ، وبينهم وبين سيف الدولة خاصةً ، فإن بنى بويه كانوا علويين فاطميين .

فاجتمعت على المتنبى عيونُ الفاطميين ، وعيونُ العلويين ، وعيونُ الدولة القائمة فى الشام . فلما ظهر فى بنى عديّ أرسلوا فى القبض عليه ، فطاردُوه من بلد إلى بلد ، وكان يستخفى منهم ، حتى وقع أخيراً فى يد (ابن على الهاشمى العلوى) ، فى قرية يُقال لها كوتكين ، [١] فقُبض عليه وأُمِر النجارُ بأن

---

(١) لعلها كانت قريبة من (سلمية) وهى قرية من أعمال حمص .

يجعل فى رجليه وعُنقه قرمتين من خَشَب الصَّفصاف ، فقال له المتنبى بيتين قد ذكرناهما آنفاً ، [١] وبقى المتنبى فى السجن من أواخر سنة ٣٢١ أو أوائل سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٣ ، ثم أُطْلِق .

* * *

وكان المتنبى فى أوّل أمره مستخِفًّا بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره إلى سيف الدولة ، فإنّ بنى عدى قومَ سيف الدولة — كما يتوهَّم — لن يتركوه فى أيدى هؤلاء ، إلاّ أن يحملوا خبره إلى بنى حمدان ، فيَخِفّ بنو حمدان إليه ، لنيّتهم فى دخول الشام ، ولكن نيّةَ بنى حمدان تأخَّرَتْ طويلاً ، فإن سيف الدولة لم يهدِّد أطراف الشام بعساكره إلاّ بعدَ ذلك بزمن طويل .

وممَّا يدُلّ على استخفافه بالسجن فى أوّل أمره ، مارَوَوْا من أن أبا دُلَف بن كُنْدَاج ، سجَّانَ المتنبىّ ، أهدى إليه هديةً وهو معتقل بحمص ، وكان قد بلغه أنه نمّه عند الوالى الذى اعتقله ، فكتب إليه :

أهْوِنْ بطُولِ الثَّوَاءِ وَالتَّلَفِ	وَالسِّجْنِ وَالقَيْدِ يَا أبَا دُلَفِ
(غَيْرَ آختيارٍ قَبِلتُ بِرَّكَ بِي)	والجوعُ يُرْضِى الأسُودَ بالجِيَفِ
كُنْ أيُّها السِّجْنُ كَيفَ شِئْتَ، فقَدْ	وَطَّنْتُ للمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ [٢]
لَوْ كَانَ سُكْنَايَ فِيكَ مَنْقَصةً	لَمْ يكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ

---

(١) ص : ٣٢ ، ٨٢ ، قوله : « زعم المقيم بكوتكين بأنه » ، إلى آخر البيتين

(٢) « معترف » ، صابر لايجزع .

وفى هذه الأبيات تقف كبرياؤه كما هى ، لم يأخذ منها عذابُ السجن وشقاؤه شيئاً ، حتى إنه ليقول للذى يَبَرُّه فى سجنه : « غَيْرَ آختيارٍ قبلتُ بِرَّكَ » ، ولولا ما أنا فيه من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينتزعُ المثل على عادته : « والجوعُ يُرْضِى الأُسُودَ بالجِيَفِ » ، وهى سخرية حديدة مؤلمة .

فلما طال عليه الأمد فى السجن ، لجأ إلى الحيلة فى الخروج منه ، فكتب إلى آبن طغج يَسْتعطفه ، ويفنّد مارُمِى به مِن إرادة الخروج على السلطان ، فكان مما كتب :

بِيَدِى أيُّها الأميرُ الأَرِيبُ	لاَ لِشَىْءٍ إلاَّ لِأَنِّى غَرِيبُ
أَوْ لِأُمٍّ لَهَا ، إذَا ذَكرتنى ،	دمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ[1]
(إنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رأيتُكَ أَخْطَأْ	تُ ، فإنى عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِى لَدَيْكَ ، ومِنْهُ	خُلِقَتْ فى ذَوِى العُيُوبِ العُيُوبُ)

إلاّ أن سَعْى الفاطميين والعلويين فى إبقائه فى السجن ، وما أشرنا إليه من خوف والى الشام من الحدَثِ الذى أحدثه أن يكون من قبل بنى حمدان = لم يُصْغِ إليه سَمْعَ الأمير ، فبقى فى سجنه إلى سنة ٣٢٣ .

وقد رُوِيتْ له القصيدة التى كانت السببَ فى إطلاقه ، وفيها إشارة إلى كل هذا الذى ذكرنا لك . ويحسُنُ هنا أن نلمَّ ببعضها ، لتتبيَّن ما أرَّخنا لك من التاريخ .

---

(١) لم يكتب هذه الأبيات ، إلا بعد رسالة وصلته من جدته ، انظر ص : ١١٠ فيما يلى .

يقول المتنبي يصف الأمير :

ولَوْ لَم أَخَفْ غيْرَ أَعدائه عَلَيْهِ لَبشَّرتُهُ بالخُلودِ
رَمَى (حَلَباً) بنواصي الخُيُول، وسُمْرٍ يُرِقْنَ دماً في الصَّعيدِ
وبيضٍ مُسافرةٍ ما يُقِمْنَ لاَ في الرِّقَابِ ولا في الغُمُودِ
يَقُدْنَ الفَناءَ غَدَاةَ اللِّقــاءِ إلى كُلِّ جيش كثيرِ العَديدِ
فَوَلَّى بأشياعه (الخَرْشَنِيُّ) ، كشاءٍ أَحَسَّ بزَأْرِ الأُسُودِ
فمَنْ كالأَميرِ ابنِ بنتِ الأَميرِ أو من كَآبائِهِ في الجُدُودِ

والذي تنبهنا له هنا أنه ذكر في هذه القصيدة (حلباً) و (الخرشنيّ) ، وقد عيينا بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها أن نعيّن السَّنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله إلى تفسير ذلك بالاستنباط . ففي جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ ، سار الدُّمستق « قرقاش » في خمسين ألفاً من الروم فنازل مَلَطْيَة ،(١) وحصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ، ثم فتحها وهدم سُورَها وقصورها ، وضرَب خيمتين على إحداهما صليبٌ ، وقال : « من أراد النصرانية انحاز إلى خيمةِ الصليب لِنَرُدَّ عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ، ونُبْلِغه مأمَنَه »! فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم ، وسيَّر مع الباقين بطْرِيقاً يبلغهم مَأمنهم ، وفتحها بالأمان . ثم ملكوا « سُمَيْساط » وخرَّبوا الأعمال ، وأكثروا القتل ، وفعلوا الأفاعيل الشَّنيعة ، (وصار

(١) بلدة مذكورة مشهورة في ديار ربيعة على حدود بلاد الروم في ذلك العهد .

أكثر البلاد فى أيديهم) ، وسكتَ المؤرِّخون . . . . وظاهرٌ أن وَالى الشام ، وهُو إذ ذاك مُحمّد بن طُغْج الإخشيد ، لم يكن ليصبر على ذلك ، فلما امتدَّ الدمستق بجيوشه وقصد حلب ، خرج إليه هو ، أو بعض من أنفذه لقتاله ، فردَّه عن التوغُّل ، وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخَ القصيدة ، لأنها توافق ما أثبتنا من تاريخ المتنبى ، ثم لما ذكر من أمر حلب ، ثم لذكر هذا « الخرشنى » = و « الخرشَنِىُّ » ، هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الرُّوم إلى جبل ببلادهم يقال له (خَرْشَنَة) = وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه أبو الطيب إلى محمد بن طغج الإخشيد التركى ، فى أواخر سنة **٣٢٢** أو أوائل **٣٢٢** سنة .

وأمّا قول المتنبى فى هذه القصيدة يخاطب ابن طغج :

وَقِيلَ : عَدَوْتَ على العالَمِين ... بَيْنَ وِلاَدِى وَبَيْنَ القُعُودِ
فما لكَ تَقْبَلُ زُورَ الكَلامِ ... وَقَدْرُ الشهادة قَدْرُ الشُّهودِ
فَلاَ تَسْمَعنَّ من الكَاشِحين ، ... ولاَ تَعْبأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُودِ)
وكُنْ فارقاً بين دَعْوَى (أرَدْتَ) ... وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بشَأْوٍ بَعِيدِ

فقد ذكر فى البيت الأول أنه وهو رضيع لم تتم لهُ القوّة على الاستمساك فى قِعْدته ، كان قد اتُّهم بالخروج على السلطان !! وهذا لم يحدثْ ولا شكَّ ، وإنما هو إشارة لما كتبنا عنه فى نسبه من النكبة التى حلَّت به وبجدّته من نَفْى النسب العلوى الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجدته ، خوف أن يبدرَ منها مالا يحبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبةَ لنفسه ، إذْ لم يفعلوا بها ذلك

إلاّ من أجل نسبته هو إلى العلويين . والبيت الثانى استثارةٌ لابن طغج ، إذْ كان من أعداء العلويين فى غير علانيةٍ ، وكان من أنصار العباسية ، فهو يقول لهُ : مالى أراكَ تقبلُ فِيَّ قولَ أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن تزنَ أقوالهم بما تزنهم به (فقَدْرُ الشهادة قدر الشهودِ) ، فلا تسمع لهؤلاء الذين يُضْمرون العداوة (الكاشحين) . ثم وَصَلَ كلامهُ عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال : (ولا تعبأنّ بعجْل اليهود) ،[1] و « عجل اليهودِ » ، كنايةٌ عن أحد دُعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أن العباسيين ، وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أنفسهم (كبنى حمدان) ، كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ، ويزعمُون أن جدَّهم كان يهوديًّا ، وأسلم ليدخل على الإسلام فاسد العقائد نكاية . وآسَدّهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوةً سِرّية لها أصولٌ خاصةٌ ، ودرجاتٌ مرَتَّبة ، من درجة التلمذة إلى درجة داعى الدُّعاة ، ولكل درجةٍ من الدرجات تعليمٌ خاصٌّ ، ومرتبةٌ معروفة مقيّدة . فقول المتنبىّ : « عجل اليهود » إشارة إلى ذلك .

ولا أنسَى هنا أن أعودَ بالقارىء إلى بيت من أبياتٍ مَضَت فى ذكر التَّنوخى (ص : ٢٥) ، وهو قول المتنبى يذكر التنوخيين :

أليس عجيباً أنَّ بَيْنَ بَنِى أبٍ لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ تَدِبُّ العقَارِبُ

وقد تبيَّن لنا بعد البحثِ فى تواريخ العلويين أن بعض الدُّعاة الفاطميين كان قد دخل اللاذقية (وهى من منازل تنوخ) ، وأدخل قسمًا من التنوخيين

---

(١) قد حار الشراح فى تفسير قوله « عجل اليهود » ، وقلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه عندنا وهو الصواب إن شاء الله .

فى الدعوة الفاطمية ، وبذلك افترق التنوخيون فرقتين : فرقة العلويين أو الشيعة ، وفرقة الفاطميين ، وهذه الأخيرة هى التى خرج منها الدُّرُوز وهم تنوخيون . وفريق الدُّروز يُتَّهمون من قديم بعبادة (العجل) ، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين ، والله أعلم بحقيقة أمرهم . ولعل هذا هو السرّ فى قول أبى الطيب « عجل اليهود » ، يشير بذلك إلى الفاطميين ، وفى قوله : « نجل يهودى » ، يريد داعى الفاطميين الذى قسم التنوخيين ، وضرب بعضهم ببعض . وأمّا قوله :

وكُنْ فَارِقاً بَيْنَ دَعْوَى (أَرَدْتَ) وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوٍ بعيدِ

فهو عندنا من الأدلة فى أن الأمر الذى قبض على المتنبى من أجله لم يكن « النبوة » ، وإنما هو الخروج على السلطان ، وأنت إذا قلّبْت الدعويين : « دعوى (أردتَ) ، ودعوى (فعلتَ) » على معنى « النبوة » ، لم يتمّ لك تَساوُق المعانى على ذلك ، وتَمّ لك فى معنى الخروج على السلطان هذا التساوُق، إذ أن إرادة الخروج شىء ، والفِعْلُ الذى يُسَمّى به الرجل (خارجاً) شىء آخر..

والظاهر عندنا أنّ السبب فى إطلاق المتنبى من السجن لم يكن هذه القصيدةُ وحدها ، بل السببُ البليغ فى هذا الرضى عَنْه ، فيما نرجّح ، أنّ بعض التنوخيين العلويِّين (غير الفاطميين) ، كانوا قد سَعَوْا عند ابن طغج لإطلاق المتنبى ، وذلك لصلتهم ببنى حمدان ، واتفاقهم معهم فى المذهب (العلوية) ، وأظهروا لابن طغج مُوَالاتهم ، فرضى منهم بهذا وأكرمَهُم بإطلاقه ،[1]

(١) ولا بأس أيضاً أن نذكر أن (بنى عدى) ، وهم قوم سيف الدولة ، النازلين بأرض الشام ، كان لهم شأن فى ذلك ، وأرضاهم ابن طغج لما يخشى من انتقاضهم عليه إذا لم يبذل لهم الرضى فى رجل قبض عليه عامله فى أرضهم ، وكان فى جوارهم .

ولكن العلويين الكوفيين سعَوْا من ناحية أخرى لدى الوالى أنْ لا يُطلقه، فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقةً تُثْبِت بطلان دَعْواه فى النسبة إلى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة. وَالّذِى حملنا على أن نظن ذلك من أمر التنوخيين ، أن المتنبى بعد خُروجه من السجن مَدَح التنوخيين ، وأخلص لهم ، ونَزَل عندهم، ثم رجع إلى الكوفة وبقى بها مدة ، فلما عاد فى سنة ٣٢٦ ، رجع إليهم وبقى عندهم ومَدَحهم أيضاً ، وأجاد فى مدحه لهم إجادةً بينةً ظاهرة . وقد كان هذا الفتى وَفيًّا ألوفاً كما وصف نفسه ، وكان يأسره الإحسان ويغلبه على أمره كثيراً ، وقد ظهر هذا الُخلق فى روعة المثل الذى ضربه يوماً مافيما بعدُ ، وهو قوله : « وَمَنْ وَجَد الإِحسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا » .

* * *

وقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بحادثِ حبس المتنبى ومَا كان منه فيه ، وزعموا أنه كان متكبراً أحمقَ الرأى ضعيفَ الإرادة ، فدعته كبرياؤه أوّلَ أوّلَ إلى الاستخفاف بالسجن ، ثم رَجَع فذلَّ وانقاد واستخذى فى قصيدته الأخيرة . وليس هذا لنا برأى ، فإن الأبيات البائية التى ذكرناها لا تَدُلُّ على ضعف ، وإنما كان المتنبى ، كما روينا لك ، مرهفَ الحسِّ ، شاعر النّفس ، فلما بَلَغ جدَّته خبرُ حبسه كتبتْ إليه ، وذكَّرته بما فعل وهو بدار غُرْبة ، وعذلته على ما كان منه وشكتْ إليه ألَمها ، وكشفت له عن ذِى قلبها، فرقَّ وبكى ، وكتب الأبيات الأربعة على إثر ذلك ، وطبع عليها قلبَه وحَنَانَه ورقَّته ، لا ضعفَه واستخذاءهُ . ويكفى فى الدلالة على بطلان رأيهم ، أنه جعل البيت الرابع مهاجمةً لجميع من ادَّعى عليه وأراد حبسه ، وهجاءً بليغاً لهم ،

ولَيْس هذا من الحكمة ، إنْ كان الرجُل ممن يستخذِى ويضعف ، وذلك حيث يقول : (انظر ما سلف ص : ١٠٥)

عَائِبٌ عابَنِى لَدَيْك ، وَمِنْهُ خُلِقَتْ فى ذَوِى الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ

ثم لما كتب قصيدتَه الأخرى الدالية ، ذكر أبياتاً يزعمون أنها تدلُّ على مذهبهم فى ثَلْب الرجل ، وهى قوله :

أَمَالِكَ رِقِّى وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وعِتْقُ العَبِيدِ
دَعَوْتُكَ عندَ انقطاعِ الرَّجاء ، وَالَموْتُ مِنِّى كَحَبْلِ الوَرِيدِ
دَعَوْتُك لَمَا بَرَانى البلاءِ ، وأَوْهَن رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحديدِ
وقَدْ كَان مَشْيُهما فى النِّعال ، فقد صار مَشْيُهما فى القُيُودِ

ونحن لا نرى فى هذه الأبيات شيئاً ، لأنه إنما أراد ، كما قلنا ، أن يترفق لغرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، إذ وَجَد أنْ لا جدوى عليه من الصبر على السجن الذى يُضِيع الأملَ فى تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذى يَدِلُّ لا يَقْسُو فى الصفات هذه القسوة التى أبرزها المتنبى فى أبياته بعدُ ، إذْ وَصف مَنْ كانوا معه فى السجن متهكماً ساخراً على عادته ، فقال :

وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فى مَحْفِلٍ فَهَا أنا فى مَحْفِلٍ من قُرُودِ

ثم يخاطب ابنَ طغج مخاطبة النِّد ، فيسأله على وجه التقريع واللوم ، فيقول : « فما لكَ تَقْبل زُورَ الكَلام ؟ » ، ثم ينهاه ناصحاً ومحذراً فيقول : « فلاَ تَسْمَعنَّ من الكاشحين » ، ثم يأمرهُ على وجه التعليم والتنبيه بقوله : « وَكُن

فَارِقاً » ، فهذا مذهب تعايميٌّ فى الأمر ، ينطوى على تبصير الأمير ، الذين يزعمون أن المتنبي يذلّ له ، بوجه الصواب من الرأى فى التفريق بين الدعويين ، وتذكيرٌ له بأنه أخطأ خطأ كبيراً بتركه التحقّقَ من أصل الدعوى التى أقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً ، ولو كان الأميرُ فعل ذلك ، لبَطَل عندهُ ما يدَّعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للأمير . ولا نَظُنُّ ابنَ طغج كان يخطىء إدراكَ هذا البيان البيِّن فى شعر المتنبىّ ، ومع ذلك فقد أعفاهُ من هَفْوة اللسان ، وأطلقه إكراماً للتنوخيين فيما ذهبنا إليه ، وما كان من مدحه له فى القصيدة مدحاً لم يظفر بمثله من شاعرٍ مثل المتنبِّى الشاعر البليغ العربى الشريف .

فهذا كما ترى سياقٌ تاريخىٌّ لا بأس به ، إن رأيتَ ذلك ، فى أمر القبض على أبى الطيِّب ولا ذكر فيه للنبوّة ، ولا يمكنُ أن يكون قبض عليه لهذا الهُراء الذى يزعمون . وستعلم بعدُ أن الخالِعَ حدثنا عن أبى الحسين الناشىء الشاعر أنه قال: « كُنْت بالكوفة فى سنة ٣٢٥، وأنا أُملى شِعرى فى المسجد الجامع بها ، والنَّاس يكتبونه عنِّى ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعدُ لم يعرف ولم يلقَّب بالمتنبى . . . » ، فهذا دليلٌ على أن القبضَ عليه فى سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لتعالمه الناس بالكوفة التى نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشىء ، وكلامُ النَّاشىء يدلُّ على أن ذلك لقبٌ نُبِزَ به الرجل، ولم يكن بسبب هذه النكبة التى أصيب بها فى سنة ٣٢١، أو الحدَثِ الذى أحدثه فى تلك السنة .

وهناك سياقٌ آخر للتدليل على بُطْلان هذا الافتراء الذى رُمِي به الرجل ، نستنبطه من الأسلوب الشعرىِّ أوّلاً ، ومن الحالات النفسية القائمة فى شعره

ثانياً ، ومن الأصول التاريخية فى أمر المتنبئين فى ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نُضْمِر ذلك ولا نطيل به ، حتى نظهره فى كتابنا ، إن شاء الله ، عن المتنبى ، بالله التوفيق .[1]

أمَّا هذا النبزُ الذى نُبِزَ به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم ، فليس مرجِعُهُ إلى هذا الخروج الذى كان منهُ فى بنى عَدِيّ ، فقبض عليه ، وألقى فى السجن من جرائه ، بل له عندنا مساقٌ آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار .

* * *

كان أبو الطيب من أوَّل أمره متورِّعاً فى خُلقه ، لا يخرج من حُدود الوقار ، متزمِّتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مَقاده ، مترفعاً عن سفْسافِ الأخلاق ، متمسكاً بمعاليها ، آخذاً نفسه بالجد الذى لا يفتر ، وكان لا يَقْرَب التُّهَم ولا يدانيها ، « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ، ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه أو يُزَنُّ به ، واستمرَّ على ذلك حياتَهُ كُلَّها ، وخالَف الأدباء والشعراء من أهل عصره ، فما شرب الخمر ولا حَمَلَ وِزْرَها ، ولولاَ اضطرَاره فيما نرَى لما حضر مجالسَها ، وكان منصرفًا إلى العلم قارئًا له ، محقِّقًا لدقائقه ، طويلَ النظر والتدبُّر فيما يمرُّ به من أحداث الزمان ، كثير الاهتمام بأمر الأمَّة التى هو منها ، لا يفوته مغْمَزٌ ينتقده أو خلق يستسقطه . وكان أهل العصر

---

(١) اعلم أننا تركنا أيضا فى هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قال من شعر فى مدح رجال لقيهم فى طريقه بالبلاد التى نزلها ، إذ ليس يضر هنا إغفال ذلك حتى حين ، ولو فعلنا لم يكن هذا العدد من المقتطف يتسع لما نريد وما نؤمل من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذى نرتضيه ونقر عيناً به .

على خلافٍ له فى ذلك ، وخاصةً من انتسب إلى الأدب ، واعتزى إلى الشعر . فكان الأدباء والشعراء أهلَ شرابٍ ومُعاقرةٍ ولهوٍ وهَزْل وباطل ، لا يَفْرُغون إلى الجد إلاَّ بمقدار ، ولا يتورَّعون عن دَنِيَّة إلاَّ مُكْرَهين على الوَرَع . فلا عجب إذًا عدَّهُ أهل صناعته من الأدباء والشعراء غريباً بينهم .

وكان المتنبى فى أوّل شعره يُكثر من ذكر « الأنْبِياء » ، ويردّد أسماءهم فى شعره ، ويشبّه نفسه بهم ، ويقيس أخلاق ممدوحيه إلى أخلاقهم ، فمن ذلك قوله فى نفسه :

ما مُقَامِى بأرْض نَخْلَةَ إلاّ (كَمُقَامِ المَسِيحِ بَيْنَ اليَهُودِ)

وقوله فى القصيدة نفسها :

إن أكن مُعْجَباً فَعُجْبُ عجيبٍ (لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نفسِه من مَزِيدِ)
أنا تِرْبُ النَّدَى ، وربُّ القَوافى وسِمَامُ العِدَى ، وغَيْظ الحسُودِ
أنا فِى أمَّةٍ ، تَدارَكَهَا اللهُ ، (غرِيبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ)[١]

وقوله :

« أنَا الَّذِى بَيَّن الإلٰهُ بِهِ الْ أقدارَ والمرءُ حَيْثُمَا جَعَلَه »

فشبه نفسه بالأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس .

وقوله فى رثاء التنوخى « محمد بن إسحق » :

وكأنَّما (عِيسَى بنُ مَرْيَم) ذِكْرُه وَكَأنَّ (عَازِرَ) شَخْصُه المَقْبُورُ

(١) يروى ابن جنى أن المتنبى قال : « لقبت بالمتنبى بهذا البيت » .

وكانَ أيضاً كثير الإنذار للملوك والأمراء بعذاب بَئيسٍ سيأتيهم من قِبَله ، كقوله :

سيعادُ كُلُّ رَقيقِ الشَّفْرَتَين غداً وَمنْ عصَى من ملُوك العُرْبِ والعَجَمِ
فإن أجابوا ، فما قَصْدِى بِهــا لَهُمُ ، وإن تَوَلَّوْا ، فما أرضَى لها بِهِمِ

فهذه أمثلةٌ مما تناثر فى شعره من هذه المعانى ، وأنتَ إذا نَفَضْتَ ديوانه وجدت فى معانيه المعانى التى تنبئ بالغيب ، كقوله فى بَدْر بن عمار :

لَوْ كان عِلْمُكَ بالإلٰه مُقَسَّمًا فى الناس، مَا بعث الإلٰهُ رَسُولاَ
لَوْ كانَ لفظُك فيهمُ ، ما أنزلَ الفُرْقان والتَّوراةَ والإنجيلاَ

ولا نطيل بذكر الشواهد فى ذلك ، فهذا أمرٌ متعالم مشهور .

وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ ، واتّصل سببه ببدر ابن عمار ولزمه ، [(١)] وعلاَ عنده ، وأصاب كرامةً لم يُصِبْ مثلَها من قبلُ ، تناوشه الشعراء إذ خَافُوه على أرزاقهم ، وطَفِقُوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوبَ ، وأغراهم بذلك ما وَجَدُوا من ترفُّعه عن مجالس لهوهم ، وانصرافه عن الهزل الذى يكونون فيه ، وظَنُّوا به الكِبْر ، فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به . فلمّا وقعوا على كثرة دَوَران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر ، وتشبيهِهِ نَفْسَه بهم ، وما هو فيه من التعفُّف والتورُّع ، أرادوا له لَقبًا يَنْبِزُونه به ، فلَقَّبوه (المتنبي) ، يريدون المتشبِّهَ بالأنبياء ، وأخذوا يذكرونه بهذا الاسم ، ويتداولونه بينهم . ثم استفاضت شهرته به لمَّا اتَّصل بأبى العشائر سنة ٣٣٦ ، وصار لا يُذْكَرُ إلاَّ به ، بل لعلّه سَرَّهُ هذا اللّقب فلم يُنْكره .

---

(١) انظر ما سيأتى فى آخر الباب التاسع (٩) .

وقد رأيت قبل أن القبض عَلَيه كان سنة ٣٢٢ ، وأن الناشىء قال : إن أبا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة ، « وهو بعدُ لم يُعْرَف ، ولم يلقَّب بالمتنبى » ، فتلقيبه بالمتنبى كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك ينتفى أن يكون قد حُبس من أجل دعوى النبوّة . فلما علا أمر المتنبى وظهر ، وخشِى من خَشى من العلويين ومن إليهم ، أحدثوا من هذا النَّبز (المتنبى) = الذى قُصِد به التشبُّه بالأنبياء فى الُخلُق ، والوَعِيد والإنذار ، وتشبيه نفسه بهم فى شعره = أحدثوا قصةً مخترعةً عن نُبُوةٍ زعموا أن الرجُل ادّعاها ، وأعانهم على صَوْغِها ما كان من أمر حبسه حين أراد إظهار نسبته إلى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التى نقضناها وأظهرنا بُطْلانها ، والحمد لله .

أَبَنِي أَبِينَا ، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ
أَبَداً غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعَقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنيا، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنيَا فَلَمْ يَتفرَّقُوا
والمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالحياةُ شَهِيَّةٌ ،
والشَّيْبُ أَوْقرُ ، والشَّبِيبةُ أَنْزَقُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّباب ، ولِمَّتِي
مُسْوَدَّةٌ ، ولِماءِ وَجْهِيَ رَوْنَقُ

خرج أبو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مُسْتَمِرَّ النفس ، مُكْتهِلَ القلب ، فقد جرَّب أحداث الزمان ، وما ابْتُلِي به من النكبات التي عرَكَتْهُ في سجنه ، وما كِيدَ به من أعدائه ، فانطوى على ما به غيرَ جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابتَسم للدنيا وهو يضمر الغَيظ عليها ، « ولكنه غَيْظُ الأسير على القِدِّ » ،[١] وكأن يعمل في نفسه بما قال بَعْدُ :

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ	فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ العَيْنِ كَالحُلُمِ
وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ	شَكْوَى الجَرِيحِ إِلَى الغِرْبانِ والرَّخَمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ للناسِ تَسْتُرُهُ	ولا يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

(١) هو المتنبي وأوله « وغيظ على الأيام كالنار في الحشا » . والقد : القيد من الجلد .

فإن صحَّ ما رأيناه فى ترتيب شعره ، وما قلنا به من أن التَّنُوخِيِّين كانوا قد سَعَوا لدى ابن طُغْج فى إطلاقه من سجنه ، فقد خَرَج صاحبنا من السجن ولحق بالتنوخيين باللاذقيَّة وأقام عندهم وفى جوارهم . وكانت صِلَته وثيقةً بأبناء إسحق التنوخى (محمد والحسين) ، فلما مات محمد رثاه ، وقد قدَّمنا طرفاً من ذكر ما ورد فى رثائه لهذا الرجل .[١] وبيَّنَ فى شعره الذى رثاه به ما كان يضمر له من الحب ، وما يَفِى له به من حُسْن صنيعه عنده . وأخلَص بعد موت (محمد) الوفاءَ والمودة لأخيه (الحسين بن إسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الأعداء ، أعدائِه من العلويين والفاطميين والعباسيين ، فقد قَصَّد بعضُ شعرائهم قصيدةً فى هجاء الحسين بن إسحق ونَحَلَها أبا الطيب ، فكتب الحسين إلى أبى الطيب يُعاتبه ، فرَدَّ جوَابه كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه :

تُطِيع الحَاسِدِينَ وأنْتَ مَرْءٌ جُعلتُ فِداءَهُ ، وَهُمُ فِدَائى
وهَاجِى نَفْسِهِ من لَا يُمَيِّزْ كَلامِى مِنْ كَلامِهِم الهُرَاء
وإنَّ من العَجَائِبِ أنْ ترانِى ، فتعدلَ بى أَقلَّ من الهَبَاء
وتُنكِرَ مَوْتَهُم ، وَأنا سُهيلٌ طَلَعتُ بمَوْتِ أولادِ الزِّناء

ونحن نرى أن المتنبى أقام قليلاً فى جوار الحسين ، ثم وافاه كتابٌ من جَدَّته = وقد كان بَلغَها خبرُ انطلاقه من السجن = تَبُثُّه شوقَها ، وتشكو له بثَّها وحُزْنها ، وتعزم عليْه فى الرحلة إليها ، وتذكُر لَهُ ما كان من أمرها مع العلويين بالكوفة ، وأنها أرضَتْهم ، وأخذت على نفسها العهد أن يُقلِع

(١) انظر ص : ٢٤ ، ١٠٨/٢٥ ، ١٠٩ .

وثدها عما تهوَّر فيه من إرَادته إظهار نسبه ، وبيَّنت له مغبَّة ما ينوى من ذلك ، ووعظته بما أصابه من قبلُ فى سجنه ، وأحرجته فى الحضور إليها ، فلم يجد قلبُ أبى الطيب بدًّا من الطاعة ، وكتم عَزْمَهُ عن الحسين بن إسحق التنوخىّ ، ولكنَّ عزمه لم يَخْفَ على صاحبه ، فأراده على المُكْث ، فأبدَى أبو الطيب رأيه بالموافقة ، وأضمر الخلافَ والرِّحلة عن اللاذقية إلى الكوفة . وقد أشار إلى ذلك فى مدحه إذ يقول ، معرضاً بعزيمة البقاء ، ليصرف التنوخى عن أن يعوقه :

لَكَ الخيرُ، غَيْرِى رَامَ من غَيْرِكَ الغنى، وغَيْرِى بِغَيْرِ (اللَّاذِقِيَّةِ) لاحِقُ
هِيَ الغَرَضُ الأَقْصَى، ورُؤْيَتُكَ المُنَى، ومَنْزِلُكَ الدُّنيا ، وأَنْتَ الخلائِقُ

واتخذ صاحبنا الليل جملاً ، كما قالوا ، وانحدر إلى الكوفة ، وقد امتلأَتْ نفسه بأحقاده وآلامه وآماله ، وسار من بادية إلى مدينة ، ومن مدينة إلى بادية ، يَنْظر إلى الفتن التى مزقت أُمَّته وَأبْلَتْ جِدَّتها ، وما دَاخلها من الانحلال والتفكك ، وما أصاب أخلاقَها من السقوط والتسفُّل ، وما فَعَلت الدَّعوات السِّرية فى نَقْض مجدها ، وتفريق كلمتها ، حتى فَشِلوا وذَهَبَتْ ريحهمْ .

وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترةَ نَظَر وبَصَرٍ وتجربةٍ ، وأوانَ تردُّدٍ لا يدرى ما هو فاعل ولا ما الله فاعلٌ به . فقد رمى بنفسه إلى الكوفة على غرَرٍ ، مرضاةً لجدَّته ، لارغبةً منه فى دخولها ، وأخذته الوساوس فيما يُرَادبه هناك بعد الذى كان منه بالشَّام من إرادته إظهار نسبته العلوية . وكان الثأر يغالبه على ترك النية والعودة إلى الشام ، لولا ما يخاف على جَدَّته من سُوء فعله . فدَخل الكوفة بهَمّه وأحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ ، أو فى أواخرها على

الأرجح ، فلما استقرَّ بهـا ، رأى ورأتْ جدَّته أنَّ ثورتَه ليست مما يجدى عليه شيئاً ثَمَّ ، فانصرفَ إلى مجالس الـكوفة ومساجدها ، يشغل بطلبِ العلم نَفْسَه عما يُساورها ويهزُّ منها ، وكانَ لانصرافه هذا وإقبالِه على شيوخ الادب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر أثرٌ كبير فى تهذيب نَهْجه الشعرىّ ، واستجَمَّ بهَدْأَةِ العلم واستجدَّ بها قوة أخرى على الثورةِ والتقلقل ، بدت فى شعره بعد مخرجه من الـكوفة رائعةً مدوِّيةً ، كأنما انفجرت فى لسانه انفجار البركان فى زلازل الأرض.

* * *

وكان المتنبى لسنته تلك ، سنة ٣٢٣ ، عزَباً لا يأوى إلى سكَنٍ من النساء ، ولعلَّ جدَّته رأت أن تهدِّىء منه قليلاً بالزَّواج ، فزوَّجته على غير رغبةٍ منه قريباً من سنة ٣٢٥ قبل خروجه من الـكوفة ، وذلك لأن المتنبى بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ذكر لأوّل مرّة فى شعره « الأبوّة » . فمّا عرفناه من خلق أبى الطيب أنه كان إذا نزل به أمرٌ أوجَدَّ فى حياته جديد ، فسرعان ما يتلجْلَج ذلك فى صَدْره ولاَ يستقرُّ حتى يشير إليه فى شعره ، لـكثرة ماتلِدُ الحوادث فى شاعريةِ هذا الرجل من المعانى والآراء . . . قال أبو الطيب فى فى قصيدة يمـدح بهـا أبا أيوب أحمد بن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ ، يذكر المرأة :

وترى المروّةَ والفُتُوَّةَ والأبُوَّ ... ةَ فىَّ ، كلُّ مَليحةٍ ، ضَرَّاتِهَا
هُنَّ الثلاثُ المَـانِعاَتِى لَذَّتى ... فى خَلْوَتى ، لا الخوفُ مِنْ تَبِعاَتِها

ولعلّ ولدهُ هذا الذى ذكره فى قوله : « الأبوة » هو « محسَّدٌ » الذى

ورد ذكره فى خبر مرويّ وهو بواسط سنة ٣٥٤ ، وفيه أنه أجاز شعراً أنشد ، وورَد ذكره أيضاً فى مقتل المتنبى وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قُتل وهو فى الثلاثين من عمره أو أقل ، لكان هذا التاريخ الذى حدَّدناه لزواج المتنبى ، هو أقربَ إلى الصواب إن شاء الله .

* * *

وقد كان قرب المتنبى من جدَّته الحازمة فى الكوفة ، وتزوُّده من العلم هناك ، مما ملأه حكمة جديدةً بدأت تستعلن فى شعره الذى قاله بعدُ . هذا على أنه ، مُقامَه بالكوفة ، لم يمدح أحداً ولم يتعرّض بشعره لمعروف ولا لمنكر ، على كثرة الأحداث التى كانت فى تلك السنوات ، وعلى شدة ما لَقِى من العنت وهو بين أظهُرِ أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متململاً من مُقامه ، مضطرباً فى عيشه . وكان أثرُ هذا التململ والاضطراب فى نفسه المستحصدة القادرة على الكتمان والاتزان فى بعض الأحايين ، أنْ طَفِق يُوَلِّد هذا الشاعر مَعَانِيَ نفسه ، ويختار لها ألفاظها ، وينتقى عباراتها ، مدققاً ممحصاً مفتّشاً عن الكلام الموجَز الذى يستطيع أن يضمر فيه ما يجيش فى صدره ، ويعتلج فى نفسه ، حتى استوَى على طريقةٍ ممتدَّةٍ من الأُصول الشعرية التى بيناها فى أوّل كلامنا ، إلى الغاية التى كان يرمى إليها ، ولذلك اختلف نَهْجُه فى الشعر الذى قاله بعد مخرجه من الكوفة فى سنة ٣٢٦، اختلف عن نهجه الأول اختلافاً بيّناً ، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الأصل الأوّل الذى هو الطبيعة القائمة فى النفس ، والتى لا تتغير فى أصلها ، وإن تغيَّرت فى الصورة والصَّوغ ومذهب البلاغة والإفصاح .

هذا ، وما من شكٍّ فى أن الروايةَ عن هذه الفترة من حياة الرجل ،

لم تأتنا بحديث يُعْلَم به من أمر أبي الطيب كثير ولا قليل ، إلا ما حدثناك به من أنه كان يحضر مجلس الناشىء بالمسجد الجامع بالكوفة سنة ٣٢٥ ، ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبين، وكان لم يعرف بَعْدُ ولم يلقب بالمتنبي ،[١] إلاّ أنه صاحبنا في رثاء جدته سنة ٣٣٥ ، قد أفصح عن السبب في فراقه الكوفة في هذه المرة بعض الإفصاح ، وعرّض بأشياء كانت وقعت له هناك . يقول : [٢]

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِي أُمَّا

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

(تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِمًا غيرَ نَفْسِهِ ... وَلاَ قَابِلاً إلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا)

(وَلاَ سَالِكاً إلاَّ فُؤَادَ عَجَاجَةٍ ... وَلاَ وَاجِداً إلاَّ لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا)

(يَقُولُونَ لِي : ما أنتَ فى كل بلدة!! ... وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى)

كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنَّنِي ... جَلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ اليُتْمَا[٣]

وَمَا الجَمْعُ بَيْنَ المَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي ... بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الجَدَّ وَالفَهْمَا

(وَلَكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ ... وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الغَشْمَا)

(وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتِي ... وَإِلاَّ فَلَسْتُ السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا)

إِذَا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ، ... فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا

---

(١) انظر ما سلف ص : ١١٢ ، ١١٦ .

(٢) قد آثرنا أن ننقل لك الأبيات جميعها في نظمها لتقرأها متدبراً ، فإن في نفس الشاعر وشعره ، الذي استنبطنا منه ما أردناه هنا، وفي نسبه هناك ، ما يتخذ دليلا على صحة ما نقول به .

(٣) قوله : « كأن بنيهم » ، دليل على أنه أراد قوماً بأعيانهم ؛ ولولا ذلك لقال : « كأن بنيها » ، يرجع الضمير إلى الدنيا ، يعني الناس جميعاً كما قال بعد : « كذا أنا يا دنيا » . وهذا أسلوب من أساليب أبي الطيب في الإشارة إلى أغراضه التي في نفسه ، والتي لا يريد التصريح بها ، وإنما يجعلها إشارة لمن يريد إفهامهم غرضه .

(وإنِّى لَمِنْ قَوْمٍ كأنَّ نفوسَهمْ   بها أَنَفٌ أن تسكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا)
(كذا أنا يادنيا، إذا شئتِ فاذهبى ،   ويانفسُ زيدى فى كرائهِها قُدْمَا)
(فلا عَبَرتْ بى ساعةٌ لاتُعِزُّنى   ولا صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

قد بينا لك أوّلاً أن أبا الطيب بقوله لجدّته فى القصيدة : « هبينى أخذت الثأر فيك من العدى » وقوله : « لئن لذّ يوم الشامتين بيومها » — إنما أراد « بالعدى » و « الشامتين » جماعة العلويين الذين أخفوا عنه نسبه ، فيما ذهبنا إليه ،ومنعُوه الانتماء للدوحة العلوية المباركة (ص: ٤٤ ، ٤٩) ، فإذا تقرر عندك هذا وارتضيته ، وجدت أنَّ قولَه بعدَ ذلك :

تغرَّب لا مُسْتَعْظِماً غيرَ نَفْسِه   ولا قابلاً إلاّ لِخالِقه حُكْمَا

يدلُّ على أن هؤلاء العدى والشامتين بجدَّته ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين قصدها قبل وفاة جدته سنة ٣٢٥ = كانوا فى تلك السنة التى فارق فيها الكوفة (٣٢٥) ، أو أوائل سنة ٣٢٦ ، قد أرادوهُ على خُطَّةِ خَسْفٍ ، فأبى أبو الطيب أن يركبها ، وشمخ بنفسه أن يذلّ لأحدٍ من الناس ، أو يقبل له حكماً يريد أن يُجْرِيَه عليه وفيه المذلّةُ والهوانُ وإهدارُ الكرامة ، وإسقاطُ الفتوّةِ والمروءة ، وآثر أن يخرج عن الكوفة مراغماً لهم ، مفضلاً آلام الغربة على الهوان فى الوطن .

وبَيِّنٌ من الشعر أنَّهم كانوا يستضعفونه ، ويسفِّهون رأيه فى ركوب الفلوات ، وتنقله بين البلدان بقولهم : « ما أنت فى كل بلدة ؟ » وقولهم : « ما تبتغى ؟ » بما تريد من فراق الكوفة ، تَذْرَع الأرض من بلد إلى بلد ؟ فكان جوابه أن ما يَبْتغيه أجَلُّ من أن يُسَمِّيَه لهم . ثم استدرك على ذلك

فزعم أنهم إنما يسألونه ويلحّون عليه فى استخراج ذات نفسه ومُضْمَرِها لخوفهم منه ، وأنّهم يعلمون أنه سيأتيهم بالذّبْح الذى يترك صغارَهم أيتاماً ونساءهم ثَـكالَى . وقد أبلغ فى إنذاره لهم بعدُ كما ترى فى الأبيات ، ورهّبهم بما يكون منه ، وذكّرهم بقومه ومَحْتِدهم وحُرِّيتهم وقلة مبالاتهم بالمهالك ، طبيعةً قائمةً فيهم ، حتى إن نفوسهم لتـكاد تَـكْرَهُ البقاءَ فى أبدانهم ، لما فيهم من الحُرِّية والشرف .

ثم أفصح المتنبى عن الذى أرادوه به فى قوله :

فلا عَبَرَتْ بى سَاعةٌ لا تُعِزُّنِى   وَلاَ صَحِبَتْنِى مُهْجةٌ تقبلُ الظُّلْمَا

فـكأنّ الذى كان منهم كان وَضْعاً من عزة نفسه ومهانةً لها ، وأنهم كانوا يريدون أن يُنزِلوا بهظلماً بيّناً لا يَقِرُّ عليه حرٌّ . وعندنا أنهم أرادوا أن يُرْضُوه بَرضِيخةٍ من المال تـكون عليهم كالجزية له ، يأخذها منهم كلّما حَال الحَوْل ، على أن يبقى بالـكوفة ، ويرضى بما يريدون منه ، غيرَ مخالف لهم ، ولا مظهرٍ لهم عداوة ، وإن شاء أن يمدحهم بشعره فعَلَ ، وله عليهم أن يعطوه فى مديحه لهم مثل الذى يُحْبَى به من غيرهم إذا مدحه ، وكَبُر على أبى الطيب أنْ يُرْشَى بالمال حتى يسكُت عنهم ، ويَقِرَّ على ظلمهم له وضَيْمِهم إياه ، وفى الأرض سَعَة ومَرَادٌ لمن شاء أن يكون عزيزاً مـكرّماً .

وخرج صاحبنا من الـكوفة قاصداً الشام مرّة أخرى ، ونزل على « علىّ ابن إبراهيم التّنُوخِىّ » .

* * *

وَاحتِمَالُ الأَذَى — وَرُؤْيَةُ جَانِيـ
ـهِ — غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ
ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ
مَا لِجُـــرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ
أَقَرَاراً أَلَذُّ فَوْقَ شَرَارٍ ؟ !
وَمَرَاماً أَبْغِي وَظُلْمِي يُرَامُ !

كان شعر أبى الطيب فى أوّل أمره ، كما حدّثناك ، قد اختلط بألفاظ لا تَسْتقرُّ فى الشعر ، ووقعت إليه من ألفاظ المتكلمين والمتفلسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل فى الملل والنحل وغير ذلك ، وكان أسلوبه يَجْرِى على طريقة هؤلاء فى التَّوجيه والتقسيم ، ثم فى توليد المعانى الشعرية على طريقة أهل العصر فى توليد معانى الجدل واللَّجاج لإرادة الفَلج فى الخصومة لا لتقرير الحق فى القضاء والحكومة ، وأتاه ذلك من قُوَّةِ حافظته وكثرة دَوران هذه العلوم فى فكره ، واشتغاله بالنّظر فيها نظر المحقق المفكّر ، إلاّ أن تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم ، بل كان فى عَقْله الذى يفكِّر به ، فِكْرُ الشاعر الذى يتَّسع بالعلوم ويَمُدُّ بينها وبين طبيعته الشعرية أسباباً من الخيال . ولما عاد إلى الكوفة سنة ٣٢٣ ، وهى مقرٌّ كثيرمن أئمة العلم والأدب والشعر ، ولزم مجالسهم سَنَتين أو أشفَّ قليلاً ، عَمِلت هذه المجالس فى تهذيب علمه الذى وقع عليه فى

الصِّغَر ، وعَمِلت طبيعته الشعرية فى هذه العلوم عملها ، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتّساع فى النظر ، وللترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته . ثم كان له من تَوقُّد ذهنه ، واشتعال قُوَى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها ، ما يحمله على استخراج روائع المعانى التى توافق همَّه وأمله ، وعلى توليد الآيات البيانية التى تتصل بما فى قلبه وفكره ، وعلى اجتباء العبارة التى تكون فى إيجازها بمنزلة الرمز لما يدور فى نفسه من المعانى المطوَّلة .

والآنَ ، وقد رجع صاحبنا إلى الشام فى جوارِ على بن إبراهيم التنوخى سنة ٣٢٦ ، كان أوَّلُ ما قال ، هذا الشعرَ الذى أوجزنا لك فى صفته ، دَالاًّ على مذهبه الجديد ، وعلى تدرُّج حالته النفسية تدرُّجاً متوالياً متفاسحاً . . . يقول :

أُفَكِّرُ فى مُعاقَرَةِ المَنايَا ... وقَوْدِ الخَيْلِ مُشْرِفَةَ الهَوادِى
(زَعِيمٌ للقنا الخَطِّىِّ عَزْمِى ... بِسَفْكِ دَمِ الحواضِرِ والبَوَادِى)
(إلىَ كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ والتَّوانِى! ... وكَمْ هَذا التَّمادِى فى التَّمادِى !!
وشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المَعالى ... بِبَيْعِ الشِّعْرِ فى سُوقِ الكَسَادِ !!
وَمَا مَاضِى الشَّبابِ بِمُسْتَرَدٍّ ... ولَا يومٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ
مَتَى لَحَظَتْ بَياضَ الشَّيْبِ عَيْنِى ، ... فقد وَجَدَتْهُ منها فى السَّوَادِ
مَتَى مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التناهِى ، ... فقد وَقَعَ انتِقاصِى فى ازْدِيادِى

ثم يقول . . . بعدُ :

(وَمَا الغَضَبُ الطَّرِيفُ وَإنْ تَقَوَّى ... بِمُنْتَصِفٍ من الكَرَمِ التِّلَادِ)
(فَلاَ تَغْرُرْكَ أَلسِنَةٌ مَوالٍ ... تُقَلِّبُهُنَّ أفئِدَةٌ أعَادِى) .

(وكُنْ كالموتِ لا يَرْثِى لِباكٍ ... بَكَى منهُ، ويَرْوَى وهْو صَادِى)
فإنَّ الجُرْحَ يَنْغَرُ بعدَ حِينٍ، ... إذا كانَ البناءُ على فَسادِ[1]
وإنَّ الماءَ يَجْرِى مِنْ جَمادٍ ... وإنَّ النارَ تَخْرُجُ مِن زِنادِ
(أشَرْتَ أبا الحسين بِمَدْحِ قَوْمٍ ... نَزَلْتُ بهم فسِرْتُ بغَيْرِ زَادِ)
وظَنُّونى مَدَحْتُهُمُ قَدِيماً ... وأنت بما مَدَحْتُهُمُ مُرَادِى
وإنِّى عنكَ بَعْدَ غدٍ لَغَادٍ ... وقَلْبى عَنْ فِنائِكَ غيرُ غَادِ)
مُحِبُّكَ حَيْثُما اتَّجَهَتْ رِكابى، ... وضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ من البلادِ

وكان شعر صاحبنا فى هذا الباب من القول = إلى ما قبل هذه القصيدة = شعراً قريباً لم تستخرجه فكرةٌ عَلِيمةٌ مستوعبة لأحداث الزمن، ولا نظرةُ مجرّبة نافذةٌ فى ضمير أخلاق الناس، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما فى نفس الفتى من السموّ، وما فى قلبه من كرم العنصر، وما تُبْدِى طبيعتُه الفتية من أصول الرُّجولة المستحكمة فى طبعه وغريزته، وما يملأ صدرَه من أسباب الحقد وطلب الثأر، وما يكشف عن نِيَّته فى إحداث حَدَثٍ عظيم يُجْلِبُ فيه على أعدائه بخيلِه وسُيوفه حتى يُدِيل لها من «دَوْلَة الخَدَم» الذين ملكوا على الناس أمرَهم، وصرّفوهم فى أهوائهم. فانظر الآن فَرْقَ ما بين الشعرين، فهذا نَبْذٌ من قوله فى صباه:[2]

عِشْ عَزِيزاً أَوْمُتْ وأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وخَفْقِ البُنُودِ

---

(١) نغر الجرح بالغين (كفتح)، إذا انفجر وسال منه الدم. ويقال: جرح نغار، على المبالغة. وفى رواية (ينفر) بالفاء يراد بها يتورم. والذى أثبتناه أجود معنى.

(٢) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا أن تنظر فيه بما يغنينا عن الإطالة فى تفصيل الفروق بين شعر صباه، وبين شعره الذى قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦.

(فَرُؤُوسُ الرِّماحِ أَذْهَبُ لِلغَيْظِ ، وأشفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقودِ
فَاطْلُبِ العزَّ فى لَظَى ، ودَعِ الذُّلَّ ولو كان فى جِنان الخلود
يُقتَلُ العاجزُ الجبانُ وقد يَعْجِزُ عَن قَطْعِ بُخْنُقِ المَوْلُودِ
ويُوَقَّى الفَتَى المِخَشُّ وَقَدْ خَوَّضَ فِى ماءِ لَبَّةِ الصِّنْدِيدِ

وقوله :

وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِى من المَجْدِ والعلَى ... تَسَاوَ المَحَايِى عِنْدَهُ والمَقاتِلُ
ألاَ ليست الحاجاتُ إلاَّ نفُوسَكُمْ ... وليسَ لنا إلاَّ السُّيوفَ وَسَائلُ
فما وَرَدَتْ رُوحَ آمرِىءٍ رُوحُهُ لَهُ ... ولاَ صَدَرتْ عن بَاخِلٍ وَهْوَ بَاخِلُ
غَثَاثَةُ عَيْشِى أن تَغَثَّ كَرَامتى ... وليْس بغَثٍّ أَنْ تَغَثَّ المآكلُ

وقوله :

لَيْسَ التَّعَلُّل بالآمالِ مِنْ أَرَبِى ... ولاَ القَنَاعَةُ بالإِقْلالِ مِنْ شِيَمِى
ولاَ أَظُنُّ بنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى ... حَتَّى تَسُدَّ عليها طُرْقَها هِمَمِى
لُمِ اللياليَ الّتِى أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِى ... بِرِقَّةِ الحالِ ، وَاعذِرْنِى ولاَ تَلُمِ
أرَى أناساً ، ومَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ ، ... وذِكْرَ جُودٍ ، ومَحْصُولِى عَلَى الكَلِمِ
وَرُبَّ مَالٍ فقيراً مِنْ مُرُوءَته ... لَمْ يُثْرِ منها كَمَا أَثْرَى مِنَ العَدَمِ[١]

إلى آخر القصيدة . وقد مضت منها أبياتٌ ، (ص : ٩٩ ، ١٠٠) .

فتدبر النَّهْجين فى هذا الشعر فَضْلَ تدبُّر ، تجد ما رسمنا لك واضحاً بيِّناً ، وتَرَ أثَر هذه الرحلة إلى الكوفة ، على ما بينا لك آنفاً ، مستعلناً غيرَ خافٍ .

---

(١) يقال : « رجل مال » ، كثير المال ، كأنه صار هو نفسه مالا !!

فقد بدأ صاحبنا يفكر بما اكتسب من تجربة، وما أفاد من علم، ويَدُسّ ماألمّ به من الأحداث فى شعره منتزعاً للمثل، وضارباً ببلاغته فى مَفْصِل الحكمة، ونافذاً بألفاظه فى مضمر أخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاء . فانظر أين قوله أوّلاً : « أرَى أُناساً ومحصُولى على غَنَم . . » ، من قوله بعد :

فلاَ تَغْرُرْكَ ألسنة مَوَالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِى

فإنّ الموضعَ الذى أخذ منه المعنيين واحدٌ، ولكنه كان فى الأول غسيلاً محصوراً غير شامل، وكانَ فى الآخِرِ منهما حكماً شاملاً متراميًا نافذاً إلى أصل طبيعة الكذب فى هؤلاء الناس، ممتدة من ضمائرهم إلى ألسنتهم، والسرُّ كلُّ السرّ فى نسبة تحريك اللسان الذى يظهر المودة والولاء، إلى الفؤاد الذى يضمر البغى والعدوان والكذب والنفاق .[1]

* * *

هذا، وقدْ بدأ أيضاً يَصِف فى شعره ما وصلت إليه الأمة العربية، إذ ملكتها الموالى من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا أوّلَ أمرهم بمنزلة العبيد، وذلك مما استفاده فى رحلته إلى الكوفة، ومارآه فى بلاد العربية . ولم يُخْلِ هذا مما يدور فى نفسه، وما وقع له من المصائب والمكايد والحسد . . . يقول وهو يمدح علىّ بن إبراهيم التنوخى أيضاً حين نزل به سنة ٣٢٦، أو كان ذلك فى أول سنة ٣٢٧ :

---

(١) سيكون تفسير هذه الأسرار البيانية واستخلاص حالته النفسية منها فى كتابنا عن المتنبى إن شاء الله ووفق .

(هكذا قلت منذ أربعين سنة، ولم أف بما قلت حتى اليوم، وأرجو أن أفى بما وعدت إن شاء الله)

(وإنما الناسُ بالملوكِ وَمَا تُفلِحُ عُربٌ مُلوكُها عَجَمُ)
(بكُلّ أرضٍ وَطِئتُهَا أُمَمٌ تُرْعَى بعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ)
يَسْتَخشِنُ الخزَّ حِينَ يَلمَسُهُ وَكانَ يُبرَى بظُفْرِه القلَمُ
إنى وَإنْ لُمْتُ حَاسِديّ ، فمَا أُنكِرُ أنّى عُقُوبَةٌ لَهُمُ
وكيف لا يُحْسَدُ آمرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ على كُلِّ هامَةٍ قَدَمُ
يَهابُهُ أبْسَأُ الرِّجَالِ به ، وتَتَّقِى حَدَّ سَيفِهِ البُهَمُ
(كفانىَ الذمَّ أنّنى رجُلٌ أكْرَمُ مالٍ ملكتُه الكَرَمُ)
يَجْنِى الغِنَى لِلّئامِ ، لوعقلوا ، ما لَيْس يَجنِى عَلَيْهِمِ العُدُمُ
(هُمُ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسْنَ لهم ، والعَارُ يَبْقَى ، والجُرْحُ يَلْتَئِمُ)

ثم قوله فى سنة ٣٢٧ فى مدح المغيث بن على بن بشر العجلى :

أذاقَنِى زمنى بَلْوَى شَرِقْتُ بها لَوْذَاقَهاالبَكَى ، ماعاش ، وآنتحبا

الأبيات (انظر ص : ٥٥) ، وقولَه له أيضاً :

فُؤادٌ ما تُسَلّيه المُدَامُ (وعُمْرٌ مِثلُ مَا تَهَبُ اللِّئامُ)
(وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ، وإنْ كانَتْ لَهُم جُثَثٌ ضِخَامُ)
وَمَا أنامِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلكن مَعْدِنُ الذّهَبِ الرَّغامُ
(أَرَانبُ ، غيرَ أنهم مُلوكٌ ، مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ ، نِيَامُ)
(بأجْسامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فِيهَا ، وَمَا أَقرانُها إلاّ الطَّعَامُ)

وأبياتاً أخرى . . . .

وكانت حكمة المتنبي وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نَظَره في أمر نفسه ودَخيلتها وخاصّتها ، وما يُحيطُ بها وما يؤثر فيها ، ويُثير من كوامنها وعواطفها ، وتَثَبَّتَتْ فكرتُه على ذلك . وطفق يقلب الأمورَ والأحداثَ في الدنيا كلها على امتدادِ نفسِه واتساعِ قلبه وهمته ، فانفجر بين جنبيه يَنْبُوع الكلام المتدفق ، وفيه من قوته ورُجولته ، ومن بيانه وفصاحته ، ومن ثأره وعَدَاوته ، ومن تهكُّمه وسُخْرِيته . وخَرَج مديحُهُ أيضاً عن نهجه الأوّل ، فصارَ أدقَّ وأبلغَ في أداء المعاني ، وفي تصوير الفكرة باللفظ المقارب ، وانقلب من مديح معروف مقلَّدٍ ضعيف ، إلى مديح لا يُراد به الممدوح خاصةً ، وإنما يريد به المتنبّي أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . والمبالغة في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو إذا ذكر الممدوح وبالغ في صفته ، فإنما يعطي الشعرَ حقَّ نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين عدِمهم في زمنه ، وكان يودُّ أن يمدحهم بهذا الشعر ، ويحفظَ لهم فيه صورةً حيَّةً باللفظ الناطق البليغ .

فأنت ترى أنّ نبوغ المتنبي إنما بدأ يتجلى ويتكشّف حين أرغمته هَماهِمُ نفسه على استيعاب ما يحسّ به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه ، ومعرفة دقائق ما يحزُّ فيه من الآلام ، ثم المعاني التي تتولّد من هذه الآلام ، أصلاً من الأصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظرٍ أو متأمل ، ثم في هَدْيه إلى أنَّ الشعر لا يكون شعراً إلاّ حين يَرْوَى من معاني القلب ويستقى منها . ولهذا كانت إجادة المتنبي بالغة أقصى غاياتها في شعره الذى قاله في تصوير رجال الحرب ، أوفي رسم صُوَر الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذى كان كحومة الوغى بغبارها ودمائها

وقتلاها ، وقعقعة سلاحها ، وتداوى أصواتها ، والتماع أسنتها وحرابها .
واستمر نبوغه أو أكثره على هذا الباب حتى كان اتصاله بسيف الدولة ؛
فبدأت هناك فى قلبه معانٍ أخرى ، [1] تفاسحت بها نفسه ورحبت ، فامتدت
بلاغته وانبسط نبوغه على الحياة كلها ، فأخذ منها ، ثم أعطى حكمةً باقيةً وبياناً
خالداً ، . على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادهما من نفسه ،
وما رُزِئ به فى حياته ، وما أصابه من أحداثٍ وأهوال . ولو تدبرتَ
لوجدتَ لكل حكمةٍ فى شعره أصلاً تاريخيًا فى قلب هذا الشاعر الذى لم يكن
قلبه ينسى شيئاً أو يُفْلته . وكأنى به ، وهو يقول البيت السائر والمثل الشَّرُود ،
كانت تتراءى تحت عينيه ، ويُدَوِّى فى مسمعيه كلُّ ما مرَّ به مما أثر فيه ،
فيقول البيت وفى كل لفظة منه سببٌ ممدود إلى ذكرى يذكرها أو فكرة
يتخيلها .... ولنضرب مثلاً قريباً نوجزه ، وعليك بسطه ، فى الأبيات التى
وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول ...

« وَاحتِمالُ الأَذى — ورُؤيةُ جَانيه — غِذَاءٌ تَضْوَى به الأَجسامُ »

فأين تجد الأصل التاريخى فى هذا البيت ؟ أصل المعنى الذى أراده الشاعر
هو فى قوله : « واحتمال الأذى غذاء تضوى به الأجسام » ، ولو كان غيرُ
المتنبى ، لوقف عند هذا ، فهو تمامٌ وكفاية ، ولكن المتنبى = الذى (لم يكن
قلبه ينسى شيئاً أو يفلته) ، والذى (كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوِّى فى
مسمعه كل ما مرّ به مما أثر فيه) ، والذى كان قد احتمل أذًى كثيراً من
وَطَنه بالكوفة كما مرَّ بك ، والذى كان رجع إلى الكوفة ، وحمل نفسه على

---

(١) هى معانى المرأة التى أحبها ! !

معاشرة من آذوه وهَضَموه حقه ، وأقام بينهم مرغماً يراهم فى كل خطرة بعينه وبخياله = زاد فى المعنى وتمَّمه ، وأثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله : « ورؤية جانبِهِ » ، فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هى توقيع المتنبى على البيت.[١] وهناك سرٌّ آخر فى تسميته «احتمال الأذى» غذاء ، ليس هذا موضع تفصيله ،[٢] وعلى هذا فقس بقيةَ شعره وحكمته .

* * *

وبعد . فقد شغلنا هذا عن تحرير القول فى رحلته ومدخله الشام ... وقد روينا لك فى أول هذا الباب أن المتنبى نزل الشام على علىٍّ بن إبراهيم التنوخى ، وأنشدناك أبياتاً من قصيدته التى مدحه بها وفيها يقول :[٣]

أشرتَ أبا الحسين بمدح قومٍ ... نزلتُ بهم فسرتُ بغير زادِ

وقد اختلفوا فى قوله : «أشَرْتَ » ، أهى من الإشارة عليه بمدحهم فتكون « أشَرْتَ » بفتح الشين — أو من الأَشَرَ وهو الفرح والطرب فتكون « أشِرْتُ » بكسر الشين ، وبإسناد الفرح إلى نفسه . والرواية الأولى عندنا أرجح . والظاهر أنّ المتنبى لما قَدِم على علىٍّ هذا باللاذقية ، أشار عليه بأن يَنْحدر إلى (طبرية) ليمدح رجلاً — لعله من العلويين أو أشياعهم — فمدحه

---

(١) انظر ما سيأتى ص : ١٣٦

(٢) إذا قرأت المتنبى على هذا الأصل ، لم تجد الشاعر الذى يذكره الناس ملء الأفواه ، بل تجد شاعراً فذاً لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرد فى كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الأصل فى شعر المتنبى ، وتفسير أكثر شعره على هذا المذهب .

(٣) انظر ص : ١٢٦ ، ١٢٧ .

مُرْغماً ولم يظفر منه بطائل، فعاد إلى عليّ من فوره وأنشدهُ هذه القصيدةَ ، ثم قصيدةً أخرى صَرَّح فيها بذكر بحيرةَ طبَرِيَّة ، ومالقى هناك من الأدعياء (وهم الذين يدّعون النسب إلى عليّ رضوان الله عليه) ... فيقول لعليّ ... (والبحيرة التى يذكرها هى بحيرة طبرية المشهورة) :

لَوْلاَكَ لَمْ أَتْرُكِ البُحيرةَ ، والـــغَوْرُ دَفِئٌ ، ومَاؤُها شَبِمُ
والمَوْجُ مِثْلُ الفُحُولِ مزبدةً ....

....

فَهْىَ كَماوِيَّةٍ مُطَوَّقَةٍ جُرِّدَ عَنْها غشاؤُها الأَدَمُ
يَشِينُها جَرْيُها عَلَى بَلَدٍ تَشِينُه (الأَدْعِياء) و (القَزَمُ)
أبا الُحسَين آستمع ، فمدحُكُمُ بالفِعْلِ ، قَبْل الكلام ، مُنْتَظِمُ

ووصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً إلا عيبها أنها تجرى على أرضٍ تطؤها أقدام هؤلاء الأدعياء من العلويين واللئام ممن ذكرهم فى قوله « القزَمُ » . ولو رجعت قليلاً إلى ما كنا حدثناك من إرصاد العلويين له بكفر عاقب (وهى بقرب طبرية) فى سنة ٣٣٦ بعد ذلك ،[1] وجدت أن الذين قصدهم بقوله : « أشرتَ أبا الحسين بمدح قوم » ، هم من العلويين أيضاً ، ولعلهم هم الذين انتهبوا الفرصةَ حين نزل عندهم ليقتلوه ، ففاتهم برحلته إلى الرملة فى جوار أبى محمد بن طُغْج .

وهذا الكيد الذى لقيه ببحيرة طبرية فى سنة ٣٢٦ ، وما قاساه من مَدْح

---

(١) انظر ص : ٣٠

الذين أشار عليه بمدحهم عليُّ بن إبراهيم ، زلزلَ نفسَ الشاعر وهزّه هزّةً رابيةً قذفت بحممه الشعرية البركانية التي رويناها لك أوّلاً ، وتجد فيه أثر ذلك بيناً كقوله :

إنِّى وَإنْ لُمْتُ حَاسِدِيَّ فَمَا أُنْكِرُ أَنِّى عُقُوبَةٌ لهمُ
وكَيْفَ لاَ يُحْسَد امرؤٌ عَلَمٌ (لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ)

وبيِّنٌ أن على بن إبراهيم لم يكن ليقبل من شاعرٍ أن يمدحه ويقول فى مدحه له يصف نفسه بأن له « على كل هامة قدمُ » ، إلاّ أن يعلم مادفع الشاعر إلى إخراج هذا القول . وقد تحمل هذا علىٌّ لأبى الطيب ، إذ كان هو الذى أشار عليه بمدح عدوٍّ من أعدائه ، وزيّن له الرحلة إليه . وهو يعلم ما فى نفس أبى الطيب لقوم هذا الممدوح أو هؤلاء الممدوحين . وبقى أبو الطيب قليلاً فى جوار علىّ التنوخى ومدحه ، ثم قال له فى مدحه يودعه ، ويذكر نيته فى الفراق :

وَإنِّىَ عنكَ (بَعْدَ غَدٍ لغَادٍ) وَقَلْبِى عنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِى
مُحِبُّكَ حَيْثُمَا اتَّجَهتْ رِكَابِى وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ (مِنَ البِلاَدِ)

* * *

وخَرج المتنبىّ من اللاذقية قاصداً حَلَبَ ، ولكنه لم يبق بها طويلاً ، بل قصد قَصْدَ أنطاكية حين نزلها المُغيث بن على بن بِشْر العجلىّ ، فمدحه ، وذلك حيث يقول له :

لَمَّا أقَمْتَ (بأنطاكِيَّة) آختلفتْ إلىَّ بالخبر الرُّكْبَانُ فى حَلَبَا

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاَ أُلْوِي عَلَى أَحَدٍ   أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ : الفَقْرَ والأَدَبَا
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا   لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَا عَاشَ ، وَانْتَحَبَا

وكان ما لقيه أبو الطيب بطبرية لا يزال يهد منه ، ويعتلج فى قلبه وصدره ، فكان شعره فى هذه الفترة شعر الثائر المفكر المتأمل ، وقد كشف عن ذلك فى قوله مثلاً :

فَالموتُ أعذَرُ لى ، والصَّبْرُ أَجْمَلُ بِى ،   وَالبَرُّ أَوْسَعُ ، وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

وفى قوله « والبرُّ أوسع لى » ، سرٌّ تقلقله بين بلاد كثيرةٍ فى فترة وجيزة ، فإنه كان يريد أن ينال نيلاً عظيماً بكثرة التجوال ، حتى إذا ما جمع ما يريد استطاع أن يفعل ما قال وما أنذر بقوله : « والدنيا لمن غلبا » .

وكانت قصيدته الثانية فى مدح المُغيث بن بشر أروع من الأولى ، وأكثر إفصاحاً عن نفسية الشاعر فى تلك الفترة ، فإنه كان قد هدأ واستجمَّ من وعثاء السفر ، ووجد الوقت كافياً ، والقول ذا سعة ، فقال كاشفاً عن ضميره ، ومصرّحاً بآرائه فى الأبيات التى ذكرناها ، وأوّلها : (ص : ١٣٠)

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُــــدَامُ   (وعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ)

وفى هذه القصيدة (غير الأبيات التى مرّت آنفاً) ، إشاراتٌ عجيبةٌ إلى ما فى نفسه ، كقوله فى المغيث :

تَلَذُّ لَهُ المُرُوءَةُ ، وَهْىَ تُؤْذِى   وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغَرَامُ

فقوله : « وهى تؤذى » ، هو توقيع المتنبى على البيت كما ذكرنا ،[1]

(١) انظر ص : ١٣٣

إذ كان الرجل لا يرى فى عصره مروءةً إلاّ وقد احتوشتْها اللئام بالسوء من القول والفعل ، ويخصّ نفسه بذلك ، إذ كان هو صاحبَ المروءة التى لقى بها وبفعلها أذًى كثيراً من أعدائه والحاسدين والناظرين إليه ، وكقوله أيضاً :

وقَبْضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وعِزٌّ (وَقَبْضُ نَوَالِ بَعْضِ القَوْمِ ذَامُ)

فهو يُغرِق بهذا الشطر الأخير من أرادوا أن ينيلوه نيلاً فعفّ وأبى ، وآثر الفقرَ على أن يقبل من نوالهم شيئاً ، كما مرَّ بك فيما فرضناه فى مسألة دخوله الكوفة فى الباب السابق (ص : ١٢٣ ، ١٢٤) .

* * *

ثم رَحل المغيث عن أنطاكية مِنْ فَوْره ، فإنه لم يكن من أهلها، كما قال المتنبى :

وَلَيْسَتْ مِنْ مِوَاطِنه،ولٰكنْ يَمُرُّ بِهَا كَمَا مَرَّ الغَمَامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه إلاّ القاضى أبا الفرج أحمد بن الحسين المالكى ، ثم علىّ بن منصور الحاجب ، وعمر بن سليمان الشرابىّ ، وهو يومئذ يتولّى الفداء بين الروم والعرب ، وليس فى مدحه هؤلاء الثلاثة شىء يذكر ، فدلّ ذلك على أن الرجل كان قد ملّ ، فهو يتمول ليكتسب ما يقوته ويقوت أهله ، ثم ضَاقَ بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يكاد به ، فعزم على الرحلة إلى حِمْص ولبنان ، فمرّ فى طريقه بالقَراديس من أرض قِنَّسرين ، وهى الّتى فيها (حمص) فسمع زئير الأسد فقال :

(أجَارُكِ يا أُسْدَ القَرَادِيس،مُكْرَمُ ؟ فَتَسْكُنَ نَفْسى ، أم مُهانٌ فمُسْلَمَ)
(وَرَائِى وقُدَّامى عُدَاةٌ كثيرةٌ أُحاذِرُ مِن لِصٍّ ، وَمِنْكَ ، ومِنْهُمُ)

(فَهَل لَكَ فى حِلْفِى عَلَى مَا أُرِيده   فإِنى بأَسْبَابِ المَعِيشَةِ أعـلَمُ)
(إذاً لأتاكِ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ   وَأَثْرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وأغنمُ)

وفى خطاب أبى الطيب للأُسْدِ فى هذه الأبيات ، يتجلّى كلّ ضميره وما فيه من آثار العداوة ، وما فيه من المطالب والأمانىّ ، وهى تدل دلالة بينة على أن الرجل كان قد ملّ من مدحهم ، وأراد أن يجد منفذاً يُنفذُ منه إلى تحقيق آماله وآرابه في إدراك ثأره من عُداته ، وإصلاح ما أفسد الحكم القائم فى البلاد العربية ، وكان يَوَدُّ أنْ يلقى الرَّجل الذى يُعينه ويستعين به على أغراضه ، ويكشف له عن ضمير نفسه . فكان مدحه هو المقدِّمة للاتصال والاختبار : أن يجد عند أحدٍ ما يؤمِّل ، فمدح فى طريقه « الأنطاكى عبدالرحمن بن المبارك » ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً ، فقصد إلى لبنان فى جوار الكاتب « أبى على هرون بن عبد العزيز الأوراجى » ، وبقى عنده ومدحه مدحاً عظيماً ، ولكن الرَّجل لم يكن عند ظن أبى الطيب، فأقام عندهُ يستجمُّ من مشقّة السفر فى رُبى لبنان ، يصطاد ويطرد ويغترف من ينبوع الجمال الذى أنبطه الله فى تلك البلاد .

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي
تَعْجِزُ عَنْهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ
بِصَارِمِي مُرْتَدٍ ، بِمَخْبُرَتِي
مُجْتَزِئٌ ، بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلُ
إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَانِبَهُ
لَمْ تُعْيِنِي فِي فِرَاقِهِ الحِيَلُ
فِي سَعَةِ الخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ
وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلُ

كان لهذا الاضطراب والملل الذى استشعره أبو الطيب فى رحلاته فى البلاد التى أوجزنا لك رَسْمها ، أثرٌ كبير فى قلبه المُوجَع المتأمل . وكانت أيام الهدوء والراحة التى آهتبلها من غفلة الزمن قَدْ جدَّدت معانىَ قلبه ، ورَمَت فى فؤاده بالحطب الذى يُوقِد به ناره . فلما ملّ الأوراجىّ ولم يَجِد منه شيئاً ولا عزماً ، عزم على فراقه ، وجعل يتلفَّت فرأى أبا الحسين بَدْرَ بن عمّار بن إسماعيل الأسدىّ قد صَعَّد إلى طبريَّةَ من قِبَل أبى بكر محمد بن رائق ليتولَّى حربَها ، أى قيادة جيشها وحمايتها فى سنة ٣٢٨ . كان أبو الحسين ، فيما نظنّ ، عَربيًّا ماضياً كالسيف ، حُلْوَ الشمائل سَمْحاً ، قريبَ المذهب من أبى الطيب فى بُغْضاء العجم ، لما أنْزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق ، وعرف أبو الطيب بعض أخباره ، فقصده فَرِحاً كأنما وجد فيه ما أراد من الفِكرة والسَّطوة

والسُّلطان والقُوة ، والرجولة الفذَّة التى أبدع أبو الطيب فى صفتها بعدُ حين أعجب بها وفتن . وكانت أوّلُ قصيدة مدحه بها تدلّ على ماأدرك أباالطيب من الفَرَح والنشوة ، وانتظار الفرج على يديه :

أحُلْمًا نَرَى ، أمْ زَمانًا جَدِيداً أَمِ الخَلْقَ فِى شَخْصِ حَىٍّ أُعيدَا ؟!
تَجَــــلَّى لَنَــا فَأَضَأْنَا بِهِ كأَنَّا نُجُومٌ لَقِينَ سُعُــودَا

فقد جمع أبو الطيب فى هذين البيتين كلَّ عاطفة يَنْبض بها قلبه ، وكُلَّ ما هزَّها واستثارها من الفرح بهذا العربىّ الذى :

تَعْرِفُ فِى عَيْنِهِ حَقَائِقَهُ كَأَنَّهُ بِالذَّكَاءِ مُكْتَحِلُ
(أُشْفِقُ، عِنْدَ اتِّقَادِ فِكْرَتِهِ ، عَلَيْهِ منها ، أخَافُ يَشْتَعِلُ)

وبقى المتنبى فى جوار بَدر وفى مجالسه (وفى عربيته) من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لاَ علىالتحقيق،[1] أطال المُقام فى جواره ، وكأنه كان قد أحبَّ الرجل حبًّا عظيماً لما يرى من مروءته وفتوته ورجولته . والظاهر أن بدراً قد وجد فى نفسه لأبى الطيب مثل ما وجد له ، فأعان ذلك الشاعرَ على أن يتفتَّح ويُجيد ويبدع ، فإن مدائحه لبدرٍ تكاد تكون فى الطبقة الثانية من جَيِّد شعره ، وفيها أبيات فى الطبقة الأولى من الشعر العربى كله . وقد بدأ نهجه أيضاً يتغير ويتميز بألوان وآيات . ولا عجب ، فقد مارس الرجُل الحياةَ بشاعريته ، وتلقَّف من الدنيا عِبَرها وحِكَمْتها ، وسمع منها وحَفِظ عنها ، وأعمل فيها ذهنه المتوقّد ، وأرسلها إلى قلبه لِيَفْتِنَهَا بناره ، ويصوغها فى بيانه الذى وصفناه أوّلاً ، ثم زيَّن بها كلامه .

---

(١) فى المقدمة حديث عن هذا التاريخ ، لأننا نعيش فى زمن الأعاجيب !!

ولم يكن أبو الطيب ، طُوال هذه السنين ، يدع استيعابَ الكتب والآراء ونَقْدَها ، والتبصُّرَ فى أعقابها وأطرافها . وأيضاً فإنه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية فقد شارف الثلاثين ، وامتلأ شبابُه بقوته وفتوّتُه ورجولته ، وعبَّ قلبه بآلامه وأحقاده وآماله التى كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها . وأيضاً فإن الأملَ فى إدراك الطلب ، وبلوغِ الأمنية والظفر بها ، وقُرْبِ تحقق الفَلَج على الخصوم ، مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاءً ونفاذاً . وقد كان له ذلك كُلُّه فى جوار صاحبه وحبيبه بَدْرِ بن عمارٍ الأسديِّ العربى الذكى الفؤاد ، فاتخذ أبو الطيب سبيله فى الشعر عجباً ، واستقام على طريقته ، ومَضَى على غُلَوائه ، ورمى الدنيا بعينَىْ عُقاب كاسرٍ يتلو فريسته أن تفرَّ منه ، وزاده علوًّا ما وجد من حماية بدر له فى طبريَّة موطن أعدائه كما حدثناك ، وأَوْرَى زِنادَه ما لقى من عداوة بعض الشعراء له ، وما سعى به الوشاة المفسدون لَدَى بدر بن عمار ليَقْلِبُوا عليه قلبه . ومثلُ أبى الطيب إذا أريد به الشرُّ انتفض انتفاضة الأسد إذا رامه عدوٌّ ، وفى انتفاضته تتقذَّف قوته كلُّها على لسانه البليغ المبين ، وذلك لقوة أعصابه ، وشدة توتُّرها ، وسرعة تأثرها مع ذلك .

* * *

وفى جوار بدر بن عمار الأسدى بدأت عصبيَّة أبى الطيب للعرب والعربية تُسْفِر عن وجهٍ ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلماتٍ قد ضربت عليها حجابَها ، وهيَّأت شاعريّته لما يستقبله لدى سيف الدولة العَدَوِىّ العربىّ هازمِ الروم ، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق . وبذلك كُلّه كانت هذه

الفترة ، من ترتيب الزمن فى تكوين الشاعر الأكبر ، تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذِّ الذى استودعه الله فى قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وثأره والعصر الذى عاش بين أهله مبتلًى بمعاشرتهم . . . أو كما قال فى آخر عمره يعنى نفسه :

وَقْتٌ يَضِيعُ ، وَعُمْرٌ ... لَيْتَ مُدَّتَهُ   فِى غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ !!
أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِى شَبِيبَتِهِ   فَسَرَّهُمْ ... وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الهَرَمِ !!

وقولَه يعنى أهلَ عَصْره :

وَمَا أَنَا مِنْهُم بِالعَيْشِ فِيهِمْ   وَلٰكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
ودَهْرٌ نَاسُــهُ نَاسٌ صِغَارٌ   وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

* * *

أحبَّ أبو الطيب بدرَ بن عمار ، وأحبه بدرٌ وأكرمه ورفعه إليه وعزّره ونَصره على أعدائه من العلويين أو أشياعهم بطبرية وما جاورها ، ووجَد كلاهما فى صاحبه ملجأ يأوى إليه . فقد كان أبو الطيب مهضوماً مطارداً : وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التى أوقعها جبابرة العصر بالعرب ، وكان فكره متتبعاً لدهاء دهاة السياسة الذين كانوا يعملون على قلب الدولة أو تمزيق شملها بالشعوبية العجمية البغيضة المبغّضة إليه ، وكان يرمى ببصره فلا يجدُ العربىَّ الذى يأوى إليه ، فإن وجده فبينه وبينه أهوال . فلما وجَد بدراً ووجد فى قلبه وفكره مثل الذى فى قلبه وفكره ، توقّد الرجل الشاعر توقُّد النار المستعرة قد وجَدت طعامها من الحطب .

وبدأ يصف بدراً العربىَّ الشجاعَ المحاربَ ، ويصف الحربَ ، ويصف

كلّ قوة أو مثلاً من قوةٍ ، ويبْدع فى ذلك كُلِّه مستمدًّا من قلبه الجرىء ، وخياله المتسامى إلى أشراف السلطان والغلبة ، حتى خرجت مدائحه فى بدر آية فى دقّة التصوير ، وسموّ المعنى ، وشرف الغاية . . . يقول فى صفة بدر :

(هَانَ علَى قَلْبِهِ الزّمانُ ، فَمَا يَبِينُ فيهِ غمٌّ ولاَ جَذَلُ)
يَكَادُ مِنْ طاعةِ الحِمام لَهُ يَقْتُل مَنْ مَا دنَا له الأَجَلُ
يَكَادُ مِنْ صِحَّةِ العزيمةِ ، مَا يَفْعَلُ قَبْلَ الفَعَال يَنْفَعِلُ
(تعْرِفُ فِي عَيْنِه حَقائِقَهُ كأنَّهُ بالذَّكاء مُكْتَحِلُ)
(أُشْفِقُ ـ عِنْدَاتِّقَادِ فِكْرَتِه ـ عَليهِ مِنْهَا ، أَخَاف يَشْتَعِلُ)
(أَغَرُّ ... أَعْدَاؤُه إذا سَلِموا بالهَرَبِ ،استكبَرُوا الّذى فَعَلوا)
يُقْبِلُهُمْ وَجْهَ كُلّ سابحةٍ أَرْبَعُهَا ، قَبْلَ طَرْفِها ، تَصِلُ

. . . . . .

وَالطَّعْنُ شَزْرٌ ، وَالأَرْضُ واجِفةٌ كأنّمَا فِي فُؤَادِها وَهَلُ
قَدْ صَبَغَتْ خَدَّهَا الدِّماء كما يَصْبِغ خَدَّ الخرِيدَةِ الخَجَلُ

. . . . . .

(يَا بَدرُ ، يابحرُ ، ياغمامةُ ، يا لَيْثَ الشَّرَى،ياحِمَامُ ، يارَجُلُ)
(إن البَنَانَ الّذِى تُقَلِّبُهُ عِنْدَكَ ، فِي كُلِّ موضعٍ مَثَلُ)
(إنكَ من مَعْشَرٍ إذا وَهَبُوا ما دُون أَعْمَارِهِم ، فَقَد بَخِلُوا)
(قُلُوبُهم فى مَضَاء ما امْتَشَقُوا ، قاماتُهُم فى تمامِ مَا اعْتَقَلُوا)
(مِثْلُك يا بَدْرُ لاَ يَكُونُ ولاَ تَصْلُح ، إلا لمثلِك الدُّوَلُ)

ومن تدبر هذا النهج فى المديح ، ورجع إلى مدائحه الأولى ، ولم يُخْلِ فكره مما ذكرناه فى أوّل هذا الباب ، وجد فى هذا الشعر عاطفة الشاعر التى عطفَتْهُ على بدر ، وعَرَف أن هذا الشعر ليس مديحاً كالذى تلوكه الألسنة ، وينقُدُه نقّاد عصرنا هذا ، بل هو تصوير الرجولة وإبرازُها فى ألفاظها الحية ، وتفصيل مميّزاتها عند الشاعر ، ووجَد أيضاً صِدْقاً فى ذلك كله ليس لِشِعْرٍ ، ولا لِشعر أبى الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه . وهذا موضع للتدبُّر والتأمُّل ، فتدبّره وتأمله ، [1] . . . وتأمل قوله : « يا بدر ، يا بحر . . . » ، فقد ناداه باسمه ، ثم بصفة صفةٍ من بعض صفاته ، فلما امتدَّ فى الصفات إلى كلِّ غاية ، ووجد أنها مما لا يُفْرَغ منه ، ضَمَّن كلَّ المعانى التى فى نفسه من صفة بدر فى لفظ واحد هو قوله : « يارجل » ، فقد كانت الصفة الجامعة لكلّ صفات صاحبه هى « الرجولة » ، تحتها كل كريمة من معانى النفس : من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وسناء .

* * *

وكان المتنبى ، فى عشرته لابن عمار ، قد بدأ يفسح فى شعره مجالاً لإحساسه القوىّ بالجمال القويّ المشبوب ، معبِّراً عنه بالعبارة المُرْسلة من قلبه القوى المشبوب ، فكانت قصيدَتُه فى وصف الأسد ، والمقابلة بينه وبين بدر وأسديَّته وقوته ، رائعةً قليلة المثل ، مُفردةً من بين الشعر العالى ، اجتمعت له فيها الحكمة

---

(١) ليس فيما بقى لدينا من (المقتطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارىء أن يعيننا بذكائه وفطنته وأدبه ، فإن غمض عليه شىء ، فليراسلنا بعنواننا ، ليتسنى لنا أن نوفى أبا الطيب حقه فى كتابنا إن شاء الله . .

السَّهلة ، والبيان المشرقُ الندىُّ ، والخيالُ الجامعُ المقدَّر المبدع ، والاختيارُ الصافى للصفات المميزة التى تجعلك تقرأُ صفةَ ما يصف ، وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من أن نورد لك بعض ذلك على سبيل المثال هنا ، إذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ثم استحكمت فيه حتى بلغت أقصى غاياتها من شعره الذى قاله فى سيف الدولة بعدُ .

قالوا : ... (خرج بدرُ بن عمار إلى أسدٍ فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج قبله إلى أسدٍ آخرَ كان يقطع طريقَ السابلة ، ويُلْحِق بهم أذى كثيراً ـ فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شَبِع وثَقُل ، فوثب إلى كَفَل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربُه حتى مرَّغه فى التراب ...) ، فقال:

أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ !	لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المصقُولاَ ؟
وَقَعتْ على الأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّة ،	نُضِدتْ بها هَامُ الرِّفاقِ تُلُولاَ
وَرْدٌ ، إذا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شارِباً ،	وَرَدَ الفُراتَ زَئِيرُهُ والنِّيلاَ
(مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوارسِ لاَبِسٌ	فى غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلاَ)
(ماَ قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إلاَّ ظُنَّتا ،	تحتَ الدُّجى ، نَارَ الفَرِيقِ حُلُولاَ)
(فى وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ ، إلاَّ أنَّهُ	لاَ يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ والتَّحليلاَ)
(يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقاً ، مِن تِيهِهِ ،	فكأنه آسٍ يَجُسُّ عَليلاَ)
(وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلَى يَافوخِهِ	حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إكْليلاَ)
(وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزَمْجِرُ ، نَفْسُه	عنها ، لِشدَّة غَيْظِه ، مَشْغولاَ)
(قصَرَتْ مَخَافَتُهُ الخُطَى ، فكأنَّمَا	رَكِبَ الكَمِيُّ جَوَادَهُ مَشْكُولاَ)
(أَلْقَى فَرِيسَتَهُ ، وبَرْبَرَ دُونَهَا ،	وَقَرُبْتَ قُرْباً خَالَهُ تَطْفِيلاَ)

فتشابه الخلقان فى إقدامه ، وتخالفا فى بذلك المأكولا
(أسد يرى عضويه فيك كليهما: متناً أزلَّ ، وساعداً مفتولا)

. . . .

(مازال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا)
(ويدق بالصدر الحجار ، كأنه يبغى إلى ما فى الحضيض سبيلا)
وكأنه غرته عين ، فادّنى ، لا يبصر الخطب الجليل جليلا
(أنف الكريم من الدنية ، تارك فى عينه العدد الكثير قليلا)
(والعار مضاض ، وليس بخائف من حتفه ، من خاف مما قيلا)
(سبق التقاءكه بوثبة هاجم لو لم تصادمه لجازك ميلا)
خذلته قوته وقد كافحته ، فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضت منيته يديه وعنقه فكأنما صادفته مغلولا
سمع ابن عمته به وبحاله ، فنجا يهرول أمس منك مهولا
(وأمر مما فر منه فراره ، وكقتله أن لا يموت قتيلا)
(تلف الذى اتخذ الجراءة خلة ، وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا)

فهذا شعر لو ذهبت أبينه وأفصله وأجلوه ، لما أعانتنى هذه الورقات ولا وسعتنى ، وفيما رسمته فى طريق كلامى عن شاعرية الرجل كفاية لو تدبرت. وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة ، ثم من هذه فى وصف الأسد، لأن هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) ، كما يقولون ، فى شاعرية أبى الطيب من النهج الأول إلى النهج الثانى الذى لزمه وسار فى دربه ، وتميز به . ففى هاتين تجد أبا الطيب فتى وكهلاً وشيخاً . ولو قستهما إلى ما يأتى بعد من

شعره . لوجدتَ أن الرَّجل قد بدأ يستمرُّ مَريرُه بدءًا من هذه السنوات التى أقامها عند بدر بن عمار منذ سنة ٣٢٨ ، وفيهما أيضاً الأصولُ النفسيةُ والشعريةُ والبيانيةُ التى مددنا لك أطرافاً منها فى ثنيَّات القول .

* * *

ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى موضعٍ يكثُر مَوْرِده فى شعر أبى الطيب : ذلك أن الرجلَ = لاستحكام أصْل الرجولة والمروءة والفتوة فى نفسه غيرَ مدّعٍ ولا متمثلٍ = كان إذا رأى ما يخالف الرُّجولة ويحط منها ، اهتزّت نفسه واشمأزَّ ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحبُّ من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة فى اللقاء والهزيمة والنصر ، كما يحب ذلك من نفسه . . . فحين فرّ الأسد الثانى الذى ذكره من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته) ، استدعى ذلك احتقارَ أبى الطيب له ، فثارت رجولته كُلّها لهذا الفرار القبيح من أسدٍ هو الأَسَدُ ، فضمَّن شعره هذا المعنى من الازدراء والسخرية به حيث يقول :

« سَمِـعَ (ٱبنُ عَمَّته) به وبحاله ، فَنَجا يُهَرْوِل أمْسِ منكَ مَهُولاَ »
« وأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ منه فرارُه ، وكَقَتْلِهِ أنْ لاَ يَمُوتَ قتيلاَ »

فمن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذا الأسد الجبان ، أنه حين وصف فراره جعله (هَرْوَلةً) ، والهرولةُ حالةٌ بين المشى والعدو ، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشى وأراد العدو ، ولكن منعه الهلعُ أن يعدو ، فاضْطكَّ ، فصار عدوُه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشى . ثم أبدى فى البيت الثانى كُلَّ احتقاره له بقوله : « وكقتله أن لايموت قتيلا » ،

فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ، وإنما هما خُطّتان: إما صبرٌ وظفرٌ، وإما إقدامٌ وحتفٌ.
فبذلك يُثْبت الأسد أنه أسدٌ لا خروفاً ولا نعامةً .

ولنضرب لك مثلاً آخر فى ذلك . فنى سنة ٣٤٢ أوقع سيفُ الدولة بالرُّوم
فى موقعة (بطن هِنْزِيطَ)، وكان الدُّمُسْتُق وولدُه يحاربان، فجُرِح الدُّمُسْتُق،
وأصيب ولده فى مقتل أشْفَى به على الموت، وفرّ الدُّمستق تاركاً ولده فى يد
الموت، فلم يَفُتْ أبا الطيب حين ذكر هذه المَوْقعة أن يشير إلى هذه الحادثة،
وأن يدلّ على ازدرائه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الجبان الذى خلّف
مهجته وولده للموت، فكان مما قال :

لَعَلَّكَ يَوماً يادُمُسْتُقُ عَائِدٌ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يَؤُولُ
(نَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جريحةً ، وخَلَّفت إحدى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ)
(أَتُسْلِمُ لِلخَطِّيَّةِ ٱبنَك هارباً ؟ ! ويَسْكُنُ فِى الدُّنيا إلَيك خَلِيلُ)
(بِوَجْهِكَ مَا أَنْساكَهُ من مُرِشَّةٍ نَصِيرُك مِنْهَا رَنَّةٌ وعَوِيلُ)[1]

وهذه الأبياتُ غايةٌ فى الدلالة على استحكام الرجولة فى طبع أبى الطيب،
وأنه كان يؤذيه ويُثيره أن لا يجد فى الرجل صفة الرجولة : من إقدام وصبر
ومروءة وشهامة، وما إلى ذلك من كريم الصفات، ولو كان أولئك الرجال
من أعدائه . وأعِد قراءة البيت الثالث، فكأنك بأبى الطيب ينشده متعجباً
مزدرياً، ثم يبصق على صورة هذا الجبان الدمستق .

* * *

(١) « المرشة » طعنة رمح تفجر الدم فترشه رشاً .

ثم رَجَعنا إلى ما كنَّا فيه : وجد أبو الطيب فى بدر بن عمار (الرَّجُلَ)، فاستقرّ وهَدأ حيناً ، وملأ نفسه من خِلال القوة والفتوة والمروءة التى تحقّق بها بدر . ولكن وقع فى هدوئه واستقراره واقع هزّه ونفضه ، وذلك أنه وهو بطبرية ، التى كان بها العلويون من أعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك فى قوله فى صفة البحيرة ، بحيرة طبرية :(١)

« يَشِينُهَا جَرْيُهَـا عَلَى بَلَدٍ   تَشِينُهُ (الأَدْعِياء) و(القَزَمُ) »

لم يَفْتأ يجدُ من عداوتهم له كيداً كثيراً ، حتى سَعَوا به لدَى بدر بن عمار ، وأغرَوْا به الشعراء ليَغيظوه بألسنتهم ، وكان هنالك رجل ممتّعٌ بإحدى عينيه (أعور) ، يُدْعى ابن كَرَوَّس ، وكان قد اتصل ببدر ، وكانَ من أشد أعدائه عليه ، ولذلك قصده بالذكر من بينهم . ونحن وإن لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (الممتَّع) ابنِ كروَّس ، إلا أنه يخيَّل إلينا أنه كان من صنائع العلويين أو الفاطميين ،(٢) صحبَ بدراً كالعين عَلَيْه ، ثم ليجعله ينحاز إليهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، على عادتهم معَ الأمراء وغيرهم ، تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية إلى العلوية أو الفاطمية .

فلما كان ذلك ، دخلَ على فرح أبى الطيب ما ردَّه إلى قلقه واضطرابه وغمومه وهمومه ، فعاد يذكر أحزانه ، ويُقلِّب الرأى فى الفراق ، إذ لم يجد عند بدر عَضُداً ينصره نُصْرةَ المحبّ لحبيبه ، فيقول :

كَأَنَّ الحُزْنَ مشغُوفٌ بقَلْبِي   فَسَاعة هَجْرِها يَجِدُ الوِصَالاَ

---

(١) انظر ص ١٣٤ .

(٢) انظر ماسيأتى أول الفصل العاشر ص : ١٥٥

كذا الدنيا عَلَى من كان قبلى ، صُرُوفٌ لم يُدِمْنَ عليه حَالاَ
(أَشدُّ الغَمِّ عِنْدِى فى سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صاحِبُهُ انْتقالاَ)
(أَلِفْتُ ترحُّلِى ،وجَعَلْتُ أرْضى قُتُودى والغُرَيْرِىَّ الجُلاَلاَ)[١]
(فَمَا حاولتُ فى أرْضٍ مُقَاماً ، ولا أزْمَعْتُ عن أرْضٍ زَوَالاَ)
(عَلَى قَلقٍ ، كأنَّ الريحَ تحتِى أُوجِّهها جَنُوباً أو شَمَالاَ)

ثم يقول لبدرٍ ، بعد أبياتٍ يذكر ما لَقِى من أعدائه من الشعراء :

فَيَا ابْنَ الطَّاعنين بكُلِّ لَدْنٍ . . . .
وَيَا ابْنَ الضَّاربين بكلِّ عضبٍ من العُرْبِ ، الأَسَافِلَ والقِلاَلاَ
أَرَى المُتَشاعِرِين غَرُوا بذَمِّى ، وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ العُضَالاَ ؟!
وَمَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به المَاءَ الزُّلاَلاَ
وقَالُوا : هل يُبَلِّغك الثُّرَيَّا ؟ فَقُلْتُ: نعم، إذاشِئْتُ اسْتِفالاَ

فهو بهذه الأبيات يعرض على بدرٍ ما يلاقى من الكيد ، ويستعديه بالبيت الأخير على نصرته على أعدائه . ولا ندرى ما الذى كان يكادُ به أبو الطيب ، ولكن نظنّ أنهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوّ والطموح ، وما يَرِدُ فى أثنائه من الوعيد للطغاة والملوك والأعداء ، والإنذار لهم أن يصيبهم من قبله كلُّ مكروهٍ . والحقيقة أنَّ هذه المعانى فى شعر أبى الطيب مما يستجلب التنبُّهَ لها ، والوقوفَ عندها ، فليس فى العربية كلِّها شاعرٌ قد كثرُ ذلك فى شعره كما كثر فى شعر أبى الطيب ، بل أنت تقلّب دَوَاوين

---

(١) القتود ، خشب الرحل الذى يوضع على البعير ، « الغريرى الجلال » فحل كريم من الإبل عظيم البنيان .

الشعراء جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعانى فى الإنذار والوعيد والتربُّص ، وخاصَّة فى المديح الذى يُرَاد به عطف القُلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة الأيدى لقبض نوالها . وهذه المعانى مما يَنعكس على الشعراء مُرَادهم إن راموه وتعاطوه فى أشعارهم . أمَّا أبو الطيب فقدْ جَعَلها عَمُود شِعْره غيرَ مُبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة فى شعره = أَعْنى اعتماده فى كثير منه على الإنذار والوعيد = بدأ أعداؤه فى جوار بدرٍ يُسَمُّونه « المُتَنَبّى » ويغيظونه بذلك ، ويعنون أنه يتشبَّه بالأنبياء ، إذ كان عَمُودَ نبوَّتهم الإنذارُ والوَعيد أيضاً ، وهو قد جَعَل بنيان شعره على هذين . ولعلّ هذا هُو المراد بقوله : « أرَى المُتشاعِرين غرُوا (بذَمِّى) » . فهذا ذمُّه عندهم كما ترى.[1]

وَاشتدَّ هذا الكيدُ على أبى الطيب حَتَّى حمله على فِراقِ بدرٍ ، إذ (نَكِر جانِبَهُ) حين لم يجد عنده كلَّ ما أراد ، ووجَدَه يسمع للوشاة ويُصْغيهم أذنه . وكان آخر مالقى أبو الطيب من ذلك : حين سار بدرٌ إلى الساحل = ساحِل طَبَرِيَّة = حين أُضيف عمُلُه إلى عَمله بطبريَّة ، وكان أبو الطيب قد تخلّف عن المسير معه ، فانتهز ذَلك الأَعور ابنُ كروَّس ، فكتب إلى بدرٍ يقول له : « إن أبا الطيب إنما تخلَّف عنك رَغْبةً بنفسه عَن المسير معك » . وبَلَغَ ذلك أبَا الطيب ، فثارت نفسه وعزَم الرحيل والفِراق ، ولكنه أجَّل ذلك حتى يعودَ بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن

(١) انظر ما سلف فى آخر الباب السادس ، ص : ١١٥ ، ١١٦

بدراً كانَ قد حمل فى نفسه شيئاً من آثار هذه السِّعايات ، فلما عاد إلى طبرية ولقيَه أبو الطيب ، فطن لما يدور فى نفس بدرٍ ، وخاف أن يخذُله ، فاعتمد الرِّحلةَ وطىَّ الأرض ، ولذلك كانت آخرُ قصيدة مقصَّدةٍ مَدَح بها بدْراً بينة الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا ، فهو يقول فيها :

(أنكَرْتُ طَارِقَةَ الحوادِثِ مَرَّةً ، ثُم اعْتَرَفْتُ لَهَا فَصَارتْ دَيْدَنَا)
وَقَطَعْتُ فى الدُّنْيَا الفَلاَ ، ورَكائبى فيها ، ووَقْتَىَّ الضُّحَى والمَوْهِنا

وظهر فيها أيضاً خوفُه أن يُسْلِمه بدر إلى أعدائه ، فيُرْصِدوا لَهُ ويفتكُوا به على غرة ، فصرَّح لبدر بذلك حيث يقول ، يذكر أمر تخلفه عنه ، ثم تخاوفَه ، ثم يُنْذِره :

فَطَنَ الفُؤادُ لِمَا أتَيتُ إلى النَّوَى ولِمَا تَرَكْتُ مَخَافَةً أن تَفْطُنَا
أَضْحَى فِراقُكَ لِى عَلَيْهِ عقُوبةً لَيْس الذى قاسَيْتُ مِنْهُ هَيِّنَا
فاغفِرْ، فِدًى لك ، وَاحْبُنِى مِن بَعْدِها لِتَخُصَّنِى بَعَطِيَّةٍ منها (أنَا)
(وَانْهَ المُشِيرَ عَلَيْكَ فِىَّ بِضِلَّةٍ فالحرُّ مُمْتَحَنٌ بأوْلادِ الزِّنَا)
(وَإذا الفَتَى طَرَحَ الكَلامَ مُعَرِّضاً فى مَجْلسٍ أَخَذَ الكَلامَ اللَّذْعَنَى)
(وَمَكايِدُ السُّفَهاءِ وَاقعةٌ بِهِمْ ، وعَداوَةُ الشُّعَراءِ بِئْسَ المُقْتَنَى)
لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئيم ، فإنَّها ضَيفٌ يَجُرُّ من المَلامةِ ضَيْفَنَا
(غَضَبُ الحسودِ ، إذَا لقِيتُكَ رَاضِياً ، رُزْءٌ أخَفُّ علىَّ مِنْ أن يُوزَنَا)

ثم بقى مع بدر وهو يضمر فى نفسه فراقه ، فكان يتتبع مرضاته فى كثير

مما لا يرضى به ، حتى شرب الخمر فى منادمته ، ليصرف بدراً عمَّا كان فى نفسه قليلاً ، حتى تعرض له الساعة المواتية للفراق . فلما أتت الساعة ، بادَرَ واحتمل أهله ونفسه وخرج إلى دمشق ، وقصد عملاً من أعمالها يقال له : (حِمَى جَرَش) ، كان به أبو الحسين على بن أحمدَ المرِّىُّ الخراسانىُّ ، وكانت بينهما مودة وهما بطبريَّة ، فلجأ إليه ، واحتمى بحماه ، وذلك فى سنة ٣٢٣ على وجه التقريب لا التحقيق .

لا أَقْـتَرِى بَلداً إلاَّ عَلَى غَرَرٍ
وَلَا أَمُرُّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَغِنِ
وَلَا أُعَاشِرُ مِنْ أَمْلَاكِهِمْ مَلِكاً
إلاَّ أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثَنِ
مَدَحْتُ قوماً... وإنْ عِشْنا نَظَمْتُ لَهُمْ
قَصَائِداً مِنْ إناثِ الخَيْلِ والحُصُنِ
فَلَا أُحارِبُ مدفوعاً إلى جُدُرٍ،
ولا أُصالِحُ مَغْرُوراً عَلَى دَخَنِ

انتصر « ابن كروّس » الأعور على أبى الطيب ، وأفسد عليه بدر بن عمار . وبيِّنٌ أنّ دهاء أبى الطيب وحيلتَه أعانته على اجتناب الخطر الذى كان له رَصَدًا فى طبريَّة ، والذى كاد يُدركه مرة أخرى بعدُ فى سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويُّون ليقتلوه ففاتهم إلى الرملة، وهذا مما يرجِّحُ عندنا أن « ابن كروّس » كان من شيعة العلويين أو من أنفُسهم أو من دعاة الفاطمية .[١]

وكان أبو الطيب ، كما قدمنا لك ، وهو عند بدر قد بدأ يطمئنُّ ثم هاجه ، هذا الأعور ابن كروّس ، فانطلق إلى غايته فى نفسه من الحقد والثورة والاقتحام ، ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعليٍّ بن أحمد المُرِّيّ كانت قصيدته إعلاناً

(١) انظر ماسلف ص : ١٥١

للحرب مرّة أخرى ، وزَلْزَلة وَقمت فى قلبه فأخرجت قديمَهُ من الأحقاد والترات والآمال والآراء ، واستمر ينتفض ويقذفُ بركانُه بحُمَمِهِ ، إلى أن كان اتصاله بأبى العشائر فى أواخر سنة ٣٣٦.[1] وكان شعرُه فى هذه الأغراض ، ثم فى هذه الفترة ، نظراتٍ متطايرةً كالشَّرر تحتَ ظلام الليل ، وهى مع ذلك حكيمة تقع فى المفصل ولا تُخْطِئ ، إذ كان الرجل قد تحنّك واستحكم واستمرّ فى الشعر على طريقته ، مما وجد من الهدأة فى جوار بدر ، ثم ما وجد من الكيد بَعْدُ . ولم يتصل بعدَ بدر بأمير يُنادمه ، بل كان يتنقّل من مكان إلى مكان ثائراً مُغْضَباً مُوعِداً مُنْذِراً مُرْعداً ، يُريد ويَبْغِى ، ويُؤمل وينتظر ، وَيَمَلُّ ويَسْأم ، ويَحْنَق ثم ينفجر .

فانظر الآن إلى هذا الشعر الذى تلقّى به علىَّ بنَ أحمدَ المُرِّىَّ ، بعد أن تردَّ النظرَ مرةً أخرى إلى ما كتبناه فى الفصل الثامن . . . . يقول :

(لَا آفتِخارٌ إلاَّ لِمَنْ لَا يُضَامُ مُدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لاَ يَنَامُ)
(لَيْسَ عَزْماً مامَرَّضَ المرءُ فِيهِ ، لَيْس همًّا ماَ عَاقَ عَنْهُ الظَّلامُ)
وَاحْتِمَالُ الأَذَى ، وُرؤْيَةُ جانيــه ، غِذاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسامُ[2]
ذَلَّ من يَغْبِطُ الذليلَ بعَيشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمَامُ
كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ آقتِدارٍ حُجَّةٌ لاَجِئٌ إليهـــا اللِّئامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ، مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيـــلاَمُ

(١) انظر ما سيأتى فى أول الباب الحادى عشر .
(٢) انظر ماقلته فى هذا البيت ص: ١٣٢ ، و « توقيع المتنبى » ، ص : ١٣٦،١٣٣

(ضَاقَ ذَرْعاً بأن أَضيقَ به ذَرْ ... عاً زماني،وَٱستكرَمَتْني الكرامُ
(وَاقفاً تحتَ أَخمصَيْ قَدْرِ نفسِي ... واقفاً تَحْتَ أَخْمَصيَّ الأنَامُ)
(أقَرَاراً أَلَذُّ فَوْقَ شَرارٍ !! ... ومرَاماً أَبْغِي وظُلْمِي يُرامُ !!)
(دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الحِجازُ ونَجْدٌ ... وَالعِرَاقان ، بالقَنَا ، والشَّامُ !)

فهذه أبياتٌ قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلُّها ، بحكمتها وتجربتها وعلومها وقوتها ورُجولتها وثورتها وانتقاضها وزَلازلها ، وبآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها ، وبصدقها وعواطفها المتسعّرة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيع المتنبي) على كلّ بيتٍ .[1] فلا تحسبنَّ شاعراً يستطيع أن يأتي بمثلها أو يسرق معانيها ، إلاّ أن يستطيع أن يسرق نفسَ أبي الطيب وقلبَهُ جملةً من بين جنبيه ، أو إلاّ أن يكون قد مُهِّد له في نفسه وفي صدقه وفي آلامه وغير ذلك ما تَيَسَّر لأبي الطيب .

وألقى أبو الطيب هذه (القنابل) الحكيمة في « حِمى جَرَشٍ » ، ثم أدركته مكايد الأعور ابن كرَوَّس ، أو العلويِّين إنْ شئت ، فعجَّل بالرحيل غير مختارٍ له ، فقال يودِّع صاحبَه المرِّيَّ وَيعتذر له ، وقد أبان في الأبيات كلَّ الإبانة ، فهو راحل « في عجل » ، وهو راحل عنه غير مختار :

(لاَ تُنْكِرَنَّ رَحيلي عَنْكَ في عَجَلٍ ... فإنَّني لِرَحِيلي غيرُ مُخْتَارِ)
(وَربَّما فارق الإنْسانُ مُهْجَتَه ... يَوْمَ الوَغَى غَيرَ قَالٍ خَشْيَةَ العارِ)
(وَقَد مُنِيتُ بحُسَّادٍ أُحارِبُهمْ ، ... فاجْعَل نَداكَ عَلَيْهِم بعضَ أنصارِي)[2]

* * *

(١) انظر ما قلته في هذا البيت ص : ١٣٢ ، و « توقيع المتنبي » ، ص : ١٣٣، ١٣٦
(٢) أي : فاجعل نداك بعض أنصاري عليهم .

ثم انطلق أبو الطيب من « حِمى جَرْش ». يتقحَّم البوادى عَجِلا يفور فوران القدر على نارِها المتضرّمة ، وتسعَّرت الدنيا فى عينيه ، وتلذّعت الأفكار الناريّة بين جنبيه ، فخرج شعره كمعمعةِ الحريق ونقيضه وزفيره وفرقعته، كما سترى . ومن شدَّة ما لَقِى أبو الطيب من كيْد هذا الأعور ابن كرّوس ، كان ـ على عادته ـ يتخيَّله كلما تلفّت فى مسيره واقتحامه ظُلُمات البادية . وقد حَفِظ لنا أبو الطيب فى شعره ـ على عادته أيضاً ـ صورةً ناطقةً من إحساسِهِ وعواطفه وهو يطوى البَادِية طيًّا عجلاً فقال :[1]

رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمى إلَيْها ، وكُلَّ عُذَافِرٍ قَلِقِ الضُّفُورِ
(أوَاناً فى بُيُوت البَدْو رَحْلى وآونةً علَى قَتَدِ البعــيرِ)
(أعَرِّضُ للرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِى ، وَأنْصِبُ حُرَّ وَجْهى للهَجِيرِ
(وَأسْرِى فى ظَلامِ اللَّيلِ وَحْدِى ، كأنى منه فى قَمرٍ مُنــيرِ)

وهذان البيتان الأخيران فيهما من رجولة أبى الطيب وتقحُّمه ومضائه وتدفُّعه واستهانته بالشقاء فى سبيل آرابه وآماله ما فيهما ، ففسِّرهما لنفسك ، واعلم أن هذا الرجلَ شاعرٌ مبينٌ ، قلبُه فى لسانه ، وعواطفه فى بيانه :

(فقُلْ فِى حاجةٍ لَمْ أقْضِ مِنْها ، علَى شَغَفى بها ، شَرْوَى نَقيرِ
(وَنفسٍ لاَ تُجيبُ إلى خَسِيسٍ وعيْنٍ لا تُدَارُ على نَظِيرِ)
(وَكفٍّ لا تُنَازِعُ مَنْ أتَانِى يُنَازِعُنى، سِوى شَرَفى وخِيرِى)

---

(١) لقد أكثرنا من نقل شعر أبى الطيب ، إذ كان السياق الآن يقتضى ذلك ، ولئلا نقطع القارىء بالرجوع إلى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية أخرى ، فعلى القارىء أن يستنبط ويستخرج المعانى على الأصول التى درجنا عليها فى كتابنا هذا . والتدبر والتأمل هما الأصول فى العلم والاستنباط . . . .

(وَقِلَّةَ نَاصِرٍ ... جُوزِيتَ عَنِّي بِشَرٍّ منكَ ، يا شرَّ الدُّهُورِ !)
(عَدُوِّى كُلُّ شَيْءٍ فِيكَ حَتَّى لَخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدورِ)
(فَلَوْ أَنِّى حُسِدْتُ على نَفيسٍ لَجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُورِ)
(ولٰـكِنِّى حُسِدْتُ على حَيَاتى ، ومَا خَيْرُ الحياةِ بِلاَ سُرُورِ ؟)
فَياأُبنَ كَرَوَّس، يانِصْفَ أَعْمَى، وَإِنْ تَفْخَرْ فَيَا نِصْفَ البَصِيرِ
(تُعَادِينَا لِأَنَّا غيرُ لُكْنٍ ، وتُبْغِضُنَا لأَنَّا غـيرُ عُورِ)
فَلَوْ كُنْتَ آمرَءاً يُهْجَى هَجَوْنَا، ولـكن ... ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

وإمّا تدبرت الأبيات ، فستجدنَّ أن نفسه الـكريمة الأبيّة الأنوفة المستنـكفة ، قد أُريد بها الشرُّ والأذى فاهتزت ، وتدافعت هزاتُها فى أعصابه كلها ، فأثبتها على لسانه المبين فى هذه الألفاظ المتقصفة بأصواتها ومعانيها وألوانها البيانية ، فى التدفع والالتفات والانتقال ، ثم فى البغض للدنيا وازدرائها ، ثم فى السخرية والتهكّم والاحتقار لهذا الأعور الذى هاجه عن عُشه فى جِوار ابن عمار .

* * *

وأرادَ الله خيراً بشاعرية هذا اللسان القوّال العربيِّ المبين ، إذ رَماه بأُبن كروّس بعد هدأة واستجمام . فلمّا طوى البادية ، على ما وصفنا ، يقصِدُ قَصْدَ أنطاكية ، دخلها سنة ٣٣٤ ، وكان بها « أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد الخَصِيبى » ، وكان ينُوب عن أبيه فى مجلس القضاء بأنطاكية . وكان أبو عبد الله الخَصِيبى داهيةً من دهاة عصره ، فيما نرى ، فقصده أبو الطيب

يمدحه ، وجَعَل أوَّل القصيدة يدلُّ على ما وصفنا لك من تسعُّر الدنيا فى عينيه، وبين جنبيه ، وكانت معانى مدْحه من هذا الباب أيضاً . وقد تضمنت الأبيات التى سننقلها لك آراءه فى الجيل الذى كان يتقلب بين رجاله ، وآزدراءه للرجال الذين قَصَدهم فلم يُلفِ عندهم خيراً يُعينه على حاجته التى قال فيها فيما مضى من الأبيات : (فَقُلْ فى حَاجةٍ لم أقض منها . . .) ، ثم وصفَ رحلته بين أهل البادية ، وما كان يحذَرُه فى أرضهم خَوْفَ الطَّلَبِ أن يهتدىَ إليه فيدركَه فيفتكَ به ، ثم يثورُ ويتمزَّعُ فى أعِنَّة نفسه فيُنْذِرُ ويُوعِدُ . . . وبذلك تعرف أن نفسه كانت على غايتها مُتَوتِّرةً مُسْتَوْفِزةً ثائرةً . ثم يأتيه كتاب جدته فيَقْصِدُ العِرَاق ، فيمنعه أعداؤه من العلويين الّذين أرادوا به السوء مِنْ دخولِ الكوفة التى بها جدته ، فيجْلِبُ ذلك عليه الهَمَّ والألم ، فتموتُ جَدَّته ، فيهيج ويتلذّع ويَئِنُّ ويبكى ، ثم تدركه رُجولته فتردّ عليه قوة مضاعفةً ، فيبدْعُ وينفَرد بقصيدة من أجزل الشعر وأرْصنه ، [1] ومن أكثر شعره خاصَّة دلالةً على ما فى نفسه ، وعلى ما أصابه فى حياته من مولده إلى يومه هذا سنة ٣٣٥ .

يقول أبو الطيب للخَصِيبىّ :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أغرَاضٌ لِذَا الزَّمَن	(يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أخْلاهُم مِنَ الفِطَنِ)
(وَإنَّما نحنُ فِى جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ	شَرٍّ على الحرِّ مِنْ سُقْمٍ على بَدَنِ)
(حَوْلى بكُلِّ مَكَانٍ مِنْهمُ (خِلَقٌ)	تُخْطِى إذا جِئْتَ فِى آستفْهَامِها بمَنِ ؟)

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته فى رثاء جدته فيما مضى فى نسبه وغيره، وذلك ، ترى من أنها كانت تحمل نفس أبى الطيب كلها : صريحها ورغوتها .

وهذا بيتٌ يهجو بألفاظه قبل أن يَهْجوَ بمعانيه ، ويدلُّ على ما فى نفس الرجل من الآلام ، وما لَقِىَ من أهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثانى من البيت الثانى صفة صادقة لعصره كما تجدها فى التاريخ ، وقد أشرنا إلى صفة هذا العصر فيما مر بك :

(لَا أقْتَرِى بَلَداً إلاَّ على غَرَرٍ ، وَلاَ أمُرُّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَغِنِ)
(وَلَا أُعاشِرُ مِنْ أمْلاَكِهِم مَلِكاً إلاَّ أحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأسِ مِنْ وَثَنِ)
إنّى لَأَعْذِرُهُمْ مِمَّا أُعنِّفُهُمْ ، حَتَّى أُعنِّفَ نَفْسِى فِيهِمُ ، وَأَنِى
(فَقْرُ الجَهُولِ بلاَ عقْلٍ إلى أدَبٍ ، فَقْرُ الحِمار بلاَ رَأسٍ إلى رَسَنِ)
(وَمُدْقِعِينَ بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ عَارِينَ من حُلَلٍ ، كاسِينَ من دَرَنِ)
خُرَّابِ بَادِيةٍ غَرْثَى بُطُونُهُمُ ، مَكْنُ الضِّبابِ لَهُمْ زَادٌ بِلاَ ثَمنِ [(١)]
(يَسْتَخْبِرُونَ فَلاَ أُعْطِيهِمُ خَبَرِى وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ) [(٢)]
وخَلَّةٍ فى جَلِيسٍ أَتَّقِيهِ بِهَا كَيْمَا يَرَى أنَّنَا مِثْلاَنِ فى الوَهَنِ

وهذا البيت مما يدلُّ على دَهاء أبى الطيب وسعة حيلته ، ودقته فى الحذر إذا أُحيط به ، وخافَ أن يظفر به عدوُّه :

وكِلْمَةٍ فى طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُها فَيُهْتَدَى لِى ، فَلَمْ أقْدِرْ على اللَّحَنِ
(قَدْ هوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِى كُلَّ نَازِلَةٍ وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ المَرْكَبِ الخَشِنِ)

---

(١) « الخراب » ، اللصوص الذين يسرقون الإبل . « مكن الضباب » ، بيضها ، والبداة يأكلون بيض الضب .

(٢) من هذا البيت وما بعده ، أخذ التنوخى وأشباهه من أعداء أبى الطيب ، مازعموه من أنهم سألوه عن نسبه ، فكان يقول : « إنى رجل أطوى البوادى وحدى ، وأخبط القبائل . ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » . انظر : ١٥ ، ٢١ ، ٢٢ .

(كَمْ مَخْلَصٍ وعُلًى فى خَوْضِ مَهْلَكَةٍ ، وقَتْلةٍ قُرِنت بالذَّمِّ فى الْجُبُنِ)
(لَا يُعْجِبَنَّ مَضِياً حُسْنُ بِزَّتِهِ ، وَهَلْ تَروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ)
(لِلّهِ حَالٌ أُرَجِّيها وتُخْلِفُنى ، وأَقْتضِى كَوْنَها دَهْرِى وَيَمْطُلُنى)

ولا يفوتنك هنا أن أبا الطيب فى هذه الفترة قد أشار إلى مَطْلَب له بهذا البيت فى هذه القصيدة ، ومن قَبْلُ ما أشار إليه فى القصيدة التى قبلها بقوله : « فَقُل فى حاجةٍ لم أَقْض منها . . . . » . ونحن نَقِفك عند هذا البيت لتجعله منك على ذُكْرٍ حتى يأتى تأويله فيما يستقبل .

(مَدَحْتُ قَوْماً،وإن عِشْنا نظَمْتُ لهم قَصَائداً من إناثِ الخَيْلِ والُحصُنِ)
تَحت العَجَاج ، قَوَافيها مُضَمَّرةٌ ، إذا تُنُوشِدْن لم يَدْخُلْن فى أُذُنِ
(فلاَ أُحَارِبُ مَدْفوعاً إلى جُدُرٍ ، وَلَا أُصَالح مَغْروراً على دَخَنِ)
(مُخيِّمُ الجَمْع بالبَيْدَاءِ ، يَصْهَرُهُ حَرُّ الهَوَاجِرِ فى صُمٍّ مِنَ الفِتَنِ)

وبيِّنٌ من نَفَس أبى الطيب فى هذا الشعر أنه قد تطلَّق واستنَّ فى عدوه إلى غايته ماضياً لا يلوى على شىء ، وأنَّ لسانه قد انذلق بمعانى قلبه ، فهو مبينٌ فى شعره وإشارته ، غيرُ حافلٍ بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعدُ . ولولا أنّ الرجل كان بركانىّ الطبع = يخمد ثم يفور ، ويقرُّ ثم يتقلّع = لما كان من أثر كيدِ ابن كروّس له ، ما ترى فى كلامه من التدفّق والتدافع الذى تراه فيما روينا لك من الشعر . ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تتبّع ما رسمنا لكَ فى التيقُّظ لإشارة الرجل ، وأن يكون منك على ذُكْرٍ أنَّ الرجل كان حين يفور ويقول ، تتراءى لعينيه ، ويدوّى فى مسمعيه ، كلُّ ما سمعه أو مرّ به ، فهو يُوجز لك ما فى نفسه ضميراً فى أبياته وكلماته .

* * *

وقد استمرّ أبو الطيب على حالته التى نصفُ ، حتى اتصل بأبى العشائر ،(١) فكل شعره فى هذه الفترة آراءٌ ونظراتٌ كلها مستنبطٌ من ينابيع نفسه ، وذلك لما قلنا به من أن الأصل فى نبوغ المتنبى هو (استيعابه ما يحسُّ به من العواطف ، ودراسة قلبه ومعرفة ما يحز فيه من الآلام ، والمعانى التى تتولد من هذه الآلام ، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً إلاّ حين يروى من معانى القلب ويستقى منها). (٢)

وبينا الرّجُل كذلك ، إذا جاءه كتاب جَدّته تسأله المسيرَ إليها وتَشْكو شوقها إليه ، وطول غيبته عنها ، فلمّا قَصَدَ الكوفة التى هى بها وشارفَها ، حيل بينه وبين دخولها ، ورؤية جدّته المسكينة ، على ما مضى فى تأويل هذه الواقعة .(٣) فلما ماتت رحمها الله ثارت نفسه ، وقذف بكل مكنونها من الآلام التى لقيها ، والحوادث التى فعلت فيه فعلها ، وكاد يصرِّح بما لقى من كيد العلويّين له فى مسألة نسبه على ما فسرناه ، وما قُصِد به من الحسد والوشاية . ويكفى أن نشير هنا إلى بيتٍ واحدٍ من قصيدته فى رثاء جدته لتعلم أينَ بلغ الألَم من قلب أبى الطيب حتى مزّقه ، والبيت لا يحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل ، وفى تدبُّره أو تأمُّل لفظه غِنًى ، إذ كان حسرةً مَحْبُوسةً فى ألفاظ ، وكمداً مكفوفاً وراءَ كلماتٍ ، يقول :

(عَرَفْتُ اللّيالِي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا ، فَلَمَّا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمَا)

---

(١) انظر ماسلف ص : ١٥٦ .

(٢) انظر ما سلف ص: ١٣١.

(٣) انظر ما سلف ص : ٤٧ـ٥١ .

مَنَافِعُها : مَا ضَرَّ فى نَفْعِ غَيْرِها ، تغَذّى وتَرْوَى: أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَا

* * *

واجتمع على أبى الطيب ما فى قلبه من الألم ، ومافجأه من مَوْت جدّته ، فتنزّت نفسُه بقوتها حيناً ، واستسلمتْ بحكمتها وفلسفتها أحياناً ، وهو فيهما جميعاً حكيم بليغ ، فهو بعد أن ثار مَا ثار بمثل قوله فى رثاء جدته :

كَذَا أَنَا يَادُنْيَا ، إِذَاشِئْتِ فَاذْهَبِى ، وَيَا نَفْسُ زِيدِى فى كَرَائِهها قُدْمَا
فَلاَ عَبَرَتْ بِى سَاعةٌ لا تُعِزُّنِى وَلاَ صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

وانطلق من بغدادَ = حيث كان حين ماتت جدته = قاصداً أنطاكية بالشام ، يقول فى القاضى « أبىالفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى » :

آ نْعَمْ وَلَذَّ فَلِلأُمُور أواخرٌ أَبداً ، إِذَا كانَتْ لَهُنّ أَوائلُ
مَادُمْتَ مِنْ أَرَبِ الحِسَانِ ، فَإِنما رَوْقُ الشَّبابِ عَلَيْكَ ظِلٌّ زَائلُ
لِلَّهْوِ آوِنَةٌ تَمُرُّ كأَنَّهـا قُبَلٌ يُزَوَّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ
جَمَحَ الزمانُ ، فَلاَ لذيذٌ خَالِصٌ مما يشوبُ ، ولاَ سُرُورٌ كاملُ

ومثل هذا الرأى قليل عند أبى الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به ، وإنما أتاه من أنه كان قد اشتدّ فى فورته إلى الغاية حتى بلغ أقصى ما تحتمله نفسه من العَنَت والمشّقة ، ثم أصابته فترة تعقب ذلك لا بد منها ، فاستخرجت حكمتُه هذا المعنى ، وهو يحمل من اليأس والتّعب والنَّصَب ما ترَى فى مثل قوله : « رَوْقُ الشباب عليك ظِلٌّ زائلٌ » ، وقوله : « جَمَحَ الزمان ... » ، فهذا كلام اليائس المستسلم ، إذا قاله

من كان مِثْل أبى الطيب فى تدفُّعِه وتَقَحُّمه وثورته ، فهو أشبه بالاستجمام من التعب والشقوة والنَّصَب . هذا على أن الحالة التى كانت متلبِّسة به ، لم تفارقه كلَّ المفارقة ، بل كانت فيه أعقاب منها ، فلما قصدَ المعانى التى يقصدها على طبعه وغريزته ، والتى تكون بألفاظها كالقنبلة فى حديدها ، خرجت منه ألطف تعبيراً ، وأقل تفجراً منها فى غيرها .. فيقول لهذا القاضى :

لاَ تَجْسُرِ الفُصَحاءُ تُنْشِدُ هٰهنَا ... بيتاً ، ولٰكنِّى الهِزَبْرُ الباسلُ
مَا نَالَ أَهْلُ الجاهليَّةِ كُلُّهُمْ ... شعرى ولاسَمِعَتْ بِسِحْرِىَ بَابِلُ
(وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى من ناقصٍ ... فَهِىَ الشهادةُ لِى بأَنِّىَ كامِلُ)
مَنْ لِى بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدّعى ... ـأن يَحْسُبَ الهنْدِىَّ ـ فيهم باقِلُ

... وكذلك ، ولكنه أقوى قليلاً ، مَا أَتى به بعدُ فى قصيدته لأخى هٰذا القاضى ، وهو « أبو سهل سَعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى » ، إذ يقول فى صفة نفسه :

إِذَا قَدِمتُ عَلَى الأَهْوالِ شَيَّعَنى ... قَلْبٌ ، إذاشِئْتُ أنأَسْلاَ كَمُ خانَا)
(أَبْدُو فيسجُدُمَنْ بالسُّوءِ يَذْكُرُنى ، ... فَلاَ أعاتِبهُ صَفْحاً وإهْوانَا)
(وَهٰكذا كُنْتُ فى أهلى وَفى وطَنِى ... إنَّ النَّفيسَ غريبٌ حَيْثُما كانَا)
(مُحسَّدُ الفضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أثَرى ... أُلْقى الكَمِىَّ ، وَيَلْقانِى إِذَا حانَا)
(لاَ أَشْرَئِبُّ إلى مَالَمْ يَفُتْ طَمعاً ، ... ولاَ أَبيتُ عَلَى مَافاتَ حَسْرَانَا)
وَلَا أُسَرُّ بِما غَيْرِى الحَميدُ به ، ... وَلَوْ حَمَلْتَ إلىَّ الدَّهْرَ مَلْآنَا

وفى هذه الأبيات يلتفت ، على عادته ، إلى الأيام التى مضت له بالكوفة وطَنِه ، وما لقى هناك فى خَبر موت جَدّته ، فيذكرُها فيثبتها فى شعره ،

والالتفات في شعر المتنبي من معنى إلى معنًى ، هو الذى تَسْتطِيع أن تستخرج به أسرارَ الرَّجُل كُلَّها ، إذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يدور بقلبه من الخواطر والإحساس والآلام ويستخرج منها معانى شعره . فالتفاتُه هنا بعد رجوعه من وطنه الكوفة ، دليلٌ على ما كان قد لقى هناك من الكَيْد ، وهذه الصفات التى وصف بها نفسه هى أيضاً من أثر ما لقى هناك .

* * *

ولم يلبث صاحبنا أن ثابت إليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسبابَ اليأس والخشوع ، وألجأته إلى طريقته الشعرية التى تميز بها وانفرد ، وهى طَريقةُ طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهبة للقتال والنِّضال . ولكنه حين بدأ يعود إلى المذهب الذى جرى عليه ، كما رأيت فيما مضى ، كان لا يزالُ متثائباً كالمستيقظ من سبات عميق قد فَتَّره . . . فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية أيضاً حين مدح « أبا أيوب أحمد بن عمران » :

ومَطالبٍ فيها الهلاكُ ، أَتَيْتُها ثَبْتَ الجَنَان كأنَّنى لَمْ آتِها
ومَقَانبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِها[1]
أَقْبلْتُهَا غُرَرَ الجياد ، كأَنَّمَا أيدِى بَنى عِمْرَان فِى جَبَهَاتِهَا

فذِكْرُه الماضى وما كان فيه من المغامرة والتقحُّم والقتال والكفاح ، أشبهُ بقصة من يَقُصُّ عليك حُلماً كان رآه فى نومه ، فهُوَ لا ينظر إلى

---

(١) « المقانب » ، طائفة من الخيل يركبها أصحابها للغارة .

المستقبل كعادته، ولا يُنْذِر ولا يُوعد، ولا يَصِف ما سيكون منه بعدُ، كما رأيت فى شعره الذى سبق هذه الفترة التى أصابته. ويؤيِّد هذا أنّ حكمته كانت تجرى هذا المجرى من كلام الأحلام = وكذلك كان مدحه = فهو يقول فى حكمته فى هذه القصيدة :

فِى النَّاسِ أَمْثِلَةٌ تَدُورُ، حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا ومَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا

فالمتنبى لو كان فى غير حالته تلك، لأخذ هذا المعنى ورَماه إليك متفجراً مدوِّياً، ولوجدت كلَّ كلمةٍ منه ملأى بما فى نفسه من الازدراء للناس، والاستهانة بهم، ولأبْدَعَ فى السخرية والتهكم على عادته حين يتناول أمثال هذه المعانى، كقوله فيما مرّ بك :

حَوْلِى بِكُلِّ مَكَانٍ مِنهمُ (خِلَقٌ) تُخْطِى إذا جِئْتَ فِى استفهامِها بـ«مَنْ»؟

* * *

وكانت أيامه تلك هى آخرة الفتور الذى حدّ من طِماحِهِ وجِماحه، ثم نبرى كأشد ما كان، وقد اجتمعت نفسُه وتَضَامَّ شتاتُها، وعادت إليه أفكاره كُلُّهَا، فهو ينقل منها فى شعره نقلاً بيِّناً، ولا يُضْمِر إلاّ ما كان لابدّ له من إضماره، وهو الآنَ منطلقٌ فى الحديث عن نفسه وعمَّا يجول فى صدره، فلما قدم على «علىِّ بن أحمد الأنطاكىّ» يمدحه، قذف فى وجهه بهذه الأبيات :

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِها الدَّهرُ وَحِيداً، وَمَا قَوْلِى كَذا وَمَعِى الصَّبْرُ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ثم انتقاله بعد إلى طبيعته القوية كما سترى. فهو حين ذكر أنه يقاتل «الدَّهر»، ذكر أنه يقاتله وحيداً

لا ناصرَ له ولا عَضُد . فلما جرى ذلك فى ضميره ، أبت عليه كبرياؤه أن يَضْعُف فى القتال لتوحُّده وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى الذى خطر له ، فلام نفسه أن يخطرَ لها هذا الخاطر ، وهو نَذِير الضعف والاستسلام والخضوع ، فقال : « وما قولى هذا القول المستضعف الذليل ، ومعى أقوى ناصر ، وأشدُّ عَضُدٍ ، وهو هذا الصبر الذى أقاتل به ، وهو عندى مُغْنٍ عن الأنصار والأشياع » ، ثم تفجر بعد ذلك :

وأشْجَعُ مِنِّى كُلَّ يَوْمٍ سَلاَمتى ،	وما ثَبَتَتْ إلاّ وفى نَفْسِها أَمْرُ
تَمرَّستُ بالآفات حَتَّى تَركتُها	تَقُول: أَماتَ المَوْتُ، أم ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟
وَأَقْدمتُ إقدامَ الأَتِيِّ ، كأنّ لى	سوى مهجتى، أو كان لى عندها وِتْرُ [(١)]
ذَرِ النفسَ تأخُذْ وُسْعَها قبل بَيْنِها ،	فمفترِقٌ جارَان دَارُهُما العُمْرُ

وهذا كله تعليقٌ على الشطر الأول من البيت الأول ، وجدالٌ قائمٌ بين الفترة التى كانت قد أصابته وما علق به من آثارها ، وما أنبطت فى نفسه من المعانى والآراء = وَبَيْن الطبيعة التى تقوم عليها شخصيَّته وتتميَّز بها نفسه ، وهى طبيعةُ القُوّة والتقحُّم، وما تفجِّر هذه الطبيعة فى نفسه من معانى الإقدام، وما تُوَلِّد له من الآراء والأحكام . فلذلك كانت الأبيات التى تَليها هى انتصارَ طبيعته القوية المشبوبة الفتية ، وكانت الآراء التى تضمنتها هى الآراءَ التى كَثُر ورودها فى شعره ، اجتمعت فيها آراؤه فى المجد الذى يصبو إليه ، وفيما يجب أن يأخذ نفسه به لإدراكه ، وأحكامه على أهل عصره ، وفى استسقاطِه لهم ، وخاصة ملوكهم وأمراءهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً ، بل وجدَهم

---

(١) « الأتى » : السيل المتحدر الآتى من مكان بعيد .

خِذْلاناً لمن استنصرهم ، وخَبًّا وخِداعاً لمن استنصحهم ، فقال فى أعقاب الأبيات التى رَوَيناها :

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَمجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً ، فَما المَجْدُ إلاَّ السيفُ والفَتْكةُ البِكْرُ
(وتَضْرِيبُ أعناقِ الُملوكِ ، وأنْ تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ والعَسْكَرُ الَمجْرُ)
(وَتَرْكُكَ فِى الدُّنيا دَوِيًّا ، كأنَّما تَدَاولُ سَمْعَ المرءِ أنْمُلُهُ العَشْرُ)
(إذا الفَضْلُ لَمْ يرفعك عَنْ شُكرِ ناقصٍ على هِبةٍ ، فالفَضْل فِيمن لَهُ الشُّكْرُ)
(وَمَنْ يُنْفِق السَّاعَاتِ فى جَمْع مالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ ، فَالَّذِى فعلَ الفَقْرُ)
(عَلَىَّ لأهل الجوْرِ كُلُّ طِمرَّةٍ عَلَيها غُلامٌ مِلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرُ)
يُدِيرُ بأطرافِ الرِّماحِ عَلَيْهِمُ كُئُوسَ الَمنايا حَيْثُ لاَ تُشْتَهَى الَخمْرُ
وكَمْ مِنْ جِبالٍ جُبْتُ تَشْهد أنَّنِي الجبــــالُ ، وبَحْرٍ شاهدٍ أنَّنِى البحرُ

. . . .

(وَجنَّبَنِى قُرْبَ السَّلاطِينِ مَقْتُها وَمَا يَقْتَضِينى من جَمَاجِمِها النَّسْرُ)
(وَأنِّى رأيت الضُّرَّ أحْسَنَ منظراً وأهْوَنَ من مَرْأى صَغيرٍ به كِبْرُ)[1]

* * *

وأخذ المتنبي بعد ذلك يشتدُّ فى نفسه ويقوَى على أثر ما أصابه من الفتور، وأخذ يستعرض حياته كُلَّها ويستخرج ما فيها ، ويبسط آراءه ويختار منها ،

---

(١) أظن أن القارىء ليس فى حاجة بعد إلى الوقوف به عند كل مفصل للقول ، ففى ما قدمناه من المنهج كفاية له ، وحسبه أن يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق فى التدبر ، فتنفجر فى نفسه المعانى ، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة مجسمة فى ألفاظه وأبياته . ولن تعرف المتنبي إلا أن تفعل ما نريك من الرأى .

ويصوغها فى شعره ، وكل ذلك مما يبنيه على ما مرّ به من أحداث الزمن = فإنه حين رَحَل عن أنطاكية قاصداً دمشق نزل فى طريقه على « علىّ بن محمد ابن سَيّار بن مُكْرَم التميمى » ، فكان مما ورد فى شعره له قوله :

وماَ سكنى سِوَى قَتْلِ الأعَادى، فَهَلْ من زَوْرَةٍ تشْفِى القلوبا!!
تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْها فى حَدِيثٍ تَرُدُّ به الصَّراصِرَ والنَّعيبا[1]

ثم يستذكر ما لقى من الحسّاد ، كابن كروّس وغيره ممن آذوه وهو بطبرية وأنطاكية وغيرها ، فيقول حين ذكر الليل :

أقلِّبُ فِيـــه أجْفَانِى كَأَنِّى أعُدُّ به عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا
(وَمَا لَيْلٌ بأطْوَلَ من نَهارٍ يَظَلُّ بلحْظِ حُسَّادى مَشُوبًا)
(ومَا مَوْتٌ بأبْغضَ من حَياةٍ أرَى لَهُمُ مَعِى فِيهاَ نَصِيباَ)
(عَرَفْتُ نَوَائِبَ الحدَثان حَتَّى لَوِ انْتَسَبتْ لَكُنْتُ لهَا نَقِيبا)

ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آرابه فى الحياة وما كان منه فى مسعاهُ للمجد وطلبه ، وما كان خرج فى إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقّه) المهضوم فى انتسابه للعلوية كما مرّ بك ، ثم ما مرّ به من الأحداث ، ومَنْ لقى من الناس الذين استَدْعَوا احتقارَه لهم وازدراءه إياهم ، وهو مع ذلك مضطرٌّ إلى مُعاناة عشرتهم ومصادقتهم ، ثم يذكر موت جدّته بالكوفة ، وأثر ذلك فى نفسه ، وهى التى يحبها حبّ الوفاء والإخلاص والبنوّة ، وذلك إذ يقول :

---

(١) « الطير » هنا هى النسور تقع على جيف القتلى . و « الصرصرة » ، صوت البازى و « النعيب » صوت الغراب .

أقلُّ فَعَالِي ، بَلْهَ أكثرَهُ ، مَجْدُ وذَا الجدُّ فيه، نِلْتُ أَوْ لم أنل،جَدُّ(١)
(سَأَطْلُبُ حَقِّي بالقَنا وَمَشايخٍ كأنَّهُمُ من طُولِ ما الْتَثَمُوا مُرْدُ)

. . . .

(أَذُمُّ إلى هٰذا الزَّمانِ أُهَيْلَهُ ، فأعْلَمُهُم فَدْمٌ ، وأحزَمُهم وَغْدُ)
(وأكرمُهم كَلْبٌ، وأبصرُهم عَمٍ ، وأسهدُهم فَهْدٌ ، وأشجعُهم قِرْدُ)
ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحرِّ،أن يرى عَدُوًّا له ، مَامِن صداقتِه بُدُّ
بِقَلْبي، وإن لم أرْوَ منها ، مَلالةٌ ، وبي عَن غوانيها ،وإنْ وَصَلْت، صَدُّ

فهذه كما ترى كلماتُ كلها منتزعٌ مما كان فى حياته لذلك العهد ، وما أصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق فى المطلب ، وما أوْرَثَهُ ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه، على ماذهبنا إليه أوَّلاً ، فى طريقه وهو يسعى لإدراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدَّته وأنزلوها بشرِّ منزلةٍ ،وكانت جَدَّته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليلٍ ،وكان أثرُ موتها لا يزال يحزُّ فى نفسه = التفتَ قلبه إلى تلك الحبيبة التى فارقته ، وانتقل من هذه المعانى التى تراها فى الأبيات السابقة إلى ذكرى جَدَّته، فقال :

خَلِيلايَ دُونَ النَّاسِ حُزْنٌ وَعبْرةٌ عَلَى فَقْدِ من أحْبَبتُ، مالهما فَقْدُ
تَلِجُّ دُمُوعى بالجفونِ ، كأنما جُفُونى،لِعَينَيْ كلِّ باكيةٍ ، خَدُّ

---

(١) « الجد » ، الأولى بكسر الجيم ، الاجتهاد . و « الجد » الثانية بفتح الجيم ، وهو الحظ والنصيب .

ثم تلبَّث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمَّل أحزانه وآلامه ، ورأى أن البكاء والنَّحيب مما لا يجمُل به . وكيف يبكى ويُعْوِل وهو من هو فى الصبر والجلَد وتحمل النكبات غير جازعٍ ولا متململ ؟ وقد لقى بِصَبْره فى سبيل جدَّته وفى سبيل نفسه ، كُلَّ نائبة ، وطوى الأرض موكَّلاً بذَرْعِها غيرَ حافلٍ ، وقاسى من الحسد ما قاسى، وأصابه من عداوة النَّاس له ما أصابه، فاغتابوه وآذوه ، فاستدركَ صاحبنا على بكاء جدَّته بقوله بعدُ يَصِف نفسه وما كان منه وما كان من أعدائه :

وَإِنِّى لَتُغْنِينى مِنَ المَاءِ نُغْبَةٌ ... وأَصْبِرُ عَنْهُ مِثْلَمَا تَصْبِر الرُّبْدُ[1]
وأَمْضِى كما يَمْضِى السِّنَانُ لِطِيَّتِى ... وَأَطْوَى كَمَا تَطْوَى الُمجَلِّحَةُ العُقْدُ[2]
وأُكْبِرُ نَفْسِى عَنْ جَزاءِ بِغِيبَةٍ ، ... وكُلُّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ لاله جُهْدُ
وَأَرْحَمُ أقواماً من العِىِّ والغَبَى ... وأعذِرُ فى بُغْضِى لأَنَّهُم ضِدُّ

* * *

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، ومِمَّا يَلِجُّ فى صدره ويعتلج فى نفسه ، انحدر إلى دمشق ولم يقم بها إلاّ قليلاً ، وقصد طبرية ، وذلك فى سنة ٣٣٦ ، ولَعلَّ ابن كَرَوَّس كان قَد غادرها إذ ذاك . والظاهر أن أبا الطيب إنما دَخَلها فى جِوَار بعض أصحابه ، ومَنْ كانوا يكرمونه من أهل الفضل والنبل، واطمأن قليلاً بها، ثم هاجت العلوية عليه مرة أخرى ، وأثبتوا عليه عداوتهم،

(١) « الربد » جمع « ربداء » ، وهى النعام ، وهى أصبر شىء عن الماء .
(٢) « أطوى » ، أى أجوع . و « المجلحة العقد » ، الذئاب الجريئة ، فى أذنابها التواء كأنه عقدة .

وأرادوا أَن يكيدوا له كيداً ليخلصوا منه ومن أفعاله ، ونحسب أنّ أباالطيب كانت لهفى البلاد التى دخلها شِيعةٌ تشاركه الرأيَ وتتعصَّب لمذهبه فىالسياسة، وتَزِيد فى تعصُّبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً فى إثارة الفتن فى كثير من البلاد التى دخلها ...

وأنتَ ، فلا تظُنَّنَّ أن مثل أبى الطيب كان إذا دخل بلداً دخله صامتاً مَخِيطَ الشفتين ، لايفتحهما إلاّ حين ينشد قصيدته فى « المديح » فى مجاس من يمدحه ، ثم ينصرف إلى داره منزوياً فى ركن من أركانها ، حتى يأذن له شيطان شعره بقصيدة أخرى وهكذا وهلم جرًّا . كلاّ ، فإنا لانشك فى أنّ أبا الطيب = ذلك الظريفَ المجاس ، الحاضرَ البديهة ، الحلوَ النادرة ، الأديبَ النفسِ ، صاحبَ الرأى فى السياسة ، وطالبَ الحكمة أنّى كانت ، والثائرَ على حكام عصره ، والمُزْدَرِىَ لأهل زمانه = والذى تَتَبيَّن فى شعره مواضع التجربة الطويلةِ ، والخبرةِ النافذة ، والتمرُّس بالأخلاق عالِيها وسَفْسافها ، والذى كان شعرُه قطعةً من إحساسه وطبيعته ، ومما يمسها مّما يدور حولها أو يدانيهما من إحساس الناس وطبائعهم = والذى كان شعره ينمُّ على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة التى لاتهدأ إلا ريثما ترتد إليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة = والذى لم تكن هذه الظاهرة فى شعره دَعْوَى أو باطلاً أو ظاهراً لا باطن له ، إذْ لو كان ذلك كذلك ، لوقع فيها التخالف على تطاوُل السنين ، ولَنَقَصت وضعفت بضَعْف الأسباب الجالبة لها = والذى كان ذا لسان وبيان ، وكانَ جدلاً طَلْقَ اللسان أبىَّ النفس ، لايهابُ أن يصارح وأن يكشف عن ضميره على شِدَّة ما لقى من الكيد والمكر والتربُّص والرَّصَد ، ثم كان (الرَّجُلَ) الشاعرَ الفردَ من أهل عصره الذى كشف عن

سَيِّئات العصر ، وصوَّر رَذَائله كلها فى كثير من شعره = والذى كان قريباً من الأمَراء ، أثيراً عند كثير ممن لقيهم = أقولُ : أنا لاأشك ، ولاتشكَّنَّ أنتَ ، فى أن أبا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل فى الأدب والسِّياسة ، وتمرّس بالناس وتمرّسوا به ، وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً فى تَناوُل الآراء والأفعال والأحداث التى وقعت فى الدولة العربية ، وَبيَّن رأيه فيها فى مجالس أصحابه ، وتناقلتْ الألسنة ما كان يقولُ ، ووَجَد حسّاده مِنْ تكشُّفه وَصَرَاحته مَطْعناً ومَقْتَلاً يطعنونه فيه ، وظفِر الوشاة بغِذاء قلوبهم وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكاشف به من الرأى ، وما يبديه من النظرات والأفكار ، فسعوا به إلى أعدائه ، وإلى الذين كانوا يضمرون له السوء من أصحاب السلطان ، أو مَنْ كانوا يعادُون أبا الطيب لأسباب خفيت عن السُّعاة والوشاة ، وإن لم يَخْفَ عنهم أنّ هؤلاء كانوا ممن لا يميلون إلى بقائه بينهم ، أو ممن يتربَّصون أن يظفروا به قبل أن يفوتهم بحذره ودهائه .

* * *

فبيِّنٌ أنَّ أبا الطيب دَخَل « طبريَّة » ، على حالته تلك التى نصِف ، مراغماً للعلويين ، ثم لمن كانوا يكيدون له قبلُ على عهد بدر بن عمار ، والذى كان يتَوَلَّى كِبْر ما يأتونَ به هو الأعورُ ابن كروس كما مرّ بك . وكان أبو الطيب فى هذه الأيام التى بقيَها بطبرية حَذِراً متوجِّساً يترقَّب ، وكان بالرملة إذ ذاك (سنة٣٣٦) الأمير « أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْجٍ » ، فلما أتاه الخبرُ بأن أبا الطيب نازلٌ بطبريةَ ، طمع فى مديح أبى الطيب ، ووَدَّ

لو نزل عليه وأقام عنده مكرّماً ، فلم يزل يُراسله أن يتحمَّل إليه وينزل عنده، فأضمر أبو الطيب الرحلةَ إليه ، وكان الخبرُ قد بلغ العلويين أن « أبا محمد ابن طغج» راسله وعزم عليه فى الرحلة إليه ، فألْفَوها نُهْزَةً مُعْتَرِضة أن يفتكوا به ، وتوهَّموا الطريقَ التى سَيَركبها أبو الطيب ولا بُدَّ ، فى رحلته ، فأرْصَدُوا له جماعةً من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها« كَفْرعاقِب »، وأمروهم أن لا يفلتوا الرجلَ إلاّ جُثَّة دامية . والظَّاهر أن أبا الطيب كانَ قد جرى فى خاطره أنهم فاعلُو مثل ذلك ، فخالفَ الطريق التى دَرَجَ السابلةُ على ركوبها ما بين طبرية والرَّمْلة ، فلمَّا فات الرَّصَدَ ، وبلغه ما كانوا قد عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له رَبَتْ نفسُه ، وَزَفَر زفرته من هذا الكيدِ المُلاَحِقه بكلِّ طريق ، وثارت فى صَدْره الزّوبعة التى كانت تثور فيه كلما ابتلى ببلاء من العداوة، أو أصيب بمصيبة من الكيد والمكرِ السيء. فلمَّا دخل الرَّملة ليمدح الأمير أبا محمد ابن طُغج ، كان يفورُ ويغْلى ويَتَقَلْقَل ويتفجَّر، فلم يأخذ نفسه بآداب المديح والزيارةِ المبتدأةِ ، وَرَمَى فى وجه ممدوحه بقنابلهِ قبل أن يَلِج إلى مديحه فقال :

فَمَالِى وَللدُّنيَا ، طِلابِى نُجُومُها ، وَمَسْعَاىَ منها فى شُدُوق الأَرَاقمِ
منَ الحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الجهلَ دُونه، إذا اتَّسَعتْ فى الحلم طُرْقُ المَظالمِ
وَأَنْ تَرِدَ الماءَ الَّذِى شَطْرُهُ دَمٌ فتُسْقَى،إذَا لَمْ يُسْقَ مَنْ لم يُزَاحِمِ
وَمن عرَفَ الأيَّام ، مَعْرِفتى بها وبالناس ، رَوَّى رُمْحَه غَيْرَ راحمِ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا به ، ولاَ فِى الرَّدَى الجارِى علَيْهِمْ بآثِمِ

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) ، قبل أن يمدحَ ابن طُغْج ، فقال :

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفاتِكٍ، وإن قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ

وقد قدمنا لك فى أثناء القول أن أبا الطيب كان إذا نزل به نازلٌ مما يَكْرُبه من الغَمّ والهمّ ، اشتدَّ به ذلك وأخذَ عليه نَفَسَه ، فينصرف فكرُه كله إلى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما أَجْلَب عليه من العُداة وعَداواتهم . ولا يزال يحدِّق ببصره فى هذه الحالة ، مُستوعباً كلَّ إحساس فى نفسه ، وكُلَّ ما مرَّ به وأصابَ منه ، حتى تتفجّر فى قلبه ونفسه ينابيع البيان ، فينتزع الحكمة من قلبه ولها أصولٌ تاريخية ضاربةٌ فيه . فإذا تدبرت الأبيات السالفة وجدْت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كُلِّها ، على ماسُقْناه فى حديثنا .

ثم إن أبا الطيب لمّا كَرَبه أمرُ العلويين الذين أرصدوا له بكفر عاقبٍ ، ارتدَّ إلى الحالة التى وصفنا ، فلم يزل يدورُ ذلك فى فكره بين قلبه ولسانه ، فلم يقدر أن يمْتَنِع عن ذكره فى شعره الذى قاله فى مديح أبى محمد خاصةً ، ثم فى شعره الذى قاله بعدُ لطاهر العلوى كما سترى . فمما قالَ لأبى محمد يذكرُ هذا الكيدَ الذى كِيد به فى طبريّة :

كَرِيمٌ لَفَظْتُ النَّاسَ لَمَّا بلغتهُ كَأَنَّهُمُ ماجَفَّ مِنْ زَادِ قَادِمِ
وَكادَ سُرورِى لَايَفِى بِنَدَامتى على تَرْكِه فِى عُمْرِىَ الْمُتَقَادِمِ
(وَفَارَقْتُ شَرَّ الأَرْضِ أهلاً وتُرْبةً بِهَا (عَلَوِىٌّ) جَدُّه غَيْرُ هَاشِمِ)

والظاهر أنه كانت بين الأمير ابن طُغْج وهذا العلوىّ الذى كاد هو وشيعته لأبى الطيب فى مخرجه من طبرية ، عداوةٌ قائمة ، وأنَّ هذا الكيد

كان لسببين : الأول ، ما كان بين العلويين وبين أبى الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية وهذا الأمير الذى خرج أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إياه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلى ما أنشدناه :

بَلاَ اللهُ (حُسَّادَ) الأَمير بِحِلْمِهِ ، وأَجْلَسَه مِنْهُم مَكَانَ العَمَائمِ
فإنَّ لهم فى سُرْعَةِ المَوْتِ راحةً ، وإنَّ لَهُم فى العَيش حَزَّ الغَلاَصِمِ (١)

* * *

هذا ، وقد بَقِى أبو الطيب فى جوار الأمير أبى محمد بالرملة مكرَّماً ، يصحبه الأمير فى رحلاته ، ويُحْضِره مجلسه ، ويرافقه فى زياراته ، ويُفْضِل عليه كل الإفضال ، حتى أرْضى ذلك القلب الذى كان بُغْضُ الأعاجم فيه طبيعة ثانية قائمة لا تَفْتُر . وكان من أصحاب هذا الأمير رَجُل من شيوخ العلويين بالرَّملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولأهله أيادٍ كثيرة عِنْد بنى طُغْج ، فلم يفت الأميرَ أبا محمّدٍ ما فى مدح أبى الطيب له ، وقد ترك أنْ يمدحَ رجلاً جليلاً كصاحبه هذا « أبى القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوىّ » ، فرغب إلى أبى الطيب أن يمدحه ، وكان من أبى الطيب ما كان فى امتناعه على ما مرَّ بك ،(٢) فلما أجاب أبو الطيب الأميرَ إلى مَدْحه مُرْغماً ، حاملاً على نفسه = إذ كان قلبُه لا يرضى أبداً عن هؤلاء العلويّين الذين آذَوْهُ ، والّذين لَقِى من كيدهم بالأمس القريب ما لقى ، من إرصادهم لقتله = قال قصيدته يمدح أبا القاسم

---

(١) « حز الغلاصم » ، قطع الأعناق . و « الغلصمة » لحمة ناتئة عند رأس الحلقوم .
(٢) انظر ص : ٢٨ ـ ٣٢

طاهر بن الحسن بن طاهر ، ولكنه قدّم قبلَ مديحه هذه الأبياتَ ، وفيها مافيها من لَمْز قوْم من (العلويين) ، لعلّهم أن تكون بينهم وبين طاهر قرابة دانية ؟ ، والخطاب فى الأبيات لا مرأة ذكرها فى تشبيب القصيدة :

تُخَوِّفُنى دُونَ الّذِى أَمَرَتْ بهِ ... وَلَم تَدْرِ أنَّ العَارَ شَرُّ العَوَاقبِ
(ولَابُدَّ مِنْ يَوْمٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ ... يَطُولُ آسْتِمَاعى بَعْدَهُ للنَّوادِبِ)
يَهُونُ عَلَى مِثْلى إذَا رَامَ حاجةً ... وُقُوعُ العَوالِى دُونَهَا والقَوَاضِبِ
كَثِيرُ حَياةِ المرءِ مِثْلُ قَليلها ... يَزُولُ ، وبَاقِى عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ
إلَيْكِ ، فَإِنّى لَسْتُ مِمَّن إذا اتَّقى ... عِضَاضَ الأفَاعِى نَامَ فَوْقَ العَقَارِبِ
(أتانى وَعِيدُ الأَدْعِياء وأنَّهُم ... أَعَدُّوا لِيَ السُّودانَ فى كَفْرِ عَاقِبِ)
وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهم ... فهل فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهم غَيْرُ كاذبِ ؟

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) قبل مدح الشريف العلوىّ ، كما مرَّ بك فى قصيدة الأمير ابن طُغْج ،[1] فقال فيما يلى ذلك :

إلىَّ ، لعَمْرِى ، قَصْدُ كلّ عَجِيبةٍ ... كأنّى عَجِيبٌ فى عُيُونِ العَجَائبِ
بأىِّ بِلَادٍ لَمْ أجُرَّ ذُؤَابتى ؟ ! ... وأىُّ مكانٍ لم تَطَأْهُ رَكائِبى ؟ !

وقد مضى ذكرُ هذه القصيدة وذكر أبياتٍ أخرى منها ، فاكتفينا بما مضى منها عن الإعادة .[2] على أن هناك أشياء أخرى ، كان أولى بنا التوسع فى تفصيلها ، ولكنا أجّلناها إلى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق .

* * *

(١) انظر ما سلف ص : ١٧٥ .
(٢) انظر ما سلف ص : ٣٠ ـ ٣١

ثم عزم أبو الطيب الرِّحلة من الرملة إلى جِوار « أبى العشائر الحسن بن على بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوى » ، فخرج من الرمْلة فى سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث إلاّ ما كان من أمر إسحق بن كَيْغَلَغَ فى طلبه منه أن يمدحه ، فهجاه بقصيدته المشهورة الّتى أوَّلُها :

لِهَوَى النفُوسِ سَرِيرَةٌ لاَ تُعْلَمُ عَرَضاً نَظَرْتُ وخِلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ

فلما بلغت ابنَ كيغلغ ، أراد قتل أبى الطيب ، وكان إذ ذاك بطرابلس ، فخرج منها ، فأتبعه ابن كَيْغلَغ خيلاً ورَجْلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب إلى بعلبك ، ثم إلى دمشق ، ثم خرج من هناك إلى أنطاكية ، فلقى أبا العشائر . وكان مما قال لهذا الأعور ابن كيغلغ :

أَرْسَلْتَ تسأَلُنى المَديح سَفَاهةً !! صَفْرَاءُ أَضيقُ مِنْكَ، مَاذَا أَزْعمُ؟
وأَرَغْتَ مَا لِأَبِى العشائر خَالِصاً ، إنّ الثناء لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعِمُ
وَلِمنْ أقمْتَ عَلَى الهَوانِ ببابه تَدْنُو فَيُوجأُ أَخْدَعَاكَ وتُنْهَمُ

ثم طفق يمدح أبا العشائر إلى أن قال :

والوَجْهُ أَزْهَرُ ، والفُؤَاد مُشَيَّعٌ ، والرُّمْح أَسْمَرُ ، والحُسام مُصَمِّمُ
(أفْعَالُ مَنْ تَلِدُ الـكِرَامُ كَرِيمةٌ ، وفَعَالُ مَنْ تَلِدُ الأَعاجِمُ أَعْجَمُ)

فكأنَّ أبا الطيب ، كان قد ملّ الأعاجم واستنقصهم ، وفيهم الأمير أبو محمد بن طغج الذى كان قد نزل عنده بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله .

أَأَصْبِرُ عَنْكَ ، لَمْ تَبْخَلْ بِشَيْءٍ ؟
وَلَمْ تَقْبَلْ عَلَيَّ كَلَامَ وَاشٍ ؟
وَما وُجِدَ اشْتِيَاقٌ كَاشْتِيَاقِي ،
وَلَا عُرِفَ انْكِمَاشٌ كَانْكِمَاشِي
فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ المَعَالِي ،
وَسارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ المَعَاشِ

أردنا في الباب السَّالف أن ندُلَّك على نَفْس أبي الطيب ، وما تميَّزت به من شعراء العربية جميعاً ، وما انطوت عليه من القوة والرُّجولة ، وما كان يزلزلُها من الثورة التي لا تزال تهزُّه من قرارة قلبه ، فتنطلق زلازلها من قلبه إلى لسانه ، فيُثْبِت لسانُه في شعره عدَدَ هزَّات الزلزلة وقوتها ، فلذلك نقلنا إليك طائفةً من شعره على التوالي في ترتيبها الزمني حتى هذا العهد الذي بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غيرَ الأوَّل ، وذهب في الشعر مذهباً عجباً ، وتحولت معاني نفسه من غرضٍ بعينه ، إلى غرض آخر غير مفارقٍ للأول ، بل منه استمدَّ ، وعليه بَنَى.[1]

* * *

(١) انظر ما سلف في أول الفصل العاشر .

خرج أبو الطيب من الرَّملة بقلبه وبنفسه وبآرائه قاصداً أنطاكية التى كانت فى يد بنى حمدان العرب التّغلبيّين ، وكان يَلِى أمرَها ، من قبل سيف الدولة ، أبو العشائر الحمدانىّ الشاعر المبدع ، والمحارب الباسل ، والعربىُّ الخالص الحب للعرَب والعربية ، الشديدُ العداوةِ للروم والترك والدَّيلم الذين توالت غاراتهم على الدولة العربية بالجيوش تارة ، وبالدسائس والمكايد والتمزيق تارةً أخرى . وكان المتنبى قد عرف بنى حمدان من قبل ، وعرف منهم خاصّةً سيفَ الدولة ، (١) الذى صَارَ الآن سنة **٣٣٦** صاحبَ الشام ، والمستولِىَ على أمرها ، والمُنْتزِعَها من يَد بنى طُغْجٍ الإخشيديين الأتراك .

دَخل أبو الطيب أنطاكية ليلقى العربَ والعربيةَ فى مجلس بنى حمدان ، وقد رمى دَبْرَ أذنه وتحت قدمه ، الأعاجمَ وما مدحهم به . وأراد أن ينقل شِعْره من تكلُّف المديح إلى التطلُّق والاسترسال فى مدح من هم من رأيه ، ومن يجد فيهم مَرْضاةَ نفسه وآماله ، ولئن كان قَبْلُ قد مدح القَوْمَ العلوجَ ليستخرجَ منهم بَعْضَ أموالهم التى غلبوا الأُمة العربية عليها ، وليكون على مقربةٍ من مَكرهم ودَسِّهم ، وعلى علمٍ بما يضمرون لأُمته من الشّرّ الغالب على قلوبهم وعقولهم = فهو الآن قد وجَد قُوّته وأهله وعشيرته ، فليأتِهم بكل غريبة من القول ، وليُجِدّدْ ذِكرَهم فى شعره ، وليهدأ قليلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يحزم رأيه وتدبيره مع هؤلاء القوم ، عَلَى أن يعيدوا مجد العربية ، (ويُدِيلوا من دوَلة الخدم) الذين غلبوا على سياسة **الأُمة** ، ورموا

---

(١) قد مضى ذلك فى سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية إن شاء الله — انظر من ص ٩٣ إلى ٩٧ .

بها في موارد الهلاك والفشل ، فهذا سرُّ قولهِ لأبي العشائر في قصيدةٍ مدحه بها ، والتي نقلنا أبياتاً منها في رأس هذا الباب :

فَسِرْتُ إليكَ فِي (طَلَبِ المعالِي) وسَارَ سِوَايَ فِي (طَلَبِ المَعَاشِ)

فهو إنما قَدِم على بني حمدان لما ذكرنا لك ، لا للتكسُّب بالشعر ، وأكلِ الخبز من قوافيه ومعانيه .

* * *

رأيت قبلُ أن المتنبي كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجّدَها وعظّمها، ثم يبدى آراءهُ في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم يُنْذِر ويوعد ويهدّد . فلما بدأ اتصاله ببني حمدان ، ترك هذا المنهج ، وَآدّخر قوته كلها لأمرٍ غير هذا الأمر ، وأسْبغ على بني حمدان ما كان يسبغ من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو يَصِفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم إلى غاية السموّ في القوّة والسلطان والسماحة والمروءة وعِظَم المطلب . ولم يذكر نَفْسَهُ إلاَّ حين يُحْرِجه الوشاة والساعون بالشرّ بينه وبينهم .

فلما اتصل أبو الطيب بأبي العشائر ، ونال منه مكانَهُ ، وأدرك عندَهُ طَلِباته ، بدأت وشاية الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها مرّةً أخرى ، ومدت الفتن أعْنَاقها من قِبَلِ شيعة العلويّين والفاطميين والإخشيديين والعباسيين ، على ما نذهب إليه ، وشَعَر أبو الطيب بما هنالك ، فدلَّ أبا العشائر عليه بلطيف القول غير مُصرّح فقال :

فَيَا بَحْرَ البُحُورِ ، ولاَ أُوَرِّى ، وَيَامَلِكَ المُلوكِ ، وَلاَ أحاشى

كأنك ناظرٌ في كُلِّ قَلْبٍ فما يَخْفَى عليك محلُّ غاشِ ؟
أأَصْبِرُ عَنْكَ ؟ لَمْ تَبْخَلْ بشيءٍ ، وَلَم تَقْبَلْ علىَّ كَلامَ واشِ ؟

. . . .

فَمَا خَاشِيكَ للتكذيبِ راجٍ ، ولا رَاجِيكَ لِلتَّخْييبِ خَاشِ
أرَى النَّاسَ الظَّلَامَ ،وأَنْتَ نُورٌ ، وإنى منهم لَإِلَيْكَ عاشِ
(بُليتُ بهم بَلاءَ الوَرْدِ يَلقَى أُنوفاً ، هُنَّ أوْلَى بالخِشَاشِ)

والظاهر أن أبا العشائر كان قد أصمّ أذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحسّاد ، وما كانوا يريدُون من تقليب قلبه عليه ، كما فعلوا بقلب بدر بن عمار من قبلُ ، فلما لم يأذن لهم أبو العشائر أوَّلَ أوّلَ ، زادُوا في التشهير بالرّجل ، وفي اجتلاب الأكاذيب في ذمه و َنقيصته ، وفي التعريض به وبأدبه ، وجعلوا يذكرون ما كان في شعره من الثّورة والإنذار والوعيد وذمِّ الناس ، وبعدِّ دون مواضع فخره على من مدحه ، ويدلّون على سوء أدبه في مديحه إذ يقدّم مدح نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح ممدوحه بمثله أو بما يقاربه ، ووَقَع إليهم ما كان ينبز به لدى بدر بن عمار من تسميته بالمتنبي .[1] فزادوا عليه ، ووضعوا من عند أنفسهم القِصَص في تطويل الحكاية ، وتعظيم أمرها . وبدأ العلويُّون أيضاً يعَرِّضون بمسألة نسبه ليُخْرجوه أن يصرح بنسبته العلوية ، فعندئذٍ لا يجدون حَرَجاً من أن يأخذوه كما أخذوه أوّلَ مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجن بضْعَ سنين . فلما بلغوا هذا المبلغَ وضاق بهم

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وأنها كانت لما كثر في شعره من الإنذار والوعيد ، انظر ما سلف ص ١١٣ ــ ١١٦

أبو الطيب ، لم يجد بدًّا من العودة إلى طريقته الأولى حين يُحْرَج ، فكان مما قال فى ذلك كله قبل أن يَلِجَ إلى مديح أبى العشائر :

(أَنَا ٱبنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الباحثِ ، والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ)
(وَإِنَّما يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوه ، وَأَنْفَدُوا حِيلَهْ)
فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ
وَلْيَفْخَرِ الفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ مُرْتَدِياً خَيْرَه وَمُنْتَعِلَهْ
أَنَا الَّذِى بَيَّنَ الإِلٰهُ بِهِ الْـ أَقْدَارَ ، وَالمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَه
جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشِّرَافُ بِها ، وغُصَّةٌ لاَ تُسِيغُهَا السَّفِلَهْ
(إِنَّ الكِذَابَ الَّذِى أُكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الَّذِى نَقَلَهْ)
فَلاَ مُبالٍ ، ولاَ مُدَاجٍ ، ولاَ وَا نٍ ، وَلاَ عاجزٌ ، ولاَ تُكَلَهْ
ودَارِعٍ سِفْتُـهُ فَخَرَّ لَقًى فى المُلْتَقَى والعَجَاجِ والعَجَلَهْ
وسَامِعٍ رُعْتُـهُ بقَافِيةٍ يَحَارُ فِيها المُنَقِّحُ القُوَلَهْ
(وَرُبَّمَا أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِى مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الَّذِى أَكَلَهْ)
(وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِى وأَعْرِفُه ، والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ)

ومن صدق الرجل فى محبته لأبى العشائر خاصة ، وبنى حمدان كافة ، فَعَل مالم يفعله من قبل ، فاستدرك عَلَى ماذكر به من نفسه من التعظيم والتبجيل فقال :

مُسْتَحْيِياً مِنْ أَبِى العَشائِرِ أَنْ أَسْحَبَ فى غَيْرِ أَرْضِهِ حُلَلَهْ

وقد أشار أبو الطيب فى هذه القصيدة إلى أنهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد ، أنهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبى العشائر ، وزعموا أنه

إنما كان يمدحُه للتكسُّب والنيل من فواضِلِ ماله ، وتكذَّبوا عليه بكل نقيصة تُفسد عليه قلبَ أبى العشائر ... فقال :

مَالِيَ لاَ أمدحُ الحسَيْنَ ، ولاَ أبْذُل مِثْلَ الوُدِّ الَّذِى بَذَلَهْ ؟
أَأَخْفَتِ العَيْنُ عندهُ أثَراً ! أَمْ بَلَغَ الكَيْذُبَانُ ما أَمَلَهْ ؟

ولكنّ أبا العشائر كان قد عرف ، فيما نظنُّ سرَّ الكيد الذى يكاد به أبو الطيب ، ولعلّ سيف الدولة أيضاً قد بلغه مَقْدمُ أبى الطيب على أبى العشائر ، فكتب إليه أن يحرص علَى الرجل ، ولا يَسْمع فيه لمنتقص ولا ذامٍّ ، ولا متكذّب ، لما يعلم من سرّ الرجل الذى انطوى عليه فى أمر نسبته العلوية ، كما قدَّمنا . فلذلك لم يجد الوُشاة أُذناً صاغيةً ولا سَمِيعة ، فانصرفوا برغمهم، ونال أبُو الطيب الكَرامةَ والعِزَّةَ فى جوار أبى العشائر ، وهدأ واستقرَّ قرارُه ، واطمأن قَلْبه ، مُنْتَظِراً مَقْدَم سيف الدولة إلى أنطاكيةَ فى مسيره فى نواحى البلاد التى استولى عَليها بالشام . وفى هذه الفترة من الطمأنينة والسكينة والكرامة لدى أبى العشائر ، استجمَّ الرجل لقوته ، وادَّخر لسيف الدولة ذخائرَ قلبه وكرائمَ فُؤادِه .

وَعِنْدِى لَكَ الشُّرُدُ السَّائِرا
تُ ، لا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأَرْضِ دَارَا
قَوافٍ ، إذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِى ،
وَثَبْنَ الجِبالَ ، وخُضْنَ البِحَارَا
وَلِى فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قائلٌ ،
وَما لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا
سَمَا بِكَ هَمِّىَ فَوْقَ الهُمُومِ ،
فَلَسْتُ أَعُدُّ يَساراً يَسَارَا
ومَنْ كُنْتَ بَحْراً لَهُ ، يا علىُّ ،
لَمْ يَقْبَلِ الدُّرَّ إلاَّ كِبارَا

فى سنة ٣٣٧ كان سيفُ الدولة « أبو الحسن عَلى بن أبى الهيجاء عبدالله ابن حَمْدان العَدَوىُّ التغلبىُّ » ، قد استولى عَلى أكثر الشام ، ووقف للرُّوم يردُّ غاراتهم على أطراف بلاده ، ويُوقع بهم إيقاعاً شديداً ، وغَلَبت مقدرتُه الحربيةُ كلَّ مَن كان فى عصره من القوّاد ورؤوس الفتن التى عملت فى انتكاس الدولة العربية وهلاكها . وكان يُؤَمَّل له أن يتسع ملكه اتساعاً عظيماً ، لولا ما كان من الأحداث العظيمة ، ثم ما كان فى الدولة من دسائس الأعاجم التى فرّقت القلوب ، فلم تَدَعْ أمةً من الناس إلاّ دخلت بينهم فمزقتهم شرَّ ممزّق ، وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً . وأيضاً ما كان من دعوة

العَلَويين لقلب الخلافة التى بالعراق من عباسية سُنِّية إلى علوية شيعية . وأيضاً ما كان من الدَّعْوَة السرية الجارفة التى كان يقوم بها دعاة الفاطميين ، وكانت هذه أشدَّ البلايا التى ابتُلِى بها العالم العربى كله ، إذ أدخلت فيه ماليس من طبيعته ، وقذفت به فى ظلماءَ نهارُها من ليلها ، وكان دُعاتها قد تفرقوا فى كل مكانٍ من سلطان الدولة العباسية ، ليوقعوا بين الأمراء ، وليحوزوا إلى دعوتهم فئةً غالبةً تُعينهم على مايريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدّة من المغرب الأقصى إلى ماوراء خراسان .

وكان بنو حمدان من شيعة العلويين ، ومن المتحققِّين بخدمة الدَّعوة العلويَّة ، إلاَّ أنهم كانوا عَرَباً يَدْعون إلى العلوية للعربية ، لما وجدوا من غلبة الأعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الأعَاجم ، ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرّون هذه الدعوة ولا يسلمون لأصحابها بالنسبة الفاطمية المكرمة = رجعوا فانحازوا إلى الدولة العباسية ينصُرونها وينصرون الخليفةَ (النَّائم) على كرسيِّ الخلافة . هذا ، مع إكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدَى بنو حمدان من الدهاء ، وسَعَة الحيلة ، وحُسْن السياسة والتدبير فى التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، مالاَ قبل لأحدٍ من أهل ذلك العصر فى الإتيان بمثله ، أو القيام على أقلّ منه . وقد أثبتَ بنو حمدان بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والإسلام من الفتن الباغية التى فعلت أفاعيلها لعهدهم فى تضييع السلطان العربى ، وانتقالِ الشوكة والعزّة إلى الحكم العجمى الشعوبى القاسدِ الطوية ، الباغى بكيده الإيقاعَ بالعرب ودينهم ولسانهم .

وكان سيفُ الدولة خاصة من بين بنى حمدان أكثرَهم دهاءً وأوسعَهم

ـيلة ، وأشدَّهم حبًّا للعرب ودينهم ، وأكثرَهم سعياً في ردّ الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمَهُم همةً في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكرمَهُم خلقاً آسراً ، وكان من بينهم محبًّا للأدب قائماً على خدمته ، وكان بطبيعته شاعراً حُلْوَ اللسان خفيفَ الروح بيانيَّ الفكر . وكان مبغضاً للأعاجم ولسانهم الذى أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بُوَيْه .

والظاهر أن سيف الدولة كان قد عزم فى نفسه أن ينال بهمَّته غاية الغايات فى ضم أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفى ظل حكومته ، وكان أوّلَ ما أنفذ من ذلك أنْ زَاحم بمناكبه الإخشيديين فى الشام حتى أزاحهم عن أكثرها وردَّهم إلى الرملة ، واستأثر دونهم بأكثر البلاد الشامية ، حتى هلع منه الإخشيد ، فتزلَّف إليه بأن زوَّجه ابنةَ أخيه ، ولم يُجْدِ ذلك كثيراً ولا قليلاً فى إطفاء نار العداوة المستعرَة بين الدم العربى والدم الأعجمى الغريب. واستمرّ سيف الدولة فى طلب التوسُّع والغلبة ، ولولا مالقى من حروب الروم ، وما أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، لكان تَمَّ له ما أراد ، فإن حروب الروم ، قد استهلكت كل قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته فى توطيد حكمه فى الشام ، حتى إذا استجمع أداته واستوفز بقوته ، مال على العراق فَرَدَّ أمر الحكم إلى نصابه فى يدٍ واحدة لا تضطرب ولا ترتجف . وذلك لما كان يرى من تقسُّم الأمر فى بلاد الخلافة ، وضَياع السلطان بين الموالى ، وما جرَّ ذلك من المذابح المتوالية فى كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة فى كل ناحية من النواحى . ونحن نظن أن السببَ فى كثرة غزوات الروم ، فى عهد سيف الدولة ، لبلاد الشام وأطرافها ، أن الذين كانوا يفتِنُون الناس ببغداد من الأعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون ، علموا بأمر سيف الدولة

وما اعتزم من الميل عليهم ميلة رابية ، فأوعزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، وأوقعوا فى قلبه أن سيف الدولة إنما يريد أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتم لهم بذلك ما أرادوا من صَرْف سيف الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال أرضهم ، وانتزاع السلطان من أيديهم . وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقعهم ، ويُعدُّ انتصارَه وهزيمةَ الروم ، انتصاراً لدعوته العربية وهزيمةً للأعاجم أصحاب هذا المكر ، وهزيمة لمن وقع فى حبائلهم من العرب الذين لهم سلطان فى سلطان هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره فى العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس الفتنة ، وعلى الذين تولَّوْا كِبْرَ هذا المكر السيء والكيد الخفى . وأَجَدَّت هذه الوقائع — التى انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم — عداوةَ أصحاب السلطان من الأعاجم لدولة بنى حمدان ، فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع إلى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرها ، وبذلوا فى مسعاتهم أموالاً وذخائرَ . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكَرَم والسخاء وبَسْط اليدِ للعافين والمريدين ، طبيعةً مركبةً فى أصل خُلُقه ، لأعيَوْه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دَان له ورَضِى به وبحُكمه ، ولأعانهم على ذلك ما يرون من المظالم التى ارتكبهاَ سيف الدولة مُدَّة حكمه وسُلْطانِه .

* * *

هذا ..... ، وقد كان أبو الطيب ، حين دخل أنطاكية قاصِداً أباالعشائر فى سنة ٣٣٦ ، عليماً بأمر سيف الدولة ، مدركاً للمكايد السياسية التى أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ الهمم العربية ،

مستيقناً من أن غَرَضَ سيف الدولة فيما فعل ، إنما هو ضربُ الضربة القاضية على الفتن التى أوهت قوة الدولة العربية وفَتَّت فى عَضُدها ، وأن الرجل كان قد اتخذ لأسره أحكم سياسة وأبرعَها وأحسنَها وأدقّها وأبلغَها فى الوصول إلى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، يَرْمِى بكل نفسه إلى هذا الغرض الذى يسدّدُ إليه سَيف الدولة ، فكان اتفاقهما فى الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهمهما ، ولما تمّ بينهما من المودة والحب والكرامة .

وأُخْرى ، أن أبا الطيب ، كما وصفناه لك أوّلاً ، كان يرمى ببصره إلى (الرجل) ، الرجل الذى تجتمع فى رجولته صفات الخير كلها ، وصفات الكمال بأسرها ، كما كان يراها قلبُه ويحلمُ بها فؤاده وأوهامه . و« الرجل » فى أحلام أبى الطيب هو صورةٌ مثّلها له ضميره ، من أحقاده وآلامه وثورته . فهو الرجل الضَّرْبُ الشجاع المستبسل الذى لا يهاب ولا يفتُر ، بل يتقحّم ولا يزداد على البلاء إلاّ مضاءً وعزيمةً = وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى أعقاب الأمور لا يَغْبَى ولا يَغْفُل ولا ينام = وهو الرجل المحارِب الذى لا تغمضُ له عينٌ ، ولا يصبر على ضيمٍ ولا يقرّ على ظلم = وهو الرجل الفَتَى العربىّ الذى داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه فيها مدخلا ومخرجاً ، وأعمل فكره فى إنقاذ أُمته ، وجاهد فى سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصُّورة فى دم أبى الطيب تدُور فيه دوران الدم ، فإذا وَجَد (الرَّجُل) حنّ إليه كأشدِّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبذل له ذات نفسه وضمير قلبه ، فتراه لا يمجِّد نفسه فى شعره الذى يمدح له (الرَّجُل) ، بل يبذل كل كريمةٍ من الصفات لهذا الممدوحِ مُضْرِباً عن ذكر ثورته ، تاركاً وعيده وإنذاره وتهديدَه إلاّ أن يُحْرَج كما حدثناك قبل .

وقد رأيت فيما مَضَى أن هذا قد وقع من أبى الطيب حين لقى بدر بن عمار الأسدىّ ، وهو الفتى العربى (الرَّجُلُ) .

وهذه الظاهرة الغريبة فى شعر أبى الطيب تدل على أنه ما كان يبغى بقوله اكتساب المال وادخاره للعيش ومرافق الحياة ، بل كان يريد أن يحقِّق آماله التى يسعى إليها فى ردِّ السلطان لقومه العرب الأماجد . ولهذا تجدُه لم يقرّ سَنوات فى جِوار أحدٍ ، إلاّ فى جِوَار هذين العربيين : « بدر بن عمار ، وسيف الدولة » . وذلك لما كان يَرَى منهما من الجهاد فى سبيل الغرض الذى انطوت عليه جوانحه . وكان أبو الطيب سريع الفراق لمن مدح حاشاها ، إمّا لأنه لم يجد عندهم عَزْماً إذا كانوا من العرب ، وإما لأنه إنما مدح بشعره للإجازة والمال الذى هو ملاك كل عمل ، إذا كان ممدوحه من غير العرب . فهذا موضع قوله فى شعره لأبى العشائر الحمدانى :

فَسِرْتُ إليكَ فى (طَلَبِ المعالى) وَسَارَ سِوَاىَ فِى (طَلَبِ المَعَاشِ)

* * *

قالوا ...... : « كان أبو العشائر وَالِيَ أنطاكية من قبل سيف الدولة ، فلما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية ، قَدِم المتنبى إليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرّفه منزلته من الشعر والأدب ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فاشترط المتنبى على سيف الدولة ، أوَّلَ اتصاله به ، أنه إذا أنشده مديحه ، لا ينشده إلاّ وهو قاعدٌ ، وأنه لا يُكَلَّفُ تَقْبيل الأرض بين يديه ، فنُسب إلى الجنون . ودَخَل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلّع إلى ما يَرِد منه ، فلمّا أنشده قصيدته الأولى التى أوّلها : « وفاؤُ كما كالرّبع أشجاهُ طاسمه » ،

حَسُن موقعه عنده فقرَّبه ، وأجازه الجوائز السنية ، ومالت نفسهُ إليه وأحبَّه ، فسلَّمه إلى الروَّاض فعلَّموه الفُروسيَّة والطِراد والمثاقفة » .

ونحن لا نسلم بكل ماورد فى هذا النص ولا نثق به ، إذ كان مرويًّا عن غير ثقة مأمون معروفٍ ، وإنما هو مما يتداوله الأدباء على علاَّته دون نقد أو تجريح ، ويحسن بنا أن نحدثك عن نقده قليلاً ، فإن فى النَّقد بركة وخيراً ليست لشىء من الكلام .

فأوّل ذلك ، أنَّ هذا اللقاء فى سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبى الطيب لم يكن أوَّل لقاء ، ولم يكن أوّل تعارُفٍ بينهما ، فقد حدثناك قَبلُ أنه لقى سيف الدولة وأحبَّه ، وأحبَّه سيف الدولة فى سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبى بعد مخرجه من الكوفة متوجِّهاً إلى الشام ، وكان لقاؤُهما برأسِ عينٍ من أرض الموصل الذى كان يدين لبنى حمدان بالطاعة إذ ذاك . ولا شك أنَّ سيف الدولة ، وكان إذ ذاك صَغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، قد فَرِح بمدح أبى الطيب له ، وأبقى ذَلك أثراً فى نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربى ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والأدب ، هذا فضلاً عما استنبطناه هناك من العلاقة بين بنى حمدان وأبى الطيب وجدَّته ، وأنهم كانوا يفضلون عليها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علمٍ بما أصابها من نكبتها فى ابنتها وحفيدها .

وأخرى ، . . أنَّ النص يقول إنَّ أبا العشائر قدم المتنبى إلى سيف الدولة « وعرفه منزلته من الشعر والأدب » . وهذا عجيب من أمر سيف الدولة الأديبِ الشاعر السياسىِّ المطلع على كل ما كان فى البلاد العربية ، المتتبع لكل

حَدَثٍ فى السياسة والأدب ، عجيبٌ أن لا يكون قد وصل إليه طرفٌ من شعر أبى الطيب يَعْرِف منه منزلته فى الشعر والأدب ، فيأتى أبو العشائر فيعرفه تلك المنزلة ! !

وثالثة : أنَّ النص يقول إن سيف الدولة قد دخل تحت شرُوط المتنبى حين اشترط عليه أن لا ينشده إلاّ وهو قاعد ، وأنه لا يكلَّف تقبيل الأرض بين يديه . ونحن لا ندرى لمـاذا يَدْخُل سيفُ الدولة تحت هذه الشروط ؟ ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط ... إذا كان قد جاءه على غير معرفة متصلة بينهما ، وكان قد جاءه مستميحاً طالباً رِفْدَه وماله وفواضله ؟ وهلاَّ أَجَّل ذلك إلى أَجَله ، فيمدحه وينشده ، حتى إذا حَسُن موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فيتقىَ بذلك سوء الردّ ، وينال بالإذن لَهُ بما يشترط رفعةً تَكْبِتُ حُسّادَه ، وتغيظُ عُداته ، ويكونَ فِعْلُه هذا أَدلَّ على حُسن سياسته ، وسعة حيلته ، ويكونَ أشبه بتدبير أبى الطيِّب ، كما مر بك فى مواضع من كلامنا ! !

والرابعة : أن فى النَّص كلمة يُرَاد بها الغض من أبى الطيب وتحقيره ونسبته إلى الجفاء والغلظة والجلافة ، إذ زعم واضعها أنَّ سيف الدولة سلم أبا الطيب « إلى الروّاض فعلَّموه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولاشك ، وكان قد اتَّصَل بكثير من أصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مر بك أنه كان قد دخل لبنان وشارك فى الطراد والصيد ، وكذلك حين كان فى جوار بدر بن عمار وغيره ممَّن مدح ، وكيف نظنُّ أنَّ أبا الطيب كان قد طَوَى هذه السنين كلها

بالشام ، مع ما كان فيه من العُجْبِ بقوته وفروسيته ، وذكر ذلك فى شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلم ذلك أو المشاركة فيه ، مع أنها كانت من الانتشارِ والذيوع بمكان لا يجهل ؟

فهذه الرواية ، كما ترى ، لا تصلحُ أن تكون سِياقاً للقاء أبى الطيبِ سيفَ الدولة . وآعلم أنّ أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مَضْغُ الكلام فى مجالس الأُمراء أو فى سامر الأدباء . = هذا على أنها رُبَّما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها فى هذه النصوص ، لافتقدنا من حلقات التَّاريخ حلقاتٍ لا ينتظم أمره إلاَّ بها ، ولا يستمر إلاّ عليها : فلمثل هذا كان لابد لنا من النظر فى النصوص وتمييزها ، وردٍّ بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تتقطع بنا السبل فى الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يفوتنك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أنت أن تقرأ أو تكتب .

* * *

والسياق التاريخىّ عندنا للقاء أبى الطيب سيفَ الدولة هو ما ترى :

نَزَل أبو الطيب ضَيفاً على أبى العشائر ، يمدحه ويَخْبُره ويَرُوز ما عنده من الهمة ، وما فى هذه الهمَّة من المطالب ، وما فى مَطالبه من الموافقة لِما فى ضميره من الآراء والأحكام . وكان يريد بذلك أن يكون على كَثَب ومَقْرَبة من بنى حَمْدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقّق فى نفسه ما عَرَف عنهم

من خَبر ، وليرى رأيه فى البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً فى الأرض على ما كان عليه من قبلُ حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمُواتى الموافق الذى يستطيع أن يهبَ له قلبه وحبه ، ورأيه وحكمَته ، وتجربته وخبرته ، وآراءه فى السياسة التى كان جاهداً فى معرفة خفياتها ومضمراتها طول حياته . وكان يخصُّ بإرادته هذه سيف الدولة ، وهو عَلَمُ بنى حمدان إذ ذاك ، والمستولى على الأمَد مِن رجال عصره ، والذى عَهد فيه أبو الطيب حين رآه فى سنة ٣٢١ رجولَةً متحفِّزة للوثبة ، وسمع من أخباره ما يكادُ يحقق توسُّمَه فى ظفره وفلَجه على خصومه وخصوم أبى الطيب نفسه .

وبقى أبو الطيب سنَة فى ظِلّ أبى العشائر ، وكان فتًى من فتيان بنى حمدان ، قد جمع أداة الفتوَّة ولم يستكملها ، وكان أديباً مقتدراً مُولَعاً بالأدب ، مبجِّلاً للأدباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تقَع له الدرَّة الجميلة فى شعره ، والنادرة البديعة ، غير متعمِّد ولا جاهد . وأحبَّ أبو الطيب صاحبَه أبا العشائر ، وأحبَّه أبو العشائر وأكرمه وأضْفَى عليه من كرمه ولينه وحَنانه ، وقد حفظ له أبو الطيب هذه اليَدَ التى له عنده ، حتى إنه لما غضب عليه بعدُ — لأمر سيأتى ذكره فيما يستقبل من كلامنا — وأرسل إلى أبى الطيب بعض غلمانه ليُوقعوا به وهو بظاهر حَلَبَ ، ورماه أحدهم بسهم أخطأه ، وقال له وهو يرميه : « خذه ، وأنا غلام أبى العشائر » = لم يُحْفِظ ذلك أبا الطيب على أبى العشائر ، ولم يَسْتَدْعِ هذا العزمُ على قتله هِجاءه أبا العشائر ، بل قال :

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِى إلى مَنْ أُحِبُّه ... وَللنَّبْلِ حَوْلى مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ

(فهيَّج مِنْ شوقى ، ومَا منْ مَذَلَّةٍ ... حَنَنْتُ ، ولكنَّ الكريمَ أَلوفُ)

وكُلُّ وِدَادٍ لا يدومُ عَلَى الأذَى   دَوامَ ودادِى للحسين ضَعيفُ
(فإنْ يَكُن الفِعْلُ الذى ساء واحداً،   فأفعالُهُ اللاَّئِى سَرَرْنَ أُلوفُ)
وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الفداءُ لنفسه ،   ولكنَّ بعضَ المالكِينَ عَنِيفُ
(فإن كان يَبْغِى قَتْلَها ـ يَكُ قَاتِلاً   بكفَّيهِ. فالقَتْلُ الشَّريفُ شَرِيفُ)

وهذه الحادثة وما كان من أبى الطيب فيها ، وما قال من الأبيات السالفة ، دليلٌ قاطع على أن الرجل كان إذا أحبَّ وأخلص الحبَّ لم يحوِّله شيء عن حبّه = وأنَّ هجاءَهُ الذى كان منه لبعض من مدَحهم ، إنما كان منه لأنَّه لم يكن يُضْمِر لهم حُبًّا ألبتَّةَ ، بل كثيراً ما كان يخفى بين جنبيه احتقارَهم وازدراءهم ، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وَقف بأبوابهم. وهى أيضاً دليلٌ على ما قطَعنا به ، فى موضعٍ من كلامنا ، من أنَّ أبا الطيب كان وَدُوداً ألوفاً ، كَرِيم الخلق ، وفيًّا لمن وفى له وأحبَّه وباذلهُ الوُدَّ . وقد صَدق صاحبنا ولم يكذبْ إذ وصف لنا نفسه يوماً ما فقال :

خُلِقْتُ أَلُوفاً ، لَوْ رَجَعْتُ إلى الصِّبا   لَفَارَقْتُ شَيْبِى مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيا

وهذا موضعٌ من أخلاق أبى الطيب ونفسيته ينبغى الوقُوف عنده وتدبره ، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضُون حين يذكرون أخلاقه ، حتى إنَّهم من اضطرابهم فى فهم أخلاق الرجل ونفسيته ، رَموهُ هو بالاضطراب والملل فى الصداقة والوُدّ . وليس الأمر على ما ظنُّوا ، بل هو كما ترى فى كلامنا هذا . ورحم الله أبا الطيب ، فقد حَمل من نكد الدُّنيا فى حياته وبعد موته ما لَقِى من أرزاء .

* * *

هذا . . . . ، وقد لقى أبو الطيب وهو فى جوار أبى العشائر ، كما حدثناك فى الباب السابق ، كيداً كثيراً ، وتقوّل عليه المتقوّلون ما شاءوا ، وآذوه وكثروا عليه الوشاية والسعاية ، وغرَوا بذمّه وثَلْبه ، وكان مازعمناهُ من تشهيرهم به إذ نبَزوه باللقب الذى عُرف به بعد وهو (المتنبى) . [1] ولم يكن كل ذلك مما يردُّ أبا الطيب عن غايته التى قصد من أجلها أبا العشائر ، فبقى صابراً حتى كانت سنة **٣٣٧** .

فنى جُمادى الأولى من هذه السنة قدم سيف الدولة - مِنْ حربه مع الرُّوم وظفرِه بحِصْن برْزَوَيْهِ - إلى أنطاكية التى كان بها أبو العشائر وأبو الطيّب ، فاستقبله أبو العشائر ، وأبلغه ما كان من مَقْدَم أبى الطيب عليه ، وإكرامه له ، ووصف له ما حَسُن عنده من خُلق أبى الطيب ، وما وجَد فيه من الفتوّة والمروءة ، وما أعجب به من حُسْن عشرته ، وجميل أدبه فى المنادمة والمسامرة ، وما عليه أبو الطيب من الطّبيعة الثائرة الجبّارة ، وما انطوى عليه قلبه من محبّة العرب وبُغض الأعاجم ، وماسمعه من آرائه فى سياسة الأمة ، وما ابتُليت به من البلاء الأعجمىّ والفتن الآكلة رَطْبَ الحياة العربية ويابسها ، وذكر له شعرَهُ الذى مدحه به . . . . فذكر سيفُ الدولةِ ذلك الفتى العربىَّ الصَّبُوحَ الوجهِ الحسنَ السَّمْتِ صاحبَ الوَفْرة المسترسلة التى تسيل إلى شَحمتَىْ أُذنيه = ذكر ذلك الذى أنشده مديحه فى سنة **٣٢١** وهو يَتدفّق بفصاحته وبيانه ، ويتقلّع بقوته وشدّته وحماسته وحدة شبابه = ذكر سيفُ الدولة تلك الشخصيةَ الطاغيةَ بسحرها وجمالها وجَلالها ، والتى لاتدع للنسيان فى الذاكرة يداً ماحيةً

---

(١) انظر ما سلف ص ١١٣ - ١١٦ ، ١٨٤

أو مفسدة . . . وقد كان أبو الطيب كما وصفوه « رَجُلاً مِلْءَ العين . . . . قويًّا بديناً خليقاً شَخِيصاً ، عاديَّ الخلْقِ ، قويّ الأساطين ، وثيق الأركان ، جَيِّد الفصُوص ، فيه جَفاءٌ وخشونة » . ذكرهُ سيفُ الدولة واستيقظت فى قلبه المحبة النائمة فى غوره ، وتجمعت له أخباره التى كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة ، فتقدَّم إلى أبى العشائر أن يستدعيه لساعته ، شاكراً له حسن وِفادَة الرجل وإكرامَه له .

وكذلك لاقى العربىُّ الثائرُ الشاعر الفذُّ ، العربىَّ الفاتح الغازِىَ المجاهدَ الفَذَّ ، على شوق وحنين ، وحنَّ الدم إلى الدم ، وعلقت النفس بالنفس ، وتعانقت القلوب فى ساعة من غفلات الدهر ، أخرجت كِلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثانى فاتحةَ مَجْدِ أبى الطيب ، وخلودِ ذكر سيف الدولة فى شعره وَبيانه .

وفى هذا اللقاء التاريخى الذى انتفضت فيه القلوب ، ورمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفسُ الرجل البليغ ، واجتمعت لها كل حَوادِثها وما مرَّ بها من الأهوال ، فى مجلس أمير العرب الفاتح المجاهد الظافر ، وتقاذفت المعانى من قلبه إلى لسانه ، ووقفت محبوسةً فى هذه الأبيات التى ضَمَّها الشاعر إلى قصيدته بعدُ فى مدح أميره وأمير قومه :[1]

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيتُهُ عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوَائِمُهْ
مَهالِكُ لَمْ تَصْحَبْ بِهـا الذِّئْبَ نَفْسُهُ وَلاَ حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوَادِمُهْ

---

(١) أنشد أبو الطيب هذه القصيدة فى مجلس آخر غير هذا المجلس الذى وصفناه لك .

(فأَبْصَرْتُ بَدْراً لايَرَى البَدرُ مِثْلَه، وخَاطبت بَحْراً لاَ يَرَى العِبْرَ عائِمُهْ)

ثم قال البيت الذى تنازعته كل عواطف قلبه ، ونوازعُ فؤاده ، وآراء فكره ، وفُصَحُ بيانه :

(غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلاَوَاصِفٍ،وَالشِّعْرُتَهْذِى طَمَاطِمُهْ)

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذى بقى للعرب فى صفة أمير فذّ من أمرائهم ، ردَّ به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لايزال معقلاً للعرب والعربية إلى يوم الناس هذا . . . ألا وهو الشام الذى يضم فِلْذة أكباد الفاتحين من المهاجرين والأنصار ، ومن سَبَقهم إليها فى الجاهلية من الغرانيق الصباح من بنى غَسَّان . وكان ذلك أيضاً بدءَ المجد الخالد للسان العربى ، والفكر العربى الصريح فى ديوان شاعر فَذٍّ من شعراء العربية ، لم يُرْزَق الشّعرُ ولا الحكمةُ مثلَه ذا لسان وبيان ... ألا وهو أبو الطيب المتنبى ، واحد الشُّعراء الذى جاء (فملأ الدُّنيا وشغل الناس) .

* * *

ولا بدّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضع من الكلام ، وندع صِفَة ما نحن فيه من لقاء الأسدين العربيّين الفاتحين . زعمنا لك فِيما مضى أن تلكَ الأبيات الأربعة المذكورة آنفاً ، كانت مما ثارَ فى قلب أبى الطيب فى هذا المجلس الأول ، قبل أن يحتفل بيانُه لقصيدته الأولى التى أنشدها سيفَ الدولة فى تلك السنة . وهذا موضع تدبر وبَصرٍ ، لا نحبُّ أن ندعه قبل أن نسوق إليك من أخباره طَرفاً ، حتى تنهج لنفسك نهجاً مقارباً يعينك على استخراج

أسرار أبى الطيب ، واستنباط ما كان يلجُّ فى نفسه من العواطف . . . بلى ، وهو عندنا قانونٌ من قوانين شِعْرِ أبى الطيب و نَفْسه تستطيع به أن تعرف خَفِيات ما فى شعره من ضمائره ومبهماته . هذا ، وسنكشف لك عنه فيما يستقبل كَشْفاً مبيناً إن شاء الله .(١)

كان أبو الطيب = على ما وصفنا لك من قُوّة النفس وحِدّة الطبيعة = مُرْهَف الحسِّ ، سريع التأثر ، تنطلق عَواطِفهُ كلُّها فى ساعة من ساعات حياته ، فلا تلبث أن تستثير كل قوّة فيه ، وتجتمع كلُّ قواهُ حين ذلك ماضيةً من قلبه إلى لسانه ، لتثبت عليه عَدَد هزاتِ الزلزلة التى وقعت فى قلبه ونفسه ، ويفزع لسانه إلى بيانه ليبين عنه ما يبغى من الإبانة ، فيحتفل بيانه كله فى أبياتٍ قليلةٍ تكون هى أول القصيدة عِند أبى الطيب ، ثم يَدَّخرها صاحبنا لأَجلها وموضعها ، فيثبتها فى مكانٍ من شعره . وكثيراً ما تقع هذه الأبيات فى موضع لاَ تَتَساوق فيه معانى الكلام على قاعدة مطَّردةٍ من حَقِّ المعنى وتتابُعه ، فلذلك تبقى هذه الأبيات التى تحمل فى ألفاظها هزّات نفسه واقعةً بين كلامين ، ولا تكون هى صلةً بينهما ، بل تكون كالفارقِ الفاصلِ . وهذا هو ما نسميه فى شعر أبى الطيب موضع (الانتقال) . ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسيّة التى كان عليها الرّجل ، فإذا تبصَّرت فيها ، واستخرجت معانيها ، وفصَّلت كلامَها وألفاظَها ، وفسَّرته على الأصول الشعرية والنفسيّة القائمة فى شعر أبى الطيب ونفسِه كما قدَّمناها لك = استطعتَ أن

---

(١) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التى صنعت لأبى الطيب حكمته ، وأيدت بيانه ببيانها النسوى البليغ .

تتلمّس فى ظلام التاريخ الحلقات التى ينبغى أن تصل بعضها ببعض ، فيَسْرى التيّار بينها فتضىء لك ، فتنكشف المعانى فى شعر الرجل ، وتَتَبيّن المواضعُ الغامضة المظلمة من حياته . . . وهذه هى الطريقة التى اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك ، وقد تحققنا صِدْقَها ، ووَجَدنا إسعادَها لنا فى المشكلات التى وُفِّقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها .

ويَجْمُلْ بنا هنا أن نعود بك إلى الأبيات التى ذكرناها ، ونبيِّن ذلك فيها . . . ونسألك أن تَعذرنا إذا قصَّرنا ، وأن تسدّدنا إذا أخطأنا ، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبْرٍ لا يفُتُّ منه الملل ، فلا حكم لمَلول ولا مُتَترِّع .

يقول أبو الطيب قبل الأبيات التى رويناها لك يصف سيف الدولة :

لَهُ عَسكرا خَيْلٍ وطَيْرٍ ، إذا رَمى بها عَسْكَراً لَمْ يبق إلاَّ جَماجِمُهْ

أَجِلَّتُها ، من كل طاغٍ ، ثيابُهُ ، ومَوْطِئُها ، من كلِّ باغٍ ، مَلاَغِمُهْ

. . . .

سَحَابٌ من العِقْبَان يَزْحَفُ تَحْتَها سحابٌ إذا اسْتَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُهْ

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، ومن صفته جُيوشَ سيف الدولة وما كانت تأتى به من أهوال الحرب ، وما يكون منها فى ساحات الوغى ، فيقولُ غيرَ متخلص إلى غرضه = على ما يريد علماء البلاغة ! ! من حسن التخلص = فيقول يَصِف نفسه وما لاقى هو من الأهوال والمهالك :

مَلَكْتُ صروف الدهر حتَّى لقيتهُ عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قوَائِمُهْ

الأبيات الأربعة التي آخرها :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رأيتُ صِفَاتِهِ بِلاَ واصفٍ ، والشِّعرُ تَهْذِي طَمَاطِمُهْ

ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر ، فيقول يذكر نفسه ورحلته :

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أرْضاً بَعيدةً سَرَيتُ، فكُنْتُ السِّرَّ واللَّيْلُ كاتِمُهْ

ثم (ينتقل) أيضاً بعده فيذكر سيف الدولة . . . فيقول :

لَقَدْ سَلَّ سيفَ الدَّولَةِ المَجْدُ مُعْلَماً، فَلاَ المَجْدُ مُخْفِيه ، وَلاَ الضَّرْبُ ثَالِمُهْ

فلهذه الانتقالات المتتالية وقفنا عند الأبيات الأربعة التي قدمناها ، وتبصَّرنا فيها وفي معانيها ، وفي دلالات ألفاظها واحدةً واحدةً ، ورددنا البَصر إلى مَقْدَم أبي الطيب إلى أنطاكية في جوار أبي العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مَقْدم سيف الدولة إليها في سنة ٣٣٧ ، ثُمَّ في اللقاء الذي رَوَوْا خبره على علاته ، ونفضنا الأبيات ومعانيها ، وتَلَمَّسنا الحلقات في ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء الذي كان في تلك السنة بين أبي الطيب وسيف الدولة ، ونحن ننظر بعين لا تحسر إلى ما قدَّمنا من التاريخ في صدر هذا الباب ، وما عرفنا من خُلُق أبي الطيب وآرائه وأغراضه وآماله ، وما وقفنا عليه من خلق سيف الدولة وآرائه وأغراضه وآماله ، ثم حكمنا كما رأيت أنها كانت أوَّلَ ما قال أبو الطيب من قصيدته تلك ، وأتممنا الرأي على ذلك ، واعتمدناه ، وسِرنا على بركة الله . فانظر ماذا ترى :[1]

* * *

(١) اعلم أننا لو أردنا أن نقفك عند لفظ من الأبيات ، ونكتب لك الرأي كله مقيداً ، لطوينا بذلك ورقات من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن إتمام هذا العدد من المقتطف. فلابد لك إذن من النظر ، ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك مالم نبلغه بضعفنا ، وفقنا الله وإياك .

ثم نعود إلى ما كنا فيه . . . لقى أبو الطيب سيفَ الدولة ، وخرج من مجلس أمير العرب ، وهو يقول كما قال أوّلاً فى بعض مَنْ مدح بأنطاكية :

مُفَدًّى بآباء الرِّجال ، سَمَيْذَعاً هُو الكَرَمُ المَدُّ الذى مالَهُ جَزْرُ
وَمَازِلْتُ حَتَّى قادَنِى الشَّوْقُ نَحْوَهُ يُسايرنى فى كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
وَأستَكبِرُ الأخْبارَ قَبْلَ لِقائِهِ فلَمَّا التَقَيْنا ، صَغَّرَ الخبرَ الخُبْرُ

واحتفلت نفس الشاعرِ الثائرِ البليغِ لهذا اللقاء ، ونَسى نفسه وما كان يذكُرُها به من القوة والفتوة ، وما كان طُولَ عمره يصفها به من صفات الرُّجولةِ والكمال ، ووجد آمالَهُ فى آمال سيفِ الدولة ، وآراءه فى آرائه ، وعواطفَه فى عواطفِه ، فألقى فى مديح (الرَّجُل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه ، وألغى ذكر نفسه ، ورمى بين يدى سيف الدولة الدُّرَّة الأولى فى تاج بنى حمدانَ مشرقةً متلألئة تَسْطَع وتَتَضوَّأ .

وفى هذه القصيدة الأولى التى أولها : « وَفاؤكما كالرَّبع أَشجاهُ طاسِمُه » ، رجَعت إلى أبى الطيّب قُوَّة التصوير والتمثيل ، فرسم صُورة سيف الدولة كأحسن ما تأتى من بنانِ مُصَوِّرٍ صَنَعٍ لَبِقٍ حاذقٍ مبدع ، ووصف المجلسَ الذى كان فيه سيف الدولة كأنك تراه . وذلك أنه دخل عليه وَقَد جَلس فى فَازَة من الديباج عليها صُورة ملك الروم ،[1] وصُوَرُ رياضٍ بدَوْحها وطَيْرها ووَحْشها وحَيوانها . فكان مما قال فى صفةِ تلك الفازة ، والأسد المقعى فى ذَراها :

(١) الفازة : المظلة تقوم على عمود فى وسطها . وهى أشبه بما يتخذه الناس فى يومنا هذا على شواطىء البحار .

وَأَحْسَنُ مِن ماءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ ... حَيَا بَارقٍ فى (فَازَةٍ) أنَا شَائِمُهْ
عَلَيها رِيَاضٌ لَم تَحُكْهَا سحابةٌ ... وأَغْصانُ دَوْحٍ لم تَغَنَّ حَمَائِمُهْ
وفَوْقَ حَواشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ ... من الدُّرِّ، سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ نَاظِمُهْ[(١)]
تَرَى حَيَوانَ البَرِّ مصطلحاً به ... يُحارِبُ ضِدٌّ ضِدَّه ويُسالِمُهْ
إِذَا ضَربته الرِّيحُ مَاجَ، كأنَّهُ ... تَجُولُ مَذَاكِيه، وتَدْأَى ضَراغِمُهْ[(٢)]
وفى صُورةِ الرومىِّ ذى التاجِ ذِلَّةٌ ... لأَبْلَجَ، لا تِيجَانَ إلاَّ عَمَائِمُهْ
تُقَبِّلُ أفْوَاهُ المُلوكِ بِساطَهُ، ... وَيَكْبُر عَنْها كُمُّه وبَرَاجِمُهْ[(٣)]
قِياماً لِمَنْ يَشْفِى من الدَّاءِ كَيُّهُ ... ومَنْ بَيْنَ أُذْنَىْ كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهْ
قَبَائِعُها تحتَ المَرافِقِ هَيْبَةً، ... وَأَنْفَذُ مِمَّا فى الجُفُونِ عَزَائِمُهْ[(٤)]
لهُ عَسْكَرا خَيْلٍ ورَجْلٍ، إذا رَمَى ... بها عسكراً لَمْ يبقَ إلاَّ جَمَاجِمُهْ
أَجِلَّتُها، من كُلِّ طاغٍ: ثيابُهُ، ... ومَوْطِئُها، من كلِّ باغٍ، مَلاَغِمُهْ
(فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ مِمَّا تُغِيرُه ... وَمَلَّ سَوادُ اللَّيلِ مِمَّا تُزاحِمُهْ)
(وَملَّ القَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورَهُ، ... ومَلَّ حَدِيدُ الهِنْدِ مِمَّا تُلاَطِمُهْ)[(٥)]
لَقَدْ سَلَّ سيفَ الدَّولة المجدُ مُعْلَماً ... فَلاَ المَجْدُ مُخْفِيهِ، ولا الضَّرْبُ ثالِمُهْ
عَلَى عاتِقِ المَلْكِ الأَغرِّ نِجَادُه ... وفى يَدِ جَبَّارِ السَّمواتِ قَائِمُهْ
تُحَارِبُه الأعداءُ، وهى عَبيدُه ... وتَدَّخِرُ الأَموالَ، وهى غَنَائِمُهْ

---

(١) «الموجه»، ذوالوجهين.
(٢) يصف الخيل (وهى المذاكى) والأسود وهى تختل صيدها من الظباء النافرة. «دأى الصيد»، ختله ليصيده.
(٣) البراجم: مفاصل الأصابع.
(٤) القبائم: ما يكون على قوائم السيوف من الحلى، يعنى السيوف المحلاة بالذهب والفضة.
(٥) تأمل تكرار «مل» فى البيتين الأخيرين، وتكرار «مما»، وهى تدل على الكثرة.

وَيَسْتَكْبِرُونَ الدهرَ، والدَّهرُ دُونَهُ ... وَيَسْتَعظمونَ الموتَ، والموتُ خادِمُهْ
وَإِنَّ الذى سَمَّى عَلِيًّا لَمُنْصِفٌ ، ... وَإِنَّ الَّذى سَمَّاهُ سَيْفاً لَظَالِمُهْ
وَمَا كُلُّ سَيفٍ يَقْطَعُ الهامَ حَدُّهُ، ... وَتَقْطَع لَزْبَاتِ الزَّمانِ مَكَارِمُهْ(١)

فاقرأ ، ثم اقرأ ، ثم تدبر ، ثم عُدْ إلى النهج الذى أشرنا إليه فى الحديث عن بدر بن عمار ، ووَصْفِه الأَسد هناكَ ، وقارِن بين ماترى هنا وما ترى ثَمَّ ، تَجِد التقارُب بَيِّناً واضحاً ، والنَّفَسَ الشعرى البليغَ العظيم ممتدًّا من زَمانِ بدر إلى هذا الزَّمان غيرَ منقطع . وتدبَّر هذه الأبيات الأخيرة وما وَسَمها به أبو الطيب من ميسمه الذى يتلذَّع بنار قلبه ، والذى صار علامةً بَيِّنةً فى كل شعره الذى قاله فى سيف الدولة بعد هذا . وفى الذى قدَّمنا ذِكْرَه وما أشرنا إليه كفاية للبصير المتدبر .

* * *

وبقى سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب إلى جواره وفى مجلسه ، وبين أصحابه وفى رِكابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بِشْره ، وقُربه ، وامتدَّ الحديث بينهما فى بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما أَدركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة أن محدِّثَهُ رجلٌ داهيةٌ بصيرٌ مُحَنَّك قد نَجَّذته الحوادث ، وله رأىٌ ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدَّها بعد اللقاء الأول فى سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه ، فيما زعمنا ، من نكبته الأولى فى نسبه

(١) « اللزبات » جمع « لزبة » ، شدائد الدهر التى تفقر الناس .

من قبل العلويين أصحاب الأمير بالكوفة ، فزاده قرباً وكرامةً ومحبّة ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً فى أنطاكية وغيرها ، لِما عرف من صَرامة سيف الدولة وتحرُّزِه وتشدُّده حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردتَ إلى ما كان بين سيف الدولة وأبى فراس الحمدانىّ ، فإنَّ القَرابةَ والرَّحِمَ لم تنفع أبا فراس فى القرب من سيف الدولة ، مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً فى طاعته ومَرْضِيَته ، حامياً لحقيقته ، مفدِّياً له فى حروبه وغزواته بنفسِه ودمه ، ممجّداً له فى شعره ، مخلّداً ذكرَ غزواته وحروبه . كلُّ هذا لم يقرِّب أبا فراس من سيف الدولة قُرْبَ أبى الطيب منه ، مع تقدُّمهما فى الشعر والأدب ، ومع أن أبا فراس كان أولى بالتقديم والتكريم من أبى الطيِّب لحسن بلائه فى الحرب ، وقِدَم عِشْرته لسيف الدولة ، وسَبْقه فى تمجيده وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك إن تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شُعرائه المستظلين بظلِّه ، والمبتدرين فى طاعته وخدمته ، لم يكن من أجل الشعر وحده وحسب ، بل للذى بلاَه سيف الدولة من آراء أبى الطيب وأفكاره وعواطفه فى الأمور السياسية التى كان يسعى فى تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجلِه ورجاله المحنكين من ذوى الدَّهاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا مطالب سيف الدولة فى أول هذا الباب.(١)

* * *

ثم عزم سيف الدولة الرحيلَ عن أنطاكية إلى حلبَ مقرِّ حكمه ، ولكن أبا الطيب لم يصحبه فى رحيله هذا ، فعزَم عليه سيف الدولة أن يلحقه بحلب.

---

(١) تلبث تجد بقية الحديث بعد قليل فى هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر .

وعندنا أنّ الذى عاق أبا الطيب عن صُحْبة سيف الدولة فى هذا الرحيل ، أمرٌ يخصّهُ هو ، وليست له فيه إرادة . وقد قلّبنا الرأى فى شعر المتنبى فى تلك الفترة وما بعدَها بقليل ، وتدبَّرنا كلامَ الرجل على الأصول التى قدمنا لك منها أطرافاً فى كلامنا ، وظفرنا بأشياء دلّتنا على أن هذا الأمر الذى عاقه كان مما يقطع فى قلبه ويوجعه فى عواطفه ، وتبين لنا أن هذا الأمر هو مَرَض زوجته ، والظاهر أنها كانَتْ حاملاً ، ثم جاءها المخاض فأعْضَلت وعَسُرت وِلادتها ثم رمَتْ ذا بطنها وماتت . وكان مرضُها ذلك فى حَمْلِها ، ثمّ ما تركت له وراء ظهرها = ولعلّ الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك = هو الذى منع أبا الطيب أن يَصْحبَ سيف الدولة يوم رَحيله من أنطاكية .

وتأويل ذلك : أن أباالطيب كان ولا شَكَّ عازماً على رُفْقة سيف الدولة ولولا ما فَجِئهُ مما لا حيلة له فى ردّه لفعل ، فإنه حين أزْمَعَ سيف الدولة الرحيلَ عن أنطاكية قال له أبو الطيب :

نَحْنُ مَنْ ضَايَقَ الزمانُ لَهُ فِيـكَ ، وخَانَتْهُ قُرْبَكَ الأيَّامُ

وقال أيضاً فى يوم رحيل سيف الدولة ، وقد كثُر المطر وكاد يعوقُه عن عزمته :

رُوَيدك ، أيُّها المَلِك الجليلُ تَأَنَّ ، وَعُــدَّه مِمَّا تُنِيلُ
وَجُودَكَ بالمُقَامِ ولوْ قليلاً ، فَما فِيمَا تجُودُ بِه قَلِيلُ
لِأَكْبِتَ حاسداً وأَرَى عدوًّا ، كأنَّهما وَدَاعُك والرَّحِيلُ

فهو فى البيت الأول يذكر ما يبتليه به الدهر من العوائق ، وما يُضايقه

به من الأرزاء التى تَحُول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خَصَّ نفسه بذلك إذ يقول : « نَحْنُ من ضايقَ الزمانُ لَهُ فيك » . ولا نظنُّ أن قد كان إذ ذاك ما يمنع أبا الطيب من الرُّفقة ، إلا ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كادَ المطر يَعُوق سيفَ الدولة ، بان الفرحُ فى كلام أبى الطيب مقروناً بالحسرة ، لما يعلم من أنَّ ذلك لن يَقْطَع فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلّل له بعلّته التى ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التى عليها امرأته ، فوقع فى بيتٍ من قصيدته الأخيرة التى ذكرنا أوَّلها ، ما يَدُلّ على مافى نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكَرْب ، على عادته التى أسلفنا بيانها فى مواضع . فقال لسيف الدولة :

فلو جَازَ الخلودُ خلَدْتَ فَرْداً (ولٰكِنْ لَيْس لِلدُّنيَا خَلِيلُ)

فهذا الحزْنُ الغالب على الشطر الأخير ، والمتمثِّلُ فى كلماتهِ ، وفى عبارته عن المعنى الذى أرادهُ حين استدرك بقوله : « ولٰكن » بَعْدَ الذى كان من فرحِهِ وطربه وتدفق نفسه بالآمال ، واستبشاره بلقاء سيف الدولة ، والذى كشفتْ عنه قصيدته الأولى : « وفاؤكما كالربع أشجاهُ طاسمه » ، على ما مضى فى كلامنا = كلُّ ذلك يدُلّ على أن الرجل كان قد أدركه ما أحزنه وغمّ قلبه ، وردَّ عليه فرح نفسه غمًّا وحسرة وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدَّهر بالفراقِ والموت . وهذا بيِّنٌ كما ترى .

وانتقل أبو الطيب ــ بعد موت امرأته بقليلٍ ــ من أنطاكية إلى حلبَ ، ثم ماتت والدة سيف الدولة فقال له فى عَزائه قصيدته المشهورة ، وأوّلها من دموع أبى الطيب التى كان يبكى بها ، وقد جاء فيها :

نَصِيبُكَ فِى حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ ، نَصِيبُكَ فى منامكَ من خَيالِ
رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزاء حَتَّى فُؤادى فى غِشاء من نِبالِ
فَصِرْتُ إذَا أَصَابَتْنِى سِهامٌ تَكسَّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ
وَهَانَ ، فَمَا أبالِى بالرَّزَايَا (لِأنِّى مَا انْتَفَعْتُ بأنْ أُبالى)

. . . .

(يُدَفِّن بَعْضُنَا بَعْضاً ، وتَمْشى أَواخِرُنا عَلى هامِ الأَوالِى)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورَزاياها ، وما فيه من الحزْنِ الغالب على عقله وعواطفه ، بعد الذى كان من أفراحهِ ، دليلٌ على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وابتلى ببلاء آلمه وحزَّ فى قلبه ، لا يزال يدفعهُ إلى القولِ الباكى الحزين . ثم يستمرُّ على ذلك فى شعره مدّةً ، فإنَّه فى هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تَغْلِب ابن داود بن حمدان من أَسْرِ الخارجىّ :

تَفُكُّ العُناةَ وتُغْنِى العُفَاةَ ، وتَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِ الجاهلِ
فَهَنّأَكَ النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ وَأَرْضَاهُ سَعْيُكَ فى الآجِلِ

يعنى سيف الدولة ، وهذان البيتان فى ختام القصيدة ، فكان حقُّ الشعر أن يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذى كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل ، ولكن نفسَ الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن ، وغَمَّتها الدنيا (التى ليس لها خليل) بما جلبت عليها من أرزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير متخلص ولا حافل (بالمناسبة ومقتضى الحال) ، فقال فى عَقِب هذين البيتين ، ببيتين آخرين غريبين عن معنى الدعاء وعن معنى المدح ،

اجتمعت فيهما مرارة الحياة كلها ، ثم جعلهما ختام القصيدة ، قال :

(فَذِى الدَّارُ أخْوَنُ من مُومِسٍ ، وأخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحَابِلِ)
تَفَانَى الرِّجَالُ على حُبِّها وَمَا يَحْصُلُون عَلَى طَائِلِ

إنهما نفثة مكروبٍ حزينٍ ، قد أدْمَتْ قلبه غدَرَات الدَّهْر ، قال له الدهرُ: « خُذْ » ، ففرح وابتهج ، ولم يكدْ حتى قالَ له : « هاتِ » ، فطارت البهجةُ ، وأطبق عليه الكربُ الخانق المظلم .

فأنت ترى الآنَ أن هذه المعانى التى قيَّدناها لك ، آخذٌ بعضها ببعضٍ ، على طراز لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقَدْ كان سيف الدولة يسأل أبا الطيب بعد ذلك أن يسير معه إلى الموصل ، لمّا أزمع هو المسير إلى نُصْرة أخيه ناصر الدولة ، فاعتذر له أبو الطيب عن المسير معه بقوله :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ ، فمَا تَحُول تَنُوفةٌ دُونَ اللِّقاء ، ولاَ يَشِطُّ مَزارُ
(إنَّ الذى خَلَّفتُ خَلْفِىَ ضَائع ، مَا لِى عَلَى قَلَقِى إليه خِيَارُ)
(وَإذَا صُحِبْتَ فكُلُّ ماء مشرَبٌ (لولاَ العِيَالُ) ، وكلُّ أرض دَارُ)
إذْنُ الأَمِيرِ بأنْ أعُودَ إليهمُ صِلَةٌ تَسِيرُ بِذِكْرِها الأَخْبارُ

فلو أنّ امرأته كانت إذ ذَاكَ باقيةً لم تَمُت ، لما عزَّ على أبى الطيب أن يفارق (عياله) فى رفقته وصحبته . وبيِّنٌ من قوله : « إنَّ الَّذِى خَلَّفْتُ خَلْفِىَ ضَائِعٌ » أنّه يعنى صغيراً من ولده لا يطمئن قلبهُ إذا فارقَه مُضَيَّعاً ليس له من يَعُوله أو يكلؤهُ ويرعاه ، وأتمَّ ذلك المعنى بقوله : « مَالِى على قَلَقِى إلَيْهِ خِيارُ » . وفى الأبيات جميعها حَنان الأُبوة ماثلٌ بيّن لا خفاء فيه . . . وحَسْبُك هذا من كلامنا ، فإذا رَجَعتَ إلى الديوان، فتدبَّر قصائده بعدَ ذلك،

فقيها من مِثْل هذا كثير . ولا يفُوتَنَّك أن تذكر ما قدمناه من دقة إحساس هذا الرجل ، وسُرعةِ تأثره ، وظهور هذا التأثر فى شعره إذا كرَبه أمرٌ يغمُّه أو يثيرُه أو يَهِيجُ كبرياءه ، وما يكون من جرَّاء ذلك فى شعره من الانتقال من معنًى إلى معنًى غيرَ عابىءٍ (بحسنِ التخلص ومقتضى الحال) .

وقد قال أبو الطيب هذه الأبيات الرائية فى آخر سنة ٣٣٧ ، وفى شهر صفر من سنة ٣٣٨ ، مات أبو الهيجاء عبدُ الله بن سيف الدولة بحلب ، فرثاه أبو الطيب ، وختم رثاءه بثلاثة أبيات ، فاقرأها متبصراً متدبراً ، قال :

أَنَبْكى لِموتَانَا ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ من الدُّنيا،ولاَ مَوْهِبٍ جَزْلِ
إِذَا مَا تأَمَّلْتَ الزَّمانَ وَصَرْفَهُ ، تَيَقَّنْتَ أنَّ المَوْتَ ضَرْبٌ مِن القَتْلِ
(وَمَا الدهر أَهْلٌ أنْ تُؤَمَّل عِنْدَه حَياةٌ ،وأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إلى النَّسْلِ)

فقال : « أنبكى لموتانا » ، مقالةَ رجُل قريب عَهْدٍ بنكبة الموت ، يخاطب رجُلاً مثله قريبَ عهدٍ به . ثم ذكر الاشتياق إلى «النسْلِ » ، مع مافى البيت من المرارة الظاهرة التى لم يَذْهب طعمها من قلبه بعدُ . إنه بيتٌ فاض عن قَلْبٍ مفجُوع يتفطَّر حُزْناً ، ويقطرُ يأساً . كُلٌّ ذلك دليل صريحٌ على أن أبا الطيب كان يخاطب نفسه كما يخاطب سيف الدولة ، لأن بلواهما واحدة .

* * *

اجتمع على أبى الطيب ، كما ترى فى أول صحبته لسيف الدولة ، أفراحُ قلبه بلقاء أمير العرب الذى أحبه وأمَّل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وأفكاره وسياسته ، وأحزانُ قلبه بفقد امرأته ثم صغيره الّذى جدَّد له ما بقلبه من أحداث الزَّمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازُعُ الفرح والُحزن فى تلك

النفس المرهفة الشاعرة الثائرة ، سبباً فى استخراج كوامنها ومُضْمَراتها وذخائرها. وأخذ أبو الطيب يَرُوز ما عنده من العواطف والأفكار ، ويتأمّل ما تجدَّد فى قلبه من المعانى التى وَلَّدتها الأفراح والآلام ، ويستوعب ما فى ضميره من الأحداث القديمة التى تركت وَسْمَها فيه ، ويرمى ببصره إلى ما يستقبله فى ظل سيف الدولة . وينظر فيما وجد عند الأمير من العطف عليه والإكرام له ، ومن تقديمه على القدماء من أصحابه وشعرائه ورجاله ، وشغَلته الأيام بما يتجدَّد فيها ممّا يخصه وممّا لا يخصه ، وحوَته المجالسُ ، مجالسُ العلم والأدب والشعر والسياسة ، وأحاطت به الدنيا كلُّها مهيأةً كأنما أُعِدَّت له ، ليأخذ منها ما شاء ويدَع ما شاء ، ... فكان هذا كلُّه ترفُّقاً من القَدَر لصنع هذه الشاعرية الفذّة وتربيتها وتغذيتها وتَنْشِئتها على غِرارٍ فذٍّ ، يكون به أبو الطيب شاعرَ العرب والعربيَّة الذى (مَلأَ الدُّنيا وشغل الناس) .

وكان تنازع الفرح والحزن فى تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدًّا لها من غلوائها ، وصرفاً لها عن الفكر فى الكبرياء ، إلى الكبرياء فى الفكر ، فأصبح أبو الطيب ينظر فى الحياة نظرة التدبُّر والتمحيص ، يقلِّب الرأىَ ، ويَعبُرُ الفكرة ، ويَقيس الأشباه والنظائر ، ويرُدُّ الأمور إلى أصولها ومنازعها ، وينتزع جوهر المعانى من بين أعراضها ، لا يأتلى فى ذلك جهداً ولا يقصِّر . فمن هنا توَاردت عليه المعانى ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومَقَرًّا ، فإذا قَصَد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافدُ هذا البيان من الحوافر والدوافع والعواطف ، ابتدرت هذه المعانى من منازلها بين قلبه وفكره ، إلى منازلها بين أبياته وقصائده . وهذا هو أحد الأسرار العظيمة فى بيان هذا الشاعر العظيم .

* * *

وتلألأ مجدُ سيف الدولة فى شعر أبى الطيب ، فقرّبه وزاده عطاء وإقطاعاً، وأسبغ عليه نعمةً لم يكن أبو الطيب ينتظر مثلها أو يُؤَمله ، فوقع ذلك من نفْسه موقع الأمنية التى تحققت من نفس اليائس الذى ضَجِر بأمانيه ، وقد استيقنت نفسه أنها لن تتحقَّق . وكان هذا أيضاً ـ مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان فى نفسه ـ عَوناً على صُنْع شاعرية الرجل وصَقلها وجِلائها ، لتكون المرآةَ التى تتراءى فيها حقائقُ الحياة وفلسفتها وحكمتها وبيانها وما لها وما عليها .

ولَم يكن سيفُ الدولة يجهلُ ما سيكون من هذا الرجل أوّلَ مالقيه ، بل يقينُنا أنه كان قد انكشفت له نفسية أبى الطيب فأخذها من حيث ينبغى أن تؤخذ ، وعرف أنّ هذا الذى مدحه بأنطاكية سيكون مخلِّد ذكره ، وحافظَ أخباره وصفاته فى شعره ، وليس مثلُ سيف الدولة يغفل عن ذلك أو يتجاوزه بصَره . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملةٌ متقنة ، وكان بَصيراً بنقد الشعر ، نافذاً فى إدراك أسرار البيان . وأيضاً .. ، فقد كان ما عليه سيفُ الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل فى شعر أبى الطيب فإنه كان يعرف يقيناً بَصَرَ صاحبه سيفِ الدولة بالأدب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصُّر ، وتقليبِ المعانى واختيارها ، واصطفاءِ أثوابها من الألفاظ واجتبائها ، وكان ذلك من أبى الطيب لما فى نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلاَ عليه فى نَظَر سيف الدولة رجلٌ غيره من الشعراء أو لَسَوّاه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه إلى سيف الدولة غيرهُ من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة؟ ... كلاّ ، وكذلك فاقَ أبو الطيب كل من سبقه أو جاء بعدهُ من شعراء العربية،

فقد اجتمع لَهُ من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحدٍ منهم .

وبعدُ أيضاً ، فقد كان من العواملِ فى هذا النبوغ الفذّ الذى استعلن فى أبى الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان فى جوار سيف الدولة ، وما تيسّر له من الرّزق الذى لم يكلفه همًّا ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمضَغُ لقمةً من عيشه إلاَّ ومعها نَكَدُها وهمُّها وشقاؤها . وأيضاً .. .. فقد علمتَ قبلُ أن هذا الرجل كان من صِغَره محبًّا للعلم والأدب ، لا يدع استيعاب ما يقع إليه من الكتب فى كل فنٍّ وعلم ، ففى جوار سيف الدولة ، تيسّر له من ذلك ما لم يكن يتيسّر ، فقد كان مليئاً بمالهِ الذى أفادهُ ، يشترى ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطعُ أيامه بالتزوّد من كل علمٍ ، والاستزادة فى كل فنٍّ ، وقد وهبَه الله ذاكرةً واعية ، وفهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرةً تأخذ من ذخائرها ما تشاء ، وتنضُو عنه ما يعلق به ، وتجلوه جَلْوَةَ العروس فى ثياب عُرسها . وكذلك اتفق لأبى الطيب فى هذا العهد كلُّ ما يعينه على النُّبوغ والسَّبق .

* * *

قلنا قبل إن سيفَ الدولة قد قرّب أبا الطيب وزاده كرامةً ومحبّةً لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، مع ما عرف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدّده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا المثل بأبى فراسٍ الحمدانى وهو من هو فى قربه من سيف الدولة لقرابته ورحمه ، وتحقّقه بخدمته ، والذهاب فى طاعته ومرضيته ، وتمجيده فى شعره ، وتخليد ذكر وقائعه وحروبه ببلاغته وبيانه :

= وأشرنا إلى أن السياسة كانت أيضاً مما قرب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامره وخلوته . ولعلّ هذا الأمرَ الأخير = مع ما قدمنا ذكرهُ من أحوال سيف الدولة، وأبى الطيب وما فيه من النبوغ والدهاء، = هو الذى جعل لأبى الطيب عند سيف الدولة منزلةً لا تدانيها منزلة أحدٍ من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا ببابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الأمراء مثل ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراء والأدباء .

وقد تتبعنا ديوان أبى الطيب كلهُ لنظفر بالدّليل على أن سيف الدولة كان قد استصفى أبا الطيب واتخذ منه أخاً يمنحه وُدَّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدّثه بآماله فى السياسة والحكم ، فوقعنا على أشياءَ من ذلك لابأسَ من ذكرها والتدليل عليها، على ما درجنا عليه فى كلامنا من استنباط المعانى وردّ بعضها إلى بعض . هذا، على كثرة ما يتصل بهذا من أحوال أبى الطيب وسيف الدولة ، مما لانستطيع أن نجمعه لك فى فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب، وعلى القارىء أن لاينسى ما مضى من القول فيضعه فى موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنىَ لما يستقبل فيُحلَّه محلهُ ليرتبط الأولُ بالآخر ، وينكشف له ما يغمض عليه أو يستبهم مما نحنُ فيه .

* * *

كان أبو الطيب ، كما رأيت أوّلاً ، رجلاً ثائراً بما فى نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم فى البلاد العربية ، وقد ذكر ذلك فى كثير من شعره الذى مضى بك، وهدّد الأمراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتيهم به من القتل والفتك، وخصّ بالذكر والحِقْد والوعيدِ الأَعاجمَ الذين كانوا

قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أول أمره إلى أن اتصل ببدر بن عمار ، وكان ، كما قلنا قبل ، يؤمِّلُ أن يجد فى بدر بن عمار (الرجلَ) الذى يستعين به على آماله وآرابه ، ويحقق بعونه له ، ما كان يدور فى نفسه من المطامع السياسية : من ردِّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصاله ببدر ولم يكثر من ذكر وعيده وإنذاره وآرائه ، وفسَّرنا هذا هناك . فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا فى هذا الفصل ، من توافق الرجلين فى المذهب السياسى ، والرأى الذى يريانه لإنقاذ العربِ من عادية الأعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لأمتهما ، هدأ أبو الطيب هدأته تلك ، وانصرف بيانه إلى تمجيد صاحبه ، كما فعل حين كان فى جوار بدرٍ . وقد ألممنا بحالة أبى الطيب النفسية وفسَّرناها ، وبيّنا أنّ ذلك عادةٌ له إذا لاقى العربىَّ المحارب الفاتح الذى يؤمل فى وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التى تسمُو بهمته إلى غزو الأُمة ، وإنقاذها من البلاء الذى حلّ بها وأوهاها وفرّق شَمْلها . وجمعنا إلى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب إليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع أهله وقرابته ، والمتصلين به من أصحاب الفكر والرأى والدهاء . وقد مضى بك أيضاً أنّ أبا الطيب كان قد ذكرَ ، حين قدم إلى أنطاكية على أبى العشائر ، أنه لم يأته مستميحاً ولا طالب رِفْد وعطاء ، بل أشار إلى مُراده ومبتغاه الذى من أجله قصد أنطاكية فقال :

فَسِرْتُ إليك فى (طلب المعالى) وسَار سِوَاى فى (طَلب المعاشِ)

= وتبينا من شعر أبى الطيب فى المدة التى سلخَها فى ظل سيف الدولة

من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ ، أنه كان يقول الشعر في سيف الدولة ممجِّداً له ورافعاً من ذكره وذِكْر غزواته وحروبه ، وقد تآزرت عوامل نفسه كلِّها على مَنْحه التجويدَ والإبداع فى ذلك . وتفسير ذلك عندَنا أن هذا الرَّجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجَّه كل ما كان فى قلبه من القوة التى دفعته إلى مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها ، إلى مَدْح هذا الرَّجُل (سيفِ الدولة) ، ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة التى كانت بَيِّنة فى شعره الأول إلى هذا الشعر ، فكان وحْده هو أبدع ما أتَى به وما أخرجه من البيان . وكان صورة أُخرى من شعره الأوّل ، إلاّ أنها أقوى وأتمَّ وأمثلَ فى التجويد والتصوير .

ثم فارق أبو الطيب سيف الدولة ، وهو لايزال ثابتـــاً على محبته والإخلاص له ، وكان سيف الدولة لايزال مُسْتقصياً لأخباره فى كل بَلدٍ ينزله ، متتبعاً لشعره الذى يقولهُ لـكلّ من مدحه من بعده . وكان أيضاً لا يزال يُهْدى إليه من هداياه ، مع أنه فارقه ومدح غيرَه . بعد إكرامه له إكراماً لم يَلْق مِثله أبو الطيب قبل اتصاله به . وكان أيضاً يُكاتبه وَيَتلقَّى منه بعض كتبه = وكلٌّ هذا دليلٌ على أن المحبة التى كانت بين الرجلين لم تكن محبة أمير لشاعره وحسب ، بل كانت صداقةً لايقطع فيها حَدَثٌ من أحداث الزمان ، أوْ سَعْى الوشاة والمتقولين .

* * *

هذا . . . وقد رَوَوْا أن سيفَ الدولة أنفذ إلى أبى الطيب ، وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خُروجه من مِصْر ، وبعد أَنْ فارقه بستّ سنواتٍ ،

هدية مع أحد أقاربه ، فكتب إليه قصيدة أهداها إليه كما أهدى ، فكان مما ورد فى هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة :

أَنْتَ طُولَ الحيــاةِ لِلرُّومِ غَازٍ فَمَتَى (الوَعْدُ) أَن يكُونَ القُفُولُ ؟
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ، فَعَلَى أىِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيــكَ وَقَامَتْ بها القَنَا والنُّصُولُ
مَا الّذِى عِنْدَه تُدارُ المَنايَا ، كالّذِى عِنْدهُ تُدَارُ الشَّمُولُ[1]
لَسْتُ أَرْضَى بأَنْ تَكونَ جَواداً وزَمانى بأَنْ أَرَاكَ بَخِيــلُ
نَغَّصَ البُعْدُ عَنْكَ قُرْبَ العَطَايا ، مَرْتَعِى مُخْصِبٌ وَجِسْمِى هَزِيلُ
.. ..
مَا أُبَالى ، إذا اتَّقَتْكَ اللَّيالى ، مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُهــا والخُبُولُ

وقد ذكرنا قبل أن سيف الدولة كان قد عزم فى نفسه أن ينال بهمته غاية الغايات فى ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفى ظلّ حكومته ، وكان أوّلَ ما أتم من ذلك أن زَحَم الإخشيديين بمناكبه حتى أزاحهم عن أكثر البلاد الشامية وردّهم إلى الرملة ، وأراد أن يوطّد سياسته وحكمه بالشّام ، حتى إذا أعدّ العدّة ، واستجمع الأداة ، تحفّزَ بقوته كلها على العراق فمال عليه ميلة رابية ، ليزيلَ عنه سلطان الموالى الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالى ، أو أكثرهم ، ممن استقل بالدُّوَيلات ، مِنْ شيعة العلويّين الذين أطاعوا داعية الفاطميين ، وكان سيفُ الدولة لا يُقِرّ بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية ، مع أنه

---

(١) « الشمول » هى الخمر .

علوىُّ المذهب . كانت هذه هى سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هى إرادته ، ليجمع شمل العرب ويردّ الحكم إلى اليد التى لا تضطرب ، وإلى الفكر الذى لا يحلحله من مكانه كيدُ الكائدين للعربية من أصحاب الفتن والدسائس . . . فجاء أبو الطيب يقول فى هذه الأبيات :

أنْتَ طُولَ الحياةِ للرُّومِ غازٍ ، فمتى (الوعد) أن يكون القفولُ ؟
وسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ، فعَلَى أىِّ جانِبَيْك تَمِيلُ ؟

فى البيت الأول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وَعده أن يَقْفُل من غَزْوِ الروم الذين يهدّدون أطراف الشام ، ويُعِدّ العدّة لغزوٍ غيره ، فإن قوله (الوعد) معرَّفاً ، دليلٌ على تخصيص وَعْدٍ بعينيه ، ولا يكون كذلك إلاّ أن يكون وعداً وعده سيفُ الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة إلى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ، ويزيل عنه سلطان الموالى والأعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سَيْف الدولة فى البيت الثانى فقال : (فعَلَى أىِّ جانبيك تميل ؟) . وقد جعل القائمين بالحكم ، والمستولين على السلطان فى العراق ، « رُوماً » ، لما أشرنا إليه قبل ، من أن هؤلاء لمّا وقفوا على عزيمة سيف الدولة فى إزالتهم عن العراق ، أوعزوا إلى ملك الروم أن يقاتلهُ ، إذ أوقعوا فى قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أنّ سَيفَ الدولة الذى كان يمدّ سلطانه على الشام يوماً بعد يوم ، إنما يريد بذلك أن يُزِيل المُلْك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، وبذلك يتمّ لهم ما يريدون من صَرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه إلى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته ، حَتَّى إذا

ما أراد أن يميلَ عليهم ، يكون قد فقدصفوة المحاربين معه فى قتال الرُّوم ، فلا يصيب إذ ذاك فى حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً . وهذا التعبير من أبى الطيب دليلٌ على أنّه كان يعرف سِرّ هذا الأمر كما يعرفه سيف الدولة ، ثُمَّ إن أبا الطيب أخذ يهوّن على سَيف الدولة أمرَ غَزْو العراقِ ، ويُغرِيه بالإقدام على ما وَعَده من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهلَ العراق فقال :

مَا الَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايا ، كالَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

فهو بهذا يغريه بهم ، إذ كانوا قوماً أهل سكرٍ وعربدةٍ ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذى لم يكن يفرُغُ من غَزْوَة وَيَقْفُل منها حتى يبادر إلى أُخرى يصيب فيها النَّصر والظَّفر ، أو التجربة فى القتال والمران على مكر الحرب وخُدَعها . وهذا الذى كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبى الطيب ، كان هو السببَ فى أنّ أبا الطيب حين دخل العراق فى تلك السنة لم يعبأ بأحد من السلاطين والحكام وأولى الأمر من الوزراء ، واستكبرَ عن جميعهم ، فلم يمدح منهم أحداً ، حتى الخليفة لم يفكر فى مَدْحه ، بل راغمهم جميعاً حتى كان ما كان من أمرِ الوزيرالمهلبى وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراء بالوقوع فى عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الأدباء على معاندته ومُجادلته للغضّ منه والإزراء عليه ، كما مرَّ بك فى أوائل كلامنا .

وأيضاً ... ، ففى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيفُ الدولة إلى أبى الطيّب كتاباً (بِخَطِّه) يسأله المسير إليه ، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها إليه ، أولها :

فَهِمْتُ الكِتابَ ، أبرَّ الكُتُبْ ‏ فَسَمْعاً لِأمْرِ أميرِ العَرَبْ
وَطَوْعاً لهُ ، وَابتِهَاجاً به ، ‏ وإن قَصَّر الفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ

فإذا كان هذا الكتابُ ، كما وردت الرواية ، قاصراً على رغبة سيف الدولة إلى أبى الطيب فى أن يلحق به ، ويكون فى جواره ، فيكون قولُ أبى الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطّه وأسقطه ، ويكون سقوطاً قدأصاب عَقْل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيف الدولة (الذى كتبه له بخطه) ، يَسأله أن يسير إلى الشام ؟ وما فى هٰذا الطّلب مما يحتاج إلى « الفهم » ؟ وما فيه مما تقتضى الإجابة عنه أن يخبرهُ بأنه قد فَهِمه ؟ أيكون هـذا أو يُعقل !! والبيِّنُ أن سيفَ الدولةِ كَتب إلى أبى الطيب ـ بَعْد القصيدة التى مرَّ ذكرها ، والتى أغراه فيها بغزو العراق وفتحه ـ كتاباً يشرح له فيه الأمر ، غير مصرِّح بشىء ، ويذكر العوائق التى تعوقه دُون غَرَضهما ، وبيَّن له ماهو فيه من الكرب والضِّيق ، وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته ، ولوَفى لأبى الطيب بالذى وعده من فتح العراق . ولهٰذا لم يأتمن سيفُ الدولة أحداً على هذا الكتاب الذى كتبه إلى أبى الطيب فكتبه إليه (بخَطِّه) حَيْطةً وحذراً أن يشيع ماورد فيه . وقد أراد سيفُ الدولة فى كتابه هذا أن يزيد أبا الطيب بياناً ، ولكنه لم يستطع خشيةَ الأحداث التى لايملك صرفها ، من وقوع هذا الكتاب فى يَدِ عدوٍّ من أعدائه ، ولذلك طلب من أبى الطيب أن يَقْدُم عليه بالشّام فيخلُوَ به ، ويشرحَ له الأمر فى غير كناية ولا تعريض ، ولكنَّ أبا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية ، فكتَب إليه :

فهمتُ الكتابَ ، أبرَّ الكتبْ   فَسَمْعاً لأمْرِ أمير العربْ

فهذا الذى أفضنا فيه دليلٌ كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبى الطيب أسرار سياسية تخصُّ أغراضهما وآمالهما فى إعادة المجد العربى ، وإزالةِ الحكام الطاغين من الموالى ، وقمع الفِتَن التى قام بها العلويون والفاطميون فى البلاد ، وهم لايقدِّرون مَغَبَّاتها وعواقبها ، ولا يَزِنون أمرها ، إذ يتَّخِذُها أعداء العرب والإسلام ذرائع لقضاء مآربهم فى تمزيق الأمة ، وتفريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، ليُقيموا على أنقاضها ماتسوِّل لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام .

لِعَيْنَيْكِ ، مَا يَلْقَى الفُؤادُ ، ومَا لَقِي
ولِلحُبِّ ، مالَمْ يَبْقَ مِنِّي، وَمَا بَقِي
وَأَحْلَى الهَوى،مَاشَكَّ فِى الوَصْلِ رَبُّهُ
وَفِى الهَجْرِ ،فَهْوَ الدَّهرَ يَرْجُو وَيَتَّقِي
سَقَى اللهُ أَيَّامَ الصِّبا مَا يَسُرُّها
وَيَفْعَلُ فِعْـــلَ البَابلِيِّ المُعَتَّقِ
إذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ
تَخَرَّقْتَ ، وَالمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ

...[1] قد رأيتَ قبلُ أن الحوافز التى اجتمعت على أبى الطيب من أوّل أمره إلى عهد اتصاله بسيف الدولة ، إنما كانت ترفُّقاً من القدر وتطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذِّ الذى صار به صاحبنا شاعرَ العرب ولسان العربية الذى استحكم فى عصره ، وضَرَبَ بحِكْمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أداةِ نبوغه وأسبابه ما تيسّر لنا جَمْعه فى هذه الكلمة ، إذ كانت الأشياء مرهونةً بأوقاتها من المعانى ومنازلها من الكلام .

ورأيتَ أنّ اتصاله بسيف الدولة نقل قَلْبَ الرجل من منزلة إلى أخرى ، نقله من منزلة الإحساس الشخصى الموحِّد ، إلى منزلة الإحساس الشخصى

(١) كان حق هذا الباب أن يسبقه فى ترتيبنا باب آخر ، نذكر فيه ما تميز به شعر أبى الطيب ، وفصل فى أسلوبه كله على تدريج لا يتفاوت ، ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت .

المُتَولِّج فى الاجتماع المزاحم فى سياسته ، المؤمل فى سيف الدولة ردَّ السلطان إلى العرب والعربية ، بعد الغلبة والظفر وتحقيق الأمَانىّ . وكان هذا سبباً فى انتفَاض قلب (الرَّجُل الشاعر) بالفرح المستولى عليه ، الغالبِ على عواطفه . ثم كان أيضاً ما استنبطناه ممَّا سبب فى هذا القلب أسباباً للألم والحزن والأنين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع فى هذا القلب بين الفرحة الغالبة والحسرة المتمكنة سبباً فى استخراج مكنوناته ، وتوليد المعانى الجديدة من الصراع الهائل الذى كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طَوْره الأوّل المحدود بحدّه ، إلى الطور الثانى المتفاسح المترامى إلى كل غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها .

وَكان هذا الرجل الشّاعر إنما يعتمد فى توليد معانى شعره على استيعاب ما بنفسه من الأفراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدَّ ، ثم الاستغراقِ فى تأمل هذه الذخائر التى فى نفسه وردِّ بعضها إلى بعض ، وربطِ الغائب منها بالشاهد ، وعطفِ الأول منها على الآخر ، وكأنما كانت تتراءى لعينيه حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتتردّد فى سمعه أصوات قلبه موصولة بأصوات الناس وكلامهم ما قلَّ منه وما عظم . وكان هذا الاستغراق فى تأمُّل ما بنفسه ، هو أحدَ الأسرار العظيمة فى تصوير شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتنميتها إلى الغاية التى هى عليها فى شعره .

وَقد بيّنّا قبلُ أن من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحُس المرهفِ ، وما وهبَه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التى لا يخبُو لها ضِرام ، وِراثةً كانَ ذلك من جَدّته ، أو فِطْرةً فطره الله عليها غير موروثةٍ . وكان

هذا الرجل فى أوّل أمره مُطالباً بثأرٍ قد نُشِّيء عليه ، وأُخِذ به من صغره ، حَتَّى شغل فكره وعقله ، وتدَفَّق فى بنيانه كله تدفُّق الدَّم ، وصَار أصلاً من الأصول التى قامت عليها كل حالته النفسية = على ما ذكرناه أوّلاً ، وتدرجنا فى بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة = وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهى السنُّ التى تستحكم فيها الأصول ، وتستقرُّ المذاهبُ ، ويقف الرجل عندها لا يملك فى تبديل أمرِه حَوْلاً ولاقوَّةً إلاّ أن يشاء الله ، وخاصَّةً من كان مثل المتنبى قد عرَكته الأيام من صغره ، وتحاملتْ عليه ورَمَتْ به فى تَنُّورها حتى استوى على صُورة بعينها ، واستمرَّ مريرُهُ على ما فيه من القوَّة المستحصدة والمُنَّة الدائبة الفورة والنِّزاع ، لا تستقرُّ ولا تهدأ ولا تطمئنُّ .

هذا ، ... وقد استوقفنا ، ونحن نتتبّع شِعْرَ الرجل على طريقتنا ومذهبنا ، الفرقُ الكبيرُ الكائن بين شعره الأوّل ، وشعره الذى قاله فى حضرة سيف الدولة ، وتدبرنا الأسبابَ على ما بيّناه قبل ، فلم يَسْتَوِ عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحَسْبُ ، فعدنا نجدّد الرأى لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعانى ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا إلى السبب الأكبر فى هذا التجويد الفذّ الذى غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروَحْنا فى شعر الرجل نَفْحَةً من نفحات المرأة التى تكون من وراء القَلْب تَصْنَع للشاعر المبدع بيانه ، وتتَّخذ من فنّها النِسْوِىّ مادّةً تُهَيِّئها لفنّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فأتممنا الأمر على ذلك ، ورَجَعنا إلى شعر أبى الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثلنا المرأةَ بينهما وهى دائبة تصنع له بيانه وتهيىء له فنّه ، فاستوى الأمر على ذلك . وطلبنا الدليلَ ، فدلَّنا على المرأة التى

سكنتْ قلب أبي الطيب = وهو فى ظل سيف الدولة = وجعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماء .

كان صاحبُ الحكمة أبو الطيب يَصْنع حكمته بالتدبُّر فى معرفة نفسه ، واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءته المرأة ، وأرادت كبرياءه على الخضوع لها والتصرُّف بأمرها ، وقعت نفسُ هذه المرأة بأسرارها وأحداثها بين نَظَرات أبى الطيب النافذة المتولِّجة إلى مَا وراء الواقع والحسّ الملموس ، وبَيْن نَفْسه بأحداثها وأسرارها وما انطوت عليه وما تجلَّت به . ولما كانت نفسُ المرأة المحبوبةِ هى تمامَ نَفْس الرجل المحبّ وتَكملتَها ، كانت دراسةُ الحكيم المحبِّ لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة ، إنما هى دراسة للكون كله ، فإنّ العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلاَّ بعينى مَنْ يَعْشَق ، وهى على ذلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورةً فى دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحبُّ القوىُّ النافذ الذى يتملَّك حواس المحبِّ ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواسّ إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر . فلهذا حين أحَبَّ أبو الطيبِ = الرجل الثائر المتكبر الشاعر الحكيم البيانىّ الفكر واللسان = كان امتداد نفسه وترامِيها إلى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ، ولم يستطع أن يكون ، بَعد أنْ غلب الحب قلبهُ وتفاسَح به ، شاعراً غزلاً رقيق البيان . وهذا هُو السرُّ عندنا فى ضَعْف مادة الغزل عند أبى الطيب ، وقُوّة مادة الحكمة وما إليها ، مما هو من طبيعته المتأصلة فيه على ما فصلناه فى أثناء كلامنا . وليس يَصِحُّ عندنا أن لا يكون أبو الطيب عاشقاً صبًّا متدلِّهاً ،

مما لم نجدْ في شعره غزلاً ولاَ أنيناً وحَنيناً وبكاء .

* * *

والآن ، وبعدَ هذه المقدمة ، نحاول أن نعيِّنَ لك المرأة التى أحبها أبو الطيب على ما يتفق لنا ، (١) إذ كان ترتيبُ هذا الموضع من الكلام مما يستدعى النظر فى أكثر شعر أبى الطيب وتقليبه على المذهب الذى اتخذناه ، فيخرج الأمر من حَدّه ولا تتسع له هذه الورقات .

لما ماتت أختُ سيف الدولة الصُّغرى ، وقف أبو الطيب يُعزِّيه وَيَرْثيها ، ويسلِّيه ببقاء أُخْته الكُبرى ، وذلك فى يوم الأربعاء للنصفِ من شهر رمضان سنة ٣٤٤ ، وبعد سبع سنواتٍ من مُقامه فى حضرة سيف الدولة ، فأنشده قصيدته التى أوّلها :

إنْ يَكُن صَبْرُ ذِي الرَّزِيئَةِ فَضْلاَ ... تَكُن الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَلاَّ

وطفق يمدح سيف الدّولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضع من العزاء ، إلى أن قال :

أَيْنَ ذِي الرِّقَّةُ الّتِي لَكَ فِي الحَرْ ... بِ إذا اُسْتُكْرِهَ الحديدُ وصلاّ ؟
أَيْنَ خَلَّفْتَهَا غَداةَ لَقِيت الـ ... رُّومَ وَالهامُ بالصَّوارِمِ تُفلَى
(قَاسَمَتْكَ المَنُونُ شَخْصَين جَوْرًا ... جَعَل القِسْمُ نَفْسَه فِيه عَدْلاَ)
(فَإِذا قِسْتَ مَا أَخَذْنَ بمَا غَا ... دَرْنَ ، سَرَّى عَنِ الفُؤَادِ وَسَلَّى)
(وَتَيقَّنْتَ أَنَّ حَظَّكَ أَوْفَى ، ... وتبيَّنْتَ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى)

---

(١) اعلم أنا كنا نؤمل أن نبسط القول فى هذا الباب ، ولكن حالت دون ذلك أحوال.

فأبو الطيب يطلب من سيف الدولة أنْ يقيس أُخته الصغرى التى ماتت، إلى أُخته الـكبرى الّتى بقيتْ له ، فإذا فعل ذلك كان سَلْوَى له وتسرية للهم عن قلبه . ولا ندرى كيف يتّفق أن يَخْطُرَ لشاعر يرثى امرأةً محجَّبةً ماتت ، أن يذكرَ أُخْرى = وتـكونُ أختها = ويعزِّىَ أخاها بهذا العزاء الغريب؟ ثم يزيدُ فيقول له : إنك إذافعلتَ ذلك الذى دللتك عليه ، « تَيَقّنت » أن حظك فى بقاء هذه الـكبرى أوْفَى من حظِّ الموت فى أَخْذِ الصغرى ، وكيف يُيَقّن أبو الطيب سَيفَ الدولة من حُسْن حظّه ببقاء الـكبرى ، إلاّ إذا كان هو على يَقينٍ من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك ، إلاّ وهو يعرفها معرفة تُفْضِى بِهِ إلى هذا اليقين ؟

ثم مضى أبو الطيب فى القصيدة كُلِّها يمدح سيف الدولة ، ولم يتعرَّض لهذه الفتاة أُختِه الصغرى إلاّ فى موضعٍ آخَر ، إذ يقول :

خِطْبَةٌ للحِمَام لَيْسَ لَهَـا رَدٌّ   وَإِنْ كَانَتْ المُسَمَّاةَ ثُـكْلاَ
وَإذا لَمَ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئاً   ذَاتُ خِدْرٍ ، أَرَادَتِ المَوْتَ بَعْلاَ

فالعجب أن يكون ذلك عزاء ... ، فإن أبا الطيب قد قدّم الـكبرى فى المنزلة ، فـكان أولَى إذن أن تموت الـكبرى ، إذ هى ولاشك عند أبى الطيب أفضلُ من هذه الصغري التى لم تجد من الناس كفئاً يكون لها زوجاً ، فاختارت الموت بعلاً لها !! وهذا التناقض يدلُّنا على أن الرجل كانت قد اقترنت فى عينه صورة الـكُبْرى بصورة الصغرى ، فاضطرب قولُه ولم يمض على سَنَنٍ ونهج ، وذلك لاضطراب نفسه الذى أظهر ما فى قلبه وكشف عنه فى تدفقه حين ذكر هذه الـكبرى فقال فيها البيتين : « فإذا قست . . . الخ » .

فلما ماتت الكُبْرى هذه التى ذكرها هنا = وهى خَوْلةُ أخت سيفِ الدولة ، فى سنة ٣٥٢ ، أى بعد ذلك بسنوات ثمانٍ ، وكان أبو الطيب بالكوفة ، فورد عليه خبرها ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون فى ذكر خَوْلة هذه ، وستة أبياتٍ فى ذكر الدنيا ونَكدها ، ولم يذكر سيف الدولة إلاّ فى سبعة أبيات منها . هذا مع أن القصيدة التى رثى بها الصُّغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مُفْرَدةً إلاّ فى بيتين هما : « خطبة للحِمام . . . » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى فى ثلاثة أبيات هى « قاسمتك المنون . . . » ، وجعل بقية القصيدة وعدتها (٤٢) بيتاً فى مدح سيف الدولة إلاّ قليلاً فى الحكمة والحياة . أليس هذا عجيباً !

كان الفرق بين القصيدتين بيناً واضحاً لا خَفاء فيه ، وكانت الثانية فى رثاء خَوْلة عاطفة قد أخذها الحزن وغلبها البكاء ... يقول أبو الطيب ، وافتتحها بخطاب خولة :

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ ، يا بنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايةً بِهِمَا عَنْ أشرفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً ... وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلعَرَبِ
(لَا يَمْلِكُ الطَّرِبُ المحْزُونُ مَنْطِقَهُ ... وَدَمْعَهُ ، وهما فى قَبْضَةِ الطَّرَبِ)
غَدَرْتَ ياموتُ ، كم أفنيتَ مِنْ عَدَدٍ ... بِمَنْ أَصَبْتَ ! وكم أسكتَّ من لَجَبِ !
وكم صَحِبتَ أَخَاها فى مُنَازَلةٍ ! ... وكم سألتَ فَلَمْ يَبْخَلْ ولم تَخِبِ !
(طَوَى الجزيرةَ حَتَّى جاءنِى خَبَرٌ ... فَزِعتُ فيه بآمالِى إلى الكَذِبِ)
(حَتَّى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُهُ أملاً ، ... شَرِقْتُ بالدَّمْعِ حتَّى كادَ يَشْرَقُ بى)
تَعَثَّرتْ بِكَ فِى الأفْوَاهِ أَلْسُنُها ، ... وَالبُرْدُ فى الطُّرْقِ والأقْلَامُ فى الكُتُبِ)

كأنَّ خَوْلَةَ لم تَمْلأْ مَواكِبُها ... دِيارَ بَكْرٍ، ولَمْ تَخْلَعْ، ولم تَهَبِ
(وَلَم تَرُدَّ حَياةً بعـــد تَوْلِيةٍ ... ولَمْ تُغِثْ داعياً بالوَيْلِ والحَرَبِ)
(أَرَى العِراقَ طَويلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ ... فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الفِتْيانِ فى حَلَبِ ؟)
(يَظُنُّ أن فُؤَادى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ! ... وَأَنَّ دَمْعَ جُفونى غَيْرُ مُنْسَكِبِ !)
(بَلَى، وَحُرْمَةِ مَنْ كانت مُراعيةً ... لِحُرْمَةِ المَجْدِ والقُصَّادِ والأَدَبِ)
(وَمَنْ مَضَتْ غيرَ مَوْرُوثٍ خَلائقُها، ... وإنْ مَضَتْ يَدُها مَوْرُوثةَ النَّشَبِ)
(وَهَمُّها فى العُلَى والمَجْدِ ناشِئَةً، ... وهمُّ أَتْرَابِها فِى اللَّهْوِ واللَّعِبِ)
(يَعْلَمْنَ حين تُحَيَّا حُسْنَ مَبْسِمِها ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ إلاَّ اللهُ بالشَّنَبِ)

. . . .

(وَ إنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثَى فَقَدْ خُلِقَتْ ... كَرِيمةً، غيرَ أُنْثَى العَقْلِ والحَسَبِ)

. . . .

(فَلَيْتَ طَالِعةَ الشَّمْسَين غائِبةٌ، ... وليْتَ غائِبةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ)
(وَلَيْتَ عَيْنَ الّتى آبَ النَّهارُ بِهَا ... فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِى زالتْ وَلَمْ تَؤُبِ)

. . . .

(وَلاَ ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنائِعِها ... إلاَّ بَكَيْتُ، ولا ودٌّ بِلاَ سَبَبِ)
(قَدْ كانَ كُلُّ حِجابٍ دُونَ رُؤْيَتِهَا، ... فَمَا قَنِعْتِ لَهَا يَا أَرْضُ بالحُجُبِ !)
(ولاَ رَأَيْتِ عُيونَ الإِنْسِ تُدْرِكُهَا، ... فَهَلْ حَسَدْتِ عَليها أَعْيُنَ الشُّهُبِ ؟)
(وَهَلْ سَمِعْتِ سَلاماً لِى أَلَمَّ بها ... فَقَدْ أَطَلْتُ، وما سَلَّمْتُ من كَثَبِ)
(وَكَيْفَ يَبلُغُ مَوتانا الّتى دُفِنَتْ ... وَقَدْ يُقَصِّرُ عَنْ أَحيائِنَا الغُيَبِ)

. . . .

(قَدْ كانَ قاسَمكَ الشَّخْصَينِ دَهْرُهما ... وَعَاش دُرُّهما المَفْدِىُّ بالذَّهَبِ)

(وَعَادَ فى طَلَبِ المَتْرُوكِ تَارِكُهُ ، إنّا لَنَغْفُلُ ، والأيامُ فى الطَّلَبِ)
مَا كانَ أَقْصَرَ وقتاً كانَ بَيْنَهُمَا ! كأنَّهُ الوَقْتُ بَيْنَ الوِرْدِ والقَرَبِ

ولست تخطىء فيما نرى ، ماتضمَّنته هذه الأبيات من القصيدة من العاطفة التى عطفته على هذه التى يرثيها ، وما يتوهَّج فى ألفاظها من نيران قلبه . ولستَ تخطىء أنين الرجل وحنينه وبكاءه . ولا بدَّ لنا هنا من بعض القول فى أبيات منها نشرح به أمر أبى الطيب على وجهه .

* * *

قد ذكرنا قبلُ أن الانتقال من معنى إلى معنى فى شعر أبى الطيب ، هو الموضع الذى ينبغى لنا الوقوف عنده وتمييزُه والتبصُّرُ فى أوائله وأواخِره ، إذ كان الانتقال فى شعره هو الذى يُعينك على الكشف عن أسرار قلبه ونفسه وحياته . فإذا شئت الآن فانظر إلى انتقاله من قوله فى مخاطبة الموت : « وكم صَحِبْتَ أخاها فى منازلةٍ ! » إلى ذكر ما أفزعه وكربه ، وهزَّ نفسه وحزَّ فيها إذ يقول :

« طَوَى الجزيرةَ حَتَّى جَاءَنى خَبَرٌ فَزِعتُ فيه بآمالى إلى الكَذِبِ »
« حَتَّى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُهُ أملاً شرِقْتُ بالدمعِ حتى كادَ يَشْرَقُ بى»

والرأى عندنا أن هذين البيتين هما أول ما قال أبو الطيب من القصيدة حين بلغه خبرُ موت خولة وهو بالكوفة ، ففزع قلبه ، واضطرب أمره ، وانتشرت عليه عواطفه ، ففى البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب ، وعليها وسمٌ من لوعته وحُرْقته .

وقد غلب أبا الطيب بَيَانه فى هذين البيتين فصرح فيهما بكل ما يضمر

لخولة من الحبِّ . انظر كيف جعل الخبر يطوى الجزيرة كلّها يقْصِدُهُ وحدهُ دون غيره ، وقد خَصَّص ذلك بقوله « حتى جاءنى » ، وفى هـذا من غلبة الحبّ على قلب أبى الطيب ماجعلهُ يرى أن هذا الخبر بموتها = الذى سمعه وهو بالعراق ، وكان قد علمهُ الناس ولاشك = لم يقطع أرضَ الجزيرة إلاّ ليبلغهُ هو ، والحبُّ دائماً يخصُّ ويضيِّق بمثل ذلك ، ولايرى فيه الشّركةَ ، ولو تساوى الناس جميعاً فى المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا الطيب نَسَبَ الفزَعَ الذى لحقَه إلى آمالِهِ ، إذ كانت آماله كلها فى الحياة بعد حبِّه لخولة متعلّقةً بها وبحياتها ، فلما جاءه الخبر بموتها فزعتْ آمالهُ هذه أملاً أملاً إلى الشكّ فى الأمر الواقع ، وإلى طلب الحيلة فى رَدِّه وتـكذيبه ، عسى أن تجد لها متعلقاً تستمسك به ، فلما أخفقت الآمال أملاً أملاً ، وقطَّعها الخبر الذى سمعه بالصدق واليقين ، سقطت نفس الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوّتها ، وغرقتْ فى دمعها حتى شرقت به . وهذه حالة فى الحبّ القوىِّ العنيف الذى يستولى على القلب ، ولايجعل للحياة بآمالها معنًى إذا فقد من يحبّ ، أو ساءه من أمره مايسوءه . فهذا من أبى الطيب دليل على أن كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثى أخت صديقه وأميره ، وإنما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه .

ومثلُ ذلك فى الدلالة على ما أَصاب قلب أبى الطيب من الفجيعة التى تخصه بموت خولة قوله :

«أرَى العِراقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيت ... فكيفَ لَيْلُ فتَى الفِتْيَانِ فِي حَلَبِ؟»

« يَظُنُّ أن فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ، ... وأنَّ دَمْعَ جُفُونِى غيْرُ مُنْسَكِبِ »

فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره ، وإنما يطول عليه من أجل حبيبته التى فاته بها الموت . ثم زاد أبو الطيب فى الدلالة بقوله : إن سيف الدولة يظن أن فؤاده غير ملتهب ، وأن دمعه غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا ؟ أيحبُّ سيف الدولة أن يلتهب قلبه وينسكب دمعه من أجل أخته ، أو يسوءه إذا لم يكن ذلك كذلك ؟ .

هذا ، ولا نشكُّ نحن = من قِبَل ما جمعناه عندنا من الدلائل فى هذا الأمر المتعلق بحب أبى الطيب وخولة أختِ سيف الدولة = فى أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على أمرها ، وأنه كان قد وعد أبا الطيب عِدَةً لم يَفِ له بها فى أن يزوّجه أخته هذه ، وكان ذلك سرًّا بينهما ، اتّصل بعض خبره بأبى فراسٍ الحمدانىّ ، فكان سبباً فى العداوة الباغية بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمره وأمر خولة والحب الذى بينهما .

ومن الشواهدِ غير ما ذكرناه مما يدلُّ على الحب الذى بينهما دلالةً واضحة لا تخفى على مثل سيف الدولة قوله :

« وَمَنْ مَضَتْ غيرَ موروثٍ خَلائِقُها ، وَإِنْ مَضتْ يَدُها مَوْرُوثةَ النَّشَبِ »

الأبيات الثلاثة ، فقد ذكر أبو الطيب أخلاق خولة ، ثم ذكر ما كانت عليه من علوّ النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ابتسامتها ، وهذه كافية فى الدلالة على معرفته خولة معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاء . وأيضاً قوله :

« ولاَ ذَكَرْتُ جَمِيلاً من صَنَائعها   إلاّ بكيتُ ولاَوُدٌّ بِلاَ سَبَبِ »

وهذا دليلٌ على ما كانت تسبغ عليه خولةُ من صنائعها وفواضلها مما يستجلب له البكاء حين يذكرها ، وما نظنُّ أن صنائع خولة عنده كانت مِعْشَار صنائع سيف الدولة ، ولكن حبّ أبى الطيب هو الذى جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله : «وَلاوُدٌّ بلا سَبَبِ» ، وفى رواية أخرى « بلا ودٍّ ولاسبب » ، وكأن هذه الرواية الثانية يراد بها نفيُ أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثرون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالأمر الذى بينهما ، من أن صنائع خولة التى كانت تتخذها عند أبى الطيب لم تكن من أجل هذا الوُدّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عُنْصُرها . ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة ممن كان يتزيَّد فى القول ويتكذّب عليه بما هو منه بَرَاء ، ولينفىَ التُّهَم بذلك عن هذه التى كان يحبُّها ويمنحها قلبه .

وإذا شئت الزّيادة فاقرأ قوله :

فليتَ طالعةَ الشمسين غَائبةٌ   . . . .

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة . . . واقرأ

وهَلْ سَمِعْتَ سلاماً لى ألمَّ بها   . . . .

ثم انظر إلى هذا الالتفات إلى الماضى الذى جعلناه من المذهب فى الكشف عن أسرار أبى الطيب ، إذ ذكر ما كان منه حين رثى أخت سيف الدولة الصغرى — من ذكر خولة هذه ، وذلك إذ يقول :

« قاسمتْك المنونُ شخصين جوراً . . . . » .

فعاد يقول فى هذه :

« قَدْ كان قَاسَمك الشَّخْصَين دَهْرُهما وعاشَ دُرُّهما المفديُّ بالذَّهَبِ »
« وَعاد فِى طَلَبِ المتروكِ تَارِكهُ ، إنَّا لنغفُل ، والأَيام فى الطَّلَبِ »

وتدبر الصِّلة بين هذا وذاك ، والحسرة المتميزة فى قوله : « إنا لنغفُل...» ، و « ما كانَ أقصرَ وَقتاً كان بينهما » . . .

* * *

وندع هذا الآن ، ونتنقّل بك فى مواضع من الديوان على غير ترتيبٍ ، لِترى أثر هذا الحبِّ فى شعر أبى الطيب وفى حياته ، وما أصابه وهو فى ظلّ سيف الدولة من جرَّاء هذا الحبّ . وكان حق هذا الموضع من هذا الباب أن نَتَتبَّع لك حياة أبى الطيب سنةً سنةً ، ونكشف لك عن تدرُّج هذا الحبّ فى شعره وقصائده حتى تنتهى إلى الغاية ولكن . . . وقف المتنبى فى مجلس سيف الدولة يُنْشده قصيدته التى أولها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّن قَلْبُه شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِى وحالى عِنْدَهُ سقَمُ

وقد زعموا أن سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا . . . : « جرى له خطاب مع قوم متشاعرين ، وظنَّ الحَيْف عليه والتحامل » ، إلى غير ذلك. وقد أتى المتنبى فى هذه القصيدة بكل عجيبة من القول فى الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له ، كقوله :

سَيَعْلَمُ الجمعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنا بأنَّنِى خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

. . . .

كَمْ تَطْلُبونَ لَنا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ ، وَيَكْرَهُ اللهُ ما تَأْتُونَ والكَرَمُ

وقوله فى حب سيف الدولة :

يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنا أن نُفارِقَهُم ، وُجْدانُنا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

وقوله فى إنذاره :

لَئِن تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عن مَيامِنِنا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ
إذا تَرَحَّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لاَ تُفارِقَهُمْ فالرَّاحلونَ هُمُ

قالوا : فلما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رَجَّالةٌ فى طريقه ليغتالوه ، فلما رآهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم ، سلَّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يُقدِموا عليه ، ونُمِيَ ذلك إلى أبى العشائر ، فأرسل عشرة من خاصَّته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله إلى أبى الطيب ، فسار إليهم حتى قَرُب منهم ، فضرب أحدهم يدَه إلى عنان فرسه ، فسل أبو الطيب سيفه ، فوثب الرجل أمامه ، وتقدّمت فرسُه الخيلَ ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترَّهم إلى الصحراء ، فأصاب أحدهم نَحْرَ فرسه بسهمٍ ، فانتزع أبو الطيب السهمَ ورمى به ، واستقلَّت الفرس ، وتباعد بهم ليقطعهم عن مددٍ كان لهم ، ثم كرَّ عليهم ، بعد أن فَنِيَ النُّشّاب ..... فلما يَئسوا منه قال له أحدهم فى آخر الليلة : نحن غِلْمَانُ أبى العشائر ، فقال قصيدته التى مضت : « ومُنْتَسِبٍ عندى إلى مَنْ أُحِبُّه » ،[1] ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة

(١) انظر ما سلف ص : ١٩٦ ، ١٩٧

مستخفياً ، فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل به ذلك أو أمر به . . . وكان ذلك فى سنة **٣٤١** ، فلما رَضِى عنه سيفُ الدولة قال له قصيدةً أولها :

أَجَابَ دَمْعِى وما الدَّاعى سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ
ظَلِلْتُ بَيْنَ أُصَيْحَابِى أُكَفْكِفُهُ ... وظَلَّ يَسْفَحُ بين العُذْرِ والعَذَلِ
أَشْكُو النَّوَى وَلَهُم مِن عَبْرَتِى عَجَبٌ ، ... كذاك كُنْتُ ، وما أشكُو سِوَى الكِلَلِ

ثم انتقل من هذا المعنى إلى معنى غيره فقال :

وَمَا صَبَابةُ مُشْتَاقٍ على أَمَلٍ ... من اللقاء ، كمُشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

وكأنه بهذا الانتقال يهوِّن على سيف الدولة الأمرَ ، ويذكر له أن هذا الحب الذى بينه وبين « خولة » كائن على غير أملٍ ، وأنه لا يطمع فى أن يظفر بإدراك أمله من زواجها . ثم يدلل على ذلك بما كان من الحادثة التى كاد يُقتَلُ فيها ، والتى تولى أمرها أبو العشائر (وهو من قوم خولة) ، ويذكر لسيف الدولة أن أهل « خولة » لن يدعوه أن يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة ، فانتقل من معنى البيت إلى قوله :

« مَتَى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيارَتَهَا ... لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ البِيضِ والأَسَلِ »

وهذه صفة ما لقى أبو الطيب فى ذلك اليوم الذى رويناه لك ، فانظر إلى هذا الانتقال الذى يدل دلالة واضحة على ما فى ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التى كادت تُودِى بحياته ، ثم انظر الترفق فى قوله : « لا يُتْحِفُوك بغير البيضِ والأَسَل » ، وذلك لما بينه وبين أبى العشائر من

المودة والحب ، فهو يجعل أداة القتل (تحفة) ، وقد قال لأبى العشائر فى هذه الحادثة نفسها أبياتاً تدل على حبّه له ، وتقرب إليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ،[1] ويقول له فى آخرها :

« فَإنْ كانَ يَبْغِي قَتْلَهَا ، يَكُ قاتلاً بِكَفَّيْهِ ، فَالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ »

وفى تلك السنة نفسها ، سنة ٣٤١ ، يقول أبو الطيب ما نقلناه فى رأس هذا الباب :

« لِعَيْنَيْك ، مايلقى الفُؤَادُ وما لَقِي وَلِلحُبِّ ، مَا لَمْ يَبْقَ مِنّى وما بَقِى »

فعلى ما نذهب إليه من شدة تأثير الحوادث فى أبى الطيب ونفسه ، واستخراجِهِ معانى شعره من تلك الحوادث ، وتهجّمه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تجد فى هذه القصائد ما يشير إلى هذه الواقعة ومالقى فيها من الكيد. والظاهر أنّ هذه الجفوة التى كانت فى سنة ٣٤١ امتدت إلى أوائل سنة ٣٤٢، وكان من جَرَّائها أن انقطع أبو الطيب مُدَّة عن مدح سيف الدولة فاستبطأه وتنكر له ، فركب سَيف الدولة يوماً فى رِجاله ، وقَدِم عليه أبو الطيب راكباً مُهْره ، فلما سلم عليه ازورّ عنه وأعرض ، فقال أبو الطيب :

أرَى ذَلِكَ القُرْبَ صَارَ ٱزْوِرَارَا وصار طَوِيلُ السَّلام ٱخْتِصارَا
ترَكْتَنِيَ اليَوْمَ فِي خَجْلَةٍ ، أَمُوت مِرَاراً وَأَحْيَا مِرَارا
أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِياً ، وأزْجُر فى الخيل مُهْرِى سِرارا
وَأعلم أنِّى إذَا ما ٱعْتذَرْتُ إليك ، أرَاد ٱعتِذارى ٱعتِذارا

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٩٦ ، ١٩٧.

كَفَرْتُ مَكارِمَك الباهرا تِ، إنْ كانَ ذَلك مِنّى اُخْتيارَا

ثم يذكر له العلّة فى ذلك الانقطاع عن مدحه فيقول : (ص : ٢٤٩)

(ولكنْ حَمَى الشِّعْرَ، إلاَّ القليـ ـلَ، همٌّ حَمَى النَّوْمَ إلاَّ غِرَارَا)
(وَمَا أنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ، ولاأَنا أضْرَمْتُ فِى القَلْب نارَا)
(فَلاَ تُلْزِمَنِّى ذُنُوبَ الزَّمانِ، إلَىَّ أسَاءَ وَإِيّاىَ ضَارَا)

وهذا الهم الذى يسقم الجسم ويضرم ناراً فى القلب، ولا يملك له الإنسان ردًّا، لا يكون إلاّ هذا الحب العنيف الذى تتقطع دونه الآمال، ولا يكون هذا الهم إلاّ ذلك، فإن أبا الطيب كان ممتَّعاً بكل شىء فى ظلّ سيف الدولة، فقد كان صاحبَ إقطاع ومال كثير قد أسبغه عليه سيف الدولة .

* * *

وحسبُك هذا من شعره وهو فى جوار سيف الدولة ، ثم انظر إلى أثر هذا الحب فى شعره بعد فراق سيف الدولة ، فإنه أدلُّ وأبلغُ فى الكشف عن سرّ قلبه . ولا بأس فى أن نَسْرُدَ لك ذلك على ما وقع فى ترتيب ديوانه .

فمن آثار هذا الحب فى شعر أبى الطيب، ما وقع فى القصيدة الأولى التى أنشدَها كافوراً فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيتَ قبلُ أنّنا لم نتعرض لعاطفة أبى الطيب فى شعره إلى أن اتصل بسيف الدولة ، فإذا أنت عدت إلى شعره فى ذلك العهد الأول، لم تجد فيه إلاّ قسوةً وشدةً وعنفاً ليس لشعر ، وقلما لانالرجل أو ترقّق إلاّ متكلفاً للغزل . وكان قد فارق قبلَ سيف الدولة رجالاً أحبَّهم وصحبهم وبَاذَلهم مكنون صدره من

الودّ ، ولم يظهر فى شىء من شعره بعد فراقهم أثرٌ لهذا الفراق إلاّ قليلاً قليلاً .
ولكنه حين فارق سيفَ الدولة ودخل مصر اختلف الأمر اختلافاً بيِّناً ،
وظهرت فى شعره رقة لا عهد له بها ، ولا تكون العلّةُ فى هذه الرقة التى ظهرت
فيه بعد أن جاوز الأربعين ، واستحكم واستمرّ مَرِيره ، واستوت طبيعته على
طريقة من القوة والتشدد والاستمساك = لا تكون من أجل فراقه سيف الدولة
وحَسْب ، فإن ذلك الفراق بين (الرجلين) لا يعمل فى تغيير الطبيعة المتأصّلة
كل هذا العمل . وليس لشىء من العمل فى تغيير الطبائع وتبديلها مثلُ
ما للحبّ فى القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ،
يتلفّتُ قلبه إلى تلك التى خَلَّفها من ورائه ، وخلَّف عندها قلبه وعواطفه ،
فأثار ذلك فى قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجَرُ منها ،
فكان أوّل ما لَقِى كافوراً لَقِيه بالبيت الذى عدّه الأدباء والنُّقاد من سوء
أدب المتنبى ومن جفائه وغلظته ، وليس الأمر على ذلك ، فإن الرجل لم يكن
جافياً ولا غليظاً ولا سيىء الأدب ، ولا ضعيفَ البيان ، ولكنه كان كما
حدثناك مُرْهَفَ الحسّ ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، بل
تصرّف عاطفته هذا البيان كما شاءت ، والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ،
ولا تفرِّق بين لقاء الملوك ولقاء الصعاليك ، فلذلك رمى فى وجه كافور بهذا :

كَفَى بِكَ دَاءً أن تَرَى المَوْتَ شافِياً   وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانِيا
تَمنَّيتَهـــا لمّا تمنَّيْتَ أن تَرَى   صَدِيقاً فأعْيا ، أو عَدُوًّا مُداجِيا

ثم يمضى أبو الطيب على طريقته حتى يرقّ رقّةً ، لو أنت قلَّبت ديوانه لم
تجد لها شبيهاً ولا مثيلاً ، وذلك قولُه فى خطاب قلبه ، ذلك القلب الذى حَطَمَ
فيه فراقُ خولة ، وهدّ بنيان رُجولته وقُوّته :

حَبَبْتك قَلْبي، قبْلَ حُبِّك مَن نَأَى،[1] وقَدْ كانَ غدَّاراً ، فكُنْ أنتَ وافِيَا

(وأعْلَمُ أن البيْن يُشـكِيكَ بَعْدَهُ ، فلَسْتَ فؤَادي إن رَأَيْتُك شاكِيَا)

(فإنَّ دُموعَ العين غُدْرٌ بربِّها إذَا كُنَّ إثْرَ الغَادِرين جَوَارِيَا)

إذَا الجود لم يُرْزَق خَلاصاً مِنَ الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيَا

وللنَّفْسِ أخلاقٌ تَدُلُّ على الفتَى ، أكان سَخاءً ما أتَى أمْ تَسَاخِيَا

(أقلَّ اشتياقاً أيُّها القلب ، رُبَّما رأيْتُكَ تُصْفِي الوُدَّ مَن ليس صافِيَا)

(خُلِقْتُ أُلُوفاً ، لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَى لَفَارقْتُ شَيْبي مُوجَعَ القلب باكيَا)

فاقرأ الأبيات وتدبرها ، وانظر فى خطابه قلبه ـ على غير عادته ـ خطاباً رقيقاً متنهداً ذا زفرات ، وانظر اضطراب أمره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورُجولته ، يقول لقلبه : « لستَ فؤادى إن رأيتك شاكياً » ، ثم يعود فيقول : « خُلِقْتُ أُلُوفاً . . . » ، فليس فى الأبيات حبه لسيف الدولة وحسب ، بل فيه نفحات من لوعة الحبِّ الذى يستولى على القلب : حُبِّ المرأة التى يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً أنه لا يهجُرها ، وإنما يُهاجِر قلبه الذى بين جنبيه ويعانده ويُراغمه .

هذا ، وقد ظهر نفسُ هذا الأثر فى كثير من شعر المتنبى ، ظهر فى حكمته ظهوراً بيِّناً ، وذلك كقوله :

لَيْتَ الحوادِثَ بَاعَتْنِي الَّذي أخَذَتْ مِنِّي، بِحِلْمِي الَّذي أعْطَتْ وتَجرِبي

فَمَا الحداثَةُ مِنْ حِلْمٍ بمَانِعَةٍ ، قدْ يُوجَدُ الحِلْمُ فى الشبَّان والشِّيبِ

---

(١) يريد بهذه الكناية (سيف الدولة) .

وهذا القول ليس من مذهب المتنبي فى كلامه الأوّل إلى فراقه سيف الدولة.
ومثل ذلك قوله :

أَوَدُّ مِنَ الأيامِ ما لا تَوَدُّهُ　　وَأَشْكو إليها(بَيْننَا) وَهْيَ جُنْدُهُ
(يُبَاعِدْنَ حِبًّا يجتمعن وَوَصْلُهُ ،　　فكيف بِحِبٍّ يجتمعنَ وَصَدُّهُ !؟)
(أَبى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبيباً تُديمُهُ ،　　فَمَا طَلَبِي مِنها حَبيباً تَرُدُّهُ)

ثم تلفت المتنبي إلى ما كان من فِراقه « خولة » وَمهاجرتها مراغماً لقلبه ،
متكلفاً الصبر والجلد ، فقال فى عقب ذلك :

(وأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تغيُّراً　　تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِي طِباعِكَ ضِدُّهُ)

وكان أبو الطيب يظن أن فى الفراق ما يُنسيه « خولة » ويمحو من قلبه
آثارها ، وقد فارق ، وعلم أن ذلك لن يكون ، وأن ما كان من اندفاعه
ومراغمته عند أوّل الفراق إنما كان أمراً يخالف طبيعة حبّه التى وصفها فى
شعره قبلُ وهو عند سيف الدولة بقوله :

إلاَمَ طَمَاعِيَــةُ العَاذِلِ　　وَلاَ رَأْيَ فى الُحبِّ للعَاقِلِ
(يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ،　　وَتأبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ)

هذا ... وإذا أنت أخذت فى دراسة شعره فى المدح والحكمة فى هذه
الفترة ، وجدت آثار هذا الحبّ الذى انقطعت منه آمال اللقاء والنظر
والابتسامة والتلطّف ، وما رُمِي فى قلب أبى الطيب من الكَمَد والحسرة
والأسف والحنين ، فأصبح كلامه وبيانه من تلك العواطف اليائسة التى انطوى

عليها قلبه ، واضطرب بها ضميره وفكره ،[١] وبذلك تميّز شعره فى هذا العهد ، من شعره فيما سبقه وتباين عنه تبايناً عظيماً .

ويقول أبو الطيب يذكر فراقَه سيف الدولة ومَقْدَمه على كافور :

فِرَاقٌ ... ، وَمَن فارقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ	وَأَمٌّ ... ، ومَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ
ومَا مَنْزِلُ اللذَّاتِ عِنْدِى بِمَنْزِلٍ	إذا لَم أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وأُكَرَّمِ
سَجِيَّةُ نَفْسٍ لا تَزال مُلِيحةً	من الضَّيمِ ، مَرْمِيًّا بها كلُّ مَخْرَمِ
(رَحلتُ... فكم باكٍ بأَجفانِ شادِنٍ	علىَّ!! وكَمْ باكٍ بأَجْفانِ ضَيْغَمِ!!)[٢]
(وَمَا رَبَّةُ القُرْطِ المَلِيحِ مكانُهُ ،	بأَجْزَعَ من رَبِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ)
(فلوْ كان مَابِى مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ	عَذَرتُ ، ولٰكِنْ من حَبِيبٍ مُعَمَّمِ)
(رَمَى ، واتَّقى رَمْيِى ، ومِنْ دُونِ ما اتَّقَى ،	هَوًى كاسرٌ كَفِّى ، وقَوْسِى ، وَأَسْهُمِى)

فهو بالبيت الأول قد عيَّن من أراد بهذه القصيدة . فالذى فارقه هو سيف الدولة ، والذى قصدَهُ ويمَّمه هو كافور ، وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيتُ الرابع قال : « رحلتُ » ، يعنى رِحْلته عن حلب ، ثم ذكر بعده ما كان من جرَّاء هذا الفراق ، وأبان عن الذى كان سبباً فيه ، وقابل فى ذلك بين اثنين : رجل وامرأة . فذكر باكية تبكى على فراقه بعينى غزال ، وباكياً يبكى بعينى أسد ، وجازعةً لفراقه زينتها قُرْطُها الذى فى أذنها ، وجازعاً زينته حسامه ، وقد اتفق الشراح أيضاً = ولا شك فيما قصده

---

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلا فى بيت بيت وقصيدة قصيدة فى موضعه من كتابنا عن أبى الطيب ، ونعتذر عن ذلك هنا ، لما نرى من تشعب الموضوع وسعته ، ومايقتضى من الوقت .

(٢) الشادن : ولد الغزال ، يريد به المرأة الغريرة الحسناء ، والضيغم : الأسد .

أبو الطيب = على أنه قصد سيف الدولة بقوله « ضَيْغم » ، وقوله : « رَبّ الحسام المصمم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وبأبي الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعدَ ما رأيت أنه عنى بالباكيةِ الجازعةِ لفراقه « خولة » أخت سيف الدولة، ثم قال بعد : « فلو كان مابى من حبيب مقنعٍ عذرتُ » وصبرت على ما يصيبنى منه لحبى إياه ، والأذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا ، فهو لا يحمل على فراقٍ ولا بَيْنٍ ، ولكن الذى حملنى على الفراق كَوْنُ هذا الأذى إنما أصابنى « من حبيب معمم » ، هو سيف الدولة . ثم صرح فى البيت الأخير مبيناً عن هواه فقال : إن سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الأذى الذى أصابه منه) ، واتقى بدرعه أن يرميه أبو الطيب بسهم مثله ، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عَمَلٌ لا محلَّ له ، إذ كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لن يرميه جزاءً له كما رماه ، لما فى قلبه من حُبٍّ « خولة » أخته وهواها الذى يحبس يده ، ويكسر كفه ، ويحطم قوسه ، ويدقُّ سهامه .

هذا ... وقد رووا أن أبا الطيب اتّصل به وهو بمصر أنَّ قوماً نعوه فى مجلس سيف الدولة بحلَب ، فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء فى أولها قوله :

بِمَ التعلُّلُ ...؟! لاَ أهْلٌ ولاوَطَنُ ،	ولانَدِيمٌ ، ولا كأسٌ ، ولاسَكَنٌ
أُريد مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى	ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ !!
لاَ تَلْقَ دَهْرَكَ إلاَّ غيْرَ مُكْتَرِثٍ	مادَام يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُرورٌ مَا سُرِرْتَ به ،	ولاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَائِتَ الحَزَنُ

(مِمَّا أَضَرَّ (بِأَهْلِ العِشْقِ) أَنَّهُمُ هَوُوا وما عَرَفُوا الدُّنيا، ومَا فَطَنُوا)
(تَفْنَى عُيُونُهُمُ دَمْعاً، وأَنْفُسُهُمْ فى إِثْرِ كُلِّ قبيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ)
تَحَمَّلُوا ... حَمَلَتْكُمْ كُلُّ ناجيةٍ، فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ اليَوْمَ مُؤْتَمَنُ
(مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ إِنْ مِتُّ شَوقاً، ولا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ)
يَا مَنْ نُعِيتُ على بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ، كُلٌّ بما زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ
كَمْ قَدْ قُتِلْتُ، وكَمْ قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمُ!! ثُمَّ انْتَفَضْتُ فزَالَ القَبْرُ والكَفَنُ

وفى هذه الأبيات عندنا قول كثير نوجزه ونمدُّ منه أطرافاً نتفادى بها الإطالة ... ، ففى الأبيات الأولى تأخذ عينك أثر الأحزان التى كانت فى قلب الرجل متمثلة مصورةً فى شعره . وتدبَّرْ عبارتَه عن آلامه بقوله : « بِمَ التعلُّل » . . . !! وتأمَّلْ هذا السكون الذى يعقب استفهامه وتعجبه ، فهو بيان فى غير لفظ ، ثم يعود إلى القول فيقول : « لا أهلٌ ، ولا وَطنٌ ، ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سكنٌ » ، فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن إليه إلاّ ولده « محسَّد » ، وهو مهاجرٌ لا وطن له ، وهو بمصر غريب لا صديق له ولا نديم ، وقد سَئِمت نفسه كل شىء حتى الكأس من الخمر لا تسلّيه ولا تحرِّكه ، ثم تمَّم ذلك بلوعة قلبه إذ فقد سكنه وحبيبه الذى يسكن إليه ويأوى. ثم مضى يتنقل فى المعنى حتى انتقل من تجلُّده تارةً ، ومن أحزانه أخرى ، إلى الداء الذى يسلُّ قلبه ويسقمه ، فقال منتقلاً على عادته التى بيَّناها قبلُ :

مِمَّا أَضَرَّ (بأهل العشق) أَنَّهُمُ هَوُوا، وما عَرَفوا الدُّنيا، ولا فَطَنُوا

وهو بيان عن نفسه وما يحزُّ فيها من الآلام (خولة) ، وما لقيه بعدها من الاضطراب بين رجولته التى تأبى أن تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التى

تأبى إلاّ أن تخشع لخولة ، وتتعبد بذكرها وهواها وآلام حبها . وكان من جرّاء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل) قلبه ، وقسا عليه وتعنّف به ، وذمّ له هذه التى قد تولّه بها ، وهى التى أضرّت به وأشقته وعذبته ، سفهاً وجهلاً منه ، إذ أراد مالا يكون ، ومالا تأتى به الأقدار ، ولا ترضى به التقاليد الاجتماعية فى هذه الدنيا ، كما ذكر فى البيت الماضى ، فقال فى عقب ذلك معا نداً ومراغماً لما فى قلبه :

« تَفْنَى عيونُهُم دَمْعاً ، وأنفُسهُمْ فى إثْرِ كُلِّ قَبيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ »

يرحمك الله يا أبا الطيب . . . ثم انطلق يعاند قلبه ، ويذمُّ له « خولة » ، ولا ذنب لها إلّاما تكلفه هو بالفراق وبإرادةِ نسيانها ، « وتأبى الطِّباعُ على الناقل » أن يكون ذلك . ثم انظر خطابه بَعدُ لسيف الدولة بقوله :

يامَنْ نُعِيتُ ، على بُعْدٍ ، بمَجْلسه، كُلٌّ بما زَعَم النَّاعُونَ مُرْتَهنُ

فوربّك إنى لإخالُ أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكى ، فإن فى الشطر الأخير عبرات من دمعه لا تزال تجول فيه وتترقرق . فكلٌّ ذلك آثارٌ بينةٌ على انتقال طبيعة أبى الطيب من تكبُّرها وعتوِّها وتزمُّتها ، إلى حالة نفسية طارئة قد نفذَت فيه آلامُها وأهوالها ، فهو يعانى منها ما يعانى ، ويضطرب لها ويهتزّ ويتلذّعُ ، حتى كان شعرُه بعد فراق سيف الدولة كثيرَ الشكوى ، مُخالَطاً بالحزن والحسرة والألم ، وقد تنبه إلى ذلك أبو الطيب نفسه فقال فى قصيدة من مدائحه لكافور :

(لَحَى اللهُ ذِى الدُّنيامُناخاً لرَاكبٍ! فكُلُّ بَعيدِ الهمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

(ألا ليتَ شِعْرِى ، هَلْ أقُولُ قصيدةً   فَلاَ أشتكى فِيهاَ وَلاَ أتعتَّبُ ؟!)
وَبِى مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أَقَلُّهُ ،   وَلـكنَّ قَلْبِى،(ياابنةَ القوم) ، قُلَّبُ

وهذا الذى به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذى ذكره أولاً فيما تقدم : (ص : ٢٤١)

وَلٰكِنْ حَمَى الشِّعْرَ ، إلاَّ القَلِيلَ ، همٌّ حَمَى النَّوْمَ إلاَّ غِرارَا
وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ ،   ولاَ أَنَا أضْرَمْتُ فى القَلْبِ نارَا

وهو حب (خولة) الذى ملأ قلبَ الرجل وأخذه وتفرَّد به دون فكره وإرادته .

. . . فلما ماتت « خولة » رحمها الله فى سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر تغيَّرت طبيعة أبى الطيب واسودَّتِ الدنيا فى عَينه ، وامتلأ قلبُهُ حُزْناً ، وتقطَّعت نَفْسُه عليها حسراتٍ ، فكان شِعْرهُ بعدُ من هذه المادَّة ، وأوَّل ذلك ما كان من شعره فى القصيدة التى رَثاَها بها ، إذ يقول لسيف الدولة :

فَلاَ تَنَلْكَ اللَّيَالى !! إنَّ أَيْدِيَهـاَ   إذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ (١)
وَلاَ يُعِنَّ عدوًّا أنْتَ قاهِرُهُ ،   فإنهنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بالخَرَبِ (٢)
(وإن سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فَجَعْنَ بهِ ،   وقد أتَيْنَكَ فى الحالَيْنِ بالعَجَبِ)
(وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الإنسانُ غَايَتَهَا ،   وَفَاجَأَتْهُ بأمْرٍ غـيرِ مُحْتَسَبِ)
وَمَا قَضَى أحـــدٌ مِنهَا لُبَانَتَهُ   وَلاَ انْتَهَى أَرَبٌ إلاَّ إلى أرَبِ

---

(١) « النبع » ، شجر صلب تصنع منه القسى و « الغرب » ، شجر ضعيف العيدان .
(٢) و « الخرب » ، طائر من لا يصيد ، وهو ذكر الحبارى .

تَخَالَفَ الناسُ حَتَّى لاَ اتِّفَاقَ لَهُمْ إلاّ عَلَى شَجَبٍ، والُخلفُ فى الشَّجَبِ
فَقِيلَ : تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً ، وقيل : تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فى العَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ أَقَامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ والتَّعَبِ

وأعدْ قراءةَ الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وتدبَّر نفس أبى الطيب فيها ، فهو يكاد ينقطع ويسقط من العجز و التعب والفكر فى الذى أصابه بموت حبيبته خولة . فإذا أردت أن تعرف تمامَ حالة أبى الطيب هذه ، وامتدادَ فكره فيها ، فاقرأ قصيدته التى قالها حين توفِّيتَ عمةُ عَضُدِ الدولة بن بُويه فى سنة ٣٥٤ ، قُبَيْلَ موت أبى الطيب بقليل والتى يقول فيها :

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ ما لاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ! !

. . . .

لَوْ فَكَّرَ (العَاشِقِ) فى مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِى يَسْبِيهِ ، لَمْ يَسْبِهِ

وبقى كثيرٌ من الإشارات إلى هذا الذى فى قلبه ، طَوَيناه حتّى يأتىَ أجلُه ، والله المستعان .

---

(١) « الشجب » : الهلاك ، يريد الموت .

يَارَجَاءَ العُيُونِ فى كُلِّ أَرْضٍ
لَمْ يَكُنْ ، غيرَأَنْ أَرَاكَ،رَجَائى
وَلَقَدْ أَفْنَتِ المَفَاوِزُ خَيْلِى ،
قبْلَأَنْ نَلْتَقِى ، وزَادِى،ومَائِى
فَارْمِ بِى حَيْثُ شِئْتَ مِنِّى، فَإِنى
أَسَدُ القَلْبِ آدَمِىُّ الرُّوَاءِ
وَفُؤَادِى مِنَ المُلوكِ ، وإِن كَا
نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

قد ذكر الرُّواةُ فى موضع القول من فراق أبى الطيب حضرةَ سيف الدولة أسباباً موجبة لهذا الفراق ، كالذى يروُون من أنه كان بحضرة سيف الدولة ، وفى المجلس أبو الطّيب اللغوى ، وابن خَالويه النحوى ، وجرت مسألة فى اللُّغة بين أبى الطيب اللغوى وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبى ، وضَعَّف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه (من كُمِّه مفتاحاً من حديد) يشير به إلى المتنبى ، فقال له المتنبى : وَيْحك ! اسكت ، فإنك أعجمىٌّ ، وأصلك خُوزىٌّ ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وَجْهَ المتنبى بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبى من ذلك ، ولا سيما إذْ لم ينتصرْ له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحدَ أسباب مفارقته لسيف الدولة = وكالذى يروون من كَيْد أبى فراس له عند سيف الدولة بمثل قوله له : « إنَّ

هذا المتشدِّق (يعنى المتنبى) كثيرُ الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرِّق مئتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره !! فتأثر سيفُ الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » ، فأعرض عن أبى الطيب لذلك .

فهذه الروايات وغيرها ، كما حدثناك قبل ، [1] هى من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، ولكنا نستفيد منها على علاتها ، ونأخذ منها وندع ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه إن شاء الله .

والرأىُ عندنا أن فراق أبى الطيب لسيف الدولة مشكلة معقدة يطول تفسيرها وتبيانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف . ومختصره أن هذا الفراق كان لأسباب قد اقتضاها حبّ أبى الطيب خولةَ أخت سيف الدولة ، وبقى أبو الطيب فى جوار صاحبه وحبيبته يتلذّع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوام مُجَرَّمة ، وهو على عِدَة من سيف الدولة أن يحقق آمال فكره السياسية ، وأمانىّ قلبه وعواطفه بزواج خولة ، ثم أدركه اليأس ، وظن أن فى الفراق راحةً له ونسياناً ، وهو ما أشار إليه فى قوله ، على ما فسرناه به : [2]

« وأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شىءٍ فى طِبَاعِك ضِدُّهُ »

وقد حمله على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قَوْمٍ)

---

(١) ص : ١٩٥ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٤٤ .

حولة ، كأبى فراس وأبى العشائر وغيرهما ، وما فعلوه من تحريض الأدباء عليه ، كابن خالويه ، وإغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم ، فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله :

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّاد عَنِّى بِكَبْتِهِم ، فَأَنْتَ الَّذى صَيَّرْتَهُم لِىَ حُسَّدَا
(إِذَا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمُ ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدَا)
(وَمَا أَنَا إِلاَّ سَمْهَرِىٌّ حَمَلْتَهُ ، فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً ، ورَاعَ مُسَدَّدَا)
وَمَا الدهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِى ، إِذَا قُلْتُ شعراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فسارَ بِهِ ، مَنْ لاَ يسيرُ ، مشمِّراً ، وغَنَّى به ، منْ لاَ يُغَنِّى ، مُغَرِّدَا
(أَجِزْنِى إِذا أُنْشِدْتَ شِعْراً ، فإنمَا بِشِعْرِى أتاكَ المَادِحُونَ مُرَدَّدَا)
(ودَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِى ، فَإِنَّنِى أَنَا الطائِرُ المَحْكِىُّ والآخَرُ الصَّدَى)

وقوله أيضاً فى ذلك :

أَفِى كُلِّ يَوْم تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ[1]

. . . .

وقد بيَّن فى هذه الأبيات أيضاً عن وِشايات وسعايات كانَ يُكاد بها لدى سيف الدولة من الطعن فى نسبه ، والتشهير به فى خلقه وضميره :

أَنَا السَّابِقُ الهَادِى إِلَى مَا أَقُولُه ، إِذِ القَوْلُ قَبْلَ القَائِلِينَ مَقُولُ
(وَمَا لِكَلاَمِ النَّاس فِيمَا يَرِيبُنِى أُصُولٌ ، وَلاَ لِلقَائِلِيه أُصُولُ)
أُعادَى عَلَى مَا يُوجِب الحُبَّ لِلفتى ، وَأَهْدأُ وَالأفكارُ فِىَّ تَجُولُ

---

(١) « الضبن » ، ما بين الإبط والكشح فى الإنسان .

سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ ، فإنه ... إذَ حَلَّ فِي قلبٍ فليْس يَحُولُ
وَلاَتَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فى مَوَدَّةٍ ... وَإنْ كُنْتَ تُبْدِيها لَهُ وتُنيلُ
وَإِنّا لَنَلْقَى الحَادِثاتِ بأنفسٍ ... كثيرُ الرَّزايا عِنْدَهُنَّ قَليلُ
يَهُون عَلينا أنْ تُصَابَ جُسُومُنا ... وَتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لنَا وعُقُولُ)

وقد كان يتولى أمر هذا الكيد كله أبو فراس الحمدانى ، وعندنا أن المنافسة فى الشعر لم تكن هى السبب ، وإنما كانت (خولة) السببَ الأكبرَ الذى جلب عليه كيد أبى فراس ، ثم أبى العشائر ، مع أنَّه هو الذى قدمه إلى سيف الدولة وقرَّ به إليه على ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أَغْرَى أبو العشائر غلمانه بقتله ، وقد رأيت قَبْل أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حبه لأبى العشائر ولا ضعُف . وهذا لأنَّ الأمر لم يكن منافسةً فى شعرٍ أو غيره ، وإنما كان غيرة من أبى العشائر على بعض حُرَمه ، وأبو الطيب ، كما حدَّثناك فى مواضع ، كان يضع (الرجولة) وتوابعها فى المنزلة الأولى ، ويحبُّ من عدوه أن يستمسك بعُرْوتها ، فلذلك لم يَحْقِد على أبى العشائر حين أخذته الغيرة على حُرَمه ، بل ازداد تعطُّفاً عليه وتلطُّفاً له ، على تكبُّره وتعاليه وعتوِّه ، حتى قال له :

(ونَفْسِى لَهُ ، نَفْسِى الفِداءُ لنَفْسِه ، ... ولكنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ)
فَإِنْ كَانَ يَبْغِى قَتْلَهَا ، يَكُ قاتلاً ... بكَفَّيْه ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

وبهذا يصبح لفراق أبى الطيب لسيف الدولة معنًى يُعقل ويعتمد عليه ويعتدُّ به ، ثم تتسق حالته النفسية الظاهرة فى شعره ، وتتساوق معانى ديوانه متدرجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها من الكيد والعدوان ، وما مُنِيتْ به من حُرقة الحب ، ولوعة الحرمان .

* * *

خرج أبو الطيب من حَلَبَ حيث كان سيف الدولة ، قاصداً دمشق ، وقد احتال لذلك حتى تمّ له الفراق قبل أن تدركه مكايد أبى فراس وأصحابه ، وذلك فى أواسط سنة ٣٤٦ ، وكان يَحْمِل بين جنبيه قلباً ممزقاً قد اعتورته السّهام ، أو كما قال :

رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حَتَّى   فُؤَادِى فِى غِشاءٍ مِن نِبالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِى سِهامٌ   تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهانَ . . . فَمَا أُبالِى بالرَّزَايا ،   لِأَنِّى مَا انْتَفَعْتُ بأَنْ أُبالِى

فَهُوَ قد أُصيب فى آماله السياسية ، وأُصيب فى هَوَى قلبه ، وأصيب فى محبة سيف الدولة ، وما كان يضمر له من الإخلاص والتوقير والودّ ، فانطوى على ما به ، محزوناً ضجراً ملولاً ، يتبرّم بالدنيا ويَضِيق بها وبأهلها ذرعاً . فلما وافى دمشق ودخلها ، كان بها رجل يهوديٌّ من قبل كافور ، كان أبو الطيب يستثقل ظِلَّه على قلبه ، وكان قد لقيه قبل فى سنة ٣٢٧ حين نزل على صاحبه أبى علىّ (هرون بن عبد العزيز الأوراجىّ) الكاتب ، فسوّلت نفس هذا اليهودى لإرادته ورغبته أنْ يحمل أبا الطيّب على أن يمدحه بعد أن مدح أميرَ الأمراء سيف الدولة ، وتقذّر أبو الطيب هذا اليهوديَّ وغَثِيت به نفسه ، فسكنها بالإعراض عنه وازدرائه والتهاون به ، فغضب اليهودى (ابن ملك) غضبة يهوديةً ، حتى إذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته فى طلب أبى الطيب أن يقدم عليه ، فعلها ابن ملك ، وكتب إلى كافور أن أبا الطيب قال : « لا أقصدُ العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدى إلاّ ابنُ سيِّده » . ثم ضاقت دمشق بأبى الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الأميرَ أبا محمد الحسن ابن عبيد الله بن طغج بالرَّملة الذى مدحه فى سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، فاستقبله

وأنزله مُنزَلاً كريماً ، وحمل إليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمله على فرس بموكب ثقيل ، وقلّده سيفاً محلًّى ، جزاءً لما كان مدحه به أولاً ووفاءً بالصُّحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لأصحابه : «أَتُرَوْنَه يبلغ الرملة ولا يأتينا ! ! » . وبلغ ذلك أبا الطيب ، وأنَّ كافوراً يجد عليه فى نفسه : أن يَقْصِد عُمَّاله (كابن طُغْج) ولا يقصده ، وأتت ابنَ طُغْج كُتُب كافور فى طلب أبى الطيب ، وكان ابن طغج ، فيما نرى ، رجلاً بصيراً داهية مترفقاً حُلْوَ اللسان مُطاع الرَّغبة ، فأخذ يراود أبا الطيب ، وأبو الطيب يتعسَّر عليه ويضيق بطلبه ، لِما تحملُ نفسه من الضَّجر والتبرم . وبعد لأْيٍ ما ظفر به الأمير ابن طُغْجٍ وحمله على المسير إلى كافور . فلما قدم عليه ، أمر له بمنزل ووَكل به جماعةً ، وأظهر التُّهَمَةَ له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتَّى أحرجه بكرمه ، فلم يجد أبو الطيب الذى يقول :

« وَمَنْ وَجَد الإِحْسَانَ قَيْداً تقيَّدَا »

... لم يَجِد بُدًّا من أن يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصىّ ، علّه يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزَّى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور ، فرَمت فى وجه كافور بأبياتها لا أبيات أبى الطيب :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموتَ شَافِيَا ... وحَسْبُ المَنايا أنْ يَكُنَّ أمانيَا

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيتَ أنْ تَرَى ... صَدِيقاً فأَعْيَا ، أو عَدُوًّا مُدَاجِيَا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه إقذاع وفحش وسخرية وتهكّم . وبقى أبو الطيب بعد ذلك بمصر يحتال لأمره ، ولا يزال

ينفث فى كل شعر ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظِلاً من الحزن والفجيعة والحسرة واليأس ، ولكنه كان مع ذلك يجتهد فى أن يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ، ليجرِّب نفسه بعد أن أخفق فى عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديَّان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد) ، وكانا يُريدانِه على أن يصحبهما إلى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبىّ ، فأبَى عليهما وخالفهما ، فذلك حيث يقول أبو الطيب ، يذكر ما كان من أمره وأمرهما ، ويعرّض بحاجة نفسه لكافور :

وَفى النَّفْس حَاجَاتٌ ، وفيكَ فَطَانَةٌ ، سُكوتى بَيانٌ عِنْدَها وخِطابُ
وَمَا أنَا بالبَاغى عَلَى الُحبِّ رِشْوَةً ، ضَعيفٌ هَوًى يُبْغَى عَلَيهِ ثَوابُ
(وَمَا شِئْتُ إلاَّ أن أدُلَّ عَواذِلى عَلَى أنَّ رأيِى فى هَواكَ صَوابُ)
(وأُعْلِمُ قوماً خَالفُونى ، فَشَرَّقوا وغرَّبتُ ، أنّى قد ظَفِرْتُ وخَابُوا)[1]

. . . .

(إذَا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فالمال هينٌ وكلُّ الذى فَوْقَ التُّراب تُرابُ)
وَما كُنْتُ ـ لَولا أنت ـ إلاَّ مُهاجِراً لهُ كُلَّ يَومٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ)

ولم يكن أبو الطيب يؤمّل من كافور ماله أو عطاياه أو هداياه ، فقد كان غنيًّا بما أعطاه سيف الدولة ، أو ما ادخره من عطائه وإقطاعه الذى كان له بالشام ،[2] بل كان يريد أن يَلِىَ بعض بلاد الصعيد ، أو صَيْداء كما ذكروا ،

(١) يعنى بالتشريق ذهاب صاحبيه إلى العراق قاصدين المهلبى ، والتغريب مقدمه هو على مصر ليمدح كافورا .

(٢) يذكرون أن سيف الدولة تقدم إلى (ديوان البر) بإخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المتنبى فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار فى مدة (أربع سنين) .

وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التى تترامى إلى غاياتها التى قدمناها قبلُ . وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمَتْ نفسُك إلى النُّبوة ، فإن أصبت ولايةً وصار لك أتباعٌ فمن يطيقك» ؟ . وهذا من كلام الرُّواة وحسب . . . . والذى نراه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يُضْمِر له حبًّا ولا كرامة ، بل كان يزدريه فى نفسه ، وحسبه ما لطمه به فى أول لقاء كما مرَّ بك، وحسبه ما كان يذكر فى مدحه له من الحنين إلى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله :

أَرَى لِى بقُرْبِى مِنْكَ عَيْناً قَرِيرةً   وإنْ كان قُرْباً بالبِعَادِ يُشابُ

وأبينُ تعريضاً وأبلغ إفصاحاً عن حقارة هذا الأسود فى نفس أبى الطيب ما يقول له فى أول مديحه :

أُغالِبُ فيكَ الشَّوقَ ، والشَّوْقُ أغلبُ ،
وأعْجَبُ من ذَا الهجرِ ، والوَصْلُ أعجبُ

والضمير فى قوله (فيك) يرجع إلى سيف الدولة ، ويُريد بالهجر مفارقته سيف الدولة ، وبالوصل مقدمه على كافور، ثم يزيد فيقول بعد :

أَمَا (تغْلَطُ) الأيامُ فِىَّ بأنْ أَرَى   (بَغيضاً) تُنائِى ، أو (حبيباً) تُقرِّبُ
وللهِ سَيْرِى ، مَا أَقلَّ تَئِيَّـــةً   عشيةَ شَرْقىَّ الحدَالَى وغُرَّبُ[1]
عَشِيَّةَ أَحْفَى الناسِ بِى(مَن جَفَوْتُهُ)   وأهْدَى (الطَّرِيقَينِ) الّتِى أتجَنَّبُ

---

(١) « التئية » التأنى والتوقف . « الحدالى » ، موضع بالشام . ، «غرب»، جبل هناك.

فانظر إلى نفس أبى الطيب فى شعره ، ودقة بيانه بقوله : (أمَا تَغْلَط الأيّام) ، وهذا التصريح الذى وضعناه بين الأقواس يريد به سيفَ الدولة وكافوراً ، أفتظنُّ أن هذا كان مما يخفى على (الأستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم ؟ وهل كان يخفى على كافور ما سَخِر أبو الطيب به فى شعره من ذكر سَوَاده والتعريض به ، وجعله من مادَّة مدحِه له ، والإتيان فى ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدل على تمكن الأصول البيانية فى لسان أبى الطيب وقلبه؟ انظر إلى قوله وهو يهنّئ كافوراً ببناء الدار التى أقامها بإزاء الجامع الأعلى على البركة :

نَزَلَتْ ، إذْ نزلْتَها الدَّارُ ، فى أحْسَـــن منها ، مِنَ السَّنَى والسَّنَاء

وهذا لا بأس به ، ولكن تَدبَّر التهكم العجيب فى هذه الأبيات ، وذِكرَ المستحيلات التى لا تقع ولا تكون ولا تُتَوهم ، إذ جَعَله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء .... !!

تَفْضَحُ الشَّمسَ - كُلَّما ذَرَّتِ الشمـــسُ - بِشَمْسٍ مُنِيرةٍ (سَوْدَاء)
إنَّ فى ثوْبِك - الّذِى المجدُ فيه - لَضِياءً يُزْرِى بكُلِّ ضِـــياء

وهذا الضياء هو سواده !! .

إنما (الجِلْدُ) مَلْبَسٌ ، وَابيِضَاضُ الـــنَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ ابيضاضِ القَبَاء[1]
كرمٌ فى شجاعةٍ ، وذكاءٌ فى بهاء ، وقـــدرةٌ فى وفاء
مَنْ لِبيضِ الملوكِ أنْ تُبْدِلَ اللَّوْ نَ (بلَوْنِ الأُسْتَاذ ، والسَّحْنَاء)

---

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هناك من أقبح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الأستاذ والسحناء » .

ثم يجعله بعد ذلك (رَجاءَ العُيُونِ فى كُلِّ أرْضٍ) ، وذلك لأنه عجيبة عن عجائب الدهر . وتدبر كُلَّ شعر الرجل فى مدح كافور تجد أمثال ذلك بيِّناً دالاًّ على نفسه ، وتنبَّهْ لألفاظ الرجل فإنها هى التى كان يطوى تحتها معانى تهكُّمه بكافور كقوله : « يا رجاءَ العيون » ، وتنبَّهْ إلى قلبه المعانى ، وَلَفْتِها عن وجوهها ، كقوله مثلاً :

وما كُنْتَ ممَّن أدْرَكَ المُلْكَ بِالمُنَى، ولكن بأيَّامٍ أَشَبْنَ النَّواصِيَا
(عِدَاكَ تَراهَا فِي البِلاَدِ مَساعِياً ، وأنتَ تَراها فِي السَّماءِ مَرَاقِيَا)

وهذا البيت الأخير تعريض بسقوط همة كافور ،وليس بمدح . وكان حق المعنى أن يكون :

(عِدَاكَ تَرَاهَا فى السَّماءِ مَرَاقِياً وأنْتَ تَرَاها فى البِلادِ مَساعِيا)

وذلك أن الأعداءَ يستعظمون ما كان من تملُّكه البلاد ، وَيَعُدُّونه أمراً عظيماً كالرقىِّ إلى السَّماءِ = وذلك لحسدهم وعداوتهم التى تربو فى صدورهم ، فترمى فى الواقع بالوهم فيتعاظم فى العيون = ولكنّ كافوراً لبُعد همَّته ، لا يراها أمراً عظيماً بل هى مساعٍ فى الأرض لا جَهْدَ فيها إلاّ كجهد المشيِ ... فهذا هو المعنى الذى قلبه أبو الطيب ببيانه القويّ ، ليعرضه مَدْحاً ، وهو ذمٌّ بليغٌ وهجاءٌ نافذ .

فكان كافور يجيد فهم ذلك وينفذ إلى أسراره ، ويبصِّر به إن لم يكن قد أدركه ، فقد كان أبو الطيب وهو بمصر مُلَقًّى بالرزايا ،مقصوداً بالعداوة من أقوام بعينهم كانوا يمهدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والإخلاص، وهم يعملون على إهلاكه . وكان كافور

يتقى ذلك بدهائه وحيلته وخبرته السياسية ، فكان يهادى المعزّ لدين الله الفاطمى صاحب المغرب ويظهرُ ميلَه إليه ، وهو مع ذلك يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وأيضاً ما كان من عداوة الوزير أبى الفضل ابن حنزابَهْ (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن ابن الفرات) ، وكان عالماً فاضلاً له درسٌ يلقيه وهو فى وزارته ، وكان المتنبى لم يمدحه ولا عبأ به ، فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغاً ، حتى إن المتنبى ذكره بعد خروجه من مصر فقال :

وَمَاذا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكاتِ ، ولكنَّه ضَحِكٌ كالبُكَا
بِها (نَبَطِيٌّ) مِنَ أَهْلِ السَّوادِ يُدَرِّسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الفَلاَ !

والنبطى هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالأنساب قائماً عليها ، ألَّف كتباً فى أسماء الرجال والأنساب ، وقصدته العلماء لذلك ، كالحافظ المحدث أبى الحسن الدارقطنى ، قدم عليه من العراق وأقام عنده .

وأقام أبو الطيب بمصر على كُرهٍ ، إلى أن وردَ أبو شجاع فاتك غلامُ الإخشيد (محمد بن طُغْج) من الفيوم فلقيه المتنبى بالميدان على رِقْبةٍ من كافور. وكان فاتك عند مَقْدَمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار ، فأنشده قصيدته التى أولها :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهاَ وَلاَ مالُ ، فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

وقال له فيها يذكر ما كان منه :

(وَمَا شكَرْتُ لأن المَال فَرَّحَنى ، سِيَّان عِنْدِىَ إكْثارٌ وإقْلالُ)
لٰكِنْ رَأَيتُ قبيحاً أن يُجادَ لنا ، وأَنّنا بقَضَاء الحَقِّ بُخَّالُ

لَطُفَتْ رأيكَ في بِرِّي وتَكرمتي ، إنَّ الكريمَ على العلياءِ يَحتالُ
وَقد أطال ثنائي طُولُ لابسهِ ، إنَّ الثَّناءَ على التِّنبالِ تِنبالُ

يشير بالتنبال إلى كافور ، . . . ثم يزفر المتنبي زفرته من جوف قلبه :

لَوْلا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهُم ، الجودُ يُفقِرُ ، والإقْدامُ قتَّالُ
وَإنما يَبلغُ الإنسانُ طاقَتَهُ . . ، مَا كُلُّ ماشيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلالُ
إنَّا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القبيحِ بهِ مِن أكْثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ
ذِكْرُ الفتى عُمْرُه الثَّاني ،وحَاجَتُهُ مَاقَاتَهُ . . ، وفُضُولُ العَيْشِ أشْغالُ

وكذلك كان أبو الطيب قد يئس من بقائه في مصر ، وبَرِم بالمال وأصحاب المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعدَّ له العدة ، واعتمد على الهرب بحيلته ودهائه قبل أن يُدْرِكه كافور الذي أرصد له الرُّقباءَ وبثَّ عليه العيون . وانتهز هذا الداهية الخبير البصير الفرصةَ في العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠ = وكان رَسْم كافور أن يستقبل العيدَ بيومٍ ، (هو يوم الوقفة الآن) ، وتُعَدُّ فيه الخلع والحُمْلانات والهدايا وأنواع المبارّ لرابطة جُنْده ، وراتبة جيشه ، وصبيحةَ العيد تُفرَّق ، وثاني اليوم يذكر له من قَبِل ، ومن رَدَّ واستزاد = فاهتبل المتنبي غفلةَ كافور واشتغاله بالعيد ، ودفن رِماحه بَرًّا ، وسار ليلته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيراً وسُرًى . وقطع في هذه الليلة مسافة أيام حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، إلى أن جَازه على الحِلَل والأحياء والمفاوز والجاهيل والمناهل والأواجن . . فلما بلغ كافوراً الخبرُ ، بذل في طلبه ذخائر الرغائب ، وكتب إلى عمّاله في سائر أعماله ولكن... يقول المتنبي :

فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَليلَ صَدْري بِسَيْرٍ ، أو قَنَاةٍ ، أو حُسام
وَضَاقتْ خُطَّةٌ فخلَصْتُ منها خَلاصَ الخمرِ مِن نَسْجِ الفِدَامِ

فَلَمَّا أَنَخْنَا ، رَكَزْنَا الرِّمَا
حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالعُلَى
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسيافَنَا
وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِماءِ العِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، ومَنْ بِالعِراقِ ،
وَمَنْ بالعَواصِمِ — أَنِّى الفَتَى
وَأَنِّى وَفَيْتُ . وأنِّى أَبَيْتُ ،
وأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ قَوْلاً وَفَى ،
ولاَ كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى

خرج أبو الطيب من مصر ، وقد اجتواها ، وبُغِّضت إليه هذه الحياة الفاسدة التى بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتى وَصَفها فى قصيدته حين مرض بالحمى وهو بمصر فقال ... :

(وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ)
(وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ)
يُحِبُّ العَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِى ، وَحُبُّ الجَاهِلِينَ عَلَى الوَسَامِ

(وآنَفُ مِنْ أخِي لأبِي وأُمِّي إذَا مَا لَمْ أجِدْهُ مِنَ الكِرامِ)
أرَى الأجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيراً على الأوْلَادِ أخْلَاقُ اللِّئَامِ

وتنازعت قلبَ أبى الطيب كلُّ أسباب همه ويأسه ، همُّ الحب ويأسه من اللقاء ، وهمُّ السياسة ويأسه من إدراك المطلب وتحقيق الآمال ، وأثبت كل ذلك فى قصيدته التى قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصّلها على ما رسمنا فيما مضى ... يقول :

عِيدٌ بأيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَاعِيدُ ، بِمَا مَضَى أمْ لِأمْرٍ فيكَ تَجْدِيدُ ؟
أمَّا (الأحِبَّةُ) فالبَيْدَاءُ دُونَهم ، (فَلَيْتَ دُونَكَ بِيداً دُونَهَا بِيدُ)

. . . .

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِن قَلْبِي ولا كَبِدِي شيئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولَا جِيدُ
يَاسَاقِيَيَّ ! أخَمْرٌ فِي كُؤُوسِكُمَا ، أمْ فِي كُؤُوسِكُمَا هَمٌّ وتَسْهِيدُ ؟ !
أصَخْرَةٌ أنا ؟! مَالِي لَا تُحَرِّكُنِي هَذِي المُدامُ ، ولَا هَذِي الأغَارِيدُ !
إذَا أرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا ، و(حَبِيبُ النَّفْسِ) مَفْقُودُ
مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنيا !!. وأعْجَبُهُ أنِّي ـ بِمَا أنَا شَاكٍ مِنْهُ ـ مَحْسُودُ
أمْسَيْتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً ويَداً .. أنَا الغَنِيُّ ، .. وأمْوَالِي المَوَاعِيدُ

ثم يخلص أبو الطيب إلى ذمّ مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمماطلة وما كان من ولاية كافور الأسود الخصىّ عليها ، وما كان يجرى من المكر فيها وفى سياستها ، ثم يهجو كافوراً بأفحش الهجاء ، ثم يذكر همّ نفسه وفراق سيف الدولة وذلك قوله :

أَوْلَى اللِّئَام كُوَيْفِيرٌ بِمَعْذِرَةٍ فى كُلِّ لُؤْمٍ، وبَعْضُ العُذْرِ تفنيدُ
وَذَاكَ أَنَّ (الفُحُولَ البيضَ) عَاجِزَةٌ عن الجميل، فكَيْفَ (الخِصْيَةُ السُّودُ!)

ونحن نقدّم العذر لأبى الطيب فيما ذمّ به مصر، وما ذكر من أخلاقها، فقد كان الرجل منكوباً فى نفسه وآماله، وقلبه وهواه، وزاده القوم كيداً، وأثبت عليه الأسودُ كافورٌ عداوةً باغيةً، وهو الذى أقدمه على مصر بطلبه، وقد أعذر أبو الطيب بمدحه إياه أيًّا كان، بعد أن كان فى جوار أمير العرب سيف الدولة. هذا ... وليس يمنعنا من شهادة الحق - ولو على أنفُسنا - ما يأتى به بعضُ الناس من الغضب الباغى (للقومية)، وقد ذكر أبو الطيب عيوباً لا تزال متأصّلة فى مصر، ولا خير فى الغضب من ذكرها، بل الخير كل الخير فى معرفتها والتنبُّه لها والعمل على إصلاحها. والحقيقة التى لا تجحد أن أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسلُّ مصر ويقتلها من الخلق الفاسد، وقد كشف عنه فى قصائده التى قالها فى هجاء كافور ومدحِ فاتكٍ ورِثائه. وليس أبو الطيب وحده هو الذى عرف ذلك يومئذٍ وأدركه، بل قد عرف ذلك كثيرٌ من أهل عصره، وإذا أنت قرأت التاريخ الذى بين أيدينا، وقفت على ذلك، وعلمت أن الرجل كان بصيراً نافذاً إلى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها. ولا بأس هنا من أن نذكُرَ لكَ أبياتاً قد قالها القاضى التنوخى الكبير، حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً، يقول:

تَرَكْنَا أَرْضَ مِصْرَ لِكُلِّ قَدْمٍ لَه بَاعٌ يُقَصِّر عن ذِرَاعِ
نُفُوسٌ لاَ تَليقُ بِهَا المَعَالى، وأَخْلاَقٌ تَضِيقُ عَنِ المَسَاعِى
أَقَمْتُ بها ... ومِنْ مِحَنِ اللّيالى مُقَامُ الأُسْدِ فى كَهْفِ الضِّبَاعِ

أقُول ، وقد نَأَوْا ، بُعْداً وسُحْقاً ... لِشَرِّ الخلْقِ فى شَرِّ البقـاعِ
وكَمْ خَلَّفْتُ مِنْ كَرَمٍ مَهِينٍ ... بعَرْصَتِها ، ومن عِرْضٍ مُضَاعِ
وأجْسامٍ مُسَمَّنَةٍ شِباعٍ ، ... وأحْسَابٍ مُضَمَّرةٍ جِياعِ
ونَقْصٍ فى أكَابِرِها حَضِيضٍ ، ... وجَهْلٍ فى أصَاغِرِها مُشَاعِ
لَقَدْ نامتْ سَرِيرَتُكُمْ ، وكانت ... فَضِيحَتُكُمْ قِناعاً لِلقِنَاعِ
جَعَلْتُمْ ذَنْبَنا أنَّا سَمِعْنَا ... ، وَما الآذَانُ إلاَّ لِلسَّماعِ

وهذا ليس مما يغضب منْه ، فإن فى التاريخ من أمثال ذلك مالا يدفع ، وقد كانت فى مصر لذلك العهد ، وفى غير مصر ، أخلاق فاسدة هى التى عَصَفَت بالمجد العربىّ وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم ، حتى صرنا إلى مانحن فيه الآن . فهذا الغضبُ التاريخىُّ لا محلَّ له ولا وجه ، إلاّ القصور فى معرفة التاريخ . هذا . . . وليس بمنكر أن تكون هناك فضائل أُخرى تُلَطِّف هذه العيوب وتخفّف منها ، فتُنسى فى جانبها ، وتخفى صُورتها فى ظلّها .

... سار أبو الطيب يَطْوِى الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله هارباً من كافور وما أتبعه من الطَّلَبِ ، وقطع فى سيره الفلاة ما بين مصر وطور سيناء خائفاً يترقَّب ، وتراءت له أيامه كلها بأهوائها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعَلَت أمواجُها ، وأدركته رجولته وفتُوَّته ، حين لَفَحته هَبَّات الهجير وقد نَصَب لها حُرَّ وجهه ، وتنسَّم من سمائها التى اعتادها فى أول أيامه قبل أن يستنيم إلى بعض الدعة ، ويركن إلى غفلات الراحة ، وكذلك غَلَبَ ما كان به من اليأس والضَّجَر ، ومدَّ ذراعيه يَسْتَمْسك بالحياة ، يَبْغى الظَّفر وتحقيق الأمل . ومن هنا قال فى قصيدته التى

ذكر فيها رحلته عند وروده إلى الكوفة ... يصف النُّوق التى نجا على ظهرها :

ولٰكنّهنّ (حِبَالُ الحيَاةِ) ، و(كَيْدُ العُداةِ)،و(مَيْطُ الأذَى)
ضَرَبتُ بها التّيه ضَرْبَ القِما رِ ، إمَّا لهٰذا وإمَّا لِذَا
إذَا فَزِعَتْ قَدَّمَتْها الجِيادُ ، وبِيضُ السُّيوفِ ، وسُمْرُ القَنَا

. . . .

وَقُلْنَا لَهَا : أين أَرْضُ العِرَاق ؟ فقالتْ ـ ونَحْن بِتُرْبَانَ ـ : هَا

ولم يكن أبو الطيب فى مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يَقْصِده ، بل كان متردِّداً بين أن يقصد المدينة ويقيم بها ، أو يقطع فى رحلته الفلاة إلى نجد ، أو ينحدر إلى العراق ولعله كان يتلقَّف الأخبار وهو فى طريقه ، حتى يرى رأْيه فى قصده ، ويتَّقِى شرَّ الكيد الذى كان يكاد به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تَقَحُّمه على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم ، والظاهر[1] من شعر أبى الطيب أنه ، لأمرٍ ما ، اعتمد الرحلة إلى الكوفة ودخولها . وقد رأيت قَبْلُ فى خبر موت جَدَّته أنَّه حين أراد دُخول الكوفة ليراها ، منعه العلويُّون ، فيما ذهبنا إليه ، وحملوه على مفارقة جِوارها إلى بغداد ، فكان من جَرَّاء ذلك ما استعلن فى قصيدته التى يرثى بها جدَّته ، من الحِدَّة والتهوُّر

(١) قد حاولنا أن نهتدى فى ظلام التاريخ إلى وجه من الرأى فلا نقرر الآن شيئاً ، فإن ذلك يقتضى التنقيب فى تاريخ العلويين خاصة فى ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التى بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فإذا تم لنا شىء من السند التاريخى فحينئذ نقدم على القطع برأى من أمر مدخله الكوفة ، هذا على أن فى أيدينا أشياء ولكنها لا تكفى فى الدلالة على الوجه الصحيح .

والثورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والضيم ، فكان مما قال :

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامتين بيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى (لِآنفُهِمْ رَغْمَا)
تَغَرَّب لاَ مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِه ، وَلاَ قَابلاً إلاَّ لِخَالقِهِ حُكْمَا
وَلَكِنَّنِى مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ ، وَمُرْتَكِبٌ فى كُلِّ حالٍ بِهِ الغَشْمَا
وَجَاعِلُه يَوْمَ اللِّقَاء تَحِيَّتِى ، وَإلاَّ فَلَسْتُ (السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا)
(إذَا فلَّ عَزْمِى عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِه، فَأَبْعَدُ شَىْءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا)
وَإنِّى لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُم بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا
(كَذَا أَنَا يادُنيا، إذَا شِئْتِ فاذْهَبِى، وَيَا نَفْسُ ، زِيدِى فى كَرَائِهِهَا قُدْمَا)
(فَلاَ عَبَرَتْ بِى سَاعَةٌ لاَ تُعِزُّنِى ، ولاَ صَحِبَتْنِى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

وقد قُلْنَا ثَمَّ أنه أراد بالشامتين الذين كان لأنوفهم (رغما) ـ العلويين ، وأنه أنذر وأوعد وهدد يريدهمْ بذلك ، لما أنزلوهُ من الكيد لهُ حتى خَنِيتْ نِسْبَته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يُسرّ ذلك فى نفسه ، وهو فى كل مرة يلقَى من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيتَ من إرصادهم لقتله بكفر عاقب .

فالآن ، يتمكن أبُو الطيب ـ بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة (من سنة **٣٣٥** إلى سنة **٣٥١**) ـ من دخول الكوفة ، بعدَ أن حِيلَ بينَهُ وبينها فى موتِ جدَّته ، وقد لَقِى فى هذه السنوات من المصائب والأَرْزاء ما فتَّ حيناً فى عضُده ، وما رَمَى فى قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخُلُ الكوفة وقد رَغِمتْ أنوف من مَنَعوهُ عن دخُولها أولاً ، ومن فارَقَ الكوفة وتغرَّب غير قابل لما أرادوهُ عليه من ظلمهم له ... فيقول :

فلمّا أنخنا ركزنا الرّما ح ، بين (مكارمنا) والعُلى

فانظر إلى قوله : (مكارمنا والعلى) ، أتكونُ (مكارمه والعلى) هذه هي السِّقاءَةُ وما إليها ؟ إذ تكذّبَ عليه القوم فزعموا أن أباهُ كان (سقاء بالكوفة يسقي الماء على بعير له) . والعجب أن يذكُرَ أبو الطيب هذه المكارم والعلى وهو مقيم بالكوفة ، التي كان بها من يعرفه من لِداته الذين كان معهم في المكتب وهو صغير . إن يكن ما زعموا ... فتبًّا (لابن السقاء) هذا من شيخ لا يستحي من الله ولا من الناس !! هذا ، وفي الأبيات التي تلي هذا البيت نَفْحَةٌ من نفحاتِ الصدْقِ ، وصورةٌ من قوة العزيمة ، وكَرَم العنصر ، وعِزةُ نفسٍ تتميّز في ألفاظها ، لا قِبَل لكذّاب ولادَعِيّ بأن يجْعلها تترَاءى في كلامه واضحة بيّنةً سَمْحَةً مُسْتَعْلِنَةً ... يقول :

وَ بِتْنا نُقبّـلُ أسْيَافَنَا وَنَمْسَحُها مِنْ دِمَاءِ العِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، ومَن بالعِراقِ ، ومَنْ بالعَوَاصِمِ ، أنِّى الفَتى
(وَأَنِّى وفَيْتُ ، وأنى أَبَيْتُ ، وَأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا)
(وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ قولاً وَفَى ، ولا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى)
(ومَنْ يَكُ قلبٌ كَقَلْبِي لَهُ ، يَشُقُّ إلى العِزِّ قَلْبَ التَّوَى)
(وَلاَ بُدَّ لِلقَلْبِ مِنْ آلَةٍ وَرَأْيٍ يُصَدِّع صُمَّ الصَّفَا)
وكُلُّ طَرِيق أتَاهُ الفتَى ، عَلَى قَدَرِ الرِّجْلِ فِيهِ الخُطَى

وفي قوله : « وَأَنّى وَفَيْتُ » البيتان ، إشارات بينة إلى ما مضى في كلامنا عن نسبه وغيره ، ولا نُطيل بإعادتها هنا مرّة أخرى . وكذلك أرْغَم

أبو الطيب أنوف أعدائه جميعاً ، وأراهم أن عزمه لا يزال ماضياً متقحِّماً لا يُرَدُّ على بعد الشقة وتطاول الأيام ، وأنه قرّب إليه ما كانوا يباعدونه عنه بتهكمهم وسخريتهم به إذ قالوا : « مَا أَنْتَ فى كل بلدة ! ومَا تَبتَغِى ؟ » .. وقد صدق إذ قال :

إذا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ ، فأَبْعَدُ شَيْءٍ ، مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا

* * *

لَمْ يرِدْ فى خبرِ أبى الطيب ومدخله الكوفة فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٥١ شىء يمكن أن يتوجه به التاريخ فى هذه الفترة إلى وجه بعينه . والذى فى رواية الرواة أنه توجه بعدها إلى مدينة السلام (بغداد) ، ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدَثٌ حضره المتنبى ، وذلك أنَّ رجلاً خارجيًا كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بنى كلاب ، واجتمعت إليه فئة من المقاتلة الخوارج ، فانْتَهض إليهم أبو الفوارس دِلِّير بن لَشْكَرَوَرْزَ ، وانصرف هذا الخارجىّ قَبْل وصول دِلِّير إلى الكوفة ، فمدحه أبو الطيب ، وأنشده وهو فى الميدان ، فَحمله على فرسٍ بمركب ذهب . ولسنا نعرف سَبَباً لمدح أبى الطيب هذا الرجل (دِلِّير) ، ولم يرد فى كتب التاريخ التى بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجى الذى ثار بالكوفة فى سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر فى القطع برأيٍ ، والظاهر أن لهذا الرجل (دلير) علاقة بالمشاكل العلوية التى كانت لذلك العهد بالكوفة ، وأنه كان ممن يميلون إلى الجانب الذى فيه سيف الدولة وأبو الطيب ، فإنّ نفْس أبى الطيب ، كما رأيت كانت نفس الرجل المنتصر الظافر الذى خرج من هُوجِ العواصف سالماً غالباً كما مرّ بك فى قوله :

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا حَ بَيْنَ مَكارِمِنا والعُـلَى

أقام أبو الطيب بالكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك إلى بغداد فنزل على صاحب له هو على بن حمزة البصرى[١] وأقام عنده فى داره . وبيّن من نزول أبى الطيب على هذا الفتى دون سواه من رجال الدولة فى ذلك العهد ، أنه قصد بذلك أن يبدى بفعله ازدراءهُ لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد أيضاً أن يكون على مقربة من سياسة الدولة ، ليخبر الرجال الذين كانوا يُوقِدون نار الفتنة إذ ذاك ، وليزنَ ما عندهم . وهذا بيّنٌ مما قدمناه قبل[٢] من المراسلة التى كانت بينه وبين سيف الدولة . وبيّنٌ أيضاً أنه كان متعالَماً عند أهل السياسة فى ذلك العهد أن أبا الطيب كان مَقْدَمهُ من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمىّ (صاحب الرسالة الحاتمية) : أن معز الدولة بن بُوَيه الديلمىّ (ساءَهُ أن يَرِدَ على حضرته رجلٌ صَدَر عن حضرة عدوّه) ، يعنى سيف الدولة .

ثم إنّ أبا الطيب لم يقف أمرُهُ عند ذلك ، بل قد رغب إليه جماعة من أصحاب الوزير المهلبىّ أن يمدح الوزير ، فأبى عليهم أبو الطيب وجبَهَهم بأسوأ الردّ . وكان السبب فى سوء ردّهم أن أبا الطيب ، كما علمت ، لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الأعاجم الذين مزّقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم — ونعنى منهم هنا بنى بويه — وكان المهلبىّ وزير مُعِز الدولة البويهىّ ، وكان مشايعاً لهم فى كثير . وعلى أن مُشايعة الوزير المهلبى لبنى بويه كانت ، فيما نرى ، ارتفاقاً للرزق ، فإن أبا الطيب لم يعبأ به ، بل أغضى عنهُ تهاوناً وازدراء . فأحفظ ذلك الوزير المهلبى فأسد عليه الأدباء والشعراء وأغراهم به ليغيظوهُ ويكيدوا له ، ويغلظوا

---

(١) انظر التعليق فى ص : ٣٩ .
(٢) من ص : ٢٤٨ — ٢٢٣ .

له القول فى مجلسه . فكان مارأيت قبل من هجائهم إياه ، وزعمهم أن أباه كان سقاء بالكوفة ، كما ورد فى الشعر الذى قدمناه فى أول الأبواب .

ولا يفوتنّك هُنَا أن تعلم أن التنوخى الذى روى قِصَّة نسبه كان بالعراق لذلك العهد . وأيضاً أنّ ابن أم شيبان الهاشمى ، وأبا الحسن العلويّ كانا كذلك ببغداد . وقد رأيت فى الباب الأول كلامنا عن هؤلاء وما ادّعوه من أن أباهُ كان سقاء ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبى الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدوّ بنى بويه ، إذ كان من أصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخَذَهم لسره وآرائه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسى ومعز الدولة الدَّيلمى (العلوى الفاطمى) المذهب ، وازدرائِه لوَزِير معز الدولة (أبى محمد المهلبى) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له بإغراء المهلبى وغيره ، نقول : إن هذا كله ممّا يجعلك تستيقن فسادَ الروايات التى يرويها الرواةُ عن أمر المتنبّى ، وخاصّةً ما كان ظاهرَ التحامل ، بيّن الضَّغينة . . . عفا الله عنهم !! لقد رَمَوا الرجل بكلّ نقيصة ، ووضعوا لكل ما كان يتمدَّحُ به فى شعره قصّة تخالف ذلك : رأوا المتنبى يتمدحُ بالكرم ويمدحُ عليه ، فوضعوا القصص فى بخله وشراهته على المالِ ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بهما نَفْسه ، فوضعوا الأكاذيب فى حكايات جُبْنه وخَوَره . . . إلى غير ذلك من الأحاديث التى لا تصلح لتحقيقٍ ولا ترجمة .

* * *

وبقى أبو الطيّب ببغداد مستهيناً بكل كيدٍ وحقدٍ ، وأخذَ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علىِّ بن حمزة البصرىّ . ثم فرغَ من أمره ورجع إلى الكوفة

فى أواسط سنة ٣٥٢ وبقى بها ، ولم يقل شعراً بلغنا ، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلبىّ قد مات .

والظّاهر من أمر أبى الطيب أنّه حين بلغه وهو بالكوفة فى سنة ٣٥٢ موتُ خَوْلة أخت سيف الدولة ، تمزّقَتْ أحْلامه ولم يبق له قلب يمدّه بالقوة والتدافع والثورة ، كالذى كان له من قبل ، واستيأسَ من أمره إلاّ قليلاً . فلما جاءهُ كتاب سيف الدولة فى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ يذكُرُ العوائق التى تمنعه عن فتح العراق ، ويبيِّن له ما هو فيه من الكَرْب والضيق والعُسْر على ما قدمنا فى شرح قوله :(١)

« فهمتُ الكتابَ ، أبَرَّ الكُتُبْ فَسَمْعاً لأَمْرِ أميرِ العَرَبْ »

... أُحيط بأبى الطيّب ، وأسلمت نَفْسه قيادَها لأحزان قَلْبه ، فلم يحمِلْ نَفسه على الرحلة إلى سيف الدولة ، لئلاّ يذكره المكانُ وأهلُهُ ، بمكان قلبِه والسّاكنيه ، نعنى « خولة » ، فأراد أن يَنْسَى همّه بقصد أرض غير الشام التى يتلفّتُ قلبه إليها فى حنين وأنين وبكاء .

وكان أبو الفضل بن العميد ،(٢) وهو بالرىّ ، يخرج كل عام خرجتين إلى إلى أرّجان ، فبلغه مقدمُ المتنبى إلى بغداد ، فراسله ، وعزم عليه فى الحضور إليه بأرّجان . وقد زعموا أنّ ابن العميد « كان يسمع بأخبار أبى الطيب ، وكيفيّة اشتهاره فى الأقطار ، وترفُّعِه عن مدح الوزراء ، فسمع أنهُ خرج من

(١) ص : ٢٢٢ (٢) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمى ، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان ، وكان من أئمة الترسل ، وقد سمى بالجاحظ الثانى ، وكان من دهاة السياسة وتدبير الممالك .

مدينة السلام متوجهاً إلى بلاد فارس ، وكان يخاف أن لا يمدحه ، ويعامله معاملة المهلبي = فيتكره من ذكره ، ويعرض عن سماع شعره » . والصحيح من هذا أن ابن العميد كان يخاف أنّ لا يعبأ به المتنبي ، فراسله وأسبغ عليه من فواضله . فمضى أبو الطيب فى سيره من بغداد إلى أرّجان يصحَبُه تلميذه علىّ ابن حمزة البصرى . قال علىّ هذا : «فلما أشرف عليها (أبو الطيب) ، وَجَدها (يعنى أرّجان) ضَيّقةَ البُقْعة والدُّور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال: تركتُ ملوكَ الأرض وهم يتعبّدُون بى ، وقصدتُ ربَّ هذه المَدَرة..؟! فما يكون منه !! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسلَ غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد، فدخل عليه وقال: مولاى أبو الطيّب المتنبي خارج البلد ـ وكان وقت القيلولة ، وهو مضطجع فى دَسْتِه ـ فثار من مَضْجعه ، واستثبته، ثم أمر حاجبه باستقباله فركب واستركب من لقيه فى الطريق ، ففصل عن البلد بجمعٍ كثير فتلقّوه وقَضَوا حقّه وأدخلوه البلد . فدخل على أبى الفضل فقام له من الدَّسْتِ قياماً مستوياً ، وطُرِح له كرسىٌّ عليهِ مِخَدَّةُ دِيباجٍ ، وقال أبو الفضل : كُنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب ... » ، وكان دخول أبى الطيب أرّجان ولِقاؤُه ابنَ العميد فى شهر صفر سنة ٣٥٤ .

كان ابنُ العميد من رجال عصره فى السياسة وتدبير الملك ، ومن شيوخهم فى العلم والفلسفة وما إليهما ، ومن أفذاذ البلغاء والأدباء ، وكان أمةً وحده . فلا عجب أن يحتفل له بيانُ أبى الطيب احتفالاً عظيماً فى أول اللقاء، فيمدحه بقصيدته المشهورة :« بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا» ، والتى يقول فيها يصف ابن العميد :

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرابِ أَنِّى بَعْدَها جالَسْتُ رِسْطَالِيسَ وَالإِسْكَنْدَرَا
وسَمِعتُ بِطْلَيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا
وَلَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ كأَنَّما رَدَّ الإِلَهُ نُفُوسَهُمْ والأَعْصُرَا

وأكرمه ابن العميد واحتفل له ، فبقى عنده المتنبى شهرين أو أشفَّ قليلاً ، وكان المتنبى ، وهو فى جوار ابن العميد ، لا يزال يُعاوده همُّ قلبه ويغلبه اضطرابُ نفسه ، فكان ذلك فى شعره ، ولكنه كان يتماسكُ على الضعف ، ولا يعطى القيادة إلاَّ مقهوراً . وقد وقع ذلك فى قصيدته التى مدح بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد إلى هذا الاضطراب . رَوَوْا أنه لما أنشده :

بادٍ هوَاكَ ، صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرا وبُكَاكَ ، إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أوجَرَى
كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَابْتِسامُكَ صَاحِباً لمَّا رآكَ ،.. وفِى الحَشا مَا لا يُرَى !!

فقال له ابن العميد : يا أبا الطيب ، أتقول : « بادٍ هواك » ثم تقول بعده : « كم غرَّ صَبْرك » ؟ ما أسرع ما نقَضْتَ ما ابتدأت به !! فكان جوابُ أبى الطيب : « تلك حالٌ ، وهذه حالٌ » . وهذا هو ما نقول به ... فإنّ أبا الطيب كان يذكُر « خولة » أحياناً فلا يُخْفِى هوى ، ولا يَرُدُّ دمعاً ، وتنطلقُ عواطفه من عِقال رجولته ، فإذا ما ارتدَّت إليه قُوَّتُه وإرادته ، ردَّ ذلك برجولته وأبدى الصَّبر ، وأظهر الابتسامَ والرضى . وهذه حالةٌ من أحوال الُحبّ الطاغى المسيطر ذى السلطان والغَلَبَة . وظهورُها فى شعر أبى الطيب فى بيتين متعاقبين ينقض معنى أحدهما معنى الآخر ، كما قال ابن العميد ، دليلٌ على أن الرجل كان أخيذاً فى أَسْر الهوى لا يملك نفسه ، ولَا يَجِدُ فى تنَاقض مَعانِى البيتين شيئاً . وذلك لأن هذا التناقض الذى نراه فى معانى شعره يكون عنده اتساقاً فى معانِى

عواطفه وحبه ، وتعبيراً بليغاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه ، ...
فهذا قوله : « تلك حال ، وهذه حال » .

وَانظرْ ... ، فإن الرجُل حينَ ودع ابن العميد قال :

وَمَنْ لِي بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ، قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الوَدَاعِ مِنَ البُعْدِ
(وَألاَّ يَخُصَّ الفقدُ شَيْئاً ، . لِأنَّنِي فَقَدْتُ ، فلمْ أفْقِدْ دُمُوعِي ولاَ وَجْدِي)
تَمَنٍّ يَلَذُّ المُسْتَهَامُ بذِكْرِهِ ، وإن كَانَ لاَ يُغْنِي فَتِيلاً ولاَ يُجْدِي
وَغَيْظٌ على الأيامِ ، كَالنّارِ في الحشَا، ولٰكِنَّهُ غَيْظُ الأَسِيرِ عَلَى القِدِّ

وهذه الإشارة التي في البيت الثاني بقوله : (لأنني فقدتُ ..) ، هي إلى صاحبته « خولة » التي ماتت في سنة ٣٥٢ ، فلم ينسها بل بقي مضطرباً مغلوباً على أمره لا يستطيع الصبر تارةً فتغلبهُ دموعُه ، ويتحاملُ أُخرى بصبره فينطوي على وجده ولوعته ، . . والنارِ التي في حَشاهُ .

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فِى المَغَانِى
بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلٰكِنَّ الفَتَى العَرَبِىَّ فِيهَا
غَرِيبُ الوَجْهِ وَاليَدِ واللِّسَانِ
مَلاَعِبُ جِنَّةٍ ، لو سَارَ فيهـا
سُلَيمانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَـــانِ
إِذَا غَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ فِيهَا
أَجَابَتْهُ أَغانِىُّ القِيَانِ
وَمَنْ بالشِّعْبِ أَحْوَجُ من حَمَامٍ
- إِذَا غَنَّى ونَاحَ - إِلَى البَيَانِ
وَقَدْ يَتَقَارَبُ الوَصْفَانِ جِدًّا
ومَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِــدَانِ

وَرَدَ على أبى الطيب - وهو عند ابن العميد - كتابٌ من عضد الدولة بشيرازَ يستزيره ويطلب منه المسير إليه ، ولم تكن لأبى الطيب رغبةٌ تحملُهُ ، فلم يخفَّ إلى استدعائه . فكلمه ابن العميد فى ذلك فقال له : مالى وللدَّيلم ؟ فقال له : عضد الدولة أفضل مِنِّى ، ويَصِلك بأضعاف ما وصلتُك به . فقال أبو الطيب : إنى مُلَقًّى من هؤلاء الملوك ، أقصدُ الواحد بعد الواحد ، وأملِّكهم شيئاً يبقى بقاءَ النَّيِّرَيْن ، ويُعْطُونَنى عَرَضاً فانياً ... ولى ضَجَرَاتٌ

واختيارات ، فيعوقوننى عن مُرادى ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه!!(١) فكاتب ابنُ العميد عَضُدَ الدولة بهذا الحديث ، فورد الجواب بأنه مُملَّكٌ مرادَه فى المُقام والظَّعن. فسار المتنبى من أرَّجان ، فلمّا كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عَضُد الدولة بأبى عمر الصبَّاغ ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشدهُ ، فقال المتنبى : الناس يَتَناشدون ، فاسمعه . فأخبره أبو عمر أنه رُسِم له ذلك من المجلس العالى . ثم دخل البلد ، فأُنزِل داراً مفروشة ، وأنشد أبا عمر قَصيدته التى قالها فى الكوفة والتى قال فيها :

فلمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّما ... حَ بَيْن مَكَارِمِنا والعُلَى
وبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنا ، ... ونَمْسَحُها من دِماء العِدَى
لِتَعلَم مِصْرُ ، وَمنْ بالعِرَاق ، ... ومَنْ بالعواصِم ، .. أَنِّى الفَتى
(وأَنِّى وَفَيْتُ ، وأَنى أَبَيْتُ ، ... وَأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَن عَتَا)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده هذه الأبيات ، فقال عضد الدولة : « هوناً ... يتهدَّدنا المتنبى !! » :

وبيِّنٌ مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يَحقِر الأعاجم ويبغضهم لما أصابوا به قومه من البلاء ، وكان استعصاؤه على ابن العميد وجداله معه فى الرحلة إلى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسى ، ومن أجل أن هؤلاء ، بنى بويه ، كانوا أعداء صاحبه سيف الدولة = ومن أجل أنهم كانوا من

(١) أعد قراءة هذا النص ، فإنه ملئ بإشارات كثيرة تطابق أكثر الذى قلناه فى هذا الكتاب .

شيعة العلم بين الفاطميين الذين لا يرضى عنهم أبو الطيب ولا سيف الدولة = ومن أجل أنه يعلمُ أن مديحَهُ فيهم سيُبْقِى لهم ذكراً خالداً فى شعره ، وهم له أعداء ، ولكن الرجلَ ، كما علمت قبلُ ، كان مضطرباً قد داخَلَه اليأس واستبدَّ به ، فسار وهو يقول :

وَأَيًّا شِئْتِ يَا طُرُقِى فَكُونى ، أَذَاةً ، أو نَجَاةً ، أو هَلاَكَا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشدهُ كأنه يختبرُ شعره ، لم يصبر المتنبيّ فرماهُ بقوله : « الناس يتناشَدُون ، فاسمعه » ، إذ كان شعرهُ قد سارَ مسير النيّرين الشمس والقمر ، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة ، غضب لنفسه ولعربيته ولشعره ، فاختار من قصائده قصيدةً فيها ذكر ظفره بمراده ، وفَلَجِه على الخصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافورٍ الذى كان عنده قبل أن ينزل على عَضُد الدولة ، لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلةً لإساءة عضد الدولة بإساءةٍ مثلها . ولذلك لما سمع عضد الدولة :

« وأنى وفَيتُ ، وأنّى أَبَيْت ، وأنّى عَتَوْتُ على من عتَا »

عرفَ مرادَ المتنبي فقال : « هوناً ... يتهددنا المتنبى !! » .

وبيّنٌ أنّ هذا اللقاء الأوّل ، وَضع بين أبى الطيّب وعضد الدولة أسباب الحذرِ والاحتراس ، فكان أَحدهما يتملّقُ الآخَر خوف البَغْى والعدوان . ولا شكّ أنّ عضُدَ الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسى أبى الطيّب كثيراً ، وكان يُرْصِدُ عليه العيون والرقباء ...على أن أمرَ أبى الطيّب ، كان

بيِّناً ، فإنه حين حضر سِماط عضد الدولة بعد أيام من مَقْدَمه عليه أنشده قصيدته التي أولها :

مَغَانِي الشِّعْبِ طيباً فى المَغَانِي ... بِمَنْزِلة الرَّبيع مِنَ الزَّمَانِ
ولٰكنّ الفتَى العَرَبِىَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الوَجْه، وَاليَدِ، وَاللِّسَانِ
مَلاَعِبُ جِنَّةٍ، لو سَار فيها ... سُلَيمَانٌ لَسَار بِتَرْجُمانِ

فهذا هجاءٌ بيِّنٌ لأرض فارس وأهلها . فقد زعم أن سُليمان عليه السلام = الذى عُلِّم منطق الجنّ والطير والحشرات والبهائم = لو دَخَل أرْضَهُم لاحتاج إلى ترجمان ، فأخرجَهُمْ بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ! وأنّهُ = من هوانهم على الله ، وقِلّتهم فى الأرض = لم يعلم الله سليمانَ لسانهم ، وليس يخفى هذا على مثل عضد الدولة . ولم يكتف أبو الطيب بذلك ، بل أتبع هذا قوله بعدُ :

إذَا غَنَّى الحمامُ الوُرْقُ فِيها ... أَجَابتْه أَغَانِىُّ القِيَانِ
(وَمَنْ بِالشِّعْب ، أحوجُ مِن حمامٍ ... — إذَا غَنَّى وَنَاحَ — إلى البَيَانِ)

فتمَّم المعنى وأبان مقصده من الأبيات الأولى ، إذ جعلهم أقلَّ منزلةً من الطير فى البيان والإفصاح . ولم يكتف أيضاً بهذا ، بل أراد أن يعلم عَضُدَ الدولة ، أن هذه البلاد ليست مكانه الذى يرتاح إليه ، وليست بالأرض التى تحرِصُ عليه أو يَحرِصُ عليها ، وَأنه غريبٌ عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئاً ، وأنه عربىٌّ ليس بأعجمى يميل إليهم أو يكون له شأنٌ بينهم ، فقال :

وَلٰكنَّ (الفَتَى العَرَبِىَّ) فِيها ... (غَرِيبُ الوجْهِ، واليَدِ، واللِّسَانِ)

فَكُلّ ما قال أبو الطيب فى مديح هذا الديلمى (عضد الدولة) ليس

من قلبه ولا من نفسه . وشعرهُ بيِّنُ الدلالة على أن الرجل كان يقول مُتَكلِّفاً بعد أن أُحرج بمقدمه عليه . وقد فَطَن عضد الدولة إلى كُلّ هذا ، فقد كان أديباً شاعراً جيد القَريحة ، وقال :

« إن المتنبي كان جيِّد شِعْره بالغَرْب » (يعني غرب فارس) ، ويُشير بذلك إلى عدُوِّه سيفِ الدولة خاصةً . وبلغت المتنبي مقالةُ عضد الدولة فقال : « الشعْرُ على قَدْرِ البقاعِ » ... وهذا تصريح بليغ ، ولاشك أن عضد الدولة أُخبر بقول المتنبي هذا .

ولم يكن كل ذلك مما يمنع هذا الملكَ المدبِّر عَضُدَ الدولة الدَّيلمى = الذى وَصَل بدهائه وسياسته وحُسْن تدبيره أن كان أوَّلَ من خُوطب بالمَلِك فى الإسلام ، وأوّلَ من خُطِب لهُ على المنابر بعدَ الخليفة = من أن يكسوَ أباالطيب من نِعْمته ، ويُغرقه بنداهُ وكرمه . فإنهم يروون أنه حين أنشده : « مغانى الشعب ... » ، حمل إليه من أنواع الطِّيب فى الأَردية والأَمنان ، من بين الكافور والعَنْبر والمِسك والعود ، وقاد إليه فرسه الملقب بالمَجروح = وكان قد اشتُرِى له بخمسين ألف شاةٍ = وبدرةً دراهمها عَدْلِية ، ورداءً حَشْوُه ديباجٌ رُومىٌّ مفصَّل ، وعمامةً قُوِّمَتْ بخمسمائة دينار ، ونَصْلاً هنديًّا مرصَّعَ النجاد والجَفْن بالذّهب .

هذا ، ... وقد كان الجمال الطبيعى ، الذى مَسَح الله به بلاد فارس ، مّما أراح نفس أبى الطيب وأزاح همها قليلاً ، فكان شعرُه الذى مدح به عَضُدَ الدولة مقاربًا ليس فيه اضطرابٌ بينٌ ، أو أثرٌ ظاهرٌ من داءِ قلبه ، إلاَّ فى أبيات قلائل . ولم يظْهر فى شعره ذلك ، لأن مُدَّة إقامته هناك كانت قليلة ، فإنه بقى بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الآخر إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤ .

ولكن ظهر همّ أبي الطيب واستعلن، وعادت إليه ذكرى « خولة » وموتها ، وذكر آمالِه ومغامراته وجرأته ، حين توفيت عمّة عضد الدولة ، فرثاها بقصيدة ليس فيها شيء إلا هذه الأبيات :

لا بُدَّ لِلإنْسانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ
يَنْسَى بِها مَا كَانَ مِنْ عُجْبِهِ وَمَا أذَاقَ المَوْتُ من كَرْبِهِ
نَحنُ بَنُو المَوْتَى ، فما بالُنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!
تَبْخَلُ أيدِينا بأَرْواحِنَا عَلَى زَمانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ !!
فَهذِهِ الأرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ، وهذه الأجسامُ مِنْ تُرْبِهِ !!
(لَو فَكَّرَ العَاشِقُ فى مُنْتَهى حُسْنِ الَّذِى يَسْبِيه ، لم يَسْبِهِ)
لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمس فى شَرْقِهِ ، فَشَكَّتِ الأنفُسُ فى غَرْبِهِ
يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ ، مِيتَةَ جَالِينُوسَ فى طِبِّهِ
ورُبَّما زَادَ عَلَى عُمْرِه ، وزَادَ فى الأمْنِ عَلَى سِرْبِهِ
وغايَةُ المُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ ، كَغَايةِ المُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ
فَلاَ قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤادُه يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ

ففى هذه أثر بيّن لتفكُّرِ أبي الطيب فى الموت، بعد الذى لَقِيَ من فقد « خولة » ، كما بيناه فى مواضع .

لاَ بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ
لاَ تَقْلِبُ الْمُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ
نَحْنُ بَنُو الْمَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا
نَعافُ مَالاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!
يَموتُ راعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ
مِيتَةَ جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ
وزَاد فِي الأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ
وَغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سلمه
كغاية الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ
فَلاَ قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ
فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِن رُعْبِهِ

أشرنا قبلُ إلى أن الرجلين (أبا الطيّب وعَضُدَ الدولة) ، كانا يتخادَعان ، وأنهما كانا فى الباطن عدوَّين لا يأمن أحدهما جانب صاحبه ولا غَدْرته ولا سُوءَ المنقلب . ويُبِينُ لك عن هذا أن أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له ، كما رأيت ، لم يستطع القَرار بأرض فارسَ أكثرَ من ثلاثة أشهر ، ولولا ما أشرنا إليه لاستطابَ أبو الطيب المكان الذى وجد فيه غاية الإكرام ، والمالَ الكثير المبذول ، والعَطايا السابغة الكريمة . وهو مع ذلك دليلٌ على أن أبا الطيب ليس من الطمع والحرص على المال بالمنزلة التى يذكرونه بها ،

ويتابعهم عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين . . . . .

وقَضِيَّة هذه العداوة بين أبي الطيب وبني بويه الديلميين قضيةٌ مُعقَّدة طويلة ، ولها في التاريخ الإسلامي والعربي أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا ونجعلها في وجهين قريبين :

فالأول منهما : ماعُرِف عن أبي الطيب من بغضاء الأعاجم على مافصلناه في مواضع .

والآخر : هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية ، والدعوة العلوية ، والدعوة الفاطمية . . وهذه هي أكبر مشاكل التاريخ الإسلامي ، وخاصة في هذ العصر الذي كان المتنبي أحدَ رجاله الأفذاذ .

كان العلويون يريدون إخراج سلطان الخلافة من يد العباسيين إلى أيديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعاة العلويون أن يحزموا أمرهم ، ويجمعوا إليهم رؤوس الدولة فيكونوا من شيعتهم ، وكان من شيعة العلويين ، ممن نذكرهم هنا ، بنو بويه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغلبيون . ثم غلبت على بني بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاملين عليها في المشرق ، واستعصى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بني بويه علويةً أعجمية ، وكانت سياسة بني حمدان علوية عربية . فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة وضَرَّاها وضرَّمها ما كان من استجابة بني بويه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء بني حمدان عليها ومناوأتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بُويه يعلمون أن بني حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الدَّيلمية الأعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية ،

وأنهم يعملون على نقضها . وكان دليلَ ذلك عندهم مناصرةُ بنى حمدان للخلافة العباسية ، مع أنهم من رؤوس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بويه أن هذه المناصرة إنما يرادُ بها إزاحةُ بنى بويه عن مواضعهم من العراق وإبعادهم عن مقر الخلافة .

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته فى اتخاذ العُدّة واستجلاب العَدَد ، وتهيئة أمره لفتح العراق ، على ما ذكرناهُ ، استحرّت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة ، وهو رأس بنى حمدان ، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاء ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهمًّا . وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قبل فى سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان أبو الطيب ، كما علمت ، من المقرّبين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهَبه فى السياسة ، وأن هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حَذِره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقى له (عدواً مداجياً) . وقد كان أبو الطيب ، فيما ذهبنا إليه ، علوياً منكوباً فى نسبه ، فليس بمستنكرٍ أن يُرادَ به ، من قِبَلِ العلويين ، ما أريد به من قَبْلُ وهو بطبرية سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويون عبيدَهم السُّودان ليقتلوه ، فيكون من ذلك أن يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة فى إيذاء الرجل والنيل منه . وأيضاً ما كان الدعاةُ الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولاً ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من « نَسل اليهود » ، كما قدمنا فى خبر نبوته ، إذ قال :

« فَلا تَسْمَعَنّ مِنَ الكَاشِحِينَ وَلاَ تَعْبَأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُود) »

يريدُ (بعجل اليهود) أحد الدعاة الفاطميين . ولعلَّ الذى جعل الفاطميين يكيدون له ، سعاية الأسود الخصى كافور ، فإنه كان قد بذل أموالاً فى طلب المتنبى حين مخرجه من مصر قبل هجائه له ، فلا عجب أن يبذُل أكثر من ذلك بعد أن يبلغه الهجاء المفظع المفزع ، وما فيه من السخرية والتمثيل به كقوله:

يُقَالُ لَهُ : أنْتَ بَدْرُ الدُّجَى (وأسودُ ، . . مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ)

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به ، كقوله :

ألاَ فَتًى يُورِدُ الهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ والتُّهَمُ
فإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِى القلوبَ بها مَنْ دِينُه الدَّهْرُ والتعطيلُ والقِدَمُ
ما أقْدَرَ اللهَ أنْ يُخْزِى خَلِيقَتَهُ ولاَ يُصَدِّقَ قَوْماً فى الذى زَعَمُوا

وقد كان كافور ، كما قدمنا ، على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً ، يخادعهم ويداجيهم معاً ، فليس بعيداً أن يكون هو الذى حمل الفاطميين الذين بالعراق على الإرصاد لأبى الطيّب ، وأن يكون بذل مالاً كثيراً للانتقام منه .

والظَّاهر أن عَضُد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذى يكاد به أبو الطيب ففضّل أن يرفع يده عن دَمِه ، فأغْرَى بعضَ أتباعه بأن يُوقع فى نفس أبى الطيب شَيْئاً من الخوف والرُّعْب ، فيخفَّ أبو الطيب للرحلة عن شِيراز ، ويبتعد عن دياره ليلقى حتفه فى مكانٍ آخر . ولذلك « استأذنه المتنبى فى المسير عن شيراز ليقضِىَ حوائج فى نفسه ثم يعود إليه » . وكان هذا من أبى الطيب ضَرْباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلمّا عزم الرِّحْلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زادهُ كَرامةً ليوقع فى نفسه أنه مُصدِّقُه ، « فأمر أنْ تُخْلَعَ عليه الخلع

الخاصَّة ، وتُعاد صِلَتُهُ بالمال الكثير » . ويقيننا أن أبا الطيب حين وَجَد ذلك ، من إكرام عضد الدولة له ، وكان قد بلغه طرفٌ من أخبار الكَيد الذى يُكادُ به ، عَرَفَ ما يريدُهُ عضد الدولة وما يُرَاد به ، ولذلك أشار فى آخر قصيدة مدحه بها = وهو مفارقٌ لهُ فى أوّل شعبان سنة ٣٥٤ = إشاراتٍ كثيرةً ، منها قوله :

وَمَنْ يَظُنُّ (نَثْر الحَبِّ جُوداً ويَنْصِبُ تَحْتَ ما نَثَر الشِّبَاكَا)

وهذا المَثَل ، هُو مثل لما تراهُ قبل من أمر عضد الدولة . ثم انظُرْ إلى يأسِ أبى الطيب وقد علم أنّه قد أحيط به ، وأنه مقتولٌ لا محالة ... إذ يقول:

« وَأَيًّا شِئْتِ يَا طُرُقِى فَكُونِى، أذاةً ، أو نَجاةً ، أو هَلاَكَا »

. . . . .

« وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فى هَوَاءٍ ، يَعُودُ، ولَمْ يَجِدْ فيه أُمِتَسَاكا»

فلما فصَل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دَيْرِ العَاقُول ـ وهى ضيعة بالعراق ـ اجتَمعَت عليه بنو أسَدٍ وبنو ضَبَّة ، فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محسَّداً . وقد قدمنا لك أنّ سيفَ الدولة كان قد أوقع بعمرو بن حابس من بنى أسدٍ ، وبنى ضَبَّة ، وبنى رياح من بنى تميم ، وذلك فى سنة ٣٢١ ، وقد هجاهم أبو الطيب فى مدحه لسيف الدولة فى تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً فى أن أحنظ عليه هؤلاء القوم من بنى أسدٍ وبنى ضبة . .[1] قال أبو الطيب لسيف الدولة ، وذلك قديماً فى سنة ٣٢١ :

---

(١) انظر ما سلف ص : ٩٣ ـ ٩٦

مَهْلاً أَلاَ لِلّٰهِ ما صَنَع القَنَا فِى «عمرو حَابِ» و «ضبة الأَغْتَام»

يريد عمرو بن حابس من بنى أسد .

لَمَّا تحكَّمت الأسِنَّةُ فيهمُ جارَتْ ، وهُنَّ يَجُرْنَ فى الأَحكامِ
فتركتهم خَلَلَ البيوت كأنَّما غَضِبتْ رُؤُوسهم عَلى الأَجسامِ
أَحْجارُ نَاسٍ فَوْقَ أَرْضٍ من دَمٍ ، ونجومُ بَيْضٍ فى سَمَاء قَتَامِ
وذِرَاعُ كلٍّ أبى فلانٍ كُنْيَةً حالتْ ، فصَاحِبُها أبو الأَيتامِ

وأعلم أن بنى أسدٍ وبنى ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين ، والظاهرُ أنهم كانوا قد انحازوا إلى الأعاجم مخدوعين ، وصاروا بعدُ من شيعة بنى بويه الفاطميين . وليس يبعدُ أن يكون كافور هو الذى أمدَّهم بالمال ليقتلوا الرجل ، وتوسَّط له فى ذلك أصحابُهُ من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين .

هذا هو مختصر القول فى مقتل أبى الطيب فى ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ .
أما ما يروونه من السخف فى حكاية مقتله بسبب القصيدة التى أولها :

مَا أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ وأمَّـــهُ الطُرْطُبَّـهْ
وَإِنَّمـا قُلْتُ مَا قُلْتُ رَحْمةً لاَ مَحَبَّــــــــهْ

... إلى آخر الفحش القبيح الذى ورد بها ، فلنا فى نقده ونقضه وجوه لا نطيل القول بها هنا ، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد وَرَد أن سبب قتله : « أنه لمّا وَرَد على عضد الدولة ومدحه ، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراسٍ مُسْرجةٍ محلاة بالذهب ، ثم دَسَّ له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : « إن سيف الدولة

كان يعطى طَبْعاً ، وعضد الدولة يُعْطى تطبُّعاً » .. فبُلِّغ ذلك إليه ، فغضب . فلما انصرف من أرضه ، جهّز إليه قوماً من بنى ضَبّة فقتلوه ، بعد أن قاتل قتالاً شديداً ثم انهزم ، فقال له غلامه أينَ قولك :

الخيْلُ واللَّيْلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُنِى والسَّيفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ

فقال : قَتَلتنى قَتَلكَ الله ، ثم قاتل حتى قُتِل ... » فمثل هذه الرواية لها تأويل وسياقٌ فيما قدمناه لك .

* * *

ورَحِم الله أبا الطيب إذ يقول :

سُبِقْنَا إلَى الدُّنْيَا ، فَلَوْ عاشَ أَهْلُها مُنِعْنَا بِهـا مِنْ جَيْئَةٍ وذُهُوبِ
تَملَّكَها الآتِى تَملُّكَ سَالِبٍ ، وفَارَقَها المَـاضِى فِرَاقَ سَلِيبِ

وأنت يا أبا الطيب

فَدَتْكَ نُفُوسُ الحاسِدِينَ ، فإنّها مُعَـذَّبةٌ فى حَضْرَةٍ ومَغِيبِ
وَفِى تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِى لَهَا بِضَرِيبِ

٣ شوال سنة ١٣٥٤
٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

فهرس شعر أبي الطيب

هذا الفهرس مبنى على أول بيت مر من القصيدة

---

* * *

أبيات لغير المتنبي

فهرس الأعـــلام

فهرس الأماكن

فهرست الكتاب

من مولده (سنة ٣٠٣)، إلى (سنة ٣١٧)، دخوله بغداد فى (سنة ٣١٩) = فراقه الكوفة إلى الشام فى (سنة ٣٢٠ — ٣٢١) — ثم اعتقاله وحبسه بحمص.

٧٦ — (٥) نبوة المتنبى، وبطلانها (سنة ٣٢١، ٣٢٢).

الروايات التى رويت عن « النبوة » ونقدها ونقد رواتها وبطلان هذه النبوة = أن أمر حبسه فى (سنة ٣٢١) كان من أجل إظهار علويته فى ديار بنى عدى قوم سيف الدولة. إبطال ما ادعوه عليه.

٩٣ — (٦) حبس المتنبى من أجل نسبته العلوية.

لقاؤه سيف الدولة (سنة ٣٢١) برأس العين وعلاقة الفاطميين والعلويين معاً بهذا الحبس. بقاؤه فى السجن إلى (سنة ٣٢٢). ودلالة شعره على أنه لم يحبس لادعاء النبوة، بل لإظهار نسبه العلوى = وتفسير أبيات القصيدة التى كانت سبباً فى إطلاقه، ومدح بها ابن طغج = سبب تلقيب أبى الطيب « المتنبى ». الدليل على أنه بعد خروجه من السجن إلى ما بعد (سنة ٣٣٥)، لم يكن يعرف بهذا اللقب.

١١٧ — (٧) حياته فى الكوفة من (سنة ٣٢٣) إلى (سنة ٣٢٦)

خروجه من السجن، وبقاؤه عند التنوخيين فى اللاذقية قليلا، ثم عودته إلى الكوفة. زواجه بها فى نحو (سنة ٣٢٥) ودليله من شعره. ذكر بعض الدلائل فى رثاء جدته فى (سنة ٣٢٥)، وأثر العلويين فى هذا الرثاء = خروجه إلى الشام مرة أخرى (سنة ٣٢٦).

١٣٤ — (٨) رحلته فى الشام من (سنة ٣٢٦) إلى (سنة ٣٢٧)

معانى شعره وخصائصها فى هذه المدة، وعلاقة ذلك بالعلويين والفاطميين. وذكر بعض من لقيهم ومدحهم فى خلال هذه الرحلة.

لقاء . تفنيد بعض الأخبار التي تروى في بدء صلته بسيف الدولة ، والسياق التاريخي الصحيح لهذا اللقاء . تفسير أول قصيدة مدحه بها ودلالاتها . تفسير شعره في أنطاكية ، وقد دعاه لصحبته إلى حلب . تأخره عن صحبته يومئذ لمرض زوجته ووفاتها . تفسير صلته بسيف الدولة ، وأنها تقوم على الحب والسياسة ، لا على التكسب .

كان من أمر الوزير المهلبي الذى أغرى به الشعراء ، وادعاؤهم أن أباه كان سقاء بالكوفة . رجوعه إلى الكوفة سنة ٣٥٢ ، وبقاؤه بها ، وبلوغه نبأ موت صاحبته « خولة » ، ومراسلة سيف الدولة . شعره فى جواب هذه المراسلة ودلالته . دعوة ابن العميد أبا الطيب واستجابته . نزوله الرى وإكرامه .

بنو بويه علويون فاطميون . أنشد أبا عمر الصباغ الذى استقبله مقصورته التى ذكر فيها دخوله الكوفة مراغماً للعلويين . أثر ذلك فى عضد الدولة . شعره فى مدح عضد الدولة ودلالته . عضد الدولة الديلمى والمتنبي يتخادعان . دلائل فى شعره تدل على أنه كان يحس بعد ذلك أنه مقتول لا محالة .

الدلائل على أن مقتله كان بسبب من بنى بويه والعلويين والفاطميين . صلة مقتله بقوم من بنى أسد وبنى رياح ، الذين أوقع بهم سيف الدولة فى (سنة ٣٢١) برأس العين ، حيث لقيه المتنبي ومدحه قديماً . آخر قصيدة قالها تدل على أنه كان يائساً متوقعاً للهلاك .

* * *

رقم الإيداع ٢٥٢٩ / ١٩٧٦
الترقيم الدولى ــ ٩٧٧ ISBN

مطبعة المـدنى
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

